التراث الصوفي الإسلامي

الرسالة القشيرية

في علم التصوف

تأليف

العلامة العارف بالله أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري

تحقيق وإعداد

معروف زريق و علي عبد الحميد بلطه جي

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤلف الكتاب

هوية المؤلف

اسمه : عبد الكريم القشيري .

نسبه : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد .

كنيته : أبو القاسم .

ألقابه : وهي كثيرة نذكر منها :

١ ـ النيسابوري :

نسبة إلى (نيسابور أو شابور) وهي عاصمة خراسان ، من أعظم المدن الإسلامية ، في القرون الوسطى مع بلخ وهراة ومرو . وهي مسقط رأس عمر الخيام وفريد الدين العطار ، وقد خُرِّبت بالحروب والزلازل ، وقد أقام فيها الأستاذ الشيخ ، وتوفي فيها .

٢ ـ القشيري :

جاء في كتاب الأنساب[١] : أن القشيري نسبة إلى قشير .

وجاء في تاج العروس[٢] : أن قشير هو بطن من سعد العشيرة القحطانية ، وكانوا يقيمون بنواحي حضرموت .

وجاء في معجم قبائل العرب[٣]: أن قشير هو ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن

---

(١) الأنساب ، عبد الكريم السمعاني ، الجزء العاشر . صفحة ١٥٢

(٢) تاج العروس ، مرتضى الزبيدي ، الجزء الثالث. صفحة ٤٩٣ .

(٣) معجم قبائل العرب ، عمر رضا كحالة ، الجزء الثالث ، صفحة ٩٥٤ .

صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان . وفيه عدة أفخاذ . وقد كان القشيريون في طليعة المنضمين إلى الإسلام . وجاءوا خراسان زمن الأمويين ، وقد حاربوا في فتوحات الشام والعراق ، وكان من سلالتهم ولاة في خراسان ونيسابور ، كما دخل بعضهم الأندلس أيام الفتح .

٣ ـ الإستوائي :

أصله من العرب الذين جاءوا خراسان من (أسْتوا) ، وهي بلدة كبيرة بناحية نيسابور ، وكانت كثيرة القرى ، وتتصل حدودها بحدود (نسا) ، وقد خرّجت جماعة من العلماء .

٤ ـ الشافعي :

نسبة إلى المذهب الشافعي الذي أسسه الإمام محمد بن إدريس بن شافع (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) .

٥ ـ ألقاب تكريم :

مثل : (الإمام . الأستاذ الشيخ . زين الإسلام . الجامع بين الشريعة والحقيقة . . إلخ) ، وقد كانت هذه الألقاب تُطلق عليه تكريماً وتقديراً لمكانته العلمية في دنيا الإسلام وعالَم التصوف .

نسب أمه :

كان الأستاذ الشيخ سلمي الأم ، وخاله أبو عقيل السلمي من وجوه دهاقين[1] ناحية استوا ، والنسب السلمي هو أحد شيئين :

١ ـ السُلَمي : نسبة إلى سُليم ، وهي قبيلة عربية مشهورة، نسبها هو : سليم بن منصور بن عكرمة بن خفصة بن عكرمة بن خفصة بن قيس بن عيلان بن نصر .

٢ ـ السَلَمي : نسبه إلى بني سَلَمة ، وهم حي من الأنصار . وهذه النسبة وردت على خلاف القياس .

---

(١) دهاقين ودهاقنة : جمع دُهقان ودِهقان ، وهو رئيس المنطقة ، واللفظة فارسية .

ولادته ووفاته :

سئل الأستاذ الشيخ عن مولده ، فقال : إنه ولد في شهر ربيع الأول ٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م ببلدة استوا .

وقال شجاع الهذلي : توفي الأستاذ الشيخ في نيسابور ، صبيحة الأحد ١٦ ربيع الآخر ٤٦٥ هـ/ ١٧٠٣ م، وقد بلغ من عمره آنئذٍ سبعة وثمانين عاماً .

وقد دفن إلى جانب أستاذه الشيخ أبي علي الدقاق رحمه الله ، ولم يدخل أحد من أهله غرفة كتبه إلاّ بعد سنين احتراماً له .

حياته

بداياته :

لا نعلم عن طفولة الأستاذ الشيخ إلاّ القليل ، ولكننا نعرف أنه كان يتيماً ، فقد توفي أبوه وهو صغير ، فعُهد بأمر تربيته إلى أبي القاسم الأليماني الذي كان صديقاً لأسرة القشيري ، فدرس عليه اللغة العربية والأدب .

وكان رؤساء بلدته وأعيانها يتضايقون من ثقل ضريبة الخراج ، فأراد أن يخفّف عنهم ما يشكون منه ، فرأى أن يذهب إلى نيسابور ، ليتعلم فيها شيئاً من الحساب ، ليتولّى فيما بعد عمل الاستيفاء (وظيفة الجباية) فيحمي بلدته من الخراج الباهظ .

وكانت نيسابور في ذلك الوقت عاصمة خراسان، كما كانت من قبل مركز للعلماء ومهداً للفنون . وصل الأستاذ الشيخ إلى نيسابور ، وهناك تعرّف بالشيخ أبي علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق ، وكان إمام وقته ، فلما سمع كلامه أعجبه . وقد تفرّس الشيخ الدقاق في هذا التلميذ الذكاء والنجابة ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم ، فرجع الأستاذ الشيخ عن الرأي السابق ، وغابت عن ذهنه فكرة تولي الوظيفة الحكومية واختار سبيل الطريقة .

وكان الأستاذ الشيخ يطلق على أبي علي الدقاق لقب الشهيد .

فروسيته :

تفوق الأستاذ الشيخ في ميدان الفروسية ، وعمل في السلاح حتى برع فيه ، وكان يتقن استعمال السلاح إتقاناً رائعاً .

زواجه :

تزوج الأستاذ الشيخ ابنة الأستاذ أبي علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق ، واسمها (فاطمة) .

وكانت ذات منزلة وعلم أدب ، وتُعدُّ من عابدات عصرها ، وقد روت الحديث ، وكان زواجه بها بين عام ٤٠٥ و ٤١٢ هـ/ ١٠١٤ و ١٠٢١ م .

أولاده :

وقد خلّف منها ستة أبناء وبنتاً واحدة ، وكان جميع أبنائه عبادلة ، وهم بالتسلسل : ١ ـ أبو سعد عبد الله ، ٢ ـ أبو سعيد عبد الواحد ، ٣ ـ أبو منصور عبد الرحمن ، ٤ ـ أبو النصر عبد الرحيم ، وهو الذي جرت بينه وبين الحنابلة مناقشات ومجادلات حيث تعصب للأشاعرة وتوفي عام ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م بنيسابور ، ٥ ـ أبو الفتح عبيد الله ، ٦ ـ أبو المظفر عبد المنعم . وأما البنت فهي (أمة الكريم) .

من أحفاده :

نذكر من أحفاده : أبا الأسعد هبة الرحمن بن أبي سعيد بن أبي القاسم القشيري .

حجه :

ذهب الأستاذ الشيخ إلى أداء فريضة الحج ، وكان ذلك برفقة :

١ ـ الشيخ أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني (توفي ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٧ م): من علماء التفسير واللغة والفقه .

٢ ـ الشيخ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ ـ ٤٥٨ هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٦ م) : وهو مؤلف كبير .

٣ ـ جماعة من مشاهير العلماء الأجلاء .

فَرَسُهُ :

يروى من كرامات الأستاذ الشيخ أنه كانت له فرس ، قد أُهديت إليه ، فاستخدمها عشرين سنة ، فلما مات الأستاذ الشيخ حزنت عليه الفرس حزناً شديداً ، وبقيت أسبوعاً لم تأكل فيه شيئاً ، ثم ماتت .

دراسته وتدريسه

أساتذته :

١ ـ أبو علي ـ الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق .

٢ ـ أبو عبد الرحمن ـ محمد بن الحسين بن محمد الأزدي السلمي النيسابوري (٣٢٥ ـ ٤١٢ هـ/ ٩٣٦ ـ ١٠٢١ م) : مؤرخ ومن علماء الصوفية ومؤلف .

٣ ـ أبو بكر ـ محمد بن أبي بكر الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ/ ٩٩٥ ـ ١٠٦٧ م) : وكان الأستاذ الشيخ يدرس عليه الفقه ، وكان ذلك عام ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م .

٤ ـ أبو بكر ـ محمد بن الحسين بن فورك الأنصاري الأصبهاني (المتوفى ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م) : كان إماماً في علم الأصول ، وقد درس الأستاذ الشيخ عليه علم الكلام .

٥ ـ أبو إسحاق ـ إبراهيم بن محمد بن مهران الاسفرائيني (المتوفى ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م) : عالم بالفقه والأصول ، نشأ في اسفرايين ، وقد بُنيت له مدرسة عظيمة في نيسابور فدرّس فيها. من مؤلفاته : (الجامع ، والرسالة) . وله مناظرات مع المعتزلة. وقد درس عليه الأستاذ الشيخ أصول الدين .

٦ ـ أبو العباس بن شريح : درس الأستاذ الشيخ عليه الفقه .

٧ ـ أبو منصور : عبد القاهر بن محمد البغدادي التميمي الأسفراييني (المتوفى ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) : ولد ونشأ في بغداد ، واستقر في نيسابور ، ومات في اسفرايين ، من مؤلفاته : (أصول الدين . تفسير أسماء الله الحسنى . فضائح القدرية . .) . وقد درس الأستاذ الشيخ عليه المذهب الشافعي .

معالمه الدينية :

١ ـ أصول الدين : درس الأستاذ الشيخ أصول الدين حسب مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري في العقيدة.

٢ ـ الفقه : كان فقيهاً شافعياً .

٣ ـ التصوف : كان صوفياً صادقاً في تصوفه ، مخلصاً في دفاعه عن التصوف عامة ، سجل دفاعه عن التصوف في كتابه (الرسالة القشيرية) ، كما كان أشعرياً صادقاً في أشعريته التي يعتبرها معبرة عن الروح الحقيقية للإسلام ، وقد سجل دفاعه عن الأشعرية في كتابه (شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة) .

لقد كان الأستاذ الشيخ متكلماً ، حافظاً محدثاً ، نحوياً لغوياً أديباً ، كاتباً شاعراً ، خطاطاً شجاعاً فارساً ، لكن التصوف غلب عليه واشتهر به .

مجالس الإملاء :

كان الأستاذ الشيخ إمام هذه المجالس ، فقد عقد في بغداد (مجلس الإملاء في الحديث) عام ٤٣٢ هـ/ ١٠٤٠ م، وكان يذيّل أماليه بأبيات من نظمه .

ثم توقف هذا المجلس، غير أنه استأنف نشاطه عند رجوع الأستاذ الشيخ إلى نيسابور عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م .

مجالس التذكير :

كان الأستاذ الشيخ إمام عصره في التذكير ، وكان لكلامه تأثير بالغ في قلوب الناس ، وقد ذكره أبو الحسن علي بن حسن الباخرزي عام ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م وبالغ في الثناء عليه ، وذكر أنه كان يتميز بحسن الموعظة ، فقال : (ولو قرع الصخر بسياط تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلس تذكيره لتاب ، ولو فُصِلَ الخطابُ في فضل منطقه لاستجاب[1]

كما ذكره الخطيب في تاريخه، وقال : قَدِم علينا الأستاذ الشيخ إلى بغداد ، وحدّث فيها وكتبنا عنه ، وكان ثقة ، حسن الوعظ ، مليح الإشارة .

---

(١) تبيين كذب المفتري ، ابن عساكر ، صفحة ٢٧٤ .

وكذلك ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان، وتاج الدين السبكي في طبقات الشافعية.

تلاميذه :

١ ـ أبو بكر ـ أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (٣٩٢ ـ ٤٦٣ هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠٧٢ م).

٢ ـ أبو إبراهيم ـ إسماعيل بن حسين الحسيني (توفي ٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م).

٣ ـ أبو محمد ـ إسماعيل بن أبي القاسم الغازي النيسابوري.

٤ ـ أبو القاسم ـ سليمان بن ناصر بن عمران الأنصاري (توفي ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م).

٥ ـ أبو بكر ـ شاه بن أحمد الشادياخي.

٦ ـ أبو محمد ـ عبد الجبار بن محمد ين أحمد الخواري.

٧ ـ أبو بكر بن عبد الرحمن بن عبد الله البحيري.

٨ ـ أبو محمد ـ عبد الله بن عطاء الابراهيمي الهروي.

٩ ـ أبو عبد الله ـ محمد بن الفضل بن أحمد الفراوي (٤٤١ ـ ٥٣٠ هـ/ ١٠٥٠ ـ ١١٣٦ م).

١٠ ـ عبد الوهاب بن الشاه أبو الفتوح الشادياخي النيسابوري.

١١ ـ أبو علي ـ الفضل بن محمد بن علي القصباني (توفي ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م).

١٢ ـ أبو الفتح ـ محمد بن محمد بن علي الخزيمي.

المحنة التي تعرّض لها :

يظهر أن الشهرة الواسعة التي تمتع بها الأستاذ الإمام في نيسابور قد أثارت الحقد والحسد في نفوس فقهاء هذه المدينة ، فشرعوا يعدّون العدة للحط من قدره والقضاء على شهرته بين الناس ، وذلك بتلفيق الإتهامات وإذاعة الأكاذيب حوله ، وقد نجحوا في مسعاهم ، وحلت بالقشيري محنة شديدة لقي فيها أنواعاً من الآلام والعنت والتشريد كما يخبرنا السبكي[١].

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٦٩ .

وكان أكثر الناقمين عليه من المعتزلة والحنابلة الذين نجحوا في تأليب الحكام السلجوقيين، فاستصدروا أمراً من السلطان بالقبض على القشيري ، وحرمانه من الوعظ ، ولعنه علناً في المساجد .

فتفرق شمل أصحابه ، وانفضّ الناس من حوله ، وأُلغيت مجالس التذكير التي كان يقوم بها الأستاذ الشيخ ، وانتهى به الأمر إلى الخروج من نيسابور طريداً مشرداً ودامت هذه المحنة خمس عشرة سنة ، وذلك من سنة ٤٤٠ هـ إلى سنة ٤٥٥ هـ ، ذهب خلالها إلى بغداد حيث أكرم وفادته الخليفة القائم . وكان يذهب بين فترة وأخرى إلى طوس .

ولما انتهت أيام طغرلبك العصيبة وخلفه عضد الدولة أبو شجاع، عاد القشيري مع زمرة من المهاجرين الخراسانيين إلى نيسابور ، حيث قضى عشر سنوات ، كانت أسعد فترة في حياته وكثر أتباعه ومريدوه .

علاقته بالسلطة

كانت علاقة الأستاذ الشيخ مع السلطان ووزيره جيدة :

١ ـ فقد كان السلطان ألب أرسلان السلجوقي (المتوفى ١٠٧٢ م) : يكرم الأستاذ الشيخ ويحترمه غاية الاحترام وذلك عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م، وقد بقي الأستاذ الشيخ في هذا المركز عشر سنين في آخر عمره مرفهاً محترماً مطاعاً معظماً .

٢ ـ كذلك فقد كان الوزير نظام الملك الحسن بن علي الطوسي (٤٠٨ ـ ٤٨٥ هـ/ ١٠١٨ ـ ١٠٩٢ م) يكرم الأستاذ الشيخ إكراماً منقطع النظير ، وكان مجلس الوزير عامراً بالعلماء والفقهاء وأئمة المسلمين ، وكان إذا دخل عليه القشيري يقوم له إجلالاً .

أدبه وشعره

كان القشيري كما ذكره السبكي لغوياً أديباً كاتباً شاعراً، تعلّم في صغره اللغة العربية والأدب ، وكان شاعراً مجيداً يرتجل الشعر ارتجالاً ، وقد ذكره علي

الباخرزي في (دمية القصر) ، وكتب نبذاً من شعره ، وبالغ في الثناء عليه .

والحق أن تصوّفه غلب على شاعريته ، فلا ترى في شعره إلاّ نظم الطريقة بأسلوب لطيف رائع .

نذكر من ذلك ما جاء في طبقات الشافعية الكبرى[1] من شعره رحمه الله :

يا من تقاصر شكري عن أياديه ... وكَلَّ كل لسان عن معاليه
وجوده لم يزل فرداً بلا شبه ... علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يخلفه ، لا قهر يلحقه ... لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه
لا عد يجمعه ، لا ضد يمنعه ... لا حدّ يقطعه، لا قطر يحويه
لا كون يحصره، لا عين تبصره ... وليس في الوهم معلوم يضاهيه
جلاله أزلي لا زوال له ... وملكه دائم لا شيء يغنيه

وقال أيضاً :

جنّباني المجون يا صاحبيّا ... واتلوا سورة الصلاة عليّا
قد أجبنا لزاجر العقل طوعاً ... وتركنا حديث سلمى وميّا
وفتحنا لموجب الشرع نشراً ... وشرعنا لموجب اللهو طيّا

وقال :

لا تدع خدمة الأكابر واعلم ... أن في عشرة الصغار صَغارا
وابغ من في يمينه لك يمن ... وترى في اليسار منه اليسارا

وقال :

إن نابك الدهر بمكروهه ... فقل : بتهوين تخاويفه
فعن قريب ينجلي همّه ... وتنقضي كل تصاريفه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، الجزء الثالث، صفحة ٢٤٣ .

وقال :

سقى الله وقتاً كنت أخلو بوجهكم ... وثغر الهوى في روضة الأنس ضاحك
أقمنا زماناً والعيون قريرة ... وأصبحت يوماً والجفون سوافك

وقال :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا ... وشهدتَ حين فراقنا التوديعا
أيقنتَ أن من الدموع محدثاً ... وعلمتَ أن من الحديث دموعا

وقال :

إذا ساعدتك الحال فارقب زوالها ... فما هي إلاَّ مثل حلبة أشطر
وإن قصدتك الحادثات ببؤسها ... فوسّع لها صدر التجلد واصبر

مصادر ترجمته

وهي ثلاثة مصادر :

١ ـ أقدم ترجمة نعرفها للأستاذ الشيخ هي التي كتبها علي بن الحسن الباخرزي المتوفى ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م في كتابه (دمية القصر وعصرة أهل العصر) .

٢ ـ سجّل ابن حفيده : عبد الغافر بن إسماعيل ترجمة للأستاذ الشيخ في كتاب (السياق) ، وكان هذا الكتاب هو المرجع لدراسة حياة القشيري من قبل ابن عساكر والسبكي وابن العماد .

٣ ـ كتب المؤرخ أبو بكر ـ أحمد بن علي الخطيب البغدادي (المتوفى ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م) الكثير عن حياة القشيري في كتابه تاريخ بغداد الجزء الثاني صفحة ٨٣ .

٤ ـ ما كتبه الهجويري صاحب كتاب كشف المحجوب ، وكان الهجويري أحد معاصري القشيري .

مؤلفاته

كان الأستاذ الشيخ عالماً في أكثر من علم ، وفوق هذا فقد كان صوفياً كبيراً ، وكاتباً في التصوف وعلوم الإسلام . ولهذا كانت مؤلفاته كثيرة ، وقد رتبناها حسب التسلسل الأبجدي ، وهي :

١ ـ أحكام الشرع .

٢ ـ آداب الصوفية .

٣ ـ الأربعون في الحديث :

عرض فيه الأستاذ الشيخ أربعين حديثاً للرسول ﷺ ، مما سمعه بسند متصل عن شيخه أبي علي الدقاق.

٤ ـ استفاضة المرادات .

٥ ـ بلغة المقاصد في التصوف .

٦ ـ التحبير في التذكير .

٧ ـ ترتيب السلوك في طريق الله تعالى : وهو رسالة.

٨ ـ التوحيد النبوي .

٩ ـ التيسير في علم التفسير :

ويسمى التفسير الكبير : وهو أول كتاب ألّفه الشيخ ، وكان ذلك عام ٤١٠ هـ/١٠١٩ م، قال ابن خلكان وتاج الدين السبكي وجلال الدين السيوطي: إنه من أجود التفاسير وأوضحها.

١٠ ـ الجواهر .

١١ ـ حياة الأرواح ، والدليل إلى طريق الصلاح .

١٢ ـ ديوان شعر .

١٣ ـ الذكر والذاكر .

١٤ ـ الرسالة القشيرية في علم التصوف. ألّفها ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦ م.

١٥ ـ سيرة المشايخ .

١٦ ـ شرح الأسماء الحسنى .

١٧ ـ شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة :

وهي رسالة، سنجّل فيها الأستاذ الشيخ دفاعه عن مذهب الأشاعرة ، حيث يعتبر الأشعرية المعبر الرئيسي عن الروح الحقيقية للإسلام ، وقد حاول فيها رفع أدلتهم التي ألصقها أعداء الأشعري به ، وبيّن أنهم زيّفوا آراء باطلة ونسبوها إليه وهو منها بريء .

كذلك ردّ فيها على المتكلمين الذين جرّحوا مذهب الأشعري في مسائل الصفات الإلهية والجزاء وأفعال الإنسان ومسألة خلق القرآن الكريم .

فكتاب (الرسالة القشيرية) وكتاب (شكاية أهل السنة) يهدفان للانتصار للمذهب الحق في الإسلام الذي يتلاءم مع روحه ومبناه ، وهما وثيقتان تعبّران عن المذهب الوسط الذي أخذ به الأشعري مقابل المذهب التجريدي المتطرف الذي أخذ به المعتزلة ، ومذهب التشبيه المتطرف الذي أخذ به المجسمة .

وهذه الرسالة موجودة في طبقات الشافعية، الجزء الثاني، صفحة ٢٧٥ .
كما طُبعت هذه الرسالة مع رسالة (ترتيب السلوك) ورسالة (أحكام السماع) في كتاب (الرسائل القشيرية). تحقيق الدكتور (فير) محمد حسن . منشورات صيدا - لبنان .

١٨ - عيون الأجوبة في أصول الأسئلة .
١٩ - الفصول في الأصول .
٢٠ - لطائف الإشارات :

وهو تفسير صوفي لآيات مختارة من القرآن الكريم، كتبه على طريقة الحقائق والمعارف ، وهو قريب النزعة من تفسير أبي عبد الرحمن السلمي . وكان تأليفه بعد ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م ، وقد حققه الدكتور إبراهيم بسيوني ، وطبع في القاهرة ١٩٧١ م. عدد صفحاته ٣٦٣ صفحة . قياس الصفحة ٢٨ سم .

٢١ - اللمع في الاعتقاد .
٢٢ - مجالس أبي علي الحسن الدقاق .
٢٣ - المعراج .
٢٤ - المناجاة .

٢٥ ـ منثور الخطاب في شهود الألباب .
٢٦ ـ ناسخ الحديث ومنسوخه .
٢٧ ـ نحو القلوب الصغير .
٢٨ ـ نحو القلوب الكبير .
٢٩ ـ نكت أولي النهىٰ .

دراسات عن القشيري

عثرنا من هذه الدراسات على خمسة نماذج ، وهي :

١ ـ الدكتور (فير) محمد حسن . نشرها في كتاب (الرسائل القشيرية) .

٢ ـ المستشرق آربري : نشرها ١٩٥٣ م بالدراسات الشرقية لبوسن .

٣ ـ الدكتور قاسم السامرائي : نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي . المجلد ١٧ و ١٨ لعام ١٩٦٩ م .

٤ ـ الدكتور إبراهيم بسيوني : ألّف كتاب (الإمام القشيري : سيرته، آثاره، مذهبه) طبع في مصر ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م . عدد صفحاته ٣٣٦ صفحة. قياس الصفحة كبير .

٥ ـ الدكتور أحمد علم الدين الجندي : نشر دراسته في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة . الجزء الأول عام ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م .

٦ ـ الدكتور أبو العلا عفيفي . كتب بحثاً عن القشيري . نشره في موسوعة تراث الإنسانية .

الرسالة القشيرية

ماذا تعني كلمة (الرسالة) ؟

الرسالة بحث أو موضوع أو دراسة . يكون رداً على سؤال أو حلًّا لمشكلة أو علاجاً لتساؤل . وتكون الرسالة صغيرة الحجم كرسالة القاضي الفاضل للحسن البصري ، أو كبيرة الحجم كرسالة الغفران للمعري .

أسباب تأليفها :

هذه الرسالة وجهها القشيري رحمه الله إلىٰ الذين عادوا التصوف معاداةً تقليدية دونما معرفة حقيقية لأصول هذه الطريقة ، عادوها من خلال الأخطاء التي ظهرت على بعض أدعياء التصوف أو من خلال كلمات كانت أشبه بالشطحات التي لا تستند إلى نص أو عقل أو برهان .

وهذا شأن كل مذهب وكل فكر وكل طريقة ، من أتباعه من يحسن فهمه وعرضه، ومنهم من يشوه صورته ويسيء إليه بأعماله وتصرفاته. فكانت هذه الرسالة صرخة مخلصة صادقة نابعة من قلب مفعم بحب الله والرسول ﷺ والحق الذي أنار طريقه الإسلام، إلى كل الذين أخطؤوا بحق التصوف جهلًا يعرفهم حقيقة التصوف وأنه الجانب العملي والروحي والعاطفي والسلوكي في الإسلام وأن روحه قول الله تعالىٰ **﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾**[1] وقوله تعالى : **﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه**

(١) الآية : سورة الشمس: الآيات ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ .

نصلّى ﴾(١) وقوله تعالىٰ : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٢) وقوله تعالىٰ : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾(٣) وقوله تعالىٰ : ﴿ اتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾(٤) وقول رسول الله ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٥) .

يريد القشيري رحمه الله أن يعرفهم أن الحق غير ما عرفوا، وأن أهل هذه الطريقة الحقيقيين هم على نهج القرآن وسنة رسول الله ﷺ لا يخرجون عنها قيد أنملة ، وهم على طريق السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين في إيمانهم وعقيدتهم وسلوكهم .

والرسالة القشيرية : موجهة أيضاً إلى أهل التصوف يبين لهم حقيقة هذه الطريقة وما دخل عليها من انحراف وأباطيل ويسدّد لهم الطريق حتىٰ لا يَضِلُّوا ولا يُضِلُّوا ، وأن التصوف ليس شيئاً زائداً على ما في القرآن أو سنة رسول الله ﷺ بل هو تجسيد لجانب عظيم من الإسلام أُهْمِلَ نتيجة توغل الفقهاء بعد السلف الصالح في فروع الفقه وإهمال الجانب السلوكي الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والسلف الصالح ، ولو أن الذين لحقوا السلف الصالح في القرون الأولىٰ كانوا على هديهم تربية وسلوكاً وفهماً لم يؤُلْ الحال بالمسلمين إلى وجود مدرسة الصوفيين مفصولة عن مدرسة الفقهاء والمتكلمين ، إذ أن الرعيل الأول من السلف الصالح ، أخذوا الإسلام كله فهماً وتربية وسلوكاً ودعوة وفقهاً ، جمعوا صفاء وتقوىٰ أهل التصوف ، وعلم وفقه أهل الفقه دونما إفراط أو تفريط في أيٍ من الجانبين وهذا هو الإسلام .

---

(١) الآية: سورة الأعلى: ١٤ ـ ١٥ .

(٢) الآية: سورة العنكبوت: ٦٣ .

(٣) الآية: سورة الأعراف: ٢٠٥ .

(٤) الآية: سورة البقرة: ٢٨٢ .

(٥) الحديث: أخرجه مسلم في الإيمان باب وصف جبريل للنبي ﷺ الإسلام والإيمان رقم (٨) والترمذي في الإيمان رقم (٢٧٣٨) وأبو داود في السنة باب في القدر رقم (٤٦٩٥) والنسائي في الإيمان باب نعت الإسلام ٩٧/٨.

تاريخ تأليفها :

كان ذلك عام ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦ م ، ويصادف هذا التاريخ عندما بلغ الإمام الشيخ الثانية والستين من عمره ، وهي فترة تناسب النضج العقلي الذي وصل إليه

مخطوطاتها :

عثرنا في مكتبة الأسد بدمشق على تسع نسخ مخطوطة للرسالة ، تختلف عن بعضها ، وهي :

النسخة الأولى :

أولها : (الحمد لله الذي تفرّد بجلال ملكوته ، وتوحّد بجمال جبروته ، وتعزّز بعلوّ أحدّيته . .) وآخرها : (فصل : ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا فإن صحبتهم سمّ مجرب . .) . عدد صفحاتها ١٨٧ صفحة . قياس الصفحة ٢٣ × ١٨ سم . في الصفحة ٢٠ سطراً . في السطر ١٢ كلمة . مسافة الهامش ٢ سم . الحبر أسود . الخط نسخ معتاد مقروء . تاريخ نسخها : السبت ١٩ محرم ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م وهي من وقف المرادية . الرقم : ١٤٤٥ ، تصوف : ١٢٧ .

النسخة الثانية :

أولها وآخرها كالسابقة . عدد صفحاتها ١٥٩ صفحة . قياس الصفحة ٢٢ × ١٢,٥ سم . في الصفحة ٣١ سطراً . في السطر ٩ كلمات . مسافة الهامش ٤,٥ سم . الحبر أسود وبعض الكلمات بالحبر الأحمر . الخط نسخ واضح . الورقة الأولى مزخرفة بماء الذهب . تاريخ النسخ : الأحد ٢٧ ذي الحجة ١١٢٨ هـ/ ١٧١٥ م . الرقم : ٤١٢٦ .

النسخة الثالثة :

أولها وآخرها كالسابقة. عدد صفحاتها ١٥٣ صفحة . قياس الصفحة ٢٢,٥ × ١٤,٥ سم . في الصفحة ١٧ سطراً . في السطر ١٠ كلمات . مسافة الهامش ٣,٥ سم . الحبر أسود وبعض الكلمات بالحبر الأحمر . الخط نسخ معتاد . في السطر ١٠ كلمات . اسم الناسخ : حافظ عبد الله بن أحمد علي . تاريخ النسخ : ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢ م . الرقم : ٥١٤٥ .

النسخة الرابعة :

أولها وآخرها كالسابقة . عدد صفحاتها ٣١٥ صفحة . قياس الصفحة ١٦,٥ × ١٠,٥ سم . في الصفحة ١٨ سطراً . في السطر ٩ كلمات . مسافة الهامش ١,٥ سم . الحبر أسود وبعض الكلمات بالحبر الأحمر. الخط نسخ معتاد . اسم الناسخ : عثمان بن محمود بن حامد صوف بن عبد الرحمن . تاريخ النسخ : الخميس /١/ جمادى الآخرة ١١٦٩ هـ/ ١٧٥٥ م. الرقم : ١٤١٢ ، تصوف : ٩٤ .

النسخة الخامسة :

أولها كالسابقة ، وآخرها مخروم ينتهي بـ (ومن آداب المريدين كثرة الأوراد بالظاهر . .). عدد صفحاتها ١٥١ صفحة . قياس الصفحة ٢٣,٥ × ١٥ سم . في الصفحة ٢٧ سطراً . في السطر ١٠ كلمات . مسافة الهامش ١ سم . الحبر أسود وبعض الكلمات بالحبر الأحمر . الخط نسخ معتاد . عليها خط يوسف بن محمد الأنصاري . الرقم : ٨٤٩٢ .

النسخة السادسة :

أولها مخروم يبتدىء بـ (أهل السنة قالوا : شرط صحة التوبة . .) ، وآخرها مخروم ينتهي بـ (خرج إنسان يريد الفتوة من نيسابور . .) . عدد صفحاتها ٢٩٣ صفحة . قياس الصفحة ١٦ × ١١ سم . في الصفحة ١٢ سطراً . في السطر ٦ كلمات. مسافة الهامش ٢ سم. الحبر أسود. الخط نسخ معتاد . الرقم: ١٠٠٣ .

النسخة السابعة :

أولها وآخرها كالأولى . عدد صفحاتها ٢٣٥ صفحة . قياس الصفحة ٢٥ × ١٦ سم. في الصفحة ٢١ سطراً . في السطر ١٠ كلمات . مسافة الهامش ٦,٥ سم . الحبر أسود مطعّم بالأزرق . الخط نسخ معتاد. الورقة الأولى مزخرفة بماء الذهب . اسم الناسخ : حسين بن محمد الشهدي . تاريخ النسخ : ١٢ ذي القعدة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م. الرقم : ٧٧٦٤ .

النسخة الثامنة :

أولها وآخرها كالسابقة . عدد صفحاتها ٢٧٤ صفحة . قياس الصفحة

٢٠ × ١٣ سم . في الصفحة ١٥ سطراً. في السطر ١٣ كلمة . مسافة الهامش ٣ سم . الحبر أحمر غامق . الخط نسخ معتاد . تاريخ النسخ : ٢٦ رجب ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤ م. الرقم: ٩٧٢١ .

النسخة التاسعة :

أولها وآخرها كالسابقة . عدد صفحاتها ١٩٠ صفحة . قياس الصفحة ٢٥,٥ × ١٦,٥ سم . في الصفحة ٢٣ سطراً . في السطر ١٠ كلمات . مسافة الهامش ٢,٥ سم . الحبر أسود والعناوين بالحبر الأحمر . الخط نسخ معتاد . اسم الناسخ : علي بن عبد الغفار الراشدي الأشعري . تاريخ النسخ : ربيع الآخر ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م. الرقم : ٩٥٨١ .



راموز ـ ١ ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ ابو جعفر بن محمد بن حسين بن احمد بن يزدانيار

الحمد لله رب العالمين حمداً يكون له رضى ولشكره اداء وصلى الله على

شمس المرسلين وقمر النبيين محمد واله اجمعين اما بعد فقد سألني بعض

اخواني لطف الله به ان اجمع له فصولاً في معنى آداب احوال الـ

صوفية واسمائهم وحكاياتهم في امر زهدهم وطريقتهم واخلاقهم

في الورع وصدقهم في جميع احوالهم لله تعالى فاجبته الى ذلك فيما

واختصر له جملاً مما جمعنا عن مشايخ الطبقة الاولى الاكابر الذين

شهر ذكرهم قبل المائتين من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة

في تركت بعض اسانيد خشية التطويل وفصلته بابواب وفصول

د اسماء القوم رضي الله عنهم [illegible] الباب الاول في اسماء القوم الثاني

[illegible] الثالث باب المجاهدة الرابع باب الخلوة الخامس باب العزلة باب التقوى

التهذيب باب الصمت باب الخوف باب الرجا باب الحزن باب ترك الشهوات

[illegible] باب الحسد باب الغيبة باب القناعة باب التوكل باب الشكر

[illegible] باب الصبر باب المراقبة باب الرضا باب العبودية باب الارادة باب الا[illegible]

[illegible] باب الصدق باب الحيا باب الحرية باب الذكر باب الفتوة باب الفراسة باب [illegible]

الدعا [illegible] باب الولاية [illegible] باب الغربة باب التصوف باب [illegible] باب [illegible]

[illegible] باب احوالهم [illegible] من الانبيا [illegible] المعرفة [illegible]

[illegible] باب [illegible] كرامات [illegible] الاوليا [illegible] باب التصوف

[illegible]

راموز - ١ -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تفرد بجلال ملكوته وتوحد بجمال جبروته وتعزز بعلو أحديته وتقدس بسمو صمديته وتكبر في ذاته عن مضارعة كل نظير وتنزه في صفاته عن كل تناه وقصور له الصفات المختصة بحقه والآيات الناطقة بأنه غير مشبه بخلقه فسبحانه من عزيز لا حد يناله ولا عد يحتاله ولا أمد يحصره ولا أحد ينصره ولا ولد يشفعه ولا عدد يجمعه ولا مكان يمسكه ولا زمان يدركه ولا فهم يقدره ولا وهم يصوره تعالى عن أن يقال كيف هو أو أين أو اكتسب بصنعه الزين أو دفع بفعله النقص والشين اذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ولا يغلبه حي وهو الخبير القدير . أحمده على ما يولي ويصنع . واشكره على ما يزوي ويدفع وأتوكل عليه وأقنع وأرضى بما يعطي ويمنع . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة موقن بتوحيده مستجير بحسن تأييده واشهد أن محمدا عبده المصطفى وأمينه المجتبى ورسوله المبعوث إلى كافة الورى صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى وأصحابه مفاتيح الهدى وسلم تسليما كثيرا (هذه رسالة) كتبها الفقير إلى الله تعالى عبد الكريم بن هوازن القشيري إلى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (اما بعد) رضي الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال او صفا لهم من الأحوال علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ثوابه ابتداء فضل وعذابه حكم بعدل وأمره قضاء فصل [رحمكم الله] (اعلموا رحمكم الله) أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم كما قيل :

راموز - ب -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تفرد بجلال ملكوته (١) وتوحد بجمال جبروته(٢) وتعزز بعلو أحديته وتقدس بسمو صمديته وتكبر فى ذاته عن مضارعة كل نظير وتنزه فى صفاته عن كل تناه وقصور له الصفات المختصة بحقه والآيات الناطقة بأنه غير مشبه بخلقه فسبحانه من عزيز لا حد يناله ولا عد يحتاله ولا أمد يحصره ولا أحد ينصره ولا ولد يشفعه ولا عدد يجمعه ولا مكان يمسكه ولا زمان يدركه ولا فهم يقدره ولا وهم يصوره تعالى عن أن يقال كيف هو أو أين هو أو اكتسب بصنعه الزين أو دفع بفعله النقص والشين إذ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ولا يغلبه حى وهو الخبير القدير . أحمده على ما يولى ويصنع . وأشكره على ما يزوى ويدفع وأتوكل عليه وأقنع وأرضى بما يعطى ويمنع . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة موقن بتوحيده مستجير بحسن تأييده وأشهد أن محمداً عبده المصطفى وأمينه المجتبى ورسوله المبعوث إلى كافة الورى صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى وأصحابه مفاتيح الهدى وسلم تسليما كثيرا (هذه رسالة) كتبها الفقير إلى الله تعالى عبد الكريم بن هوازن القشيرى إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (أما بعد) رضى الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ووفقهم للقيام بآداب

---

(١) (ملكوته) أى ملكه العظيم كما أفادته المبالغة المنبىء عنها زيادة اللفظ .

(٢) (جبروته) أى قهره لغيره على وفق إرادته فالجبار من تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل شىء ولا تنفذ فيه مشيئة غيره ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وقد يكون الجبار بمعنى جابر كل كسير وأشار بهذا مع ماقبله إلى أنه تعالى متصف بالصفات السلبية مثل أنه ليس بجسم ولا عرض ولا فى مكان ولا زمان وبالصفات الثبوتية كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والبقاء . لأن صفات الجلال صفات قهر والقهر يستفاد من السلب وصفات الجمال صفات لطف واللطف يستفاد من الإيجاد وجمع بينهما ليكون العبد بين الخوف والرجاء .

شروحها :

كانت الرسالة القشيرية منذ ظهورها موضع عناية الدارسين والباحثين ، وقد وُضعت عليها عدة شروح . وهي :

١ ـ شرحها شيخ الإسلام القاضي زكريا بن محمد الأنصاري (المتوفى ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ م) في مجلد أسماه : (إحكام الدلالة على تحرير الرسالة) وذلك في ١٤ جمادى الأولى ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٧ م.

٢ ـ وهذا الشرح هو الذي وضع عليه الشيخ مصطفى العروسي حاشيته المسماة : (نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية) .

ويعلّق الدكتور أبو العلا عفيفي على هذه الحاشية فيقول : (وهي حاشية ليس لها على طولها من القيمة ما للشرح ، بل هي حاشية قد تضلل القارىء بما يستطرد إليه المؤلف من ذكر نظريات ابن عربي ، وما يستعمله من مصطلحات لا تَمُتُّ بسبب قريب أو بعيد إلى نصوص الرسالة القشيرية أو شرح الأنصاري).

وما أورده الشيخ مصطفى العروسي من ترجمات لبعض المتصوفين فقد أخذ معظمها من طبقات عبد الرؤوف المنادي[(١)] .

٣ ـ الدلالة على فوائد الرسالة . لسديد الدين أبي محمد ـ عبد المعطي بن محمود بن عبد العلي اللخمي الإسكندري . وهو مخطوط بمكتبة مراد ملا رقم ١٢٤١ تاريخ : ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢ م .

وليس في هذا الشرح تلك النفحات الصوفية ولا الإشراق الذي نجده في الرسالة نفسها ، بل تغلب عليه النزعة الفقهية المولعة بالتقسيمات والتصنيفات والتعريفات وإيراد الحجج العقلية والنقلية وإصدار الأحكام ، كأن لا يرضى بإخضاع التصوف في جملته إلى الإسلام في أسسه ومبادئه العامة ، بل يحاول أن يخضع أقوال الصوفية وأفعالهم لموازين الفقه الإسلامي ، ولهذا كان الفرق

---

(١) تراث الإنسانية ، بحث الدكتور أبو العلاء عفيفي ، الجزء الأول، صفحة ٤٦٩ .

عظيماً حقاً بين فقهية شرحه وروحانية القشيري والصوفية الذين يروي أقوالهم[1] .

٤ ـ تهذيب الدلالة على تنقيح الرسالة . وهو شرح مختصر لمؤلف مجهول .
وهو مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٦٩ ، ١٦٧ ، انظر كشف الظنون، الجزء الأول صفحة ٨٨٢ .

٥ ـ إرشاد المريدين لشارح مجهول ..
مكتبة الهند ١٢٥٩ ـ ٦٠ ، رامبور ، الجزء الأول ، صفحة ٣٢٨ .

طبعاتها :

١ ـ طُبعت في المطبعة السنية الخديوية ببولاق مصر ، عام ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م . عدد صفحاتها ٢٤٢ صفحة. قياس الصفحة ٢٦ × ١٩ سم .

٢ ـ طبعت في بولاق مصر ، عام ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ م. عدد صفحاتها ٢١٩ صفحة .

٣ ـ طبعت في مطبعة عبد الرزاق بمصر، عام ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٦ م عدد صفحاتها ٢٤٤ صفحة . قياس الصفحة ٢٤ × ١٦,٥ سم .

٤ ـ طبعت في المطبعة الميمنية بمصر ، عام ١٣٣٠ هـ/ ١٩١١ م. عدد صفحاتها ١٨٦ صفحة .

٥ ـ طبعت في مطبعة التقدم العلمية بمصر، ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م، عدد صفحاتها ١٨٦ صفحة، قياس الصفحة ٢٩ × ٣٠ سم. عليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري .

٦ ـ طبعت في مصر، عام ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٨ م. عدد صفحاتها ٢٢٠ صفحة .

٧ ـ طبعت في دمشق . بدون تاريخ . جزءان في مجلد واحد . عدد صفحاتها ٤١٨ صفحة. قياس الصفحة ٢٩ سم .

٨ ـ طبعت في بيروت . منشورات دار الكتاب العربي ، عام ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٧ م .

---

(١) تراث الإنسانية ، بحث الدكتور أبو العلاء عفيفي ، الجزء الأول. صفحة ٤٧٠ .

عدد صفحاتها ١٩٠ صفحة. قياس الصفحة ١٩ × ٢٧ سم. عليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري، وهي مصوَّرة.

٩ ـ طبعتها مكتبة محمد علي صبيح في القاهرة . عام ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م . عدد صفحاتها ١٩٠ صفحة . قياس الصفحة ٢٩ × ٢٧ سم . عليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري .

١٠ ـ طبعتها مكتبة محمد علي صبيح في القاهرة. عام ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م. عدد صفحاتها ٣٢٨ صفحة. قياس الصفحة ١٧ × ٢٤ سم. عليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري.

ترجمتها :

تُرجمت الرسالة القشيرية إلى اللغة الفرنسية . وطبعت في رومية عام ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١ م .

تقييمها :

وهكذا . . فالرسالة القشيرية كتاب فريد في بابه ، نحا فيه مؤلفه نحواً خاصاً ، ويمدّنا بصورة كاملة عن التصوف ورجاله منذ أن ظهر التصوف في النصف الثاني الهجري حتى عصر المؤلف .

ويُعتَبر أفضل وثيقة تاريخية علمية في موضوعها لا يدانيها في مستواها كتاب آخر ، وقد جاءت ممثلة للقمة التي وصلت إليها حركة التأليف في هذا الفن .

كلمة عمل التحقيق والإعداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

بعون الله وفضله ، قد تم إعداد الكتاب وتحقيقه بعد جهد طويل، وعمل متواصل بذل في سبيل إخراج الرسالة القشيرية إلىٰ الناس في حلتها القشيبة، وقد أخذت حظها من العناية والتحسين والإخراج .

إن العمل في الرسالة القشيرية كان صعباً للغاية، وكذنا أن نيأس من إمكانية العمل فيها لوجود إشكالات كثيرة في النصوص، وتصحيفات تكاد توقفنا عن الاستمرار في العمل، وخاصة في نصوص صوفية، يحتاج المحقق تأملاً كبيراً للوقوف على حقيقة النص والمراد منه، ولهذا أعرض الكثير من المحققين والناشرين عن العمل في الرسالة القشيرية، وإن الطبعات القديمة للرسالة القشيرية نقلت نفس الأخطاء والاشكالات في النص ، ولم يتجرأ أحد أن يحققها ويخرجها ، بل ذهبوا يصوّرونها ويكررون نفس الأخطاء، وتستمر عملية تعقيد الرسالة وفهمها عل القارىء . كثير من الناس اقتنوا الرسالة القشيرية (النسخة المصورة) و(المطبوعة قديماً) وكنت أسألهم هل قرأتموها فيجيبون : لا ، ولكنهم قرؤوا بعض الصفحات وبعض الكلمات فأرهقوا منهما ورفعوها إلى المكتبة ، وهذا نفس السبب الذي دعا دار الخير إلى تحقيقها، وتجشّم الصعاب في سبيل إخراجها على صورة طيبة مباركة،

لأن الرسالة القشيرية من أبرز الكتب التي تناولت موضوع التصوف وعلومه ومصطلحاته وأعلامه، وإشكالاته، بشكل يزيل اللبس والغموض، ويوضح الصورة الحقيقية للصوفية والتصوف، ويحدد معالم الطريق لعلم أضحى من أدق العلوم المطروحة على بساطة البحث والمناقشة، والأخذ والرد.

وإن الإمام القشيري الأستاذ الكبير، لم يتناول هذا الموضوع بهذا الشكل المفصّل إلا من أجل هذه الغاية، وتخليص الناس من عقدة التصوف، ورسم الطريق السليم لمن يحب التصوف وهو متخبط فيه أو يعادي الصوفية وهو جاهل لحقيقتها.

لله الحمد والشكر، فقد بذلنا وسعنا في العمل، ومع ذلك لا ندعي أننا بلغنا الكمال، فالكمال لله وحده، اجتهدنا في عملنا هذا، فإن كنا أخطأنا فلنا أجر إن شاء الله، وإن أصبنا فلنا أجران من عنده سبحانه وتعالىٰ. ونشكر كل مخلص يحب أن يهدينا ملاحظاته حتى نستدركها فيما بعد، والله ولي التوفيق.

اعتمدنا في التحقيق :

اعتمدنا في التحقيق على ثلاثة نسخ: واحدة مخطوطة واثنتان مطبوعتان. جعلنا أصل المقابلة على النسخة المخطوطة.

١ ـ النسخة المخطوطة تحتفظ بها مكتبة الأسد الوطنية بدمشق وتحمل رقم ١٤٤٥ وهي وقف من كتب المرادية، ورمزنا لها بـ مخطوطة «أ».

٢ ـ نسخة مطبوعة عام ١٣٧٧ هـ في مطبعة محمد علي صبيح، عليها هوامش من شرح الشيخ زكريا الأنصاري وعدد صفحاتها ١٩٠ بقياس ١٩ × ٢٧ سم.

٣ ـ نسخة مطبوعة عام ١٣٩٢ هـ في مكتبة محمد علي صبيح عليها هوامش شرح الشيخ زكريا الأنصاري، عدد صفحاتها ٣٢٨ صفحة قياس ١٧ × ٢٤ سم. وفيها بعض النقص عن سابقتها وفيها زيادات.

لم نهتم بتسجيل الفوارق بين المخطوطات والنسخ بقدر اهتمامنا بإخراج نص كامل ومفهوم، وصحيح، وإن كنا لم نهمل ذلك كلياً.

طريقة إعدادنا للرسالة القشيرية :

١ ـ وضع المؤلف لهذا الكتاب عنواناً هو : (الرسالة)، لأنه كان بالفعل رسالة موجّهة

إلى الصوفيين والمهتمين بالتصوف وأعداء التصوف الجاهلين به . ثم جاء الباحثون والناشرون فنسبوا (الرسالة) إلى مؤلفها وأطلقوا عليه اسم (الرسالة القشيرية) ، وانطلقت هذه التسمية على الكتاب ، حتى لم يعد القرّاء يعرفون التسمية الأساسية للكتاب .

ونحن آثرنا إثبات اسم (الرسالة القشيرية) نظراً لشهرته وانتشاره ومعرفة الكتاب به .

٢ ـ بدأنا الكتاب بدراسة علمية موضوعية شاملة عن المؤلف ، تلمّ بكافة جوانبه ، وتعطي القارىء صورة متكاملة عنه ، تتبلور فيها منهجية الكتاب .

ثم أتبعنا هذه الدراسة بدراسة عن الرسالة القشيرية، فعرضنا أسباب تأليفها ومخطوطاتها وشروحها وطبعاتها . . فتكاملت الصورة .

٣ ـ عرض المؤلف المادة العلمية للكتاب بالشكل التالي :

أ ـ اعتقاد هذه الطائفة في مسائل الأصول في التوحيد ، اعتبرنا ذلك مدخلاً للبحث وسميناه : أصول التوحيد عند الصوفيين .

ب ـ مشايخ هذه الطريقة ، وما يدل من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة ، وسمينا ذلك : أعلام التصوف .

جـ ـ تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة ، وبيان ما يشكل منها ، وسمينا ذلك : مصطلحات التصوف .

د ـ أبواب في شروح المقامات وتوضيحها .

هـ ـ تفصيل في الأحوال والكرامات .

وعندما رتبنا هذه المادة العلمية راعينا التسلسل المنطقي والمنهج العلمي ، فجاء ترتيبنا كما يلي :

أ ـ المدخل . . أصول التوحيد عند الصوفيين .

ب ـ الفصل الأول . . مصطلحات التصوف .

جـ ـ الفصل الثاني . . شرح المقامات أو مدارج أرباب السلوك .

د ـ الفصل الثالث . . الأحوال والكرامات .

هـ ـ الفصل الرابع . . أعلام التصوف .

٤ ـ قمنا بعملية تهذيب وتنقيح للكتاب .

٥ ـ فسّرنا بعض المفردات الغامضة في الكتاب ، وتعرضنا لنواحيها اللغوية والفقهية والفلسفية ، وكان هدفنا تزويد القارىء بأسباب الفهم المتكامل .

وأضفنا للكتاب بعض الشروح والتعليقات ، وطعّمناه بنقد موضوعي ، مما يوضّح فكرة المؤلف ويبلور المعنى الذي يعمل لأجله .

٦ ـ كان المؤلف قد عرض أعلام التصوف في الكتاب بالشكل العادي ، فرتبناهم في الفصل الرابع ، حسب الترتيب الأبجدي لألقاب العائلات التي اشتُهروا بها أو عُرفوا بها بين الناس ، مما يسهّل على القارىء البحث العلمي .

٧ ـ كان الكتاب خالياً من العناوين ، ويعتمد على شروح متواصلة مستمرة ، وكانت هذه هي الطريقة التقليدية القديمة في التأليف ، وكان ذلك مثاراً للملل ومدعاة للسأم ، فوضعنا للمواضيع عناوين دقيقة واضحة محددة . وفرزنا كل بحث إلى جزئيات متسلسلة . . مما أعطى للمادة العلمية ترابطاً فنياً ، ووضوحاً متبلوراً .

٨ ـ خرّجنا في الكتاب الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة .

٩ ـ ضبطنا لغة الكتاب وألفاظه ، وذلك :

أ ـ بالرجوع إلى مراجع وشروح متعددة للرسالة القشيرية تحتفظ بها مكتبة الأسد بدمشق .

ب ـ بالرجوع إلى نسخ مطبوعة للرسالة في أوقات مختلفة .

جـ ـ بدراسة الكلمة دراسة فنية علمية .

١٠ ـ ختمنا الكتاب بوضع مجموعة مسارد ، تشمل : (الأعلام . الأماكن والبلدان . الاتجاهات والطوائف . المراجع . المواضيع) .

وبعد .

فلا يسعنا إلا أن نشكر الله تعالى لقاء ما وفق وليتنا نستطيع ، والحمد لله رب العالمين

المحققان

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي تفرَّد بجلال ملكوته(١)، وتوحَّد بجمال جبروته(٢)، وتعزَّز بعلو أحديته، وتقدس بسمو صمديته(٣) وتكبر في ذاته عن مضارعة كل نظير، وتنزه في صفاته عن كل تناه وتصوير.

له الصفات المختصة بحقه، والآيات الناطقة بأنه غير مشبه بخلقه.

فسبحانه من عزيز، لا حدّ يناله، ولا عدّ يحتاله، ولا أمد يحصره، ولا أحد ينصره، ولا ولد يشفعه، ولا عدد يجمعه، ولا مكان يمسكه، ولا زمان يدركه، ولا فهم يقدره، ولا وهم يصوره.

تعالى عن أن يقال: (كيف هو؟ أو أين هو؟)، أو اكتسب بصنعه الزين، أو دفع بفعله النقص والشين، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولا يغلبه حي وهو الخبير القدير.

أحمده على ما يولي ويصنع، وأشكره على ما يزوي(٤) ويدفع، وأتوكل عليه وأقنع، وأرضى بما يعطي ويمنع.

---

(١) الملكوت: الملك العظيم، أو العز والسلطان.

(٢) الجبروت: صيغة مبالغة بمعنى القدرة والسلطة والعظمة.

(٣) إليه المآب في كل أمر، وله ترفع كل حاجة وهذا معنى «الله الصمد» فهو مقدس بسمو صمديته.

(٤) يزوي: يجمع ويقبض.

وأشهدُ أنْ لا إلـه إلاّ الله وحده، لا شريك له، شهادة موقن بتوحيده، مستجير بحسن تأييده.

وأشهد أن محمداً عبده المصطفى، وأمينه المجتبى [1]، ورسوله المبعوث إلى كافة الورى، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى، وأصحابه مفاتيح الهدى، وسلم تسليماً كثيراً.

هذه الرسالـة:

كتبها الفقير إلى الله تعالى: ﴿ عبد الكريم بن هوازن القشيري ﴾ إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام، في سنة سبع وثلاثين وأربع مائة للهجرة (الموافق ١٠٤٥ م).

طائفة المتصوفين:

لقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضّلهم على كافة عباده، بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم. وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من أكدار البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منه سبحانه عليهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجب عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل.

والعنـا:

ثم اعلموا (رحمكم الله) أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحي غير نسائها

---

(١) المجتبى: المختار والمصطفى.

وقد حصل الضعف في هذه الطريقة، لا بل اندرست، وقد مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وابتعدت عن القلوب حرمة الشريعة، فعدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام.

كما استخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، ومضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق[1] بما يأخذونه من السوقة[2] والنساء وذوي السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادّعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه[3] عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا[4].

دوافع تأليف هذه الرسالة:

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان، بما لوحت ببعضه من هذه القصة، وكنت لأبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لثلبهم[5] مساغاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

---

(١) الارتفاق: الاستعانة.

(٢) السوقة: الرعية من الناس، وهو لفظ يطلق للواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وسموا بذلك لأن الملك يسوقهم ويصرّفهم إلى ما يشاء.

(٣) يؤثرونه: يفضلونه ويختارونه. يذرونه: يحتقرونه ويتركونه.

(٤) هذه هي الصور التي يصور بها القشيري بعض متصوفي زمانه، وهي أشبه بالصورة التي صوّر بها الكلاباذي بعض متصوفي زمانه، ولكنها أحلك سواداً وأكثر إيلاماً.

(٥) الثلب: الاغتياب والعيب واللوم.

ولما كنت أؤمل من هذا الضعف أن ينحسم، ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة .

ولما أبى الوقت إلا استصعاباً، وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادياً فيما اعتادوه، واغتراراً بما ارتادوه، أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بني قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه(١). فوجهت هذه الرسالة إليكم (أكرمكم الله)، وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم، ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيحها شهادة، ولي في نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة، وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخطأ فيه، وأستغفره وأستعينه، وهو بالفضل جدير، وعلى ما يشاء قدير.

٤٣٨ هـ/ الموافق ١٠٤٦ م

أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

(١) هنا يدعو الأستاذ الشيخ إلى العودة بالتصوف إلى سابق عهده ، وإلى تطهيره من الأدران التي علقت به ، وإقامته مرة أخرى على أساس متين من الإسلام .

أصول التوحيد عند الصوفيّين

مدخل

أصول التوحيد عند الصوفيين

اعلموا (رحمكم الله): أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد، ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم. ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله: (التوحيد إفراد القدم من الحدوث)، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد، كما قال أحمد بن محمد الجريري رحمه الله: من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف، يريد بذلك: أن من لجأ إلى التقليد، ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سنن النجاة، ووقع في أسر الهلاك، ومن تأمل ألفاظهم وتصفح كلامهم وجد في مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها ما يوثق بتأمله بأن القوم لم يقصروا في التحقيق عن شأو[1]، ولم يعرجوا في الطلب على تقصير.

معرفة الله تعالى:

قال أبو بكر الشبلي: الله هو الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف، سبحانه لا حد لذاته، ولا حروف لكلامه.

وقد سئل رويم بن أحمد عن أول فرض فرضه الله عز وجل على خلقه، فقال: المعرفة لقوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، قال ابن

---

(١) الشأو: الغاية والأمد

(٢) الآية: سورة الداريات، رقم ٥٦.

عباس (١): إلا ليعرفون.

وقال الجنيد: إن أول ما يحتاج إليه العبد من الحكمة، معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث، ويذل لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته، فإن من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه. وقال أبو الطيب المراغي: للعقل دلالة، وللحكمة إشارة، وللمعرفة شهادة، فالعقل يدل، والحكمة تشير، والمعرفة تشهد: بأن صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد. وسئل الجنيد عن التوحيد، فقال: إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته: إنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، بلا تشبيه ولا تكييف، ولا تصوير ولا تمثيل، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

وسئل أبو بكر الزاهر أبادي عن المعرفة، فقال: المعرفة اسم، ومعناه: وجود تعظيم في القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه.

صفاته:

قال أبو الحسن البوشنجي رحمه الله: التوحيد أن تعلم أنه غير مشبه للذوات، ولا منفي الصفات.

وقال الحسين بن منصور: إن القدم له، فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه، والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه، والذي يظفر به الخيال فالتصور يرتقي إليه، ومن آواه محل أدركه أين، سبحانه لا يظله فوق، ولا يقله تحت، ولا يقابله حد، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف، ولا يحده أمام، ولم يظهره قبل، ولم ينفه بعد، ولم يجمعه كل، ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس، وصفه لا صفة له، وفعله لا علة له، وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج، ولا في فعله علاج. باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم.

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي (٣ ق هـ - ٦٨ هـ / ٦١٩ - ٦٨٧ م): الصحابي الجليل. ولد بمكة ولازم الرسول. وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره وسكن الطائف له. ١٦٦٠ حديثاً.

إن قلتَ: مضى فقد سبق الوقت كونه، وإن قلتَ: (هو) فالهاء والواو خلقه، وإن قلت: أين؟ فقد تقدم المكان وجوده.

الحروف آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصوّر في الخيال فهو بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأه؟ أو يعود إليه ما هو أنشأه؟ لا تقابله الظنون، قربه كرامته، وبعده إهانته. علوه من غير توقل[1] ومجيئه من غير تنقل، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والقريب والبعيد، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

قال يوسف بن الحسين: قام رجل بين يدي ذي النون المصري فقال: أخبرني عن التوحيد ما هو؟ فقال: أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصور في خيالك فالله بخلاف ذلك.

وقال الجنيد: التوحيد علمك وإقرارك بأن الله فرد في أزليته لا ثاني معه، ولا شيء يفعل فعله.

الإيمـــان:

قال أبو عبد الله بن خفيف: الإيمان تصديق القلوب بما وضحه الحق من الغيوب.

وقال أبو العباس السياري: عطاء الله على نوعين: كرامة واستدراج، فما أبقاه عليك فهو كرامة، وما أزاله عنك فهو استدراج، فقل: أنا مؤمن إن شاء الله.

وقد قال سهل بن عبد الله التستري: ينظر المؤمنون إليه تعالى بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وقال أبو الحسين النوري: القلوب شواهد الحق، فلم نر قلباً أشوق إليه من قلب محمد ﷺ، فأكرمه الله تعالى بالمعراج تعجيلاً للرؤية والمكالمة.

وقال أبو عثمان المغربي: كنت أعتقد شيئاً من حديث الجهة، فلما جئت

---

(١) التوقل: الصعود.

بغداد(١) زال ذلك عن قلبي، فكتبت إلى أصحابنا بمكة: إني أسلمت الآن إسلاماً جديداً.

وسئل أبو عثمان المغربي عن الخلق فقال: قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة (الإلهية).

وقال الواسطي: لما قامت الأرواح والأجساد بالله، وظهرتا به لا بذواتها، كذلك قامت الخطرات، والحركات بالله لا بذواتها، إذ أن الحركات والخطرات فروع للأجساد والأرواح.

الأرزاق:

إن أرزاق العباد مخلوقة لله تعالى، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله تعالى، فكذلك لا خالق للأعراض إلا الله تعالى.

قال أبو سعيد الخراز: من ظن أنه إذا بذل الجهد يصل إلى مطلوبه فهو متعن، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فهو متمن.

وقال الواسطي: المقامات (المطلوبة) أقسام قسمت، ونعوت أجريت، كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات..؟

الكفر:

سئل الواسطي عن الكفر بالله أو لله، فقال: (الكفر والإيمان، والدنيا والآخرة، من الله وإلى الله وبالله ولله: من الله ابتداء وإنشاء، وإلى الله مرجعاً وانتهاء، وبالله بقاءً وفناءً، ولله ملكاً وخلقاً).

وقال الجنيد: سئل بعض العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين، فقال السائل: بيّن لي ما هو، فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل وحده، لا شريك له، فإذا فعلت ذلك فقد وحدته.

---

(١) بغداد أو بغدان أو بغذاذ: عاصمة العراق. على ضفتي دجلة. كانت عاصمة العباسيين. أسسها الخليفة المنصور. تقاطر إليها ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي بنوبويه والسلاجقة والمغول والتتر والصفويون والعثمانيون.

وجاء شخص إلى ذي النون المصري وقال له: ادع لي، فقال: إنْ كنتَ قد أُيِّدْتَ في علم الغيب بصدق التوحيد فالدعوة مجابة، وإلا فالنداء لا ينقذ الغرقى.

وقال أبو الحسين النوري: التوحيد هو كل خاطر يشير إلى الله تعالى بعدم مزاحمته من خواطر التشبيه.

وسئل أبو علي الروذباري عن التوحيد فقال: التوحيد استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل، وإنكار التشبيه، والتوحيد (يتبلور) في كلمة واحدة، وهي: كل ما صوّره الخيال والأفكار فالله سبحانه بخلافه، لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[١].

وقال أبو القاسم النصر آباذي: الجنة باقية بإبقائه، وذكره لك ورحمته ومحبته لك باقٍ ببقائه، فشتان بين ما هو باقٍ ببقائه، وبين ما هو باقٍ بإبقائه.

وقال أهل الحق: إنّ صفات ذات القديم سبحانه باقيات ببقائه تعالى بخلاف ما قاله مخالفو الحق.

وقال النصر آباذي: أنت متردد بين صفات الفعل وصفات الذات، وكلاهما صفته تعالى على الحقيقة، فإذا هيمك في مقام التفرقة قرنك[٢] بصفات فعله، وإذا بلغك إلى مقام الجمع قرنك بصفات ذاته[٣].

وقال الأستاذ الإمام أبو إسحاق الإسفرايني رحمه الله: لما قدمت من بغداد كنت أدرّس في مسجد نيسابور مسألة الروح، وأشرح القول في أنها مخلوقة، وكان أبو القاسم النصر آباذي قاعداً متباعداً عنا يصغي إلى كلامي فاجتاز بنا بعد ذلك بأيام قلائل، وقال لمحمد الفرّاء: اشهد أني أسلمت مجدداً على يد هذا الرجل، وأشار إليّ.

وقيل ليحيى بن معاذ: أخبرني عن الله عز وجل، فقال: إله واحد، فقيل له:

---

(١) الآية : سورة الشورى / ١١

(٢) قرنك : جمع قلبك عليها .

(٣) صفات الفعل كالتخليق والترزيق، وصفات الذات كالعلم والقدرة.

كيف هو؟ فقال: مَلِكٌ قادر، فقيل: أين هو؟ فقال: هو بالمرصاد، فقال السائل: لَمْ أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا. . . !

وسأل ابن شاهين الإمام الجنيد عن معنى: (مع)، فقال: (مع) على معنيين: مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة(١)، قال الله تعالى: ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾(٢). ومع العامة بالعلم والإحاطة، قال الله تعالى: ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾(٣)، فقال ابن شاهين: مثلك يصلح أن يكون دالاً للأمة على الله تعالى.

العرش:

سئل ذو النون المصري عن قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾(٤) فقال: أثبت ذاته ونفى مكانه، فهو موجود بذاته، والأشياء موجودة بحكمه كما شاء سبحانه.

وسئل الشبلي عن قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾، فقال: الرحمن لم يزل، والعرش محدث، والعرش بالرحمن استوى.

وسئل جعفر بن نصر عن قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فقال: استوى علمه بكل شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء.

وقال جعفر الصادق: من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، إذ لو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً، ولو كان على شيء لكان محمولاً، وقال جعفر الصادق أيضاً في قوله تعالى: ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾(٥): من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة، وإنما التداني أنه كلما قرب منه بعده عن أنواع المعارف إذ لا دنو ولا بعد.

---

(١) الكلاءة: الحراسة والحفظ.

(٢) الآية: سورة طه ـ ٤٦.

(٣) الآية: سورة المجادلة ـ ٧.

(٤) الآية: سورة طه ـ ٥.

(٥) الآية: سورة النجم ـ ٨.

يقول الخرّاز : حقيقة القرب فقدُ حِسّ الأشياءِ من القلب ، واستكانة الضمير إلى الله تعالى .

ويقول إبراهيم الخواص : انتهيت إلى رجل صرعه الشيطان ، فجعلت أؤذن في أذنه فناداني الشيطان من جوفه : دعني أقتله فإنه يقول : القرآن مخلوق .

وقال ابن عطاء : إن الله تعالى لما خلق الأحرف جعلها سراً له ، فلمّا خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر[1] ، ولم يبث ذلك السر في أحد من ملائكته . فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان وفنون اللغات ، فجعلها الله صوراً لها .

وصرّح ابن عطاء[2] القول : بأنّ الحروف مخلوقة ، وقال سهل بن عبد الله : إن الحروف لسان فعلٍ لا لسان ذاتٍ لأنها فعل في مفعول .

وقال الجنيد في أجوبة مسائل الشاميين : التوكل عمل القلب ، والتوحيد قول القلب .

وقال الحسين بن منصور : من عرف الحقيقة في التوحيد سقط عنه (لِمَ . وكيف) .

وقال الواسطي : ما خلق الله شيئاً أكرم من الروح .

الحق سبحانه وتعالى :

قال شيوخ هذه الطريقة في التوحيد : إن الحقّ سبحانه وتعالى : موجود ، قديم ، واحد ، حكيم ، قادر ، عليم ، قاهر ، رحيم ، مريد ، سميع ، مجيد ، رفيع ، متكلم ، بصير ، متكبر ، قدير ، حي ، أحد ، باقٍ ، صمد .

وأنه : عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بإرادة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، حي بحياة ، باقٍ ببقاء .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ سورة البقرة ـ ٣١ .

(٢) أي واصل بن عطاء المعتزلي .

وله يدان هما صفتان يخلق بهما ما يشاء، سبحانه على التخصيص، وله الوجه الجميل.

وصفات ذاته مختصة بذاته، لا يقال هي هو، ولا هي أغيار له، بل هي صفاته الأزلية ونعوته السرمدية.

وأنه أحديّ الذات، ليس يشبه شيئاً من المصنوعات، ولا يشبهه شيء من المخلوقات.

ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا صفاته أعراض، ولا يتصوّر في الخيال، ولا يُقدَّر في العقول، لا جهة له ولا مكان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان.

ولا تخصّه هيئة وقدّ، ولا تقطعه نهاية وحدّ، ولا يحلّه حادث، ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون.

ولا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفكّ عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم، ولا هو عن فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم، لا يقال له: أين هو ولا كيف هو؟ ولا يستفتح له وجود، فيقال: متى كان؟، ولا ينتهي له بقاء، فيقال: استوفى الأجل والزمان، ولا يقال: لِمَ فعلَ ما فعل؟ إذ لا علة لأفعاله.

ولا يقال: ما هو؟ إذ لا جنس له فيتميز بأمارة(١) عن أشكاله، يرى لا عن مقابلة، ويرى غيره لا عن مماثلة، ويصنع لا عن مباشرة ومزاولة.

له الأسماء الحسنى والصفات العلى، يفعل ما يريد، ويذل لحكمه العبيد.

لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق به القضاء.

ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون، وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون.

خالق أرزاق العباد، خيرها وشرها، ومبدع ما في العالم من الأعيان والآثار، ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه، ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء

(١) الأمارة: العلامة، وجمعها أمارات.

عليهم الصلاة والسلام، بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه، ومؤيد نبينا محمد ﷺ بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة، بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين وعرف المنكر، وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته ﷺ بخلفائه الراشدين، ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه، عصم الأمة الحنيفية عن الاجتماع على الضلالة، وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة، وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١).

(١) الآية: سورة الصف ـ ٩.

مُصطلحات التصوّف

الفصل الأوّل

اعلمْ أنّ لكل طائفة من العلماء ألفاظاً يستعملونها، وقد انفردوا بها عمّن سواهم، كما تواطؤوا(١) عليها لأغراض لهم فيها، من تقريب الفهم على المتخاطبين بها، أو للوقوف على معانيها بإطلاقها، وهم يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والستر على من باينهم(٢) في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة(٣) على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أنْ تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلف، أو مجلوبة بضرب من التصرف، بل هي معانٍ أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم.

ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكي طريقتهم، ومتبعي سننهم(٤):

---

(١) تواطؤوا: تعارفوا واتفقوا.

(٢) باينهم: خالفهم.

(٣) مستبهمة: غامضة.

(٤) التعبير عند بعض المتصوفة قلق لأسباب: عندما تكلموا عن أحوالهم وخلجاتهم وخواطر قلوبهم ومشاعرهم الذوقية ـ لم تسعفهم العبارة بتصوير تلك البارقة أو الاحساس لسرعتها ولعدم وجود مماثل لها في الواقع في كثير من الأحيان.

ـ ولذلك أرى أن الذين سلكوا طريق القوم بعد تحصيل علوم الشريعة وفقه القرآن وحياة رسول =

الله ﷺ، كانت عبارتهم أدق، وكان تصورهم أسلم ودقّقوا فيما قالوه ونقلوه، فأفادوا كثيراً ومنهم الجنيد رحمه الله .

- لا حاجة للصوفي أن يستعمل أساليب التورية في تعابيره أو أن يستر معانيه عن أحد . . . لأنه إن كان يتكلم حقاً فهذا ما لا يعترض عليه أحد من أهل العرفان أو الفقه في القرآن والسنة ، لأنه إما متكلم في شيء يعاضده برهان من العقل أو انه لا يعارضه برهان النقل لكن هناك برهان العقل وبعموميته يكون خيراً .

أما أن يتكلم بعبارت تترجم أذواقاً وأحوالاً لَمَّا تنضج بَعْد ولم يَجنِ قطافها ، ثم ننسبها إلى الحقيقة أو التصوف أو معارف أهل الله فهذا ما لا يسلم به كثيرٌ من أهل العلم .

- إذا كانت كلمات أهل الله تهدف إلىٰ هداية البشر أو دلالتهم على أسرار السعادة والمعرفة بالطرق التي يتمكن منها الإنسان فلماذا نلجأ إلىٰ أساليب الكناية أو التورية ، خاصة وأن كتاب الله الذي هو القرآن الكريم إنما نزل ليكون هداية ورحمة للعالمين وليس بعد الحق شيء.

- لا مانع من وجود ألفاظ جديدة وتعابير لا تـمكّن الانسان القارىء أو السامع من فهم المقصود، إذ أن كل علم أو فن أو مجال من مجالات المعرفة له ألفاظه وتعابيره ومصطلحاته ، ومن الممكن أن تشرح وتفسر هذه المصطلحات . . .

- لكننا لا يحق لنا أن نقول : إن كلامنا هذا موقوف فهمه على أهل طريقتنا ، وممنوع سماعه إلا على أهل ملتنا . . .

- ومن المفيد للمتصوف أن لا يتكلم بكلام إن سُئل عنه يقول : إنما قصدت كذا ولم أقصد كذا ، فهذا الايهام يوقع أهل الاسلام في سوء الظن بأهل هذا الطريق ، وليس عندهم حقائق، ليست موجودة في كتاب الله أو سيرة رسول الله ﷺ، فإن كان ما أقول سليماً فلنعبر عن هذه الحقائق بما عبر به القرآن والنبي العربي الذي كلف أن يبين للناس ما نـزل إليهم .

- ولكن بتقديري أن المطالع لكلام المتصوفة على اختلاف مستوياتهم يلمس تماماً أن منهم أقواماً تكلموا وكتبوا في حالات المحو فيما قالوا أو كتبوا ، وبعد ذلك رجعوا عما قالوه أو كتبوه وقالوا بعدئذ أحسن الكلام وأرقى الفهم وأدق العبارة مما يدل على أن الصحو تمكن منهم، وأن تفصيل الفهم والمعنى قد انقاد لهم .

- ما أقوله الآن : قد يفسر كلام الإمام ابن تيمية بعدم مناهضته المتصوفة وكلامهم بالكلية ، بل كان منصفاً فقال: عندهم الغث كما عندهم الثمين ،ومنهم أهل حق وفهم ومعنى راق كما أن منهم من ابتعد عن ذلك . وهذا ما يفسر صنيع تلميذه ابن القيم في شرح مدارج السالكين فصاغ معاني المتصوفة بعبارات وكلمات يرضى عنها أهل الطريق ، ويرضى عنها غيرهم بل جعل لسان الشريعة الطاهرة هو المجسد لمعانيهم وأذواقهم وخاصة إن لم يخرجوا عنها .

١ ـ الوقت

حقيقة الوقت عند أهل التحقيق حادث متوهم(١)، عُلّق حصوله على حادث متحقق(٢)، فالحادث المتحقق وقت للحادث المتوهم، تقول: (آتيك رأس الشهر)، فالإتيان متوهم، ورأس الشهر حادث متحقق، فرأس الشهر وقت الإتيان.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقّاق رحمه الله تعالى يقول: (الوقت ما أنت فيه)، وإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن، يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان.

وقد يعنون بالوقت ما هو فيه من الزمان، فقد قال قوم: (الوقت ما بين الزمانين) يعني: الماضي والمستقبل.

ويقولون: (الصوفي ابن وقته)، يريدون بذلك: أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين. وقيل: الفقير لا يهمه ماضي وقته وآتيه، بل يهمه الذي هو فيه.

وقيل: الاشتغال بفوات وقت ماضٍ تضييع وقت ثانٍ.

وقد يريدون بالوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم. ويقولون: (فلان بحكم الوقت) أي: أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له، وهو فيما ليس لله تعالى فيه أمر، أو اقتضاء بحق شرع، إذ التضييع لما أمرت به، وإحالة الأمر فيه على التقدير، وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين.

وقالوا: (الوقت سيف) أي: كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب.

وقيل: السيف لين مسه قاطع حده، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم(٣)، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه انتكس وتردى(٤)، وأنشدوا في ذلك:

---

(١) حادث متوهم: وقوعه في المستقبل.

(٢) حادث متحقق: وقوعه فيه. وصوابه: حادث متحقق عُلّق عليه حصول حادث متوهم.

(٣) اصطلم: استؤصل.

(٤) انتكس: وقع على رأسه. تردى: وقع في الهلاك.

وكالسيف إنْ لاينته لان مسه وحداه إن خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت(١)

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك، يعني: لو محاك وأفناك لتخلصت حين فنيت، ولكنه يأخذ منك ولا يمحوك بالكلية، وكان ينشد:

كل يوم يمر يأخذ بعضي يورث القلب حسرة ثم يمضي

وكان ينشد:

كأهل النار إنْ نضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود

وقيل في هذا المعنى:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

والكيس(٢) من كان بحكم وقته، إن كان وقته الصحو فقيامه بالشريعة، وإن كان وقته المحو فالغالب عليه أحكام الحقيقة(٣)

٢ ـ المقام

وهو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق بضرب تطلب، ومقاساة تكلف، فمقام كل واحد في موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له.

وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، ومن لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد.

والمقام هو الإقامة، كالمدخل بمعنى الإدخال، والمخرج بمعنى الإخراج،

---

(١) المقت: أشد البغض.

(٢) الكيِّس: الظريف أو الفطن أو حَسَنُ الفهم والأدب (العاقل).

(٣) لأن من غاب عن إدراك نفسه وغيره فهو مشغول بالحق عن الخلق.

ولا يصح لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام، ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة.

سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية(١) المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها، وإنما أراد الواسطي بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب، لا تعريجا في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب.

٣ ـ الحال

الحال عند القوم معنى يرد على القلب: من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب، من طرب أو حزن، أو بسط أو قبض، أو شوق أو انزعاج، أو هيبة أو اهتياج(٢) فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من الوجود نفسه، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله.

وقال أحد المشايخ: الأحوال كالبروق، فإن بقيت فهي حديث نفس.

وقالوا: الأحوال كاسمها، يعني أنها كما تحل بالقلب تزول، وأنشدوا:

لو لم تحل ما سميت حالاً ... وكل ما حال فقد زالا

انظر إلى الفيء إذا ما انتهى ... يأخذ في النقص إذا طالا

وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها، فقالوا: إنها إذا لم تدم ولم تتوال فهي لوائح وبواده، ولا يصل صاحبها إلى الأحوال، فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمى حالاً.

---

(١) المجوس: معرّب عن (منج كوش) بالفارسية، ومعناها: صغير الأذنين. وهم أمة يعبدون الشمس أو النار، وواحدهم مجوسي.

(٢) الاهتياج: الهيجان أو الانفعال، من اهتاج بمعنى: ثار.

وهذا أبو عثمان الحيري يقول: ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته، أشار إلى دوام الرضا، والرضا من جملة الأحوال.

فالواجب في مثل هذا أن يقال: إن من أشار إلى بقاء الأحوال فصحيح ما قال، فقد يصير المعنى شرباً لأحد فيربى فيه، ولكن لصاحب هذا الحال أحوال هي طوارق لا تدوم فوق أحواله التي صارت شرباً له، فإذا دامت هذه الطوارق له كما دامت الأحوال المتقدمة ارتقى إلى أحوال أخرى ألطف من هذه، فدائماً يكون في مجال الترقي.

٤ - القبض والبسط

وهما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف(١)، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ومن الفصل بين القبض والخوف والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل، فإما أن يخاف من زوال محبوب أو قدوم محذور، وكذلك الرجاء إنما يكون بالأمل في محبوب في المستقبل أو بتطلع زوال محذور، وكفاية مكروه في المستأنف.

وأما القبض فالمعنى حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بآجله(٢)، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه في عاجله، ثم تتفاوت نعوتهم في القبض والبسط حسب تفاوتهم في أحوالهم، فمن وارد يوجب قبضاً، ولكن يبقى مساغ للأشياء الأخرى لأنه غير مستوف، ومن مقبوض لا مساغ لغير وارده فيه لأنه مأخوذ عنه بالكلية بوارده.

وكذلك المبسوط قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: دخل بعضهم على أبي بكر

---

(١) المستأنف هو المبتدىء في الطريق إلى الله تعالى.

(٢) آجله: متأخره، والمقصود به: الآخرة.

القحطي، وكان له ابن يتعاطى مما يتعاطاه الشباب (من مفاسد)، وكان ممر هذا الداخل على هذا الابن، فإذا هو مستغرق في لهوه مع أقرانه، فرق قلبه وتألم للقحطي، وقال: مسكين هذا الشيخ كيف ابتلي بهذا الابن السيء، فلما دخل على القحطي وجده كأنه لا خبر له بما يجري عليه من الملاهي، فتعجب منه وقال: فديت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسي، فقال القحطي: إنا قد حررنا عن رق الأشياء في الأزل(١).

ومن أدنى موجبات القبض أن يرد على قلبه وارد موجبه إشارة إلى عتاب، أو رمز باستحقاق تأديب، فيحصل في القلب لا محالة قبض.

وقد يكون موجب بعض الواردات إشارة إلى تقريب، أو إقبال فيه لطف وترحيب، فيحصل للقلب بسط، وفي الجملة قبض كل واحد حسب بسطه، وبسطه حسب قبضه.

وقد يكون قبض يشكل على صاحبه سببه، يجد في قلبه قبضاً لا يدري موجبه ولا سببه، فسبيل صاحب هذا القبض التسليم حتى يمضي ذلك الوقت لأنه لو تكلف نفيه، أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد في قبضه، ولعله يعد ذلك منه سوء أدب، وإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض، فإن الحق سبحانه قال: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢).

وقد يرد بسطه فجأة، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سبباً يهز صاحبه ويستفزه، فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب، فإن في هذا الوقت يكون عليه خطر عظيم فليحذر صاحبه مكراً خفياً. كذا قال بعضهم: فتح علي باب البسط، فزللت زلة فحجبت عن مقامي، ولهذا قالوا: قف على البساط وإياك والانبساط.

وقد عد أهل التحقيق حالتي القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه لأنهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلاك العبد واندراجه في الحقيقة فقر وضر.

يقول الجنيد: الخوف من الله يقبضني، والرجاء منه يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني. إذا قبضني بالخوف أفناني عني، وإذا بسطني بالرجاء

(١) المعنى: أنه مستغرق في كمال عبوديته لله فلم يعد يتأثر بشيء غيره سبحانه.

(٢) الآية: سورة البقرة: ٢٤٥.

ردَّني عليّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا فرّقني بالحق أشهدني غيري فغطّاني، فهو تعالى في ذلك كله محرّكي غير ممسكي، وموحشي غير مؤنسي، فأنا بحضوري أذوق طعم وجودي، فليته أفناني عني فمتّعني، أو غيّبني فروّحني.

٥ - الهيبة والأنس

وهما أعلى درجة من (درجات) القبض والبسط، فكما أن القبض فوق رتبة الخوف، والبسط فوق منزلة الرجاء، فالهيبة أعلى من القبض، والأنس أتم من البسط(١).

وحق الهيبة الغيبة، فكل هائب غائب، ثم الهائبون يتفاوتون في الهيبة حسب تباينهم في الغيبة.

وحق الأنس صحو بحق، فكل مستأنس صاح، ثم يتباينون حسب تباينهم في الشرب، ولهذا قالوا: أدنى محل الأنس أنه لو طرح في لظى لم يتكدر عليه أنسه.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: كنت أسمع السري يقول: يبلغ العبد حداً لو ضُرب وجهه بالسيف لم يشعر، وكان في قلبي منه شيء حتى تبين لي أن الأمر كذلك(٢).

وروي عن أحمد بن مقاتل العكي أنه قال: دخلت على الشبلي وهو ينتف الشعر من حاجبه بملقط، فقلت له: يا سيدي أنت تفعل هذا بنفسك ويعود ألمه إلى قلبي، فقال: ويلك، الحقيقة ظاهرة لي ولست أطيقها، فهو ذا، فأنا أدخل الألم على نفسي لعلي أحس به فيستتر عني، فلست أجد الألم، وليس يستتر عني، وليس لي به طاقة.

وحال الهيبة والأنس، وإن جلّتا فأهل الحقيقة يعدونهما نقصاً لتضمنهما تغير

---

(١) الأنس أتم من البسط: أي أعلى منه مستوى، فالهيبة ناشئة من القبض الناشىء من الخوف، والأنس ناشىء من الرجاء، لأن من خاف الله تعالى وعرف تقصيره في حق الله انقبض قلبه وبقي مشغولاً بالله فتحصل له الهيبة منه، ومن أمل وصوله إلى خير انبسط قلبه وبقي مشغولاً بالله فيحصل له الأنس به.

(٢) حيث ذاق وعلم أن كمال الاستغراق يزيل الإحساس بالنفس الكلية.

العبد، فقد سمت أحوال أهل التمكين عن التغير، وهم محو في وجود العين، فلا هيبة لهم ولا أنس، ولا علم ولا حس، والحكاية معروفة عن أبي سعيد الخرّاز أنه قال: تهت في البادية مرة، فكنت أقول:

أتيــه فــلا أدري من التيــه من أنــا ... سوى ما يقـول الناس فيّ وفي جنسي
أتيــه على جن(١) البـلاد وإنسهـا(٢) ... فإن لم أجد شخصاً أتيه على نفسي

قال فسمعت هاتفاً يهتف بي، ويقول:

أيـا من يـرى الأسبـاب أعلى وجوده ... ويفــرح بـالتيــه الــدّني وبــالإنس
فلو كنت من أهــل الــوجــود حقيقــة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكـنـت بــلا حــال مــع الله واقـفــاً ... تصــان عن التــذكــار للجنّ والإنس

٦ ـ التواجد والوجد والوجود

التواجد: استدعاء الوجد بنوع من الاختيار، وليس لصاحبه كمال الوجد، إذ لو كان كذلك لكان واجداً.

وباب التفاعل أكثره على إظهار الصفة، وليست كذلك، قال الشاعر:

إذا تخــازرت ومــا بي من خــزر(٣) ... ثم كســرت العيــن من غيــر عــور

فقال قوم: التواجد غير مسلم لصاحبه لما يتضمن من التكلف ويبعد عن التحقيق.

وقال قوم: إنه مسلم للفقراء المجردين الذين ترصدوا لوجدان هذه المعاني.

والحكاية المعروفة لأبي محمد الجريري رحمه الله أنه قال: كنت عند

---

(١) الجان: اسم جمع للجن. وقد خلقهم الله من مارج من نار، وقد سموا بذلك لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار.

(٢) الإنس: البشر وواحده إنسي، والجمع أناسي.

(٣) تخازر: ضيّق جفن عينه ليحدد النظر. والخزر: ضيق فتحة العين.

الجنيد، وهناك ابن مسروق، فقام ابن مسروق وغيره والجنيد ساكت، فقلت: يا سيدي أليس لك في السماع شيء؟ فقال الجنيد: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(١)، ثم قال: وأنت يا أبا محمد أليس لك في السماع شيء؟ فقلت: يا سيدي أنا إذا حضرت موضعاً فيه سماع وهناك محتشم(٢) أمسكت على نفسي وجدي، فإذا خلوت أرسلت وجدي فتواجدت، فأطلق التواجد في هذه الحكاية، ولم ينكر عليه الجنيد ذلك.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: إذا راعى الإنسان في حال السماع أدب الأفاضل حفظ الله عليه وقته لبركات أدبه.

والوجد ما يصادف قلبك ويَرِدُ عليك بلا تعمد وتكلف، ولهذا قال المشايخ: الوجد هو المصادفة، والمواجيد(٣) ثمرات الأوراد، فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله تعالى لطائفه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: الواردات من حيث الأوراد، فمن لا ورد له بظاهره لا وارد له في سرائره، وكل وجد فيه من صاحبه شيء فليس بوجد، وكما أنه ما يتكلفه العبد من معاملات ظاهرة يوجد له حلاوة الطاعات، فما ينازله العبد من أحكام باطنة يوجب له المواجيد(٤)، فالحلاوات ثمرات المعاملات، والمواجيد نتاج المنازلات.

وأما الوجود فهو بعد الارتقاء عن الوجد، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية، لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة، وهذا معنى قول أبي الحسين النوري: أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد، أي: إذا وجدت ربي فقدت قلبي، وإذا وجدت قلبي فقدت ربي، وهذا معنى قول الجنيد: علم التوحيد

---

(١) الآية: سورة النمل: ٨٨.

(٢) المحتشم: إنسان يتمنع بالحياء، ويقصد به إنسان من الأعيان والوجهاء.

(٣) المواجيد: جمع وجد، على غير قياس.

(٤) يوجب له المواجيد: من رجاء لحصول طلبه، أو خوف من فواته، أو شكر لإسباغه، أو شوق لكمال حصوله.

مُباين لوجوده، ووجوده مُباين لعلمه(١)، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

وجودي أن أغيب عن الوجود ... بما يبدو عليّ من الشهود

فالتواجد بداية، والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجد يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر، وترتيب هذا الأمر قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود.

وصاحب الوجود له صحو ومحو، فحال صحوه بقاؤه بالحق، وحال محوه فناؤه بالحق، وهاتان الحالتان متعاقبتان عليه دائماً، فإذا غلب عليه الصحو بالحق فبه يصول وبه يقول، قال عليه السلام فيما أخبر عن الحق: «فبي يسمع وبي يبصر»(٢).

يقول منصور بن عبد الله: وقف رجل على حلقة الشبلي، فسأله: هل تظهر آثار صحة الوجد على الواجدين؟ فقال: نعم، نور يزهر مقارناً لنيران الاشتياق، فتلوح على الهياكل آثارها، وهو كما قال ابن المعتز(٣):

وأمطر الكأس ماءً من أبارقها ... فأنبت الدرّ في أرض من الذهب

وسبّح القوم لما أن رأوا عجباً ... نوراً من الماء في نار من العنب

سلافة(٤) ورثتها عاد(٥) عن إرم(٦) ... كانت ذخيرة كسرى(٧) عن أب فأب

وقيل لأبي بكر الدقي: إن جهماً الدقي أخذ شجرة بيده في حال السماع في

---

(١) يعني: أن العبد يكون عالماً بالتوحيد بالاستدلال بالآثار، ولا يكون واجداً له لأن وجوده لا يبقى للعبد معه إحساس بنفسه، فضلاً عن علمه واستدلاله عليه.

(٢) هذا جزء من حديث، سيأتي نصه كاملاً، وسيرد تخريج له.

(٣) عبد الله بن المعتز (٨٦١ - ٩٠٨م): انصرف للدراسات الأدبية، وقد بويع بالخلافة فلم يتمتع بها إلا أياماً.

(٤) السلافة: ما سال وتحلّب قبل العصر، وهو أجود أنواع الخمر.

(٥) عاد: شعب سكن الأحقاف، واضطهد النبي هود عليه السلام فسحقتهم العاصفة.

(٦) إرم: ذات العماد: مدينة بائدة.

(٧) كسرى: جمعه أكاسرة، أعظم ملوك بني ساسان الفارسيين.

ثورانه، فقلعها من جذورها، ثم اجتمعا في دعوة، وكان الدقي قد كُفّ بصره، فقام جهم الدقي يدور في هيجانه، فقال الدقي: إذا قرب مني أروني إياه، وكان الدقي ضعيفاً، فمرّ به فلما قرب منه قالوا له: هذا هو، فأخذ الدقي ساق جهم، فأوقفه فلم يمكنه أن يتحرك، فقال جهم: أيها الشيخ، التوبة التوبة.. فتركه.

قال الأستاذ الشيخ أدامه الله: كان ثوران جهم بحق، وإمساك الدقي بحق، ولما علم جهم أن حال الدقي فوق حاله رجع الى الإنصاف واستسلم.

وكذا من كان لا يستعصي عليه شيء بحق، فأما إذا كان الغالب عليه المحو فلا علم ولا عقل، ولا فهم ولا حس.

قالت امرأة أبي عبد الله التروغندي: لما كانت أيام المجاعة، والناس يموتون من الجوع، دخل أبو عبد الله التروغندي بيته، فرأى في بيته مقدار منوين[1] حنطة، فقال: الناس يموتون من الجوع وفي بيتي حنطة، فخولط في عقله[2]، فما كان يفيق إلاّ في أوقات الصلاة ليصلي الفريضة، ثم يعود إلى حالته، فلم يزل كذلك إلى أن مات.

وهذه الحكاية تدل على أن هذا الرجل كانت آداب الشريعة محفوظة عليه عند غلبات أحكام الحقيقة، وهذه هي صفة أهل الحقيقة، ثم كان سبب غيبته عن تمييزه شفقته على المسلمين، وهذا أقوى سمة لتحققه في حاله.

٧ ـ الجمع والفرق

هذان اللفظان يجريان في كلامهم كثيراً[3]. وكان الأستاذ أبو علي الدقاق يقول: الفرق ما نُسب إليك والجمع ما سُلب عنك. ومعناه: أن ما يكون كسباً للعبد

---

(١) منوين: مثنى، مفرده (منّ)، وجمعه أمنان: وهو كيل أو ميزان، وهو شرعاً ١٨٠ مثقالاً، وعرفاً ٢٨٠ مثقالاً.

(٢) بحيث غاب عن نفسه.

(٣) لفظ الجمع مأخوذ من جمع الهمة على الحق تعالى، ولفظ الفرق مأخوذ من تفرقتها في الكائنات مع الحق، والجامع والمفرق في الحقيقة هو الله تعالى.

من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق. وما يكون من قبل الحق من إبداء معانٍ وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال، فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة، ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع.

ولا بد للعبد من الجمع والفرق، فإن من لا تفرق له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(١) إشارة إلى الفرق، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢) إشارة إلى الجمع.

وإذا خاطب العبد الحق سبحانه بلسان نجواه إما سائلاً أو داعياً أو مثنياً أو شاكراً أو متنصلاً أو مبتهلاً قام في محل التفرقة، وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه، واستمع بقلبه إلى ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه أو عرفه معناه، أو لوح لقلبه وأراه، فهو بشاهد الجمع.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: أنشد قوّال بين يدي الأستاذ أبي سهل الصعلوكي رحمه الله تعالى: (جعلتَ تنزهي نظري إليكا)، وكان أبو القاسم النصر آباذي رحمه الله حاضراً، فقال الأستاذ أبو سهل: جعلتَ بنصب التاء، وقال النصر آباذي بل جعلتُ بضم التاء.

ومعنى هذا: أن من قال: جعلتُ بضم التاء يكون إخباراً عن حال نفسه، فكأن العبد يقول هذا، وإذا قال: جعلتَ بفتح التاء فكأنه يتبرأ من أن يكون ذلك بتكلف. بل يخاطب مولاه فيقول: أنت الذي خصصتني بهذا لا أنا بتكلفي، فالأول على خطر الدعوى، والثاني بوصف التبري من الحول والإقرار بالفضل والطول. وفرق بين من يقول: بجهدي أعبدك، وبين من يقول: بفضلك ولطفك أشهدك.

وجمع الجمع فوق هذا، ويختلف الناس في هذه الجملة حسب تباين أحوالهم وتفاوت درجاتهم، فمن أثبت نفسه وأثبت الخلق ولكن شاهد الكل قائماً

(١) الآية: سورة الفاتحة ـ ٤.

(٢) الآية: سورة الفاتحة ـ ٥.

بالحق، فهذا هو جمع. وإذا كان مختطفاً عن شهود الخلق مصطلماً عن نفسه مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكل ما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة، فذاك جمع الجمع.

والتفرقة شهود الأغيار لله عز وجل، والجمع شهود الأغيار بالله، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة، ويعد هذا حالة عزيزة يسميها القوم (الفرق الثاني)، وهو أن يرد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد، فالعبد يطالع نفسه في هذه الحالة في تصريف الحق سبحانه، يشهد مبدأ ذاته وعينه بقدرته، ومجري أفعاله وأحواله عليه بعلمه ومشيئته.

وأشار بعضهم بلفظ الجمع والفرق إلى تصريف الحق جميع الخلق، فجمع الكل في التقليب والتصريف من حيث أنه منشيء ذواتهم، ومجري صفاتهم، ثم فرقهم في التنويع، ففريقاً أسعدهم، وفريقاً أبعدهم وأشقاهم، وفريقاً هداهم، وفريقاً أضلهم وأعماهم، وفريقاً حجبهم عنه، وفريقاً جذبهم إليه، وفريقاً آنسهم بوصله، وفريقاً أيسهم[(1)] من رحمته، وفريقاً أكرمهم بتوفيقه، وفريقاً اصطلمهم عند رؤمهم[(2)]، لتحقيقه، وفريقاً أصحاهم، وفريقاً محاهم، وفريقاً قربهم، وفريقاً غيبهم، وفريقاً أدناهم وأحضرهم ثم سقاهم فأسكرهم، وفريقاً أشقاهم وأخرهم ثم أقصاهم وهجرهم. وأنواع أفعاله لا يحيط بها حصر، ولا يأتي على تفصيلها شرح ولا ذكر، وأنشدوا للجنيد رحمه الله في معنى الجمع والتفرقة:

وتحققتك في سري	فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعان	وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعـ	ـظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجـ	ـد من الأحشاء داني

---

(1) الأيس: القنوط والقهر.

(2) الرَّوْم: الإرادة.

وقالوا أيضاً:

إذا ما بدا لي تعاظمته فأصدر في حال من لم يرد
جمعت وفرقت عني به ففرد التواصل مثنى العدد

٨ - الفناء والبقاء

أشار قوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف الذميمة، وأشاروا بالبقاء إلى بروز الأوصاف المحمودة، وإذا كان العبد لا يخلو من أحد هذين (النوعين من الأوصاف) فمن المعلوم أنه إذا لم يوجد عند الإنسان أحد القسمين وجد الآخر لا محالة، فمن فني عن أوصافه الذميمة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الصفات الذميمة استترت عنه الصفات المحمودة.

واعلم أن ما يتصف به العبد يشمل أفعالاً وأخلاقاً وأحوالاً: فالأفعال هي تصرفات الإنسان باختياره، والأخلاق جبلة فيه، ولكنها تتغير بمعالجته حسب استمرار عاداته، وأما الأحوال فإنها ترد على العبد على وجه الابتداء، ولكن صفاءها بعد زكاء الأعمال(١)، فهي كالأخلاق من هذا الوجه، لأن العبد إذا نازل الأخلاق بقلبه فينفي بجهده سفسافها منَّ الله عليه بتحسين أخلاقه(٢)، فكذلك إذا واظب على تزكية أفعاله ببذل ما وسعه منَّ الله عليه بتصفية أحواله، بل بتوفية أحواله(٣)، فمن ترك أفعاله الذميمة بلسان الشريعة فإنه فني عن شهواته، فإذا فني عن شهواته بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته، ومن زهد في دنياه بقلبه فقد فني عن رغبته، فإذا فني عن رغبته فيها بقي بصدق إنابته(٤)، ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر وأمثال هذا من رعونات النفس(٥) فقد فني عن سوء الخلق، فإذا فني عن سوء الخلق بقي بالفتوة والصدق، ومن شاهد جريان

---

(١) زكاء الأعمال: نموّها وتحسّنها.

(٢) منّ الله على الإنسان بتحسين أخلاقه المحمودة كالتواضع والصبر والزهد، وقد روى البيهقي: (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها).

(٣) توفية أحواله: استكمالها.

(٤) الإنابة: الإقبال.

(٥) رعونات النفس: حماقاتها.

القدرة في تصاريف الأحكام يقال: فني عن حسبان الحدثان(١) من الخلق، فإذا فني عن توهم الآثار من الأغيار بقي بصفات الحق، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً ولا رسماً ولا طللاً فقد فني عن الخلق وبقي بالحق، ففناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة بعدم هذه الأفعال وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فإذا فني عن الأفعال والأخلاق والأحوال فلا يجوز أن يكون ما فني عنه من ذلك موجوداً.

وإذا قيل: لقد فني الإنسان عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة والخلق موجودون، ولكن لا علم له بهم ولا به، ولا إحساس ولا خبر، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودان، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين، غير حاس بنفسه وبالخلق (لكمال اشتغاله بما هو أرفع من ذلك).

وقد ترى الرجل يدخل على ذي سلطان أو محتشم فيذهل عن نفسه وأهل مجلسه، وهيئات ذلك الصدر، وهيئات نفسه، فلا يمكنه الإخبار عن شيء، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ، وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾(٢) حيث لم يجدن عند لقاء يوسف عليه السلام على الوهلة (الأولى) ألم قطع الأيدي، وهن أضعف الناس: ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ، مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(٣) فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق (اخر) فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق سبحانه، فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه فأية أعجوبة فيه؟

فمن فني عن جهله بقي بعلمه، ومن فني عن شهوته بقي بإنابته، ومن فني عن رغبته بقي بزهده، ومن فني عن أمله بقي بإرادته، وكذلك القول في جميع تصرفاته، فإذا فني العبد عن صفته بما جرى ذكره يرتقي عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه(٤)، وإلى هذا أشار الشاعر:

فقوم تاه في أرض بقفر   وقوم تاه في ميدان حبه

---

(١) الحدثان: أول الأمر وابتداؤه. وحدثان الدهر: نوائبه.

(٢) و(٣) الآية: سورة يوسف ـ ٣١.

(٤) فلا يحس بفنائه لعدم ذكر أحوال نفسه، وهذا فناء الفناء، فإنه فني عن فنائه.

فـأفنـوا ثم أفنـوا ثـم أفنـوا وأبقـوا بـالبقـا من قـرب ربـه

فالأول فناء عن نفسه، وصفاته ببقائه بصفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق شهوده الحق، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق.

٩ - الغَيْبة والحضور

الغَيبة هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب.

وروي أن الربيع بن خيثم كان يذهب إلى ابن مسعود رضي الله عنه، فمر بحانوت حداد، فرأى الحديدة المحماة في الكير فغشي عليه(١)، فلما أفاق سئل عن ذلك فقال: تذكرت كون أهل النار في النار.

وروي عن علي بن الحسين أنه كان في سجوده، فوقع حريق في داره فلم ينصرف عن صلاته، فسئل عن حاله فقال: ألهتني النار الكبرى عن هذه النار.

وربما تكون الغيبة عن إحساسه بسبب ما يكاشف به الحق سبحانه، ثم إنهم مختلفون في ذلك حسب أحوالهم.

ومن المشهور أن ابتداء حال أبي حفص النيسابوري الحداد في ترك الحرفة أنه كان في حانوته فقرأ قارئ آية من القرآن الكريم، فورد على قلب أبي حفص وارد غفل فيه عن إحساسه، فأدخل يده في النار وأخرج الحديدة المحماة بيده (دون أن يتألم من حرارتها)، فرأى تلميذه ذلك، فقال: يا أستاذ ما هذا؟ فنظر أبو حفص إلى ما ظهر عليه فترك الحرفة وقام من حانوته.

سمعت أبا نصر المؤذن بنيسابور، وكان رجلاً صالحاً، قال: كنت أقرأ القرآن الكريم في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق بنيسابور عند ما كان هناك، وكان يتكلم في الحج كثيراً فأثر كلامه في قلبي، فخرجت إلى الحج في تلك السنة، وتركت الحانوت والحرفة، وكان الأستاذ أبو علي رحمه الله قد خرج إلى الحج أيضاً في

---

(١) لتصوره حال المذنبين في جهنم أو خروجهم منها.

تلك السنة، وكنتُ خلال وجوده بنيسابور أخدمه، وأواظب على القراءة في مجلسه، فرأيته يوماً في البادية تطهّر ونسي قمقمة(١) كانت بيده، فحملتها، فلما عاد إلى رحله(٢)، وضعتها عنده، فقال: جزاك الله خيراً حيث حملت هذا، ثم نظر إليّ طويلا كأنه لم يرني أبداً، وقال: رأيتك مرة، من أنت؟، فقلت: المستغيث بالله تعالى، صحبتك مدة وخرجت عن مسكني ومالي من أجلك، وتقطعت بي المفازة والساعة تقول: رأيتك مرة..!.

وأما الحضور: فقد يكون حاضراً بالحق لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق، على معنى: أن يكون كأنه حاضر، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه تعالى، فعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق، فإن غاب كليا كان الحضور حسب الغيبة، فإذا قيل: فلان حاضر، فمعناه: أنه حاضر بقلبه لربه، وغير غافل عنه ولا ساه(٣)، ثم يكون مكاشفاً في حضوره حسب رتبته، بمعانٍ يخصه بها الحق سبحانه وتعالى.

وقد يقال لرجوع العبد إلى إحساسه بأحوال نفسه، وأحوال الخلق أنه رجع عن غيبته، فهذا يكون حضوراً بخلق، والأول يكون حضوراً بحق، وقد تختلف أحوالهم في الغيبة، فمنهم من لا تطول غيبته، ومنهم من تدوم غيبته.

وقد رُوي أنّ ذا النون المصري بعث إنساناً من أصحابه إلى أبي يزيد لينقل إليه صفة أبي يزيد البسطامي، فلما جاء الرجل إلى (بلدة) بسطام، سأل عن دار أبي يزيد، ودخل عليه، فقال له أبو يزيد: ماذا تريد؟ فقال: أريد أبا يزيد. فقال: من أبو يزيد؟ وأين أبو يزيد؟ أنا في طلب أبي يزيد. فخرج الرجل وقال: هذا مجنون، فرجع إلى ذي النون فأخبره بما شهد، فبكى ذو النون وقال: أخي أبو يزيد ذهب مع الذاهبين إلى الله تعالى.

---

(١) قمقم: نوع من الأباريق.

(٢) الرحل: كناية عن الدابة المجهزة للسفر.

(٣) سها في الأمر وسها عن الأمر: غفل عنه ونسيه واتجه قلبه إلى غيره.

١٠ - الصحو والسكر

الصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة، والسكر غيبة بوارد قوي، والسكر زيادة على الغيبة من وجه، وذلك أن صاحب السكر قد يكون مبسوطاً إذا لم يكن مستوفياً في سكره، وقد يسقط إخطار الأشياء عن قلبه في حال سكره، وتلك حال المتساكر(١) الذي لم يستوفه الوارد، فيكون للإحساس فيه مساغ، وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة، فربما يكون صاحب السكر أشد غيبة من صاحب الغيبة إذا قوي سكره، وربما يكون صاحب الغيبة أتم في الغيبة من صاحب السكر إذا كان متساكراً غير مستوف.

والغيبة قد تكون للعباد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة، ومقتضيات الخوف والرجاء، والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد، فإذا كوشف العبد بصفة الجمال حصل السكر وطربت الروح وهام القلب(٢)، وفي السكر الناشىء عن كشف الجمال قالوا:

فصحوك من لفظي هو الوصل كله ... وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا
فما مل ساقيها وما مل شارب ... عقار لحاظ كأسه يسكر اللبا

وأنشدوا:

فأسكر القوم دور كأس ... وكان سكري من المدير

وأنشدوا:

لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وأنشدوا:

سكران: سكر هوى وسكر مدامة ... فمتى يفيق فتى به سكران

---

(١) المتساكر: المتظاهر بالسكر.

(٢) هام القلب: أي سقط التمييز بين ما يؤلم وما يلذ له، فالتجليات الجمالية وشهود الصفات الكمالية إذا استولت على العبد بحيث لا يشهد سوى الحق، تصير الأشياء بالنسبة إليه شيئاً واحداً، فحينئذ لا يميز بين الأشياء لغلبة رؤية ما للحق عليه.

واعلم أن الصحو بحسب السكر. فمن كان سكره بحق كان صحوه بحق، ومن كان سكره مشوباً بحظ كان صحوه مصحوباً بحظ صحيح، ومن كان محقاً في حاله كان محفوظاً في سكره. والسكر والصحو يشيران إلى طرف من التفرقة، وإذا ظهر من سلطان الحقيقة علم أن صفة العبد الثبور(١) والقهر، وفي هذا المعنى أنشدوا:

إذا طلع الصباح بنجم راح تساوى فيه سكران وصاح

قال الله تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾(٢)، هذا رغم رسالة موسى فقد خر صعقاً، ورغم صلابة الجبل وقوته فقد (تحطم) وصار دكاً متكسراً.

والعبد في حال سكره يشاهد الحال، وفي حال صحوه يشاهد العلم، إلا أنه في حال سكره محفوظ لا بتكلفه، وفي صحوه متحفظ بتصرفه، والصحو والسكر بعد الذوق والشرب.

١١ ـ الذوق والشرب

ومن جملة ما يجري في كلامهم الذوق والشرب، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوف وبواده(٣) الواردات، وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الارتواء.

إن صفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب، ودوام مواصلاتهم يقتضي لهم الارتواء.

فصاحب الذوق متساكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الارتواء صاح، ومن قوي حبه تسرمد(٤) شربه، فإذا دامت به تلك الصفة لم يورثه الشرب سكراً، فكان صاحياً بالحق فانياً عن كل حظ، لم يتأثر بما يرد عليه، ولا يتغير عما هو به،

---

(١) الثبور: الهلاك والويل والحزن.

(٢) الآية: سورة الأعراف ـ ١٤٣.

(٣) البواده: المفاجآت.

(٤) تسرمد: أصبح سرمدياً أي أصبح دائماً.

ومن صفا سِرّه لم يتكدر عليه الشرب، ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق بدونه، وأنشدوا:

إنما الكأس رضاع بيننا ... فإذا ما لم نذقها لم نعش

وأنشدوا:

عجبت لمن يقول ذكرت ربي ... فهل أنسى فأذكر ما نسيت

شربت الحب كأساً بعد كأس ... فما نفد الشراب ولا رويت

وكتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي: ههنا من شرب كأساً من المحبة لم يظمأ بعده[1]، فكتب إليه أبو يزيد: عجبت من ضعف حالك ههنا من يحتسي بحار الكون، وهو فاغر فاه يستزيد.

واعلم أن كؤوس القرب تبدو من الغيب، ولا تدار إلا على أسرار معتقة، وأرواح عن رق الأشياء محررة.

١٢ - المحو والإثبات

المحو رفع أوصاف العادة، والإثبات إقامة أحكام العبادة، فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة وأتى بدلاً منها بالأفعال والأحوال الحميدة فهو صاحب محو وإثبات.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: قال بعض المشايخ لإنسان صوفي: ماذا تمحو وماذا تثبت؟ فسكت الرجل، فقال: أما علمت أن الوقت محو وإثبات، إذ من لا محو له ولا إثبات فهو معطل مهمل.

وينقسم المحو إلى محو الزلة عن الظواهر ومحو الغفلة عن الضمائر، ومحو العلة عن السرائر: ففي محو الزلة إثبات المعاملات، وفي محو الغفلة إثبات المنازلات، وفي محو العلة إثبات المواصلات، هذا محو وإثبات بشرط العبودية، وأما حقيقة المحو والإثبات فصادران عن القدرة، فالمحو ما ستره الحق ونفاه، والإثبات ما أظهره الحق وأبداه، والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة، قال الله تعالى: ﴿ يمحو الله

(١) لم يظمأ بعده: لدوام تعلق قلبه بمحبوبه.

مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾(١)، قيل: يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالى، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله تعالى. ومحو الحق لكل أحد، وإثباته على ما يليق بحاله.

ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدة أثبته بقوة حقه، ومن محاه الحق عن إثباته ردّه إلى شهود الأغيار، وأثبته في أودية التفرقة.

قال رجل للشبلي رحمه الله: مالي أراك قلقاً؟ أليس هو معك وأنت معه؟ فقال الشبلي: لو كنتُ أنا معه لكنتُ أنا، ولكني محو فيما هو. والمحق فوق المحو، لأن المحو يبقي أثراً، والمحق لا يبقي أثراً، وغاية همة القوم أن يمحقهم(٢) الحق عن شاهدهم، ثم لا يردهم إليهم بعد ما محقهم عنهم.

١٣ ـ الستر والتجلي

العوام في غطاء الستر، والخواص في دوام التجلي.

وفي الخبر أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خشع له(٣).

فصاحب الستر بوصف شهوده، وصاحب التجلي دائماً بنعت خشوعه.

والستر للعوام عقوبة وللخواص رحمة، إذ لولا أنه يستر عليهم ما يكاشفهم به لتلاشوا عند سلطان الحقيقة، ولكنه كما يظهر لهم يستر عليهم.

يقول منصور المغربي: وافي بعض الفقراء حيّاً من أحياء العرب فأضافه شاب، فبينما الشاب في خدمة هذا الفقير إذ غشي عليه، فسأل الفقير عن حاله، فقالوا: له بنت عم وقد علق بها، فمشت في خيمتها فرأى الشاب غبار ذيلها فغشي عليه، فمضى الفقير إلى باب الخيمة، وقال للفتاة: إن للغريب فيكم حرمة وذماماً، وقد جئت مستشفعاً إليكِ في أمر هذا الشاب، فتعطفي عليه فيما هو به من هواكِ، فقالت: سبحان الله، أنت سليم القلب، إنه لا يطيق شهود غبار ذيلي، فكيف يطيق صحبتي؟

(١) الآية: سورة الرعد ـ ٣٩.

(٢) يمحقهم: يبطلهم ويمحوهم.

(٣) وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ سورة الحشر ـ ٢١.

وعيش هؤلاء العوام في التجلي وبلاؤهم في الستر، وأما الخواص فهم بين طيش وعيش، لأنهم إذا تجلى لهم طاشوا، وإذا ستر عليهم ردوا إلى الحظ فعاشوا.

وقيل: إنما قال الحق تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[1] ليستر عليه ببعض ما يعلله به بعض ما أثر فيه من المكاشفة بمفاجأة السماع.

والاستغفار طلب الستر، فالمغفرة هي الستر، فكأنه أخبر أنه يطلب الستر على قلبه عند سطوات الحقيقة[2]، إذ لا بقاء للخلق مع وجود الحق، وفي الخبر: لو كشف عن وجهه لأحرقت سبحات وجهه[3] ما أدرك بصره.

١٤ - المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة

المحاضرة حضور القلب، ثم بعدها المكاشفة وهي حضوره بنعت البيان، ثم المشاهدة وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة، فإذا صحت سماء السر عن غيوم الستر فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف.

وحق المشاهدة ما قاله الجنيد رحمه الله: وجود الحق مع فقدانك، فصاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة ملقى بذاته، وصاحب المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يدنيه[4] علمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته.

ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله، ومعنى ما قاله أنه تتوالى أنوار التجلي على قلبه من غير أن يتخللها ستر وانقطاع، كما لو قدر اتصال البروق، فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق فيها،

---

(١) الآية: سورة طه - ١٧.

(٢) سطوات الحقيقة: ما تقهرنا به الحقيقة.

(٣) سبحات وجه الله: أنواره، أو ما يُسبَّح به من دلائل والله أعلم، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه.

(٤) يدنيه: يقرّبه.

واتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي متع (١) نهاره فلا ليل ، وأنشدوا :

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار

وقال النوري : لا يصح للعبد المشاهدة ما دام حياً .

وقال : إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح .

وتوهم قوم أن المشاهدة تشير إلى طرف من التفرقة ، لأن باب المفاعلة في اللغة العربية إنما يحدث بين اثنين ، وهذا تخيل من صاحبه ، فإن في ظهور الحق سبحانه إهلاك الخلق ، وقالوا :

فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار ضوء الكواكب
يجرعهم كأساً لو ابتلي اللظى بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

كأس وأي كأس تصطلمهم عنهم وتفنيهم ، وتخطفهم منهم ولا تبقيهم كأس لا تبقي ولا تذر ، تمحوهم كلياً ولا تبقي شظية (٢) من آثار البشرية ، كما قال قائلهم :

ساروا فلم يبق لا رسم ولا أثر ...

١٥ - اللوائح والطوالع واللوامع

قال الأستاذ رضي الله عنه : هذه الألفاظ متقاربة المعنى ، لا يكاد يحصل بينها فرق كبير ، وهي من صفات أصحاب البدايات الصاعدين في الترقي بالقلب ، فلم يدم لهم بعد ذلك ضياء شموس المعارف ، لكن الحق سبحانه وتعالى يؤتي رزق قلوبهم في كل حين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ (٣) .

(١) متع نهاره : كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل حتى ينعدم الليل .

(٢) الشظية : جمع شظايا ، وهي فلقة العود أو العظم ونحوها .

(٣) الآية : سورة مريم - ١١ .

وكلما أظلمت عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنحت لهم فيها لوائح الكشف، وتلألأت لوامع القرب، وهم في زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح، فهم كما قال الشاعر:

يــا أيهـا البـرق الــذي يلمــع   من أي أكنــاف السمـاء تسـطع

فتكون أولاً لوائح ثم لوامع ثم طوالع، فاللوائح كالبروق، ما ظهرت حتى استترت، كما قال الشاعر:

افتــرقنــا حــولاً فلمــا التقينــا   كــان تسليمــه علـيَّ وداعــا

وقالــوا:

يــا ذا الــذي زار ومــا زارا   كــأنــه مـقـتـبــس نــارا
مــر ببــاب الــدار مستعجلاً   مــا ضــره لــو دخــل الــدارا

واللوامع أظهر من اللوائح، وليس زوالها بتلك السرعة، فقد تبقى اللوامع وقتين وثلاثة، ولكن كما قالوا: (والعين باكية لم تشبع النظرا). وقالوا:

لم تـــرد مـــاء وجهـه العيـن إلا   شـرقت[1] قبـل ريهــا برقيب

فإذا لمع قطعك عنك وجمعك به، ولكن لم يسفر نور نهاره حتى كرت عليه عساكر الليل، فهؤلاء بين روح ونوح لأنهم بين كشف وستر. وقد قالوا:

فـالليـل يشملنـا بفاضـل بـرده   والصبـح يلحفنـا رداء مـذهبـا

والطوالع أبقى وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدوم مكثاً، وأذهب للظلمة وأنفى للتهمة، لكنها موقوفة على خطر الأفول، ليست برفيعة الأوج ولا بدائمة المكث، وأوقات حصولها وشيكة الارتحال، وأحوال أفولها طويلة الأذيال.

وهذه المعاني التي هي اللوائح واللوامع والطوالع تختلف في القضايا، فمنها ما إذا فات لم يبق عنها أثر كالشوارق إذا أفلت فكان الليل كان دائماً، ومنها ما يبقى عنه أثر فإن زال رقمه بقي ألمه، وإن غربت أنواره بقيت آثاره، فصاحبه بعد سكون

---

(١) شرقت: غصّت.

عتباته، يعيش في ضياء بركاته، فإلى أن يلوح ثانياً يرجى وقته على انتظار عوده، ويعيش بما وجد حين كونه.

١٦ - البواده والهجوم

البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة، إما بموجب فرح أو بموجب ترح، والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك.

ويختلف في الأنواع حسب قوة الوارد وضعفه، فمنهم من تغيّره البواده وتصرفه الهواجم، ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالاً وقوة، أولئك سادات القوم، كما قيل:

لا تهتدي نوب الزمان إليهم ولهم على الخطب الجليل لجام

١٧ - التلوين والتمكين

التلوين صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرحل ويحصل في مربع، فإذا وصل تمكّن، وأنشدوا:

ما زلت أنزل في ودادك منزلاً تتحير الألباب دون نزوله

وصاحب التلوين دائماً في الزيادة، وصاحب التمكين قد وصل ثم اتصل، وأمارة أنه اتصل أنه بالكلية عن كليته بطل.

قال بعض المشايخ: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا.

قال الأستاذ رحمه الله: يريد به انخناس(١) أحكام البشرية، واستيلاء سلطان الحقيقة، فإذا دامت للعبد هذه الحالة فهو صاحب تمكين.

كان الشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: كان موسى عليه السلام صاحب تلوين فرجع من سماع الكلام، واحتاج إلى ستر وجهه، حيث أثّر فيه الحال. ونبينا محمد ﷺ كان صاحب تمكين فرجع كما ذهب لأن ما شاهده لم يؤثر

(١) الانخناس: التأخر والتخلف.

فيه تلك الليلة، وكان يستشهد على هذا بقصة يوسف عليه السلام أنّ النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام قطعن أيديهن لما ورد عليهن من شهود يوسف عليه السلام بشكل مفاجيء، وامرأة العزيز كانت أتم في بلاء يوسف منهن، ثم لم تتغير ذلك اليوم لأنها كانت صاحبة تمكين في حديث يوسف عليه السلام.

قال الأستاذ: واعلم أن التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين: إما لقوة الوارد أو لضعف صاحبه. والسكون من صاحبه لأحد أمرين: إما لقوته أو لضعف الوارد عليه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: أصول القوم في جواز دوام التمكين تتخرج على وجهين: أحدهما ما لا سبيل إليه، فقد قال محمد ﷺ: «لو بقيتم على ما كنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة»(١). ولأنه ﷺ قال: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي عز وجل»(٢) أخبر عن وقت مخصوص.

وقال رحمه الله تعالى: والوجه الثاني أنه يصح دوام الأحوال لأن أهل الحقائق ارتقوا عن وصف التأثر بالطوارق، والذي (جاء) في الخبر أنه قال: «لصافحتكم الملائكة» فلم يعلق الأمر فيه على أمر مستحيل، ومصافحة الملائكة دون ما أثبت لأهل البداية من قوله ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع»(٣).

---

(١) الحديث: رواه حنظلة بن الربيع الأسيدي، وأخرجه مسلم في التوبة، رقم ٢٧٥٠ باب فضل دوام الذكر، وكذلك الترمذي رقم ٢٥١٦ في صفة القيامة باب: ولكن يا حنظلة، ورقم ٢٤٥٤ في صفة القيامة باب الورع والتقوى.

(٢) الحديث: قال في كشف الخفاء ٢/٢٢٦ «روى الترمذي شمائله وابن راهويه في مسنده قريباً منه، ورواه الخطيب بسند قال فيه الحافظ الدمياطي أنه على رسم الصحيح، وهو حديث يكثر ذكره على ألسنة الصوفية».

(٣) الحديث: رواه صفوان بن عسال المرادي، وأخرجه الترمذي، وقال عنه: حديث حسن صحيح رقم ٩٦ في الطهارة باب المسح على الخفين للمسافر والمقيم، ورقم ٣٥٢٩ و٣٥٣٠ في الدعوات باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار، وكذلك النسائي ١/٨٣ و٨٤ في الطهارة باب التوقيت في المسح على الخفين للمسافر، وأحمد ٤/٢٣٩، وأخرجه ابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والبيهقي.

وما قال: لي وقت(١) فإنما قال على قدر فهم السامع، وفي جميع أحواله كان قائماً بالحقيقة، والأولى أنْ يُقال: إنّ العبد مَا دام في الترقي فصاحب تلوين يصح في نعته الزيادة في الأحوال، والنقصان منها، فإذا وصل الى الحق بانخناس أحكام البشرية مكّنه الحق سبحانه بأنْ لا يردّه إلى معلولات النفس، فهو متمكن في حاله على قدر محله واستحقاقه، ثم ما يتحفه الحق سبحانه في كل نفس فلا حد لمقدوراته، فهو في الزيادات متلوّن بل ملوّن، وفي أصل حاله متمكن، فدائماً يتمكن في حالة أعلى ممّا كان فيها قبله، ثم يرتقي عنها إلى ما فوق ذلك، إذ لا غاية لمقدورات الحق سبحانه في كل جنس، فأمّا المصطلم عن شاهده المستوفي إحساسه كلياً فللبشرية لا محالة حدّ، فإذا بطل عن جملته ونفسه وحسه، وكذلك عن المكونات بأسرها، ثم دامت به هذه الغيبة فهو محو، فلا تمكين له إذاً ولا تلوين ولا مقام ولا حال، وما دام بهذا الوصف فلا تشريف ولا تكليف، اللهمّ إلاّ أن يردّ بما يجري عليه من غير شيء منه، فذلك متصرف في ظنون الخلق مصرّف في التحقيق، قال الله تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾(٢)

١٨ ـ القرب والبعد

أول رتبة في القرب هي القرب من طاعته، والالتزام في جميع الأوقات بعبادته، وأمّا البُعد فهو التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته، فأول البعد بعد عن التوفيق، ثم بعد عن التحقيق، بل إن البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق، قال ﷺ مخبراً عن الحق سبحانه: «ما تقرّب إليّ المتقرّبون بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً، فبي يبصر وبي يسمع»(٣).

فقرب العبد أولاً بإيمانه وتصديقه، ثم قربه بإحسانه وتحقيقه، وقرب الحق

---

(١) وما قال لي وقت: أي: وأمّا ما قاله ﷺ: «لي وقت.. الخ».

(٢) الآية: سورة الكهف ـ ١٨.

(٣) الحديث: رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري ١١/٢٩٢ ـ ٢٩٥ في الرقاق، باب التواضع، وأخرج مثله ابن السني في الطب عن سمويه، والخطيب وابن عساكر عن علي وأنس، وابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، والحكيم الترمذي وابن مردويه وأبو نعيم في الأسماء.

سبحانه ما يخصه اليوم به من العرفان، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان، وفيما بيّن ذلك بوجوه اللطف والامتنان.

ولا يكون قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون.

فقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين، ثم بخصائص التأنيس (١) مختص بالأولياء، قال الله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾(٥). ومن تحقق بقرب الحق سبحانه وتعالى فأدونه(٦) دوام مراقبته إياه، لأنه عليه رقيب التقوى، ثم رقيب الحفاظ والوفاء، ثم رقيب الحياء، وأنشدوا:

كأن رقيباً منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني
فما رمقت عيناي بعدك منظراً ... يسوؤك إلا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من فيّ دونك لفظة ... لغيرك إلا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في السر بعدك خطرة ... لغيرك إلا عرّجا بعناني
وإخوان صدق قد سئمت حديثهم ... وأمسكت عنهم ناظري ولساني
وما الزهد أسلى عنهم غير أنني ... وجدتك مشهودي بكل مكان

كان بعض المشايخ يخص واحداً من تلاميذه بإقباله عليه، فقال له أصحابه في ذلك، فدفع إلى كل واحد من تلاميذه طيراً، وقال: اذبحوه بحيث لا يراه أحد، فمضى كل واحد وذبح الطير بمكان خال، وجاء هذا الإنسان والطير معه غير

---

(١) التأنيس: عكس التوحّش.

(٢) الآية: سورة ق - ١٦.

(٣) الآية: سورة الواقعة - ٨٥.

(٤) الآية: سورة الحديد - ٤.

(٥) الآية: سورة المجادلة - ٧.

(٦) فأدونه: اي من حق ذلك القرب أن لا يشتغل بالقرب، بل يشغلك بمراقبة ربه.

مذبوح، فسأله الشيخ فقال: أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراه أحد، ولم يكن موضع إلا والحق سبحانه يراه، فقال الشيخ: لهذا أقدّم هذا عليكم، إذ الغالب عليكم حديث الخلق، وهذا غير غافل عن الحق، ورؤية القرب حجاب عن القرب.

فمن شاهد لنفسه محلاً أو نفساً فهو ممكور به، ولهذا قالوا: أوحشك الله تعالى من قربه، أي من شهودك لقربه، فإن الاستئناس بقربه من سمات العزة به، إذ الحق سبحانه وراء كل أنس، وإن مواضع الحقيقة توجب الدهشة والمحو، وقالوا:

محنتي فيك أنني ... ما أبالي بمحنتي
قربكم مثل بعدكم ... فمتى وقت راحتي؟

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله كثيراً ما ينشد:

ودادكم هجر وحبكم قلى(1) ... وقربكم بُعْدٌ وسلمكم حرب

ورأى أبو الحسين النوري بعض أصحاب أبي حمزة فقال: أنت من أصحاب أبي حمزة الذي يشير إلى القرب، إذا لقيته فقل له: إن أبا الحسين النوري يقرئك السلام، ويقول لك: قرب القرب فيما نحن فيه بُعْدُ البعد، فأما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه، فإنه متقدس عن الحدود والأقطار، والنهاية والمقدار، ما اتصل به مخلوق، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل، فقرب هو في نعته محال، وهو تداني الذوات، وقرب هو واجب في نعته، وهو قرب بالعلم والرؤية، وقرب هو جائز في وصفه يخص به من يشاء من عباده، وهو قرب الفضل باللطف.

١٩ - الشريعة والحقيقة

الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية(2)، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول.

(1) القلى: غاية البغض والكراهية.

(2) مشاهدة الربوبية: أي رؤيتها بالقلب، ويعبّر عن ذلك بأن الشريعة معرفة السلوك إلى الله تعالى، والحقيقة دوام النظر إليه، والطريقة سلوك طريق الشريعة أي العمل بمقتضاها.

والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدّر، وأخفى وأظهر.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(١) حفظ للشريعة، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢) إقرار بالحقيقة.

واعلم أنّ الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث أن المعارف(٣) به سبحانه أيضاً وجبت بأمره.

٢٠ ـ النفس

النَفَس ترويح القلوب بلطائف الغيوب، وصاحب الأنفاس أرق وأصفى من صاحب الأحوال، فكأن صاحب الوقت مبتدا وصاحب الأنفاس منتهي، وصاحب الأحوال بينهما، فالأحوال وسائط، والأنفاس نهاية الترقي، فالأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح، والأنفاس لأهل السرائر.

وقالوا: أفضل العبادات عدّ الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى.

وقالوا: خلق الله القلوب، وجعلها معادن المعرفة، وخلق الأسرار وراءها وجعلها محلاً للتوحيد، فكل نفس حصل من غير دلالة المعرفة، وإشارة التوحيد على بساط الاضطرار، فهو ميت وصاحبه مسؤول عنه.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: العارف لا يسلم له النَفَس، لأنه لا مسامحة تجري معه، والمحب لا بدَّ له من نَفَس، ولولا ذلك لتلاشى.

٢١ ـ الخواطر

والخواطر خطابات ترد على الضمائر، فقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه.

---

(١) و (٢) الآية: سورة الفاتحة ٤ و ٥.

(٣) أن المعارف: أي معرفة العارفين النفس.

فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من الشيطان فهو الوسواس(1)، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق.

وجملة ذلك من قبيل الكلام، فإذا كان من الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم، ولهذا قالوا: كل خاطر لا يشهد له ظاهره فهو باطل، وإذا كان من قبل الشيطان فأكثره مما يدعو إلى المعاصي، وإذا كان من النفس فأكثره يدعو إلى اتباع شهوة أو استشعار تكبر.

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لم يفرق بين الإلهام والوسواس.

سمعت الشيخ أبا علي الدقاق يقول: من كان قوته معلوماً لم يفرق بين الإلهام والوسوسة. وإن من سكنت عنه هواجس نفسه بصدق مجاهدته نطق بيان قلبه بحكم مكابدته.

وأجمع الشيوخ أيضاً على أن النفس لا تصدق، وأن القلب لا يكذب، ولو اجتهدت كل الجهد أن تخاطبك روحك لم تخاطبك.

وفرق الجنيد بين هواجس النفس ووساوس الشيطان: بأن النفس إذا طالبتك بشيء ألحت فلا تزال تعاودك ولو بعد حين، حتى تصل إلى مرادها، ويحصل مقصودها، اللهم إلا أن يدوم صدق المجاهدة، ثم إنها تعاودك وتعاودك. وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة فخالفته بترك ذلك يوسوس بزلة أخرى، لأن جميع المخالفات له سواء، وإنما يريد أن يكون داعياً دائماً إلى زلة ما ولا غرض له في تخفيف واحد دون واحد. وقيل: كل خاطر يكون من الملك فربما يوافقه صاحبه وربما يخالفه، وإذا كان الخاطر من الحق سبحانه فلا يحصل خلاف من العبد له.

وتكلم الشيوخ في الخاطر الثاني فقالوا: إذا كان الخاطر من الحق سبحانه

(1) الوسواس: جمع وساوس، وهو الاسم من وسوس ويعني الشيطان، أو مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن، أو حديث النفس مما يخطر بالقلب من شر أو مما لا خير فيه.

فهل هو أقوى من الأول؟: قال الجنيد: الخاطر الأول أقوى، لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل وهذا بشرط العلم، فترك الأول يضعف الثاني.

وقال ابن عطاء: الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: هما سواء لأن كليهما من الحق، فلا مزية لأحدهما على الآخر، فالأول لا يبقى في حال وجود الثاني لأن الآثار لا يجوز عليها البقاء.

٢٢ - علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين

هذه عبارات عن علوم جلية(١).

فاليقين: هو العلم الذي لا يداخل صاحبه ريب على مطلق العرف، ولا يطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوفيق. وعلم اليقين هو اليقين، وكذلك عين اليقين هو اليقين نفسه، وحق اليقين هو اليقين نفسه أيضاً.

فعلم اليقين على موجب اصطلاحهم هو ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان بنعت العيان.

فعلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف.

٢٣ - الوارد

الوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد، وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر فهو وارد أيضاً.

ثم قد يكون وارداً من الحق وارداً من العلم. فالواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه. والواردات تكون وارد سرور ووارد حزن، ووارد قبض ووارد بسط إلى غير ذلك من المعاني.

---

(١) وهذه الثلاثة مذكورة في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿لو تعلمون علم اليقين﴾ سورة التكاثر: ٥. وقال تعالى: ﴿لترونها عين اليقين﴾ سورة التكاثر: ٧. وقال تعالى: ﴿إن هذا لهو حق اليقين﴾ الواقعة: ٩٥.

٢٤ ـ الشاهد

كثيراً ما يجري في كلامهم لفظ الشاهد، كقولنا: «فلان بشاهد العلم، وفلان بشاهد الوجد، وفلان بشاهد الحال».

ويريدون بلفظ الشاهد ما يكون حاضر قلب الإنسان، وهو ما كان الغالب عليه ذكره، حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائباً عنه، فكل ما يستولي ذكره على قلب صاحبه فهو شاهده، فإن كان الغالب عليه العلم فهو بشاهد العلم، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو بشاهد الوجد.

ومعنى الشاهد الحاضر، فكل ما هو حاضر قلبك فهو شاهدك.

وسئل الشبلي عن المشاهدة، فقال: مِن أين لنا مشاهدة الحق؟ الحق لنا شاهد. أشار بشاهد الحق إلى المستولي على قلبه، والغالب عليه من ذكر الحق، والحاضر في قلبه دائماً من ذكر الحق، ومن حصل له مع مخلوق تعلّق بالقلب فيقال: إنه شاهده، يعني أن قلبه حاضر، فإن المحبة توجب دوام ذكر المحبوب واستيلاءه عليه. وبعضهم تكلف في مراعاة هذا الاشتقاق، فقال: إنما سمي الشاهد من الشهادة، فكأنه إذا طالع شخصاً بوصف الجمال، فإن كانت بشريته ساقطة عنه، ولم يشغله شهود ذلك الشخص عما هو به من الحال ولا أثرت فيه صحبته بوجه فهو شاهد له على فناء نفسه، ومن أثر فيه ذلك فهو شاهد عليه في بقاء نفسه وقيامه بأحكام بشريته، إما شاهد له أو شاهد عليه، وعلى هذا حمل قوله ﷺ: «رأيت ربي ليلة المعراج في أحسن صورة، أي أحسن صورة رأيتها تلك الليلة، لم تشغلني عن رؤيته تعالى، بل رأيت المصوّر في الصورة والمنشىء في الإنشاء»(١) ويريد به: رؤية العلم لا إدراك البصر.

٢٥ ـ النفس

نفس الشيء في اللغة وجوده، وعند القوم: ليس المراد من إطلاق لفظ النفس

---

(١) الحديث: قال في كنز العمال ١/ص ٢٢٨ رقم ١١٥١ ـ ١١٥٢ ـ ١١٥٣ ـ ١١٥٤: رواه الطبراني عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه وعن ابن عباس في السنة، وكذلك عن أم الطفيل وعن معاذ بن عفراء.

الوجود ولا القالب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله، ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على نوعين: أحدهما: يكون كسباً له كمعاصيه ومخالفاته، والثاني: أخلاقه الدنيئة فهي في أنفسها مذمومة، فإذا عالجها العبد ونازلها، تنتفي عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على استمرار العادة (١).

إن القسم الأول من أحكام النفس ما نهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه، وأما القسم الثاني فسفساف الأخلاق والدنيء منها. هذا حده على الجملة ثم تفصيلها، فالتكبر والغضب والحقد والحسد وسوء الخلق وقلة الاحتمال وغير ذلك من الأخلاق الذميمة.

وأشد أحكام النفس هو تخيلها أن شيئاً منها حسن، أو أن لها استحقاق من القدر، ولذلك عد هذا من الشرك الخفي، ومعالجة الأخلاق في إهمال النفس وتحطيمها أتم من مقاساة الجوع والعطش والسهر وغير ذلك من المجاهدات التي تتضمن سقوط القوة، وإن كان ذلك أيضاً من جملة ترك النفس.

ويحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المعلولة، كما أن الروح لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون (بشكل عام) مسخراً بعضها لبعض، والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة.

وكما يصح أن تكون العين محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق، وكذلك فالسميع والبصير والشام والذائق، إنما هي الجملة التي هي الإنسان، فكذلك محل الأوصاف الحميدة للقلب والروح، ومحل الأوصاف الذميمة هو النفس، والنفس جزء من هذه الجملة، والقلب جزء من هذه الجملة، والحكم والاسم راجع الى الجملة.

---

(١) وهو ميل النفس لكل لذيذ، والنفرة عن كل كريه.

٢٦ - الروح

اختلف أهل التحقيق من أهل السنة في الأرواح فمنهم من يقول: إنها الحياة. ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة في هذه القوالب، لطيفة، أجرى الله العادة بخلق الحياة في القالب ما دامت الأرواح في الأبدان.

فالإنسان حي بالحياة، ولكن الأرواح مودعة في القالب، ولها ترق في حال النوم ومفارقة البدن، ثم رجوع إليه.

وإن الإنسان هو الروح والجسد لأن الله سبحانه سخر هذه الجملة بعضها لبعض، والحشر يكون للجملة، والمثاب والمعاقب هو الجملة، والأرواح مخلوقة، ومن قال بقدمها فهو مخطىء خطأ جسيما، والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة.

٢٧ - السر

يحتمل أن الأسرار لطيفة مودعة في القالب الإنساني كالأرواح، وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل المحبة، والقلوب محل للمعارف.

① وفي نسخة = مواضعاتهم

وقالوا: السر ما لك عليه إشراف، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير الحق.

وعند القوم على موجب مواصفاتهم①، ومقتضى أصولهم (نجد أن) السر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب.

ويقولون: الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والأطلال.

ويطلق لفظ السر على ما يكون مصونا مكتوما بين العبد والحق سبحانه في الأحوال، وعليه يحمل قول من قال: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم.

ويقولون: صدور الأحرار قبور② الأسرار.

② وفي نسخة، قبور الأسرار

شرح المقامات
أو مدارج أرباب السلوك

الفصل الثاني

١ ـ التوبة

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ المُؤْمِنُونَ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

وقال أنس بن مالك(٢): سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»(٣) ثم تلا: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ(٤) وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾(٥)، وقيل: يا رسول الله، ما علامة التوبة؟ قال: الندامة.

وحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «مَا من شيء أحب إلى الله من شاب تائب»(٦).

التوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، وحقيقة التوبة في اللغة: الرجوع، يقال: تاب أي رجع، فالتوبة: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه، وقال النبي ﷺ: «الندم توبة»(٧).

---

(١) الآية: سورة النور: ٣١.

(٢) أنس بن مالك (١٠ ق هـ ـ ٩٣ هـ/٦١٢ ـ ٧١٢م): بخاري خزرجي أنصاري. روى عن الرسول ٢٢٨٦ حديثاً. ولد في المدينة ورحل لدمشق ومات في البصرة.

(٣) الحديث: رواه ابن مسعود وأخرجه ابن ماجه كما في الجامع الصغير والحكيم الترمذي عن أبي سعيد، وحسّنه السيوطي في الجامع الصغير الجزء الأول، صفحة ٣٣٨٥.

(٤) لأن الله تعالى إذا أحب عبداً ألهمه التوبة من الذنب أو غفر له.

(٥) الآية: سورة البقرة: ٢٢٢.

(٦) الحديث: قال السيوطي في الجامع الصغير ٢/٨٠٥٠ رواه أبو المظفر السمعاني في أماليه عن سلمان، وهو حديث ضعيف.

(٧) الحديث: رواه ابن مسعود وأخرجه أحمد في المسند ٣٧٦/١ ـ ٤٢٣ ـ ٤٣٣، وأخرجه البخاري في التاريخ.

قال أرباب الأصول من أهل السنة: لكي تصح التوبة لا بد لها من ثلاثة شروط: (الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والتصميم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي).

قال هؤلاء: جاء في الخبر أن (الندم توبة)، فإنما نص على معظمه، كما قال ﷺ: (الحج عرفة)(1) أي أن معظم أركان الحج هو الوقوف بعرفة لأنه أبرز أركان الحج، كذلك قوله: (الندم توبة) أي أن معظم أركان التوبة هو الندم، ومن أهل التحقيق من قال: يكفي الندم في تحقيق ذلك لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين، فإنه يستحيل تقدير أن يكون نادماً على ما هو مصر على مثله أو عازم على الإتيان بمثله، وهذا هو معنى التوبة على جهة التحديد والإجمال.

فأما على جهة الشرح والإبانة، فإن للتوبة أسباباً وترتيباً وأقساماً، فأول ذلك انتباه القلب عن رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه بسمع قلبه، فإنه جاء في الخبر واعظ الله في قلب كل امرىء مسلم، وفي الخبر: (أن في البدن لمضغة إذا صلحت صلح جميع الجسد، وإذا فسدت فسد جميع البدن، ألا وهي القلب)(2)، فإذا فكر بقلبه في سوء ما يصنعه، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال، سنحت في قلبه إرادة التوبة، والإقلاع عن قبيح المعاملة، فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة والأخذ في جميل الرجعة، والتأهب لأسباب التوبة: وأول ذلك هجر إخوان السوء، فإنهم هم الذين يحملون على رد هذا القصد، ويشوشون عليه صحة هذا العزم، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة(3) على المشاهدة التي تزيد رغبته في التوبة، وتوفر دواعيه على إتمام ما عزم عليه مما يقوي خوفه ورجاءه، فعند ذلك تنحل

---

(1) الحديث: رواه عبد الرحمن بن يعمر الديلمي وأخرجه الترمذي رقم ٨٨٩ في الحج باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج. وأبو داود رقم ١٩٤٩ في المناسك باب من لم يدرك عرفة والنسائي ٥/٢٦٤ في الحج باب فيمن يدرك صلاة الصبح مع الإمام بمزدلفة وابن ماجة في المناسك رقم (٣٠١٥) باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، والدارمي في السنن ٢/٥٩ في المناسك باب بم يتم الحج.

(2) الحديث: رواه النعمان بن بشير وأخرجه البخاري في الإيمان ١١٧/١، وكذلك مسلم رقم ١٥٩٩ في المساقاة باب اخذ الحلال وترك الشبهات.

(3) ومن ذلك مخالطة الصالحين وسماع أقوالهم ومشاهدة أفعالهم.

من قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الأفعال، فيتوقف عن تعاطي المحظورات، ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات، فيفارق الزلة في الحال، ويبرم العزيمة على أن لا يعود إلى مثلها في المستقبل، فإن مضى على موجب قصده، ونفذ بمقتضى عزمه فهو الموفق صدقاً، وإن نقض التوبة مرة أو مرات، فقد يكون مثل هذا أيضاً كثيراً، فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء، فإن لكل أجل كتاباً(١).

روي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: اختلفت إلى مجلس قاص، فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء، فعدت ثانياً فسمعت كلامه، فبقي كلامه في قلبي في الطريق، ثم نسيته، ثم عدت ثالثاً فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي فكسرت الآت المخالفات ولزمت الطريق، ورويت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال: (اصطاد عصفور كركياً(٢)) أراد بالعصفور ذلك القاص، وبالكركي أبا سليمان الداراني. ويروى عن أبي حفص الحداد أنه قال: تركت العمل كذا مرة فعدت إليه، ثم تركني العمل فلم أعد بعد ذلك إليه.

وقيل: إن أبا عمرو بن نجيد في ابتداء أمره اختلف إلى مجلس أبي عثمان، فأثر في قلبه كلامه فتاب، ثم وقعت له فترة(٣)، فكان يهرب من أبي عثمان إذا رآه ويتأخر عن مجلسه، فاستقبله أبو عثمان يوماً فحاد أبو عمرو عن طريقه وسلك طريقاً آخر، فتبعه أبو عثمان، فما زال يقفو أثره حتى لحقه، فقال له: يا بني لا تصحب من لا يحبك إلا معصوماً، إنما ينفعك أبو عثمان في مثل هذه الحالة، قال: فتاب أبو عمرو بن نجيد وعاد إلى الإرادة وسار فيها. سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: تاب بعض المريدين، ثم وقعت له فترة فكان يفكر وقتاً لو عاد إلى توبته كيف يكون حكمه؟ فهتف به هاتف: يا فلان أطعتنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا قبلناك، فعاد الفتى إلى الإرادة ونفذها.

(١) الآية في سورة الرعد آية ٣٨ قوله تعالى ﴿لكل أجل كتاب﴾.

(٢) الكركي: جمع كراكي، وهو طائر كبير من فصيلة الكركيات، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتر الذنب، نحيف الجسم، يأوي الى الماء.

(٣) الفترة: جمع فترات، وهي حالة مرضية، أو ما بين النوبتين من الحمى، أو الانكسار والضعف.

فإذا ترك المعاصي وحلت عن قلبه عقدة الإصرار، وعزم على أن لا يعود إلى مثله، فإن الندم الصادق يخلص إلى قلبه، فيتأسف على ما عمله ويأخذ في التحسر على ما صنعه من أحواله، وارتكبه من قبيح أعماله، فتمت توبته، وصدقت مجاهدته، واستبدل بمخالطته العزلة، وبصحبته مع إخوان السوء الخلوة، ووصل ليله بنهاره في التلهف، واعتنق في أغلب أحواله صدق التأسف، مما محا بصوب عبرته آثار عثرته، وأخذ يأسو بحسن توبته كلوم حوبته(١)، يعرف من بين أمثاله بذبوله، ويستدل على صحة حاله بنحوله، لم يتم له شيء من ذلك إلا بعد فراغه من إرضاء خصومه، والخروج عما لزمه من مظالمه، فإن أول منزلة من التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه، فإن اتسعت ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم، أو سمحت أنفسهم بإحلاله والبراءة عنه. وإلا فالعزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان، والرجوع إلى الله بصدق الابتهال والدعاء لهم.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة أوسطهما.

فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب لمراعاة للأمر، لا لرغبة في الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة.

ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

والإنابة صفة الأولياء والمقربين، قال الله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾(٣).

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٤)(٥).

---

(١) الحوبة: الهم والإثم والذنب

(٢) الآية: سورة النور - ٣١.

(٣) الآية: سورة ق - ٣٣.

(٤) الآية: سورة ص - ٤٤.

(٥) يمدح سيدنا أيوب عليه السلام لقاء صبره ورجوعه دائماً إلى الله.

سمعت الجنيد يقول: التوبة على ثلاثة معان: أولها الندم، وثانيها العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عنه، وثالثها السعي في أداء المظالم.

وقال سهل بن عبد الله: التوبة ترك التسويف.

وقال الجنيد: دخلت على السري يوماً فرأيته متغيراً، فقلت له: مالك؟ فقال: دخل علي شاب فسألني عن التوبة، فقلت له: لا تنس ذنبك، فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت: إن الأمر عندي ما قاله الشاب، فقال: لم قلت؟ قال: لأني كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء، فسكت.

وسئل سهل بن عبد الله عن التوبة، فقال: أن لا تنسى ذنبك.

وسئل الجنيد عن التوبة فقال: أن تنسى ذنبك.

قال أبو نصر السراج: أشار سهل إلى أحوال المريدين المتعرضين تارة لهم وتارة عليهم، فأما الجنيد فإنه أشار الى توبة المحققين، فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله ودوام ذكره.

وسئل ذو النون المصري عن التوبة، فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة.

وقال النوري: التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عز وجل.

قال عبد الله التميمي: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات.

وقال الواسطي: التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثراً من المعصية سراً ولا جهراً.

يقول يحيى بن معاذ: إلهي لا أقول تبت، ولا أعود لما أعرف من خلقي، ولا اضمن ترك الذنوب لما أعرف من ضعفي.

وقال ذو النون المصري: الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكاذبين.

وسُئل البوشنجي عن التوبة فقال: إذا ذكرت الذنب، ثم لم تجدْ حلاوته عند ذكره فهو التوبة.

وقال ذو النون المصري: حقيقة التوبة أنْ تضيق عليك الأرض بما رَحُبت حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

وقال ابن عطاء: التوبة توبتان: توبة الإنابة وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرمه.

وقيل لأبي حفص: لماذا يكره التائب الدنيا؟ فقال: لأنها دار باشر فيها الذنوب، فقيل له أيضاً: هي دار أكرمه الله فيها بالتوبة، فقال: إنه من الذنب على يقين، ومن قبول توبته على خطر.

وقال بعضهم: توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم، يعني أنهم يقتصرون على قولهم: أستغفر الله.

وسُئل أبو حفص عن التوبة، فقال: ليس للعبد في التوبة شيء، لأنَّ التوبة إليه لا منه.

وقيل: أوحى الله سبحانه إلى آدم عليه السلام: يا آدم ورّثتَ ذريتك التعب والنصب وورّثتهم التوبة، من دعاني منهم لبيته كتلبيتك، يا آدم أحشر التائبين من القبور مستبشرين بي ضاحكين ودعاؤهم مستجاب.

وقال رَجل لرابعة العدوية: إني قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصي، فلو تبتُ هل يتوب الله عليّ؟ فقالت: لا، بل لو تاب عليك لتبت.

واعلمْ أن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾(٢)، ومَنْ قارف الزلة فهو من خطئه على يقين، فإذا تاب فإنه من القبول على شك، لا

---

(١) الآية: سورة التوبة ـ ١١٨.

(٢) الآية: سورة البقرة ـ ٢٢٢.

سيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقاً لمحبّة الحق، وإلى أن يبلغ العاصي محلاً يجد في أوصافه أمارة محبة الله إياه مسافة بعيدة، فالواجب إذاً على العبد إذا علم أنه ارتكب ما تجب منه التوبة دوام الانكسار وملازمة التنصل والاستغفار، كما قالوا: استشعار الوجل الى الأجل، وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(١)، وكان من سننه ﷺ دوام الاستغفار، وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»(٢).

سمعت يحيى بن معاذ يقول: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها.

سمعت أبا عثمان يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾(٣) قال: رجوعهم، وإن تمادى بهم الجولان في المخالفات.

سمعت أبا عمرو الأنماطي يقول: ركب علي بن عيسى الوزير في موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: من هذا؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق: إلى متى تقولون: من هذا من هذا؟ هذا عبد سقط من عين الله فابتلاه الله بما ترون، فسمع علي بن عيسى ذلك، فرجع إلى منزله واستعفى من الوزارة، وذهب إلى مكة وجاور فيها.

٢ - المجاهدة

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

وعن أبي سعيد الخدري(٥) قال: سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الجهاد،

---

(١) الآية: سورة آل عمران - ٣١.

(٢) الحديث: رواه الصحابي أغر مزينة، وأخرجه مسلم في باب الاستغفار رقم ٢٧٠٢ في الذكر، كذلك أبو داود رقم ١٥١٥ في الصلاة باب في الاستغفار.

(٣) الآية: سورة الغاشية - ٢٦.

(٤) الآية: سورة العنكبوت - ٦٩

(٥) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي (١٠ ق هـ - ٧٤ هـ / ٦١٣ - =

فقال: (كلمة عدل عند سلطان جائر)(١) ودمعت عينا أبي سعيد.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: من زين ظاهره بالمجاهدة حسّن الله سرائره بالمشاهدة، واعلمْ أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمّة تنير له الطريق.

ويقول أبو عثمان المغربي: من ظن أنه يُفتح له شيء من هذه الطريقة، أو يُكشف له عن شيء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو مخطىء.

وقد سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: من لم يكن في بدايته قائماً لم يكن في نهايته جالساً. وسمعته أيضاً يقول: الحركة بركة. وقال أيضاً: حركات الظواهر توجب بركات السرائر.

سمعت السري يقول: يا معشر الشباب جدّوا قبل أنْ تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصّروا، كما ضعفتُ وقصّرتُ، وقد كان الشباب في ذلك الوقت لا يستطيعون مجاراة السري في العبادة.

سمعت الحسن القزاز يقول: بُني هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أنْ لا تأكل إلاّ عند الفاقة، ولا تنام(٢) إلاّ عند الغلبة، ولا تتكلمْ إلاّ عند الضرورة(٣).

سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجتاز ست عقبات: أولها: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة. والثاني: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل. والثالث: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد. والرابع:

= ٦٩٣ م): صحابي، من ملازمي الرسول، غزا اثنتي عشرة غزوة. وله ١١٧٠ حديثاً. توفي في المدينة المنورة.

(١) الحديث: رواه أبو سعيد الخدري وأخرجه الترمذي رقم ١٢٧٥ في الفتن، وأبو داود في الملاحم ٢/٤٣٨، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وابن ماجة في سننه رقم ٤٠١١ في الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنسائي في البيعة ٧/١٦١ باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، وحسّنه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/١٦٨.

(٢) لا تنام: أي لا تهمل فعل الطاعات.

(٣) لعموم خبر: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. ولقوله تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ سورة النساء: ١١٤.

(١) وفي نسخة = وسمعته يقول سمعت منصور بن عبدالله يقول سمعت أبا علي ... الخ

أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر. والخامس: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر. والسادس: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

يقول أبو عمرو بن نجيد: من كرمت عليه نفسه(١) هان عليه دينه وسمعته.

سمعت أبا علي الروذباري يقول: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالكسب، واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

وللنفس صفتان تمنعانها من الخير: انهماكها في الشهوات وامتناعها عن الطاعات، فإذا جمحت عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى، وإذا ثارت عند غضبها فمن الواجب مراعاة حالها، فما من منازلة أحسن عاقبة من غضب يكسر سلطانه بخلق حسن، وتخمد نيرانه برفق، فإذا استحلت شراب الرعونة فضاقت عن كل شيء إلا عن إظهار مناقبها والتزين لمن ينظر إليها ويلاحظها، فمن الواجب كسر ذلك عليها وإحلالها بعقوبة الذل بما تذكرها من حقارة قدرها وخساسة أصلها وقذارة فعلها؛ وجهد العوام في توفية الأعمال، وقصد الخواص إلى تصفية الأحوال، فإن مقاساة الجوع والسهر سهل يسير، ومعالجة الأخلاق والبعد عن سفسافها صعب شديد.

ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح، فإن من تحسى منه جرعة حمل السماوات والأرضين على شفر من أشفاره(٢)، وأمارة ذلك أنه إذا انقطع عنه ذلك الشرب آل حاله الى الكسل والفشل.

ويروى عن أبي محمد المرتعش أنه قال: حججت كذا حجة على التجريد، فظهر لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي، وذلك أن والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كانت لحظ وشوب(٣) لنفسي، إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع.

---

(١) من كرمت عليه نفسه ووافقها فيما تحب من الشهوات وترك مشقة الطاعات.

(٢) الشفر واحد (أشفار) العين وهي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشَّعر وهو الهدب.

(٣) الشوب: الخلط.

وسئلت امرأة قد طعنت في السن عن حالتها، فقالت: كنت في حال الشباب أجد من نفسي نشاطاً وأحوالاً لا أجدهما اليوم، فلما كبرت زال ذلك عني.

وسمعت ذا النون المصري يقول: ما أعز الله عبداً بعز أعز له من أن يدله على ذل نفسه، وما أذل الله عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه.

يقول إبراهيم الخواص: ما هالني شيء إلا ركبته(١).

وقال محمد بن الفضل: الراحة الخلاص من أماني النفس(٢).

وسمعت أبا علي الروذباري يقول: دخلت الآفة على الخلق من ثلاثة: سقم الطبيعة، وملازمة العادة، وفساد الصحبة. فسألته: ما سقم الطبيعة؟ فقال: أكل الحرام. فقلت: ما ملازمة العادة؟ فقال: النظر والاستمتاع بالحرام والغيبة. قلت فما فساد الصحبة؟ قال: كلما هاجت الشهوة في النفس تبعتها النفس(٣).

وسمعت النصر آباذي يقول: سجنك نفسك، فإذا خرجت منها وقعت في راحة أبدية. وسمعته يقول: سمعت محمد الفراء يقول: سمعت أبا الحسين الوراق يقول: كان أجل أحكامنا في مبتدأ أمرنا في مسجد أبي عثمان الحيري الإيثار بما يفتح علينا، وأن لا نبيت على معلوم، ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم لأنفسنا، بل نعتذر إليه، ونتواضع له، وإذا وقع في قلوبنا احتقار أحد قمنا بخدمته والإحسان إليه حتى يزول.

وقال أبو جعفر: النفس كلها ظلمة، وسراجها سرها، ونور سراجها التوفيق، فمن لم يصحبه في سره توفيق من ربه كان ظلمة كله. قلنا: ومعنى قوله (سراجها سرها) يريد سر العبد الذي بينه وبين الله تعالى، وهو محل إخلاصه، وبه يعرف العبد أن الحادثات بالله لا بنفسه، ولا من نفسه ليكون متبرئاً من حوله وقوته على استدامة أوقاته، ثم يعتصم بالتوفيق من شرور نفسه، فإن من لم يدركه التوفيق لم ينفعه علمه بنفسه ولا بربه، ولهذا قال المشايخ: من لم يكن له سر فهو مصر.

(١) والمعنى: ما خفت من شيء إلا وجدت في نفسي رغبة للسيطرة عليه والتفوق.

(٢) أماني النفس: أي شهواتها ورغباتها.

(٣) فالصحبة التي بها نجاة النفس أن يخالف العبد هواها ويحملها على ما طلبه منها ربها.

وقال أبو عثمان: لا يرى أحد عيب نفسه وهو مستحسن من نفسه شيئاً، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال. وقال أبو حفص: ما أسرع هلاك من لا يعرف عيبه، فإن المعاصي بريد الكفر.

وقال أبو سليمان: ما استحسنت من نفسي عملاً فاحتسبت به.

وقال السري: إياكم وجيران الأغنياء وقرّاء الأسواق وعلماء الأمراء.

وقال ذو النون المصري: إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء: الأول: ضعف النية بعمل الآخرة. والثاني: صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم. والثالث: غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل. والرابع آثروا رضا المخلوق على رضا الخالق. والخامس: اتبعوا أهواءهم وتركوا سنة نبيهم ﷺ وراء ظهورهم. والسادس: جعلوا زلات اللسان حجة لأنفسهم، ودفنوا كثيراً من مناقبهم.

٣ ـ الخلوة والعزلة

حدثنا أبو هريرة(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من خير معايش الناس كلهم رجلاً آخذاً بعنان فرسه في سبيل الله، إن سمع فزعة أو هيعة(٢) كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مظانه(٣)، أو رجلاً في غنيمة له في رأس شعفة(٤) من هذه الشعاف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه، حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»(٥).

إن الخلوة صفة أهل الصفوة؛ والعزلة من أمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه(٦)

---

(١) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي (٢١ ق هـ ٥٩ هـ/ ٦٠٢ ـ ٦٧٩ م) صحابي يتيم. أسلم سنة ٧ هـ ولازم النبي فروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً. ولي إمرة المدينة ثم البحرين.

(٢) الهيعة: كل ما أفزعك من صوت أو فاحشة.

(٣) المظان: مفرده مظنة الشيء، وهو موضعه ومألفه الذي يظن فيه وجوده.

(٤) الشعفة: رأس الجبل، وجمعها شعف وشعوف وشعاف.

(٥) الحديث: رواه أبو هريرة، وأخرجه: مسلم في الإمارة رقم ١٨٨٩ باب فضل الجهاد والرباط وابن ماجة في كتاب الفتن باب العزلة رقم ٣٩٧٧.

(٦) وحقيقة الخلوة الانقطاع من الخلق إلى الحق لأنه سفر من النفس إلى القلب، ومن القلب إلى الروح، ومن الروح الى السر، ومن السر إلى واهب الكل.

ومن حق العبد إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق، فإن الأول من القسمين: نتيجة استصغار نفسه، والثاني شهود مزيته على الخلق، ومن استصغر نفسه فهو متواضع، ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر.

ورؤي بعض الرهبان فقيل له: إنك راهب، فقال: لا بل أنا حارس كلب، إن نفسي أشبه بالكلب الذي يعقر الخلق، وقد أخرجتها من بينهم ليسلموا منها.

ومر إنسان بشيخ صالح، فجمع ذلك الشيخ ثيابه منه، فقال الرجل: لماذا تجمع عني ثيابك؟ هل ثيابي نجسة؟ فقال الشيخ: إن ثيابي هي النجسة، لقد جمعتها عنك حتى لا تنجس ثيابك.

ومن آداب العزلة أن يحصل من العلوم على ما يصحح به عقد توحيده، لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه، ثم يحصل من علوم الشرع على ما يؤدي به فرضه ليكون بناء أمره على أساس محكم، والعزلة في الحقيقة اعتزال الخصال الذميمة، فالتأثير لتبديل الصفات لا للتنائي عن الأوطان، ولهذا قيل: من العارف؟ قالوا: كائن بائن، يعني: كائن مع الخلق، بائن عنهم بالسر.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: البس مع الناس ما يلبسون. وتناول مما يأكلون، وانفرد عنهم بالسر. وسمعته يقول: جاءني إنسان، وقال لي: جئتك من مسافة بعيدة، فقلت: ليس هذا الحديث من حيث قطع المسافات ومقاساة الأسفار، وفارق نفسك بخطوة، وقد حصل مقصودك.

ويروى عن أبي يزيد أنه قال: رأيت ربي عز وجل في المنام، فقلت: كيف أجدك؟ قال: فارق نفسك وتعال.

سمعت أبا عثمان المغربي يقول: من اختار الخلوة على الصحبة ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخالياً من جميع الإرادات إلا رضا ربه، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية.

وقيل: الإنفراد في الخلوة أجمع لدواعي السلوة.

سمعت محمد بن حامد يقول: جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الوراق، فلما أراد ان يرجع قال له: أوصني، فقال: وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة، وشرهما في الكثرة والاختلاط.

سئل أبو محمد الجريري عن العزلة، فقال: هي الدخول بين الزحام، وتمنع سرك أن لا يزاحموك، وتعزل نفسك عن الأنام، ويكون سرك مربوطاً بالحق.

وقيل: من آثر العزلة حصل العز له.

وقال سهل: لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله.

وقال ذو النون المصري: لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة.

وقال أبو عبد الله الرملي: ليكن خدنك(١) الخلوة، وطعامك الجوع، وحديثك المناجاة، فإما أن تموت وإما أن تصل إلى الله تعالى. وقال ذو النون: ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله تعالى.

يقول الجنيد: مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة(٢).

وقال مكحول الشامي: إن كان في مخالطة الناس خير فإن في العزلة السلامة.

وقال يحيى بن معاذ: الوحدة جليس الصديقين.

سمعت الشيخ أبا علي الدقاق يقول: سمع الشبلي يقول: الإفلاس الإفلاس يا ناس، فقيل له يا أبا بكر ما علامة الإفلاس؟ قال: من علامات الإفلاس الاستئناس بالناس.

وقال يحيى بن أبي كثير: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راآهم(٣).

وقال سعيد بن حرب: دخلت على مالك بن مسعود بالكوفة وهو في داره وحده، فقلت له: ألا تستوحش وحدك؟ فقال: ما كنت أرى أن أحداً يستوحش مع الله تعالى.

---

(١) الخدن: الحبيب والصاحب، وهي كلمة تستعمل للمذكر وللمؤنث.

(٢) وذلك لاختلاف أخلاق الناس، وما يبدو من أذاهم، وما يحتاج إليه معهم من الحلم والصفح.

(٣) راآهم: أراهم خلاف ما هو عليه.

سمعت الجنيد يقول: من أراد أن يسلم له دينه، ويستريح بدنه وقلبه، فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة. وسمعته يقول: سمعت أبا بكر الرازي يقول: قال أبو يعقوب السوسي: لا يقوى على الانفراد إلا الأقوياء، ولأمثالنا الاجتماع أوفر وأنفع.

يقول أبو العباس الدامغاني أوصاني الشبلي فقال: الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت.

وجاء رجل إلى شعيب بن حرب، فقال له: ما جاء بك؟ فقال: لأكون معك. قال: يا أخي إن العبادة لا تكون بالشركة، ومن لم يستأنس بالله لم يستأنس بشيء.

وقيل لبعضهم: ما أعجب ما لقيت في سياحتك؟ فقال: لقيني الخضر فطلب مني الصحبة، فخشيت أن يفسد علي توكلي.

وقيل لبعضهم: هل ههنا أحد تستأنس به؟ فقال: نعم، ومد يده إلى مصحفه ووضعه في حجره وقال: هذا، وفي هذا المعنى أنشدوا.

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي   وفيها شفاء للذي أنا كاتم

وقال رجل لذي النون المصري: متى تصح لي العزلة؟ فقال: إذا قويت على عزلة نفسك.

وقيل لابن المبارك: ما دواء القلب؟ فقال: قلة الاختلاط بالناس.

وقيل: إذا أراد الله تعالى أن ينقل العبد من ذل المعصية الى عز الطاعة آنسه بالوحدة، وأغناه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطي ذلك فقد أعطي خير الدنيا والآخرة.

٤ ـ التقـوى

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(١).

حدثنا أبو سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله

---

(١) الآية: سورة الحجرات ـ ١٣.

أوصني، فقال: «عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية(١) المسلم، وعليك بذكر الله فإنه نور لك»(٢).

سمعت أنساً يقول: قيل يا نبي الله من آل محمد؟ قال: كل تقي، فالتقوى جماع الخيرات، وحقيقة الاتقاء التحرز بطاعة الله من عقوبته، يقال: اتقى فلان بترسه، وأصل التقوى اتقاء الشرك، ثم بعد ذلك اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعد ذلك اتقاء الشبهات، ثم بعد ذلك ترك الفضلات.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: ولكل قسم من ذلك باب، وجاء في تفسير قوله عز وجل: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾(٣) أن يطاع فلا يعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويُشكر فلا يكفر.

يقول سهل بن عبد الله: لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر(٤).

يقول الكتاني: قسمت الدنيا على البلوى، وقسمت الآخرة على التقوى.

يقول الجريري: من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقال النصر آباذي: التقوى أن يتقي العبد ما سواه تعالى؛ وقال سهل: من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها.

وقال النصر آباذي: من التزم بالتقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا لأن الله سبحانه يقول: ﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٥).

---

(١) الرهبة: الخوف، والترهب: التعبد، والراهب جمع رهبان، وهو من اعتزال الناس إلى دير طلباً للعبادة.

(٢) قال في كنز العمال ١٥/ص ٨٦٤ رقم ٤٣٤٣٧ رواه ابن الضريس عن أبي سعيد وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير ٢/٥٤٣٥.

(٣) الآية: سورة آل عمران - ١٠٢.

(٤) إن الله يبتلي عبده بالمرض والفقر وغيرهما، فإن صبر على ما هو مؤلم أثابه الله، وإن شكر على النعم أثابه الله تعالى.

(٥) الآية: سورة الأنعام - ٣٢.

وقال بعضهم: من تحقق في التقوى هوّن الله على قلبه الإعراض عن الدنيا.

وقال أبو بكر محمد الروذباري: التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى.

وقال ذو النون المصري: التقي من لا يدنّس ظاهره بالمعارضات ولا باطنه بالعلامات، ويكون واقفاً مع الله موقف الاتفاق.

يقول ابن عطاء: للتقوى ظاهر وباطن، ظاهرها محافظة الحدود، وباطنها النية والإخلاص. وقال ذو النون المصري:

فلا عيش إلّا مع رجال قلوبهم تحنّ إلى التقوى وترتاح للذكر(١)
سكون إلى روح اليقين وطيبه كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وقيل: يُستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: بحسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما قد مضى.

وقال طلق بن حبيب: التقوى عمل بطاعة الله، على نور الله.

ويروى عن أبي حفص أنه قال: التقوى في الحلال المحض لا غير.

يقول أبو الحسين الزنجاني: من كان رأس ماله التقوى كلّت الألسن عن وصف ربحه.

وقال الواسطي: التقوى أن يتقي (الإنسان) من تقواه، يعني من رؤية تقواه، والمتقي مثل ابن سيرين (حيث) اشترى أربعين حباً(٢) سمناً، فأخرج غلامه فاراً من حبّ، فسأله ابن سيرين: من أي حبّ أخرجتها؟ فقال الغلام: لا أدري، فصبها ابن سيرين كلها على الأرض.

واشترى أبو يزيد بهمذان حبّ القرطم(٣)، ففضل منه شيء، فلما رجع إلى

---

(١) وجدنا في إحدى النسخ المخطوطة: (بالذكر) بدلاً من (للذكر).

(٢) الحب: نوع من المكاييل، كان يستعمل قديماً وهو بمقدار جرة كبيرة أو خابية.

(٣) القرطم: العصفر وهو نبات زراعي صبغي، من فصيلة المركبات الأنبوبية الزهر.

بسطام(١) رأى فيه نملتين فرجع إلى همذان(٢) ووضع النملتين.

ويروى أن أبا حنيفة كان لا يجلس في ظل شجرة غريمه(٣)، وجاء في الحديث الشريف: «كل قرض جر نفعاً فهو ربا»(٤).

وقيل: إن أبا يزيد غسل ثوبه في الصحراء وكان معه صاحب، فقال له صاحبه: نعلق الثوب في جدار الكرم، فقال: لا تغرز الوتد في جدار الناس. فقال: نعلقه على الشجر، قال: لا إنه يكسر الأغصان. فقال: نبسطه على الإذخر(٥)، فقال: لا، إنه علف الدواب لا نستره عنها، فولى ظهره إلى الشمس، والقميص على ظهره، حتى جف جانب منه، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر.

وقيل: أن أبا يزيد دخل يوماً الجامع فغرز عصاه في الأرض، فسقطت ووقعت على عصا شيخ بجانبه كان قد ركز عصاه في الأرض، فانحنى الشيخ وأخذ عصاه ومضى أبو يزيد إلى بيت الشيخ واستحله(٦)، وقال: كان السبب في انحنائك تفريطي في غرز عصاي حيث احتجت إلى أن تنحني.

ورؤي عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقاً في الشتاء، فقيل له في ذلك فقال: إنه مكان عصيت الله فيه، فسئل عنه، فقال: كشطت من هذا الجدار قطعة طين، غسل بها ضيف لي يده، ولم استحل من صاحبه.

وقال إبراهيم بن أدهم: نمت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس(٧) فلما كان

---

(١) بسطام: بلدة بخراسان على منحدرات جبال البرز، كانت في القرون الوسطى محطة تجارية هامة.

(٢) همذان: مدينة في جنوبي إيران. فيها قبر ابن سينا. فتحها المغيرة بن شعبة عام ٢٤ هـ.

(٣) غريمي: هو الإنسان الذي أدنته مبلغاً من المال.

(٤) الحديث: قال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ص ص/ ١٦٤ رقم ١٩٩١ رواه الحارث عن أبي أسامة في مسنده عن علي رفعه، قال في التمييز: وإسناده ساقط، وهو مشهور على الألسنة، ا. هـ. كلام العجلوني وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ص ٢٤٠ رقم ٦٣٣٦.

(٥) الإذخر: العشب الأخضر.

(٦) استحلّه: طلب منه المسامحة والعفو.

(٧) بيت المقدس: مدينة في فلسطين يقدسها اليهود والمسيحيون والمسلمون فيحجون إليها من =

بعض الليل نزل ملكان، فقال أحدهما لصاحبه: من هذا؟ فقال الآخر: إنه إبراهيم ابن أدهم، فقال: ذاك الذي خفض الله له درجة من درجاته، فقال: لماذا؟ قال: لقد اشترى من البصرة(١) تمراً، فوقعت تمرة من تمر البقال على تمره ولم يرجعها إلى صاحبها، قال إبراهيم: فسافرت إلى البصرة واشتريت تمراً من ذلك الرجل وأوقعت تمرة على تمره، ثم رجعت إلى بيت المقدس ونمت تحت الصخرة، فلما كان بعض الليل إذا أنا بملكين نزلا من السماء، فقال أحدهما لصاحبه: من هذا؟ فقال الآخر: إنه إبراهيم بن أدهم، فقال: إنه ذاك الذي رد الله تعالى مكانته ورفع درجته.

وقيل: التقوى على وجوه: للعامة تقوى الشرك، وللخاصة تقوى المعاصي، وللأولياء تقوى التوسل بالأفعال، وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال إذ تقواهم منه إليه.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(٢) رضي الله عنه قال: سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء.

حدثنا أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «من نظر إلى محاسن امرأة، فغض بصره في أول مرة، أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه»(٣).

كان الجنيد جالساً مع رويم والحريري وابن عطاء، فقال الجنيد: ما نجا من

= جميع الأقطار، لليهود حائط المبكى، وللمسيحيين كنيسة القيامة، وللمسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

(٣) البصرة: مرفأ في العراق على شط العرب، ومنه يصدّر بترول العراق بحراً. ازدهرت في القرن التاسع أيام العباسيين، وكانت مع الكوفة مهداً للدروس اللغوية العربية. وهي مسقط رأس حسن البصري والأشعري والحريري.

(٢) علي بن أبي طالب (٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١ م): هاشمي قرشي. رابع الخلفاء الراشدين وأول العشرة المبشرين. وابن عم النبي وصهره. ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء وأول الرجال إسلاماً. ولد بمكة.

(٣) الحديث: رواه أبو أمامة، وأخرجه أحمد في مسنده ٥/٢٦٤، وعزاه الهندي في كنز العمال إلى الطبراني ٥/ص ٣٢٧ رقم ١٣٠٥٩.

نجا إلا بصدق اللجاء[1]، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾[2].

وقال رويم: مَا نجا من نجا إلا بصدق التقى، قال الله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ، لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

وقال الجريري: ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفاء، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ، وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾[4].

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[6].

وقيل أيضاً: ما نجا من نجا إلا بما سبق له من الاجتباء[7]، قال الله تعالى: ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ، وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[8].

٥ - الـورع

قال أبو ذر الغفاري[9]: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[10].

---

(١) اللجاء: المعقل والملاذ.

(٢) الآية: سورة التوبة - ١١٨.

(٣) الآية: سورة الزمر - ٦١.

(٤) الآية: سورة الرعد - ٢٠.

(٥) الآية: سورة العلق - ١٤.

(٦) الآية: سورة الأنبياء - ١٠١.

(٧) الاجتباء: الاختيار والاصطفاء.

(٨) الآية: سورة الأنعام - ٨٧.

(٩) أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري (توفي ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م): من بني غفار: صحابي، قديم الإسلام، مثالي في الصدق. سكن دمشق.

(١٠) الحديث: أخرجه مالك بن أنس في الموطأ ٢/٩٠٣ في حسن الخلق باب ما جاء في حسن الخلق، والترمذي رقم ٢٣١٨ - ٢٣١٩ في الزهد باب رقم (١١) من حديث مالك بن أنس، وابن ماجة رقم ٣٩٧٦ في الفتن باب كف اللسان في الفتنة، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقال الأستاذ الإمام رضي الله عنه: أما الورع فإنه ترك الشبهات، كذلك قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: كنا ندع سبعين[1] باباً من الحلال، مخافة أن نقع في باب من الحرام.

وقال محمد ﷺ لأبي هريرة: ﴿ كن ورعاً تكن أعبد الناس ﴾[2].

سمعت السري يقول: كان أهل الورع في أوقاتهم أربعة: حذيفة المرعشي ويوسف بن أسباط وإبراهيم بن أدهم وسليمان الخواص، فنظروا في الورع، فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل.

وسمعت الشبلي يقول: الورع أن تتورع عن كل ما سوى الله تعالى.

حدثنا إسحاق بن خلف قال: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة لأنك تبذل لهما في طلب الرياسة.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضا.

وقال أبو عثمان: ثواب الورع خفة الحساب.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل.

وقيل: وقع من عبد الله بن مروان فلس في بئر قذرة فاكترى عليه بثلاثة عشر

---

(١) المراد بلفظ (السبعين) في القرآن الكريم هو مجرد المبالغة في العدد، ولهذا السبب ورد لفظ السبعين في القرآن الكريم ثلاث مرات: الأولى: (في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) سورة الحاقة - ٣٢، والثانية: (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) سورة الأعراف - ١٥٥، والثالثة: ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ سورة التوبة - ٨٠.

(٢) الحديث: رواه أبو هريرة وأخرجه ابن ماجة رقم ٤٢١٧ في الزهد باب الورع والتقوى، وحسّنه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال صاحب كنز العمال ١٦/ ص ٢٤٣ رقم ٤٤٣١٤. رواه الطبراني في الأوسط، وابن صصري في أماليه عن أبي هريرة والبيهقي. ا. هـ.

ديناراً حتى أخرجه، فقيل له في ذلك فقال: كان عليه اسم الله تعالى.

وسمعت يحيى بن معاذ يقول: الورع على وجهين: ورع في الظاهر وهو أن لا يتحرك إلا لله تعالى، وورع في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سواه تعالى.

وقال يحيى بن معاذ: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقيل: من دق في الدين نظره جل في القيامة خطره(١).

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة.

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك تركته.

وقال معروف الكرخي: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

وقال بشر بن الحارث: أشد الأعمال ثلاثة: الجود في القلة، والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى.

وقيل جاءت أخت بشر الحافي إلى أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال أحمد: من أنت عافاك الله تعالى؟ فقالت: أخت بشر الحافي، فبكى أحمد، وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها.

وقال علي العطار: مررت في بعض شوارع البصرة، فإذا مشايخ قعود وصبيان يلعبون، فقلت: أما تستحيون من هؤلاء المشايخ؟ فقال صبي من بينهم: لقد قل ورع هؤلاء المشايخ فقلت هيبتهم.

وقيل: إن مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة فلم يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها حتى مات، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال: يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص منه شيء ولا زاد.

---

(١) أي عظمت في القيامة منزلته.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: ألا تشرب من ماء زمزم؟ فقال: لو كان لي دلو لشربت.

كان الحارث المحاسبي إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال.

وقيل: إن بشر الحافي دعي إلى دعوة فوضع بين يديه طعام فجهد أن يمد يده فلم تمتد، ففعل ذلك ثلاث مرات، فقال رجل يعرف ذلك منه: إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة، ما كان أغنى صاحب الدعوة أن يدعو هذا الشيخ.

وسئل سهل بن عبد الله عن الحلال الصافي، فقال: هو الذي لا يعصى الله تعالى فيه، وقال سهل: الحلال الصافي هو الذي لا ينسى الله تعالى فيه.

ودخل الحسن البصري مكة فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة المعظمة يعظ الناس، فوقف عليه الحسن، وقال: ما ملاك الدين؟ فقال: الورع. قال: فما آفة الدين؟ فقال: الطمع، فتعجب الحسن منه، وقال: مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وقال أبو هريرة: جلساء الله تعالى غداً أهل الورع والزهد.

وقال سهل بن عبد الله: من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع.

وقيل: حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك (١) من الغنائم فقبض على مشامه(٢)، وقال: إنما ينتفع من هذا بريحه، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.

وسئل أبو عثمان الحيري عن الورع، فقال: كان أبو صالح حمدون القصار عند صديق له، وهو في النزع(٣)، فمات الرجل، فنفخ أبو صالح في السراج فقيل له

---

(١) المسك: نوع من الرائحة الطيبة المباركة المعروفة.

(٢) المشام: موضع الشم منه.

(٣) النزع: حالة المريض المشرف على الموت. أو الذي يعاني سكرات الموت.

في ذلك، فقال: إلى الآن كان الدهن في المسرجة(١) له، ومن الآن صار للورثة، اطلبوا دهناً غيره.

وقال هامساً: أذنبت ذنباً أبكي عليه منذ أربعين سنة، وذلك أنه زارني أخ لي فاشتريت بدانق(٢) سمكة مشوية، فلما فرغ أخذت قطعة طين، من جدار جار لي، حتى غسل يده، ولم أستحله.

وكان رجل يكتب رقعة وهو في بيت بكراء(٣) فأراد أن يترب الكتاب من جدار البيت، فخطر بباله أن البيت بالكراء، ثم إنه خطر بباله أنه لا خطر لهذا فترب الكتاب، فسمع هاتفاً يقول: سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غداً من طول الحساب.

ورهن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى سطلاً له عند بقال بمكة المكرمة حرسها الله تعالى، فلما أراد فكاكه أخرج البقال إليه سطلين، وقال: خذ أيهما لك، فقال أحمد: أشكل علي سطلي فهو لك والدراهم لك، فقال البقال: سطلك هذا وإنما أردت أن أجربك، فقال: لا آخذ ومضى، وترك السطل عنده (تورعاً).

وقيل: سيب ابن المبارك دابة قيمتها كبيرة، وصلى صلاة الظهر، فرتعت الدابة في زرع قرية سلطانية(٤)، فترك ابن المبارك الدابة ولم يركبها.

وقيل: رجع ابن المبارك من مرو(٥) إلى الشام(٦) في قلم استعاره فلم يعيده إلى صاحبه.

---

(١) المسرجة: السراج وهو إناء يجعل فيه زيت أو نحوه، فيصعد في فتيلة، وينحل إلى مواد مشتعلة في طرفها عند ما تمسه النار فيستضاء به.

(٢) الدانق: لفظة فارسية، جمعها دوانق ودوانيق، وتعني سدس الدرهم.

(٣) الكراء: الاستئجار.

(٤) سلطانية: أملاك أميرية.

(٥) مرو: مدينة في تركستان خاضعة لحكم السوفييت. فتحها العرب المسلمون ٦٥١ م. خرج منها أبو مسلم الخراساني.

(٦) الشام: كان يراد بها سابقاً سورية على العموم، كانت تقسم إلى سبعة أجناد في أيام العرب وهي: فلسطين والأردن وحمص ودمشق وقنسرين والعواصم والثغور.

واستأجر النخعي دابة فسقط سوطه من يده، فنزل وربط الدابة، ورجع فأخذ السوط فقيل له: لو حولت الدابة إلى الموضع الذي فيه سقط السوط فأخذته، فقال: إنما استأجرتها لأمضي هكذا لا هكذا.

وقال أبو بكر الدقاق: تهت في تيه بني إسرائيل خمسة عشر يوماً، فلمّا وافيت الطريق استقبلني جندي فسقاني شربة من ماء، فعادت قسوتها على قلبي ثلاثين سنة.

وقيل: خاطت رابعة العدوية شقاً في قميصها في ضوء شعلة سلطان، ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت، فشقت قميصها فوجدت قلبها.

ورؤي سفيان الثوري في المنام، وله جناحان يطير بهما في الجنة، فقيل له: بم نلت هذا؟ فقال: بالورع.

ووقف حسان بن أبي سنان على أصحاب الحسن فقال: أي شيء أشد عليكم؟ قالوا: الورع، فقال: ولا شيء أخف عليّ منه، فقالوا: فكيف؟ فقال: لم أرو من نهركم منذ أربعين سنة.

وكان حسان بن أبي سنان لا ينام مضطجعاً، ولا يأكل سميناً ولا يشرب ماءً بارداً ستين سنة، فرؤي في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: خيراً إلا أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها.

وكان لعبد الواحد بن زيد غلام خدمه سنين وتعبد أربعين سنة، وكان في ابتداء أمره كيالاً، فلما مات رؤي في المنام: فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: خيراً، غير أني محبوس عن الجنة، وقد أخرج عليّ من غبار القفيز(١) أربعين قفيزاً.

ومر عيسى عليه السلام بمقبرة فنادى أحد الأموات فأحياه الله تعالى، فقال: من أنت؟ فقال: كنت حمالاً أنقل للناس، فنقلت يوماً لإنسان حطباً، فكسرت منه خلالاً تخللت به، فأنا مطالب به منذ مت.

(١) القفيز: جمع أقفزة وقفزان وهو مكيال، والقفيز من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعاً.

وتكلم أبو سعيد الخراز في الورع فمرّ به عبّاس بن المهتدي فقال: يا أبا سعيد أما تستحيي أنْ تجلس تحت سقف أبي الدوانيق، وتشرب من بركة زبيدة، وتتعامل بالدراهم المزيفة، وتتكلم في الورع.

٦ ـ الزهـد

قال النبي ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة»(١).

قال الأستاذ الشيخ: اختلف الناسُ في الزهد: فمنهم من قال: الزهد في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى، فإذا أنعم الله سبحانه على عبده بمال من حلال وتعبده بالشكر عليه فتركه إياه باختياره لا يقدم على إمساكه بحق إذنه. ومنهم من قال: الزهد في الحرام واجب، وفي الحلال فضيلة، فإن إقلال المال والعبد صبر في حاله، راضٍ بما قسم الله تعالى له، قانع بما يعطيه أتمّ من توسعه وتبسطه في الدنيا. وإنّ الله تعالى زهّد الخلق في الدنيا بقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾(٢)، وغير ذلك من الآيات الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها. ومنهم من قال: إذا أنفق ماله في الطاعة، وعلم من حاله الصبر، وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه في حال العسر، فحينئذٍ: يكون زهده في المال الحلال أتم. ومنهم من قال: ينبغي للعبد أنْ لا يختار ترك الحلال بتكلفه، ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه، ويراعي القسمة فإن رزقه الله سبحانه وتعالى مالاً من حلال شكره، وإنْ وقفه الله تعالى على حد الكفاية لم يتكلف في طلب ما هو فضول المال، فالصبر أحسن بصاحب الفقر، والشكر أليق بصاحب المال الحلال.

قال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء(٣).

ويقول السري: إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه،

---

(١) الحديث: قال صاحب الكنز ٣/ص ١٨٣ رقم (٦٠٦٩): رواه أبو خلاد، وأخرجه عنه أبو نعيم والبيهقي ا. هـ، وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير ١/ص ٨٤ رقم: ٦٣٥.

(٢) الآية: سورة النساء ـ ٧٧.

(٣) العباء: جمع أعبئة، وهو نوع من اللباس كالعباءة، كساء مفتوح من الأمام ويُلبس فوق الثياب.

وأخرجها من قلوب وداده، لأنه لم يرضها لهم.

وقيل: الزهد من قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(١) فالزاهد لا يفرح بموجود في الدنيا، ولا يتأسف على مفقود منها.

وقال أبو عثمان: الزهد أن تترك الدنيا ثم لا تبالي بمن أخذها.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الزهد أن تترك الدنيا كما هي، لا تقول أبني رباطاً(٢) أو أبني مسجداً.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقال ابن خفيف: علامة الزهد وجود الراحة في الخروج عن الملك. وقال: الزهد سلو القلب عن الأسباب، ونفض الأيدي من الأملاك.

وقيل: الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

سمعت النصر آباذي يقول: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقيل: من صدق في زهده أتته الدنيا راغمة. ولهذا قيل: لو سقطت قلنسوة(٣) من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدها.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقد اختلف السلف في الزهد: فقال سفيان الثوري وأحمد بن حنبل وعيسى بن يونس وغيرهم: الزهد في الدنيا إنما هو قصر الأمل، وهذا الذي قالوه

---

(١) الآية: سورة الحديد - ٢٣.

(٢) الرباط: جمعها رباطات، وهي المعاهد المبنية والموقوفة للفقراء.

(٣) القلنسوة والقلنسية: جمع قلانس وقلانيس وقلاسي، وهي نوع من لباس الرأس، وهي على أشكال متعددة.

يحمل على أنه من أمارات الزهد والأسباب الباعثة عليه والمعاني الموجبة له.

وقال عبد الله بن المبارك: الزهد هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر، وبهذا قال شقيق البلخي، ويوسف بن أسباط، وهذا أيضاً من أمارات الزهد فإن العبد لا يقوى على الزهد إلا بالثقة بالله تعالى.

وقال عبد الواحد بن زيد: الزهد ترك الدينار والدرهم(١).

وقال أبو سليمان الداراني: الزهد ترك ما يشغل عن الله تعالى.

سمعت الجنيد وقد سأله رويم عن الزهد فقال: استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب.

وقال السري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه(٢)، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وسئل الجنيد عن الزهد فقال: خلو اليد من الملك، والقلب من التتبع.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: أن تزهد فيما سوى الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

وقال أبو حفص: الزهد لا يكون إلا في الحلال ولا حلال في الدنيا فلا زهد.

وقال أبو عثمان: إن الله تعالى يعطي الزاهد فوق ما يريد، ويعطي الراغب دون ما يريد، ويعطي المستقيم موافقة ما يريد.

وقال يحيى بن معاذ: الزاهد يسعطك الخل(٣) والخردل(٤)، والعارف

---

(١) الدرهم: جمع دراهم، وهو قطعة من فضة مضروبة للتعامل الاقتصادي، والدينار جمع دنانير، وهو أعلى أنواع النقود في القيمة المادية.

(٢) بغيرها من شهواتها الدنيوية.

(٣) الخل: جمع خلال وهو ما حمض من العصير أو من الخمر.

(٤) الخردل: مفرده خردلة، وهو نبات عشبي من فصيلة الصليبيات، ينبت برياً في الحقول مع الزرع أو على حافة الطرق، حبه صغير جداً، يستعمل في التوابل وهو ملين وهاضم.

يشمك المسك(١) والعنبر(٢).

وقال الحسن البصري: الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها.

وقيل لبعضهم: ما الزهد في الدنيا؟ قال: ترك ما فيها على من فيها.

وقال رجل لذي النون المصري: متى أزهد في الدنيا؟ فقال: عندما تزهد في نفسك.

وقال محمد بن الفضل: إيثار الزهد عند الاستغناء، وإيثار الفتيان عند الحاجة. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٣).

وقال الكتاني: الشيء الذي لم يخالف فيه كوفي ولا مدني ولا عراقي ولا شامي هو الزهد في الدنيا، وسخاوة النفس، والنصيحة للخلق، يعني: لا أحد من الناس يقول: إن هذه الأشياء غير محمودة.

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل، وألبس رداء الزهد، وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت في رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فإن لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل، ثم لا آمن عليك أن تفتضح.

وقال بشر الحافي: الزهد ملك لا يسكن إلا في قلب خال.

يقول محمد بن الأشعث البيكندي: من تكلم في الزهد، ووعظ الناس، ثم رغب في مالهم، رفع الله تعالى حب الآخرة من قلبه.

وقيل: إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله تعالى به ملكاً يغرس الحكمة في قلبه.

وقيل لبعضهم: لماذا زهدت في الدنيا؟ فقال: لزهدها فيّ.

---

(١) المسك: نوع من الطيب من دم الظبي، والقطعة من المسك تُدعى مسكة، وهناك نباتات تسمى: (مسك الروم، ومسك البر. ومسك الجن).

(٢) العنبر: نبات، يُعتبر نوعاً من الطيب، ويسمى الزعفران.

(٣) الآية: سورة الحشر - ٩.

وقال أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: قيل لبعضهم: لماذا زهدت في الدنيا؟ قال: لما زهدت في أكثرها أنفت من الرغبة في أقلها.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها يلاطف ما شطتها(١) والزاهد فيها يسخم(٢) وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى لا يلتفت إليها.

سمعت السري يقول: مارست كل شيء من أمر الزهد، فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس، فإني لم أبلغه ولم أطقه.

وقيل: ما خرج الزاهدون إلا إلى أنفسهم لأنهم تركوا النعيم الفاني للنعيم الباقي.

وقال النصر آباذي: الزهد حقن دماء الزاهدين، وسفك دماء العارفين.

وقال حاتم الأصم: الزاهد يذيب كيسه قبل نفسه، والمتزهد يذيب نفسه قبل كيسه.

سمعت الفضيل بن عياض يقول: جعل الله الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد.

٧ - الصمت

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله

---

(١) الماشطة: المرأة التي تحسن تمشيط الشعر، وتتخذ من ذلك حرفة لها.

(٢) يسخم وجهها: يسوّد وجهها.

واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١).

قال عقبة بن عامر : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال ﷺ : « احفظ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك »(٢).

قال الأستاذ الشيخ : الصمت سلامة وهو الأصل ، وعليه ندامة إذا ورد عنه الزجر ، فالواجب أن يعتبر فيه الشرع والأمر والنهي ، والسكوت في وقته صفة الرجال ، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس ، والصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٣) ، وقال تعالى مخبراً عن الجن بحضرة الرسول ﷺ : «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا »(٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾(٥).

وكم بين عبد سكت تصاوناً عن الكذب والغيبة ، وبين عبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة عليه ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

أفكر ما أقول إذا افترقنا ... وأحكم دائباً حجج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا ... فأنطق حين أنطق بالمحال

وأنشدوا :

وكم حديث لك حتى إذا ... مكنت من لقياك أنسيته

---

(١) الحديث : رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري ١٠/٣٧٣ ، في الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الأخر ، وفي غيره من الأبواب ، ومسلم رقم (٤٧) في الإيمان باب الحث على إكرام الجار ، وأبو داود رقم (٥١٥٤) في الأدب باب في حق الجوار .

(٢) الحديث : أخرجه الترمذي رقم ٢٤٠٨ في الزهد باب ما جاء فيه حفظ اللسان وقال : هذا حديث حسن .

(٣) الآية : سورة الأعراف ـ ٢٠٤ .

(٤) الآية : سورة الأحقاف ـ ٢٩ .

(٥) الآية : سورة طه ـ ١٠٨ .

وأنشدوا:

رأيتُ الكلامَ يزينُ الفتى … والصمتُ خيرٌ لمن قد صمتْ

فكم من حروفٍ تجرُّ الحتوفَ(١) … ومن ناطقٍ ودَّ أن لو سكتْ

والسكوت على قسمين: سكوت بالظاهر وسكوت بالقلب والضمائر، فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق، والعارف يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق، فهذا بجميل صنعه واثق، وهذا بجميع حكمه قانع.

وربما يكون سبب السكوت حيرة البديهة، فإنه إذا ورد كشف على وصف البغتة خرست العبارات عند ذلك، فلا بيان ولا نطق، وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حس، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ؟ قَالُوا: لَا عِلْمَ لَنَا ﴾(٢).

فأما إيثار(٣) أرباب المجاهدة فهو السكوت، فلما علموا ما في الكلام من الآفات، ثم ما فيه من حظ النفس، وإظهار صفات المدح، والميل إلى أن يتميز بين أشكاله بحسن النطق، وغير هذا من آفات الخلق، وكذلك نعت أرباب الرياضات، وهو أحد أركانهم في حكم المنازلة وتهذيب الخلق.

وقيل: إن داود الطائي لما أراد أن يقعد في بيته اعتقد أن يحضر مجالس أبي حنيفة إذ كان تلميذاً له، ويقعد بين أضرابه(٤) من العلماء، ولا يتكلم في مسألة، فلما قوّى نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة قعد في بيته عند ذلك وآثر العزلة.

سمعت بشر بن الحارث يقول: إذا أعجبك الكلام فاصمت(٥)، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

---

(١) الحتوف: مفردها الحتف وهو: الموت. يقال: (مات حتف أنفه) أي مات من غير قتل ولا ضرب، بل على فراشه.

(٢) الآية: سورة المائدة - ١٠٩.

(٣) الإيثار: التفضيل.

(٤) أضرابه: أمثاله وزملاؤه.

(٥) لأن في ذلك مخالفة لهوى النفس ورداً لها عن هواها.

وقال سهل بن عبد الله: لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت.

وقال أبو بكر الفارسي: من لم يكن الصمت وطنه فهو في الفضول وإن كان صامتاً(1)، والصمت ليس بمخصوص على اللسان، لكنه على القلب والجوارح كلها.

وقال بعضهم: من لم يستغنم(2) السكوت فإذا نطق نطق بلغو(3).

سمعت ممشاد الدينوري يقول: الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكر.

وسئل أبو بكر الفارسي عن صمت السر فقال: ترك الاشتغال بالماضي والمستقبل.

وقال أبو بكر الفارسي: إذا كان العبد ناطقاً فيما يعنيه. وما لا بد منه فهو في حد الصمت.

ويروى عن معاذ بن جبل أنه قال: كلم الناس قليلاً، وكلم ربك تعالى كثيراً، لعل قلبك يرى الله تعالى.

وقيل لذي النون المصري: من أصون الناس لنفسه؟ قال: أملكهم للسانه.

وقال علي بن بكار: جعل الله تعالى لكل شيء بابين، وجعل للسان أربعة أبواب: فالشفتان مصراعان والأسنان مصراعان.

وقيل إن أبا بكر الصديق(4) رضي الله عنه كان يمسك في فمه حجراً كذا سنة ليقل كلامه.

وقيل إن أبا حمزة البغدادي كان حسن الكلام، فهتف به هاتف: تكلمت

---

(1) وإن كان صامتاً بلسانه لأنه تارة يشير إلى مقصوده بيده وتارة بعينه وتارة بغيرهما.

(2) استغنم الشيء عدّه غنيمة، أو انتهز غُنمه.

(3) اللغو: هو الكلام من غير روية وتفكّر.

(4) أبو بكر الصديق: عبد الله بن أبي قحافة (51 ق هـ - 13 هـ/ 573 - 634 م): أول الخلفاء الراشدين. وأول من آمن بالرسول من الرجال. ولد بمكة. سيد في قريش وعالم في الأنساب. حارب المرتدين وفتح بلاد الشام والعراق.

فاحسنت، بقي أن تسكت فتحسن، فما تكلم بعد ذلك حتى مات.

كان الشبلي إذا قعد في حلقته، ولم يسأله الحاضرون يقول: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا، فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾(١)، وربما يقع السكوت على المتكلم لأن في القوم من هو أولى منه بالكلام.

سمعت ابن السماك يقول: كان بين شاه الكرماني ويحيى بن معاذ صداقة، وكان شاه لا يحضر مجلسه، فقيل له في ذلك، فقال: الصواب هذا، فما زالوا به حتى حضر يوماً مجلسه، وقعد ناحية لا يشعر به يحيى بن معاذ، فلما أخذ يحيى في الكلام سكت، ثم قال: ههنا من هو أولى بالكلام مني وارتج عليه، فقال شاه: قلت لكم الصواب أن لا أحضر مجلسه.

وربما يقع السكوت على المتكلم لمعنى في الحاضرين، وهو أنه يكون هناك من ليس بأهل لسماع ذلك الكلام فيصون الله تعالى لسان المتكلم غيرة وصيانة لذلك الكلام عن غير أهله.

قال مشايخ هذه الطريقة: ربما يكون السبب فيه حضور من ليس بأهل لسماعه من الجن، إذ لا تخلو مجالس القوم من حضور جماعة من الجن.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: اعتللت مرة بمرو فاشتقت أن أرجع إلى نيسابور(٢) فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي: لا يمكنك أن تخرج من هذا البلد، فإن جماعة من الجن، استحلوا كلامك، ويحضرون مجلسك، فلأجلهم يحسن أن تجلس ههنا.

وقال بعض الحكماء: إنما خلق للإنسان لسان واحد وعينان وأذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول.

ودعي إبراهيم بن أدهم إلى دعوة، فلما جلس أخذوا في الغيبة، فقال: عندنا يؤكل اللحم بعد الخبز، وأنتم ابتدأتم بأكل اللحم، أشار إلى قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ

---

(١) الآية: سورة النمل - ٨٥.

(٢) نيسابور: عاصمة خراسان. من أعظم المدن الإسلامية في القرون الوسطى مع بلخ وهراة ومرو. تهدمت بالحروب والزلازل.

أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾(١).

وقال بعض الحكماء: الصمت لسان الحلم.

وقال بعضهم: تعلّم الصّمت كما تتعلم الكلام، فإن كان الكلام يهديك فإن الصّمت يقيك.

وقيل: عفة اللسان صمته.

وقيل: مثل اللسان مثل السبع، إن لم توثقه عدا عليك.

وسُئل أبو حفص: أي الحالين للولي أفضل: الصمت أو النطق؟ فقال: لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت طويلا، ولو علم الصامت ما آفة الصمت لسأل الله تعالى ضعفي عمر نوح حتى ينطق (ليهتدي إلى الخير).

وقيل: صمت العوام بألسنتهم، وصمت العارفين بقلوبهم، وصمت المحبّين من خواطر أسرارهم.

وقال بعضهم: مكثت ثلاثين سنة لا يسمع لساني إلا من قلبي، ثم مكثت ثلاثين سنة لا يسمع قلبي إلا من لساني.

وقال بعضهم: لو سكت لسانك لم تنج من كلام قلبك، ولو صرت رميماً(٢) لم تتخلص من حديث نفسك، ولو جهدت كل الجهد لم تكلمك روحك لأنها كاتمة للسر.

وقيل: لسان الجاهل مفتاح حتفه، وقيل: المحبّ إذا سكت هلك، والعارف إذا سكت ملك.

يقول الفضيل بن عياض: من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه (أي فيما يحتاج إليه).

٨ - الخـوف

قال الله تعالى: ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾(٣)

---

(١) الآية: سورة الحجرات - ١٢.

(٢) الرميم: البالي.

(٣) الآية: سورة السجدة - ١٦.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى، حتى يلج اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري عبد أبداً»(١).

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»(٢)، قلت: الخوف معنى متعلقه في المستقبل، لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب، ولا يكون هذا إلا لشيء يحصل في المستقبل، فإن كان في الحال موجوداً فالخوف لا يتعلق به، والخوف من الله تعالى أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى في الدنيا أو في الآخرة، وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه، فقال تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(٤)، ومدح المؤمنين بالخوف، فقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾(٥).

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة. فالخوف: من شروط الإيمان وقضاياه، قال الله تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. والخشية: من شروط العلم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٦). والهيبة: من شروط المعرفة، قال الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾(٧).

سمعت أبا حفص يقول: الخوف سوط الله يقوّم به الشاردين عن بابه.

---

(١) الحديث: أخرجه الرافعي عن أنس: (من بكى من خشية الله غفر الله له) كما في الكنز ٣/ص ١٤٨ رقم ٩٥١٢.

(٢) الحديث: رواه أبو هريرة، وأخرجه البخاري ٢٧٣/١١ في الرقاق باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم في الأيمان والنذور»، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، والترمذي رقم ٢٣١٤ في الزهد.

(٣) الآية: سورة آل عمران ـ ٧٥.

(٤) الآية: سورة النحل ـ ٥١.

(٥) الآية: سورة النحل ـ ٥٠.

(٦) الآية: سورة فاطر ـ ٢٨.

(٧) الآية: سورة آل عمران ـ ٣٠.

وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على نوعين: رهبة وخشية، فصاحب الرهبة يلتجيء إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشية يلتجيء إلى الرب.

وقيل: (رهب وهرب) يصح أن يقال إنهما شيء واحد، مثل جذب وجبذ، فإذا هرب انجذب في مقتضى هواه كالرهبان الذين اتبعوا أهواءهم، فإذا كبحهم لجام العلم وقاموا بحق الشرع فهو الخشية.

سمعت أبا حفص يقول: الخوف سراج القلب به يبصر الخير والشر.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف أن لا تعلل نفسك بعسى وسوف.

سمعت أبا عمر الدمشقي يقول: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال ابن الجلاء: الخائف من تأمنه المخوفات.

وقيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه.

وقيل لابن عياض: ما لنا لا نرى خائفاً؟ فقال: لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين، إن الخائف لا يراه إلا الخائفون، وإن الثكلى (١) هي التي تحب أن ترى الثكلى.

وقال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة.

وقال شاه الكرماني: علامة الخوف الحزن الدائم.

وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف من شيء هرب منه، ومن خاف من الله عز وجل هرب إليه.

وسئل ذو النون المصري رحمه الله تعالى: متى يتيسر على العبد سبيل

---

(١) الثكلى: الوالدة التي فقدت ابنها

الخوف؟ فقال: إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتمي من كل شيء مخافة طول السقام.

وقال معاذ بن جبل: إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه.

وقال بشر الحافي: الخوف ملك لا يسكن إلا في قلب متق.

وقال أبو عثمان الحيري: عيب الخائف في خوفه.

وقال الواسطي: الخوف حجاب بين الله تعالى والعبد، وهذا اللفظ فيه إشكال، ومعناه: أن الخائف متطلع لوقت ثان، وأبناء الوقت لا تطلع لهم في المستقبل، وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

سمعت أحمد النوري يقول: الخائف يهرب من ربه إلى ربه.

وقال بعضهم: علامة الخوف التحير على باب الغيب.

سئل الجنيد عن الخوف فقال: توقع العقوبة مع مجاري الأنفاس.

وسمعت أبا سليمان الداراني يقول: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

وسمعت أبا عثمان يقول: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً.

وقال ذو النون المصري: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق.

وقال حاتم الأصم: لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف، وعلامة الخوف قصر الأمل.

وقال رجل لبشر الحافي: أراك تخاف الموت، فقال: القدوم على الله عز وجل شديد.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: دخلت على الإمام أبي بكر بن فورك عائداً، فلما رآني دمعت عيناه، فقلت له: إن الله تعالى يعافيك ويشفيك، فقال: لن تراني أخاف من الموت، إنما أخاف مما وراء الموت.

عن عائشة(١) رضي الله عنها أنها قالت : قلتُ يا رسول الله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾(٢) أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا . ولكن هم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم «أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»(٣).

وقال عبد الله بن المبارك: إن الذي يهيج الخوف حتى يسكن في القلب هو دوام المراقبة في السر والعلانية.

قال إبراهيم بن شيبان: إذا سكن الخوف في القلب أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام.

وقيل: الخوف حركة القلب من جلال الرب(٤).

وقال أبو سليمان الداراني: ينبغي للقلب أن لا يغلب عليه إلا الخوف، فإنه إذا غلب الرجاء على القلب فسد القلب، ثم قال: يا أحمد بالخوف ارتفعوا فإن ضيعوه نزلوا.

وقال الواسطي: الخوف والرجاء زمامان(٥) على النفوس لئلا تخرج إلى رعوناتها. وقال أيضاً: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف.

قال الأستاذ الشيخ: وهذا فيه إشكال، ومعناه: إذا اصطلحت شواهد الحق

---

(١) عائشة بنت أبي بكر الصديق (توفيت ٥٨ هـ - ٦٧٨ م) : أفقه نساء المسلمين، وأعلمهن بالدين، كانت زوجة الرسول وأحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث.

(٢) الآية : سورة المؤمنون: ٦٠ - ٦١.

(٣) الحديث: أخرجه الترمذي رقم ٣١٧٤ وفي سنده انقطاع لكنه يتقوى بشواهد أخرى وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) نعني استشعر القلب نظر الرب إليه في حالته التي هو فيها وإن كانت أفضل عباداته اضطرب قلبه واقشعر جلده ووجل كما قال الله تعالى: ﴿ الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ﴾ سورة الحج - ٣٥.

(٥) الزمام: جمع أزمة وهو: ما يُزمّ به أي يُشدّ. وهو المفقود.

بملكها الأسرار، فلا يبقى فيها مساغ لذكر حدثان، والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية.

وقال الحسين بن منصور: من خاف من شيء غير الله عز وجل أو رجاه أغلق عليه أبواب كل شيء وسلّط عليه المخافة، وحجبه بسبعين حجاباً أيسرها الشك، وإن مما أوجب شدة خوفهم تفكيرهم في العواقب وخشية تغير أحوالهم، قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾(٢)، فكم من مغبوط في أحواله انعكست عليه الحال، ومُني بمقارفة(٣) قبيح الأفعال، فبدّل بالأنس وحشة وبالحضور غيبة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله ينشد:

أحسنتَ ظنّك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

سمعت منصور بن خلف المغربي يقول: كان رجلان اصطحبا في الإرادة فترة من الزمن، ثم إن أحدهما سافر وفارق صاحبه، وأتت عليه مدة من الزمن ولم يسمع عنه خبراً فبينما كان هذا الآخر في غزوة يقاتل عسكر الروم، إذ خرج على المسلمين رجل مقنع في السلاح يطلب المبارزة، فخرج إليه من أبطال المسلمين واحد فقتله الرومي، ثم خرج آخر فقتله، ثم ثالث فقتله، فخرج إليه هذا الصوفي وتطاردا فحسر الرومي عن وجهه، فإذا هو صاحبه الذي صحبه في الإرادة والعبادة سنين، فقال له هذا: ما الخبر؟ فقال: إنه ارتد وخالط القوم، وولد له أولاد، وأصبح ذا ثروة جيدة، فقال: وكنت تقرأ القرآن الكريم بقراءات كثيرة، فقال: لا أذكر منه حرفاً، فقال له هذا الصوفي: لا تفعل وارجع، فقال: لا أفعل فلي فيهم جاه ومال، فانصرف أنت وإلا لأفعلنّ ما فعلت بأولئك، فقال له هذا الصوفي: اعلم أنك قتلت ثلاثة من المسلمين، وليس عليك أنفة في الانصراف، فانصرف أنت، وأنا أمهلك،

---

(١) الآية: سورة الزمر - ٤٧.

(٢) الآية: سورة الكهف - ١٠٣ و ١٠٤

(٣) مقارفة: مقاربة ومداناة.

فرجع الرجل مولياً فتبعه هذا الصوفي وطعنه فقتله(١)، فبعد تلك المجاهدات ومقاساة تلك الرياضات قتل على النصرانية.

وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر، أخذ جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فترة طويلة فأوحى الله تعالى إليهما: ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا رب لا نأمن مكرك(٢)، فقال الله تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري.

ويروى عن السري السقطي أنه قال: إني لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا مرة، مخافة أن يكون قد اسودّ لما أخافه من العقوبة.

وقال أبو حفص: إن اعتقادي في نفسي منذ أربعين سنة أن الله تعالى ينظر إليّ نظر السخط، وأعمالي تدل على ذلك.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، فلقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام(٣) كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي؟ (حيث كفر)، ولا تغتر برؤية الصالحين، فلا شخص أكبر قدراً من المصطفى ﷺ، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه.

وخرج ابن المبارك يوماً على أصحابه فقال: إني قد اجترأت البارحة على الله عز وجل، فقد سألته الجنة.

وقيل: خرج عيسى عليه السلام ومعه (إنسان) صالح من صالحي بني إسرائيل، فتبعهما رجل خاطىء مشهور بالفسق فيهم، فقعد منتبذاً عنهما منكسراً فدعا الله سبحانه، وقال: اللهم اغفر لي، ودعا هذا الصالح، وقال: اللهم لا تجمع غداً بيني وبين ذلك العاصي، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إني قد استجبت دعاءهما، ورددت ذلك الصالح، وغفرت لذلك المجرم.

وقال ذو النون المصري: قلت لعليم: لم سميت مجنوناً؟ قال: لما طال

---

(١) انظر كيف استعمل عقله أخذاً من قوله ﷺ «الحرب خدعة» لمّا علم بقوة المرتد عن الإسلام.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين ﴾ سورة آل عمران ـ ٥٤.

(٣) بلعام، ويقال له: بلعم بن باعوراء، وهو من علماء بني إسرائيل.

حبي عنه، صرت مجنوناً لخوف فراقه، وفي هذا المعنى انشدوا:

لو أن ما بي على صخر لأنحله   فكيف يحمله خلق من الطين

وقال بعضهم: ما رأيت رجلاً أعظم رجاء لهذه الأمة، ولا أشد خوفاً على نفسه من ابن سيرين(1).

وقيل: مرض سفيان الثوري فعرض دليله على الطبيب فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده، ثم جاء وجس عرقه، ثم قال: ما علمت أن في الحنيفية مثله.

وسئل الشبلي: لماذا تصفر الشمس عند الغروب؟ فقال: لأنها عزلت عن مكان التمام، فاصفرت لخوف المقام، وكذا المؤمن إذا قرب خروجه من الدنيا إصفر لونه لأنه يخاف المقام، فإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة، كذلك المؤمن إذا بعث من قبره يخرج ووجهه يشرق.

ويروى عن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أنه قال: سألت ربي عز وجل أن يفتح علي باباً من الخوف ففتح، فخفت على عقلي، فقلت: يا رب أعطني على قدر ما أطيق، فسكن ذلك عني.

٩ - الرجاء

قال الله تعالى: ﴿ومن كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾(2).

حدثنا العلاء بن زيد قال: دخلت على مالك بن دينار فرأيت عنده شهر بن حوشب، فلما خرجنا من عنده قلت لشهر: يرحمك الله تعالى، زودني زودك الله تعالى، قال: نعم، حدثتني عمتي أم الدرداء عن أبي الدرداء عن نبي الله ﷺ عن جبريل عليه السلام، قال: قال ربكم عز وجل: ﴿عبدي: ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرت لك على ما كان منك، ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بمثلها مغفرة فأغفر لك ولا أبالي﴾(3).

(1) محمد بن سيرين (٣٣ - ١١٠ هـ/٦٥٣ - ٧٢٩ م): إمام وقته. تابعي. مولده ووفاته في البصرة. نشأ بزازاً. في أذنه صمم. اشتهر بالورع وتفسير الأحلام.

(2) الآية: سورة العنكبوت - ٥.

(3) الحديث: قال الهندي في كتابه كنز العمال ١/ ص ٦٧ رقم (٢٥٢) رواه الطبراني عن أبي

حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: ﴿**أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة شعير من إيمان، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ثم يقول: وعزتي وجلالي لا أجعل من آمن بي ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بي**﴾ (١).

الرجاء تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل.

وكما أن الخوف يقع في مستقبل الزمان، فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل في الاستقبال، وبالرجاء يكون عيش القلوب واستقلالها.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن التمني يورث صاحبه الكسل، ولا يسلك طريق الجهد والجد، وبعكسه يكون صاحب الرجاء، فالرجاء محمود والتمني معلول.

وتكلموا في الرجاء فقال شاه الكرماني: علامة الرجاء حسن الطاعة.

وقال عبد الله بن خبيق: الرجاء ثلاثة: رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، ورجل كاذب يتمادى في الذنوب ويقول أرجو المغفرة، ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغي أن يكون خوفه غالبا على رجائه.

وقيل: الرجاء ثقة الجود من الكريم الودود.

وقيل: الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال.

وقيل: هو قرب القلب من ملاطفة الرب.

وقيل: سرور الفؤاد بحسن المعاد.

وقيل: هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى.

يقول أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصم الأنطاكي: ما علامة الرجاء في العبد؟ قال: أن يكون

= الدرداء. وأول الحديث عنده: (يا ابن آدم مهما عبدتني ورجوتني...).

(١) الحديث: أخرج البخاري قريباً من هذا الحديث في الإيمان ١/٦٨ باب تفاضل أهل الإيمان، وكذلك مسلم في الإيمان رقم ١٨٤ باب اثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من =

إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجياً تمام النعمة من الله تعالى عليه في الدنيا، وتمام عفوه في الآخرة.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: الرجاء استبشار بوجود فضله. وقال أيضاً: ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب.

سمعت أبا عثمان المغربي يقول: من حمل نفسه على الرجاء تعطل، ومن حمل نفسه على الخوف قنط، ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة.

قال بكر بن سليم الصواف: دخلنا على مالك بن أنس في الأمسية التي توفي فيها، فقلنا له: يا أبا عبد الله كيف تجد نفسك؟ فقال: لا أدري ما أقول لكم، غير أنكم ستعاينون من عفو الله تعالى ما لم يكن لكم في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضنا عينيه.

وقال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأنني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في ذنوبي أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

وكلموا ذا النون المصري وكان يعاني سكرات الموت، فقال: لا تشغلوني فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالى معي.

وقال يحيى بن معاذ: إلهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقاؤك، وفي بعض التفاسير أن رسول الله ﷺ دخل على أصحابه من باب شيبة، فرآهم يضحكون فقال: «أتضحكون؟ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(١)، ثم مر ثم رجع القهقرى، وقال: نزل علي جبريل عليه السلام وأتى بقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٢).

= النار، وأخرج أبو داود قريباً منه في الأدب رقم ٤٠٩١. ما جاء في الكبر عن عبد الله بن مسعود.

(١) الحديث: سبق تخريجه.

(٢) الآية: سورة الحجر - ٤٩.

قالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى ليضحك من يأس العباد وقنوطهم، وقرب الرحمة منهم، فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، أو يضحك ربنا عز وجل، فقال: والذي نفسي بيده، إنه ليضحك، فقالت: لا يعد منا خيراً إذا ضحك»(١)، واعلم أن الضحك في وصفه من صفات فعله وهو إظهار فضله، كما يقال: ضحكت الأرض بالنبات، وضحكه تعالى من قنوطهم إظهار تحقيق فضله الذي هو ضعف انتظارهم له.

وقيل: إن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل فقال: إن أسلمت أضفتك، فقال المجوسي: إذا أسلمت فأي منة تكون لك علي، فمر المجوسي، فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم لم تطعمه إلاّ بتغيير دينه، نحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا عليك؟ فمر إبراهيم خلف المجوسي وأضافه، فقال له المجوسي: ما السبب في الذي بدا لك؟ فذكر له ذلك، فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني؟ ثم قال: اعرض علي الإسلام فأسلم.

سمعت أبا بكر بن أشكيب يقول: رأيت أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة جداً، فقلت له: يا أستاذ بماذا نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

ورؤي مالك بن دينار في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قدمت على ربي عز وجل بذنوب كثيرة محاها عني حسن ظني به تعالى.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ(٢) ذكرته في ملأ هو خير منهم، وإن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً(٣)، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(٤).

---

(١) إن الضحك علامة الرضا وبذلك علم أنه تعالى لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة، فمن أطاعه فبركة طاعته عائدة عليه، ومن عصاه فشؤم معصيته راجع إليه، فإن تاب عنها فلا يأس من رحمة الله تعالى، فإن يئس منها فهو جاهل.

(٢) الملا: جمع أملاء، وهو الجماعة.

(٣) الدراع: من المقاييس، طوله الآن بين ٥٠ - ٧٠ سنتيمتراً.

(٤) الحديث: رواه أبو هريرة، وأخرجه البخاري ١٣/٤٢٨ في التوحيد باب ذكر النبي ﷺ وروايته =

وقيل: كان ابن المبارك يقاتل علجاً(١)، فدخل وقت صلاة العلج فاستمهله فأمهله، فلما سجد للشمس أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه فسمع من الهواء قائلاً يقول: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا ﴾(٢) فأمسك، فلما سلم المجوسي قال له: لماذا أمسكت عما هممت به، فذكر له ما سمع، فقال له المجوسي: نعم الرب رب يعاتب وليه في عدوه، فأسلم وحسن إسلامه.

وقيل: إنما أوقعهم في الذنب حين سمى نفسه عفواً.

وقيل: لو قال: لا أغفر الذنوب لم يذنب مسلم قط، كما أنه لما قال: إن الله لا يغفر أن يُشرَك به لم يشرك مسلم قط، ولكن لما قال: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾(٣) طمعوا في مغفرته.

ويروى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لي، فكانت ليلة ظلماء فيها مطر شديد، فخلا المطاف فدخلت الطواف وكنت أقول فيه: اللهم اعصمني، فسمعت هاتفاً يقول لي: يا ابن أدهم أنت تسألني العصمة، وكل الناس يسألونني العصمة فإذا عصمتكم فلمن أرحم؟

وقيل: رأى أبو العباس بن سريج في منامه في مرض موته، كأن القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجاؤوا، فسألهم: ماذا عملتم؟ فأجابوا: يا رب قصرنا وأسأنا، ثم أعاد السؤال كأن لم يرض به وأراد جواباً آخر، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك، وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال.

وقيل: كان رجل شرّيب(٤) جمع قوماً من ندمائه، ودفع إلى غلام له(٥) أربعة

= عن ربه، ومسلم رقم ٢٦٧٥ في الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله تعالى. والترمذي رقم ٣٥٩٨ في الدعوات باب حسن الظن بالله.

(١) العلج: رجل من كفار العجم.

(٢) الآية: سورة الإسراء - ٣٤.

(٣) الآية: سورة النساء - ٤٨.

(٤) الشرّيب: كثير الشرب للخمر، أو المولع بالشرب.

(٥) كان هذا الغلام صالحاً، وينكر على سيده احتساء الخمرة.

دراهم(١)، وأمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس، فمرّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل للفقير شيئاً، ويقول: من دفع لي أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات، قال: فدفع له الغلام الدراهم الأربعة التي كانت معه، فقال منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك؟ فقال: يا سيدي أريد أن أتخلص منه فدعا منصور، وقال: وما الأخرى؟ فقال: أن يخلف الله تعالى عليّ دراهمي فدعا، ثم قال: وما الأخرى؟ فقال: أن يتوب الله على سيدي فدعا، قال: وما الأخرى؟ فقال: أن يغفر الله تعالى لي ولسيدي ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام إلى سيده فقال: لماذا أبطأت؟ فقصّ عليه القصّة، قال: وبماذا دعا؟ فقال: سألت لنفسي العتق فقال: اذهب فأنت حر، وأما الثانية أن يخلف الله عليّ الدراهم، فقال: لك أربعة آلاف درهم، فقال وأما الثالثة: فقال: أن يتوب الله عليك، فقال: إني تبت إلى الله تعالى، فقال وأما الرابعة فقال: أن يغفر الله تعالى لك ولي وللقوم وللمذكر، فقال: هذا ليس إليّ، فلما بات رأى في المنام كأن قائلاً يقول له: أنت فعلت ما كان إليك تُرابي لا أفعل ما إليّ، قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين.

وقيل: حجّ رباح القيسي حجات كثيرة، فقال يوماً وقد وقف تحت الميزاب: إلهي وهبت من حجاتي كذا للرسول ﷺ، وعشرة لأصحابه العشرة، واثنتين لوالديّ، والباقي للمسلمين، ولم يترك شيئاً لنفسه، فسمع هاتفاً يقول: هو ذا يتسخى(٢) علينا، لأغفرنّ لك ولأبويك ولمن شهد شهادة الحق.

وروي عن محمد بن عبد الوهاب الثقفي قال: رأيت جنازة يحملها ثلاثة رجال وامرأة، قال: فأخذت مكان المرأة، وذهبنا إلى المقبرة، فصلينا عليها ودفناها، فقلت للمرأة: من كان هذا منك؟ فقالت: ابني، قلت: أو ليس لكم جيران؟ قالت: نعم ولكنهم صغروا أمره، فقلت: وماذا كان هذا؟ فقالت: مخنث(٣)، قال:

---

(١) الدرهم: لفظة يونانية وجمعها الدراهم، وهي قطعة فضية مضروبة للتعامل الاقتصادي، وتطلق الدراهم عند المولدين على النقود مطلقاً.

(٢) تسخّى: تكلّف السخاء والكرم.

(٣) المخنث: هو رجل فيه لين وتكسّر وتثنّ، فهو على صورة الرجال، وأحوال النساء، أو هو: من له عضو الرجال وعضو النساء معاً.

فرحمتها: وذهبتُ إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثياباً، ونمت تلك الليلة، فرأيتُ كأنه أتاني آتٍ، كأنه القمر ليلة البدر، وعليه ثياب بيضاء، وأخذ يشكرني، فقلتُ له: من أنت؟ فقال: أنا المخنث الذي دفنتموني اليوم، رحمني ربي عز وجل باحتقار الناس إيايّ.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: مرّ أبو عمرو البيكندي يوماً بسكة[1]، فرأى قوماً أرادوا إخراج شاب من المحلة لفساده، وامرأة تبكي قيل إنها أمه، فرحمها أبو عمرو فتشفع له إليهم، وقال: هبوه مني هذه المرة، فإن عاد إلى فساده فشأنكم، فوهبوه منه، فمضى أبو عمرو، فلما كان بعد أيام اجتاز بتلك السكة فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب، فقال في نفسه: لعل الشاب عاد إلى فساده فنفي من المحلة، فدق عليها الباب وسألها عن الشاب فخرجت العجوز، وقالت: إنه مات، فسألها عن حاله فقالت: لما قرب أجله قال لها: لا تخبري الجيران بموتي فلقد آذيتهم، وإنهم يشمتون بي، ولا يحضرون جنازتي، فإذا دفنتيني، فهذا خاتم لي مكتوب عليه: بسم الله، فادفنيه معي، فإذا فرغت من دفني فتشفعي لي إلى ربي عز وجل، قالت: ففعلتُ وصيته، فلما انصرفت عن قبره سمعت صوته يقول: انصرفي يا أماه، فقد قدمت على رب كريم.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قلّ لهم إني لم أخلقهم لأربح عليهم، وإنما خلقتهم ليربحوا عليّ.

سمعتُ إبراهيم الأطروش يقول: كنا قعوداً ببغداد مع معروف الكرخي على نهر دجلة. إذ مرَّ بنا قوم أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون، فقلنا لمعروف: ألا تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين؟ ادع الله تعالى عليهم، فرفع يديه وقال: إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة، فقلنا: إنما سألناك أن تدعو عليهم، فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم.

حدثنا أبو عبد الله الحسين بن سعيد قال: كان يحيى بن أكثم القاضي صديقاً، وكان يودني وأوده؛ فمات يحيى، فكنت أشتهي أن أراه في المنام،

(١) السكة: الطريق المستوي.

فسأله: ما فعل الله تعالى بك؟ فرأيته ليلة في المنام، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ أجابني: غفر لي، إلا أنه وبّخني، ثم قال لي: يا يحيى خلطت عليّ في دار الدنيا فقلت: لقد اتكلت على حديث حدثنا به أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إنك قلت: إني أستحي أن أعذب ذا شيبة بالنار[1] فقال: قد عفوت عنك يا يحيى، وصدق نبيّي، إلاّ أنك خلطت عليّ في دار الدنيا.

١٠ ـ الحزن

قال الله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[2].

قال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب العبد المؤمن من وصب أو نصب[3] أو حزن أو ألم يهمه، إلاّ كفّر الله تعالى عنه من سيئاته»[4].

الحزن حال يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة، والحزن من أوصاف أهل السلوك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه سنين.

وجاء في الخبر: أن الله تعالى يحب كل قلب حزين.

وجاء في التوراة: إذا أحب الله عبداً جعل في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مزماراً.

وروي أن رسول الله ﷺ كان متواصل الحزن دائم التفكير.

وقال بشر بن الحارث: الحزن ملك، فإذا سكن في موضع لم يرض أن يساكنه أحد.

---

(١) الحديث: قال في الكنز ١٥/ص ٦٧١ أخرجه الخطيب عن جرير وابن النجار والخليلي والرافعي وأبو الشيخ عن أنس.

(٢) الآية: سورة فاطر ـ ٣٤.

(٣) الوصب جمع أوصاب وهو المرض. النصب: الداء والبلاء.

(٤) الحديث: رواه أبو سعيد وأبو هريرة، وأخرجه أحمد في المسند ٢/٣٠٣ و٣/٤٨ ـ ٨١، كما أخرجه البخاري ١٠/٩١ في المرضى باب ما جاء في كفارة المرضى، ومسلم رقم ٢٥٧٣ في

وقيل: إذا لم يكن في القلب حزن خرب، كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن مخربت.

وقال أبو سعيد القرشي: بكاء الحزن يعمي، وبكاء الشوق يغشي البصر ولا يعمي، قال الله تعالى: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(١)

وقال ابن خفيف: الحزن حصر النفس عن النهوض في الطرب.

وسمعت رابعة العدوية رجلاً يقول: وا حزناه، فقالت: قل: وا قلة حزناه، لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس.

وقال سفيان بن عيينة: لو أن محزوناً بكى في أمة، لرحم الله تلك الأمة ببكائه.

وكان داود الطائي الذي يغلب عليه الحزن يقول في الليل: إلهي، همّك عطل عليّ الهموم، وحال بيني وبين الرقاد. وكان يقول: كيف يتسلى من الحزن من تتجدد عليه المصائب في كل وقت؟.

وقيل: الحزن يمنع من الطعام، والخوف يمنع من الذنوب.

وسئل بعضهم: بماذا يستدل على حزن الرجل؟ فأجاب: بكثرة أنينه.

وقال سري السقطي: وددت أن حزن كل الناس ألقي علي. وتكلم الناس في الحزن فقالوا: إنما يحمد حزن الآخرة، فأما حزن الدنيا فغير محمود، إلا أبا عثمان الحيري فإنه قال: الحزن بكل وجه فضيلة وزيادة للمؤمن ما لم يكن بسبب معصية، لأنه إن لم يوجب تخصيصاً فإنه يوجب تمحيصاً.

وعن بعض المشايخ أنه كان إذا سافر أحد أصحابه يقول: إن رأيت محزوناً فاقرئه مني السلام(٢).

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: كان بعضهم يقول للشمس عند

البر باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، والترمذي رقم ٩٦٦ في الجنائز باب ما جاء في ثواب المريض.

(١) الآية: سورة يوسف ـ ٨٤.

(٢) أقرئه: أبلغه مني السلام.

غروبها: هل طلعت اليوم على محزون؟.

وكان الحسن البصري لا يراه أحد إلّا ظن أنه حديث عهد بمصيبة.

قال وكيع: لما مات الفضيل بن عياض: ذهب الحزن اليوم من الأرض

وقال بعض السلف: أكثر ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الهم والحزن.

قال الفضيل بن عياض: كان السلف يقولون: إنّ على كل شيء زكاة، وزكاة العقل طول الحزن.

وسئل أبو عثمان الحيري يوماً عن الحزن فقال: الحزين لا يتفرغ إلى سؤال الحزين، فاجتهد في طلب الحزن، ثم سل.

١١ ـ الجوع وترك الشهوة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾(١) فبشرهم بجميل الثواب على الصبر على مقاساة الجوع. وقال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٢)،

وعن أنس بن مالك أنه قال:

جاءت فاطمة(٣) رضي الله عنها بكسرة خبز لرسول الله ﷺ، فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ فقالت: قرص خبزته، ولم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال ﷺ: «أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام»(٤)

---

(١) الآية: سورة البقرة ـ ١٥٥.

(٢) الآية: سورة الحشر ـ ٩.

(٣) فاطمة الزهراء (١٨ ق هـ ـ ١١ هـ / ٦٠٥ ـ ٦٣٢ م): ابنة رسول الله ﷺ. الهاشمية القرشية. أمها خديجة بنت خويلد. تزوجها علي بن أبي طالب. ولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب.

(٤) الحديث: رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسند ضعيف، وله شواهد جيدة السند في معناه.

ولهذا كان الجوع من صفات القوم، وهو أحد أركان المجاهدة، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل، ووجدوا ينابيع الحكمة في الجوع، وكثرت الحكايات عنهم في ذلك.

ويقول ابن سالم: أدب الجوع أن لا ينقص من عادته إلا مثل أذن السنور(١).

وقيل: كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا كل خمسة عشر يوماً، فإذا دخل شهر رمضان كان لا يأكل حتى يرى الهلال، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح.

وقال يحيى بن معاذ: لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره.

قال سهل بن عبد الله: لما خلق الله تعالى الدنيا، جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة.

وقال يحيى بن معاذ: الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: دخل بعضهم على بعض الشيوخ فرآه يبكي، فقال: مالك تبكي؟ قال: إني جائع، قال: هل يبكي مثلك من الجوع؟ فقال: اسكت أما علمت أن مراده من جوعي أن أبكي.

حدثنا داود بن معاذ قال: سمعت مخلداً يقول: كان الحجاج بن فرافصة معنا بالشام، فمكث خمسين ليلة لا يشرب الماء ولا يشبع من شيء يأكله.

دخل أبو تراب النخشبي من بادية البصرة مكة المكرمة(٢) حرسها الله تعالى، فسألناه عن أكله، فقال: خرجت من البصرة وأكلت بنباج(٣) ثم بذات عرق، ومن ذات عرق إليكم، فقطع البادية كلها بأكلتين.

---

(١) السنور: الهر.

(٢) مكة المكرمة: مدينة في المملكة العربية السعودية. أحد الحرمين. كانت في الجاهلية محطة هامة لتجارة القوافل بين اليمن والشام وفيها الكعبة المعظمة. وغدت في الإسلام مركز الحج وقبلة المصلين.

(٣) نِباج: بكسر النون مكان على طريق البصرة، أو بين مكة والبصرة، أو بين البصرة واليمامة.

وكان سهل بن عبد الله إذا جاع قوي وإذا أكل ضعف .

وقال أبو عثمان المغربي : الرباني لا يأكل في أربعين يوماً، والصمداني في ثمانين يوماً .

ويقول أبو سليمان الداراني : مفتاح الدنيا الشبع (١) ، ومفتاح الآخرة الجوع (٢) .

وقيل لسهل بن عبد الله : الرجل يأكل في اليوم أكلة فقال أكل الصديقين . فقيل له : فأكلتين فأجاب أكل المؤمنين . فقيل له : فثلاثة ، فأجاب : قل لأهله يبنون له معلف (٣) .

قال يحيى بن معاذ : الجوع نور (٤) ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب الذي يتولد منه الاحتراق ، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه .

وقال أبو نصر السراج الطوسي : دخل رجل من الصوفية يوماً على شيخ فقدم إليه طعاماً ، ثم قال له : منذ كم لم تأكل ؟ فقال : منذ خمسة أيام ، فقال : جوعك جوع بخيل ، عليك ثياب ، وأنت تجوع ، ليس هذا جوع فقر .

قال أبو سليمان الداراني : لأن أترك من عشائي لقمة أحب إلي من أن أقوم الليل إلى آخره .

ويقول أبو القاسم جعفر بن أحمد الرازي : اشتهى أبو الخير العسقلاني السمك سنين ، ثم ظهر له ذلك من موضع حلال ، فلما مد يده إليه ليأكل أخذت شوكة من عظام إصبعه ، فقال : يا رب هذا لمن مد يده بشهوة إلى حلال ، فكيف بمن مد يده بشهوة إلى حرام .

سمعت رستم الشيرازي الصوفي يقول : كان أبو عبد الله بن خفيف في دعوة ، فمد

---

(١) لأن الشبع يحرك شهوات الإنسان ويستثيرها ، ومن هذه الشهوات شهوات الفرج

(٢) لأنه يحرك الإنسان للطاعة .

(٣) المقصود ببناء المعلف هنا تشبيه الإنسان في هذا المجال بالدواب التي لا هم لها إلا في كثرة الطعام والشراب ، وقد قال العرب في أمثالهم : (البطنة تذهب الفطنة) .

(٤) لأنه ينير للإنسان طريق الخير .

أحد أصحابه يده إلى الطعام قبل الشيخ لما كان به من الفاقة ، فأراد بعض أصحاب الشيخ أن ينكر عليه لسوء أدبه حيث مد يده إلى الطعام قبل الشيخ ، فوضع شيئاً بين يدي هذا الفقير ، فعلم الفقير أنه أنكر عليه لسوء أدبه ، فقرر أن لا يأكل مدة خمسة عشر يوماً عقوبة لنفسه ، وتأديباً لها ، وإظهاراً لتوبته من سوء أدبه ، وكان قد أصابته فاقة قبل ذلك .

يقول مالك بن دينار : من غلب شهوات الدنيا ، فذاك الذي يفرق[1] الشيطان من ظله .

ويقول أبو علي الروذباري : إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام : أنا جائع فالزموه السوق، ومروه بالكسب .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق حاكياً عن بعض المشايخ أنه قال : إن أهل النار غلبت شهوتهم حميتهم ، فلذلك افتضحوا[2]، وسمعته يقول : قيل لبعضهم : ألا تشتهي ؟ فقال : أشتهي ولكن أحتمي[3]

وقيل لبعضهم : ألا تشتهي ؟ فقال : أشتهي أن لا أشتهي .

يقول أبو نصر التمار : أتاني بشر ليلة ، فقلت : الحمد لله الذي جاء بك ، لقد جاءنا قطن من خراسان[4]، فغزلته البنت وباعته واشترت لنا لحماً فتفطر عندنا ، فقال : لو أكلت عند أحد أكلت عندكم ، ثم قال : إني لأشتهي الباذنجان منذ سنين، ولم يتفق لي أكله، فقلت : إن فيها الباذنجان من الحلال، فقال : حتى يصفو لي حب الباذنجان .

سمعت أبا أحمد الصغير يقول : أمرني أبو عبد الله بن خفيف أن أقدم إليه كل ليلة عشر حبات زبيب لإفطاره ، وذات ليلة أشفقت عليه فحملت إليه خمس عشرة

(١) يفرق : يخاف ويهرب .

(٢) بارتكاب شهواتهم ، فمن غلبت شهواته تقواه افتضح ، ومن غلبت تقواه شهواته نجح .

(٣) أحتمي : أمنع نفسي عن الهدف .

(٤) خراسان : بلاد قديمة في آسيا وهي مؤلفة من (خور) بمعنى شمس و (أسان) بمعنى مشرق . اشتهر منها نيسابور وهراة وبلخ ومرو . غزاها الضحاك ٦٥٦م . وحشد فيها أبو مسلم الخراساني ودعاة العباسيين ٧٤٨ م الجيوش التي قضت على الخلافة الأموية .

حبة ، فنظر إليّ ، وقال : من أمرك بهذا ؟ وأكل عشر حبات وترك الباقي (١) .

يقول أبو تراب النخشبي : ما تمنت نفسي من الشهوات إلا مرة واحدة ، تمنت خبزاً وبيضاً ، وأنا في سفر فعدلت إلى قرية ، فقام واحد وتعلق بي ، وقال : هذا كان مع اللصوص ، فضربوني سبعين درة (٢) ، ثم عرفني رجل منهم ، فقال : هذا أبو تراب النخشبي ، واعتذروا إليّ ، فأخذني أحدهم إلى منزله ، وقدم إليّ خبزاً وبيضاً ، فقلت لنفسي : كلي بعد سبعين درة .

١٢ ـ الخشوع والتواضع

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٣) ﴾ .

حدثنا عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان** ، فقال رجل : يا رسول الله ، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، فقال : **إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق (٤) وغمط الناس (٥)** » .

حدثنا أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويشيع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد .

وكان يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم (٦) بحبل من ليف عليه إكاف (٧) من ليف .

---

(١) في ذلك اكتفاء باليسير ، واعتياد على التقلل من الطعام

(٢) الدرة : جمع درر ، وهي السوط يُضرب به .

(٣) الآية : سورة المؤمنون ـ ١ .

(٤) بطر الحق : رده وإبطاله .

(٥) غمط الناس : احتقارهم . الحديث : رواه عبد الله بن مسعود ، وأخرجه مسلم رقم ٩١ في الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه ، وأبو داود رقم ٤٠٩١ في الأدب ما جاء في الكبر ، والترمذي ١٩٩٩ في البر والصلة باب ما جاء في الكبر .

(٦) الحمار المخطوم : هو الذي على فمه وأنفه حبل ليسهل إستعماله وقياده .

(٧) الأكاف : البردعة .

الخشوع : الانقياد للحق ، والتواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم .

وقال حذيفة : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع . وسئل بعضهم عن الخشوع فأجاب : الخشوع قيام القلب بين يدي الحق سبحانه .

وقال سهل بن عبد الله : من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان .

وقيل : من علامات الخشوع للعبد : أنه إذا أغضب أو خولف أو رد عليه أن يستقبل ذلك بالقبول .

وقال بعضهم : خشوع القلب قيد العيون عن النظر .

وقال محمد بن علي الترمذي : الخاشع من خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم في قلبه ، فماتت شهواته ، وحيي قلبه فخشعت جوارحه .

وقال الحسن البصري : الخشوع الخوف الدائم اللازم للقلب .

وسئل الجنيد عن الخشوع فقال : تذلل القلوب لعلام الغيوب ، قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا(١) ﴾ .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : ما معناه : متواضعين متخاشعين . وسمعته يقول : هم الذين لا يستحسنون شسع نعالهم إذا مشوا .

واتفقوا على أن الخشوع محله القلب .

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر ، منكسر الشاهد ، وقد زوى منكبيه(٢) ، فقال له : يا فلان الخشوع ههنا ، وأشار إلى صدره ، لا ههنا وأشار إلى منكبيه .

وروي أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يعبث في صلاته بلحيته فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »(٣) .

---

(١) الآية : سورة الفرقان - ٦٣ .

(٢) زوى منكبيه : قرّب ما بينهما .

(٣) الحديث : أخرجه الترمذي في النوادر عن أبي هريرة بسند ضعيف .

وقيل : شرط الخشوع في الصلاة أن لا يعرف من على يمينه ، ومن على شماله .

قال الأستاذ الشيخ : ويحتمل أن يقال : الخشوع إطراق السريرة بشرط الأدب بمشهد الحق سبحانه .

ويقال : الخشوع ذبول يرد على القلب عند اطلاع الرب .

ويقال : الخشوع ذوبان القلب وانخناسه عند سلطان الحقيقة .

ويقال : الخشوع مقدمات غلبات الهيبة .

ويقال : الخشوع قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

وقال الفضيل بن عياض : كان يكره أن يُرى على الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه .

وقال أبو سليمان الداراني : لو اجتمع الناس على أن يضعوني كاتضاعي(1) عند نفسي لما قدروا عليه .

وقيل : من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

وكان عمر بن عبد العزيز لا يسجد إلا على التراب .

روى ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر(2) » .

وقال مجاهد : لما أغرق الله تعالى قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودي(3) ، فجعله الله تعالى قراراً لسفينة نوح عليه السلام .

وكان عمر بن الخطاب(4) رضي الله عنه يسرع في المشي ويقول : إنه أسرع

---

(1) الاتضاع : التذلل .

(2) الحديث : رواه عبد الله بن مسعود ، وأخرجه أبو داود رقم (٤٠٩١) في الأدب باب ما جاء في الكبر .

(3) الجودي : جبال في إقليم بهتان على بعد ٤٠ كم شمالي شرقي جزيرة ابن عمر من دجلة من أعمال الموصل، ترتفع عن سطح البحر ٤٠٠٠ م . قيل : إن سفينة نوح حطت عليها بعد الطوفان .

(4) عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م) : قرشي عدوي . ثاني الخلفاء =

للحاجة وأبعد من الزهو .

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب ذات ليلة شيئاً وعنده ضيف ، فكاد السراج ينطفيء ، فقال الضيف : هل أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال : لا ، ليس من الكرم استخدام الضيف ، قال : هل أنبه الغلام ؟ قال : لا ، هي أول نومة نامها ، فقام إلى البطة وجعل الدهن في المصباح . فقال الضيف : كيف قمت بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : « ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر » .

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان يعلف البعير ، ويقم البيت (١) ، ويخصف النعل (٢) ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه إذا أعيا ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغني والفقير ، ويسلم مبتدياً ، ولا يحتقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر (٣) ، وكان هين المؤونة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق المحيا ، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوسة ، متواضعا من غير مذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولم يمد يده إلى طمع .

يقول الفضيل بن عياض : قراء الرحمن أصحاب خشوع وتواضع ، وقراء القضاة أصحاب إعجاب وتكبر . وقال أيضاً : من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب ، وسئل الفضيل عن التواضع فأجاب : تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن كان . وقال أيضاً : أوحى الله تعالى إلى الجبال : إني مكلم على واحد منكم نبياً ، فتطاولت الجبال وتواضع طور سيناء (٤) فكلم الله تعالى موسى عليه السلام لتواضعه .

= الراشدين . وأول من لقب بأمير المؤمنين . صحابي جليل . شجاع حازم . صاحب الفتوحات .

(١) يقم البيت : يكنسه .

(٢) يخصف النعل : يصلح الحذاء .

(٣) حشف التمر : أردأ أنواع التمر ، أو التمر اليابس الفاسد .

(٤) طور سيناء : الطور بلدة في سيناء ، جنوبي غربي جبل موسى على خليج السويس ، تمر بها القوافل إلى دير كترينا ، وتواضع طور سيناء فيه دلالة عن الجمادات وإخبار عنها .

سُئل الجنيد عن التواضع فأجاب : خفض الجناح للخَلْق ولين الجانب لهم .

وقال وهب : مكتوب في بعض ما أنزل الله تعالى من الكتب : إني أخرجتُ الذر(١) من صلب آدم ، فلم أجد قلباً أشدَّ تواضعاً من قلب موسى عليه السلام ، فلذلك اصطفيته وكلمته .

وقال ابن المبارك : التكبر على الأغنياء(٢) والتواضع للفقراء من التواضع .

وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً ، ولا يرى أنّ في الخَلْق من هو شر منه .

وقيل : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والكبر محنة لا يرحم عليها ، والعز في التواضع ، فمن طلبه في الكبر لم يجده . يقول إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع ، والعز في التقوى ، والحرية في القناعة .

سمعتُ أبا سعيد بن الأعرابي يقول : بلغني أن سفيان الثوري قال : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد ، وفقيه صوفي ، وغني متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سني .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع حسن في كل إنسان لكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبر قبيح في كل إنسان لكنه في الفقراء أسمج .

وقال ابن عطاء : التواضع قبول الحق ممن كان .

وقيل ركب زيدُ بن ثابت فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه ، يا ابن عم رسول الله ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبّلها ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

وقال عروة بن الزبير : رأيتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عاتقه قربة ماء ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا ، فقال : لما أتتني الوفود بالسمع والطاعة دخلتْ في نفسي نخوة ، فأحببتُ أن أكسرها ، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها .

(١) الذر : أي بني آدم .

(٢) إن الهدف من التكبر على الأغنياء هو التنفير من التواضع للأغنياء لدنياهم .

ورؤي أبو هريرة وهو أمير المدينة المنورة ، وعلى ظهره حزمة حطب ، وهو يقول : طرّقوا للأمير (١) .

وقال عبد الله الرازي : التواضع ترك التميز في الخدمة .

وقال أبو سليمان الداراني : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة .

وقال يحيى بن معاذ : التكبر على من تكبر عليك بماله تواضع .

وجاء رجل للشبلي فقال له الشبلي : من أنت ؟ فقال : يا سيدي النقطة التي تحت الباء ، فقال : أنت شاهدي ما لم تجعل لنفسك مقاماً .

وقال ابن عباس : من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر (٢) أخيه .

وقال بشر : سلّموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم .

وقال شعيب بن حرب : بينما كنت في الطواف إذ لكزني (٣) إنسان بمرفقه ، فالتفت إليه فإذا هو الفضيل بن عياض ، فقال : يا أبا صالح إن كنت تظن أنه شهد الموسم شر مني ومنك فبئسما ظننت .

وقال بعضهم : رأيت في الطواف إنساناً بين يديه شاكرية (٤) يمنعون الناس لأجله عن الطواف ، ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل الناس شيئاً ، فتعجبت منه ، فقال لي : أنا تكبرت في موضع يتواضع الناس هناك ، فابتلاني الله تعالى بالتذلل في موضع يترفع فيه الناس .

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابناً له اشترى فصّاً (٥) بألف درهم ، فكتب إليه أبوه : بلغني أنك اشتريت فصّاً بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن ، واتخذ خاتماً من درهمين ، واجعل فصّه حديداً صينياً ، واكتب عليه : (رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه) .

---

(١) طرقوا للأمير : افسحوا للأمير طريقاً .

(٢) سؤر الإنسان : ما يبقى في الإناء من الماء بعد الشرب .

(٣) لكزني : ضربني بجمع كفه .

(٤) الشاكرية : مفردها الشاكري ، وهي لفظة فارسية ، وتعني : الأجير والمستخدم .

(٥) الفص بتثليث الفاء : جمعه فصوص ، وهو ما يركّب في الخاتم من الأحجار الكريمة ، والمولدون يسمونه قلب الخاتم .

وقيل : عُرض على بعض الأمراء مملوك بألف درهم فلما أحضر الثمن استكثره ، ورد الثمن إلى الخزانة ، فقال العبد : يا مولاي اشترني فإن عندي بكل درهم من هذه الدراهم خصلة تساوي أكثر من ألف درهم ، فقال : وما هي ؟ فقال : أقلها وأدناها أنك لو اشتريتني وقدمتني على جميع مماليكك لا أغلط في نفسي ، وأعلم أني عبدك فاشتراه .

وروي عن جابر بن حيوة أنه قال : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب باثني عشر درهما ، وكانت قباء(١) وعمامة وقميصا وسراويل ورداءً وخفين وقلنسوة .

وقيل : مشى عبد الله بن محمد بن واسع مشياً لا يحمد ، فقال له أبوه : وتدري بكم اشتريت أمك بثلاث مائة درهم ، وأبوك لا أكثر الله تعالى في المسلمين مثله أباً ، وأنت تمشي هذه المشيه ! .

يقول حمدون القصار : التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة ، لا في الدنيا ولا في الدين .

وقيل : تشاجر أبو ذر الغفاري وبلال الحبشي رضي الله عنهما ، فعير أبو ذر بلالاً بالسواد فشكاه إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا ذر إنه بقي في قلبك من كبر الجاهلية شيء ، فألقى أبو ذر نفسه ، وحلف أن لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه ، فلم يرفع حتى فعل بلال .

ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما بصبيان معهم كسر خبز فاستضافوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم وكساهم ، وقال : اليد لهم(٢) لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه .

وقيل : قسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحلل(٣) من الغنائم بين أصحابه ، فبعث إلى معاذ بن جبل حلة يمنية فباعها ، واشترى ستة عبيد وأعتقهم ، فبلغ ذلك عمراً ، فكان يقسم الحلل بعده ، فبعث إليه حلة دون تلك فعاتبه معاذ

---

(١) القباء : جمع أقبية ، وهو ثوب يُلبس فوق الثياب ، والمولدون يسمونه قنباز .

(٢) اليد لهم : الفضل لهم .

(٣) الحلل : مفردها الحلّة وهي كل ثوب جديد ، أو الثوب الساتر لجميع البدن .

فقال له عمر : لا معاتبة لأنك تبعت الأولى ، فقال معاذ : وما عليك ، ادفع إليّ نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك ، فقال عمر : هذا رأسي بين يديك ، وقد يرفق الشيخ بالشيخ .

١٣ ـ مخالفة النفس

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(١) ﴾ .

حدثنا جابر بن عبد الله(٢) عن النبي ﷺ قال : « أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة ، ثم اعلم أن مخالفة النفس رأس العبادة(٣) » .

سُئل أحد المشايخ عن الإسلام فقال : ذبح النفس بسيوف المخالفة(٤) ، واعلم أن من نجمت(٥) طوارق نفسه(٦) ذهبت من قلبه شوارق أنسه (بالله) .

وقال ذو النون المصري : مفتاح العبادة الفكر ، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ، ومخالفتهما ترك شهواتهما .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء

---

(١) الآية : سورة النازعات ـ ٤٠ .

(٢) جابر بن عبد الله الخزرجي الأنصاري السلمي (١٦ ق هـ ـ ٧٨ هـ/٦٠٧ ـ ٣٦٩٧) م راوية . غزا تسع عشرة غزوة . له حلقة علم في المسجد النبوي . روى ١٥٤٠ حديثاً .

(٣) الحديث : رواه جابر ، وأخرجه عنه ابن عدي في الكامل كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي حيث ضعفه ٤٢/١ رقم ٣٠٦ وقال في الكنز ١٦ ص ٢٢ رقم ٤٣٧٦٤ ـ ٤٣٧٦٥ وأخرجه ابن النجار عن جابر، وابن عساكر عن علي موقوفاً، والحاكم في تاريخه، والديلمي عن جابر أيضاً.

(٤) وهو أول الطريق ، وذلك لأن النفس إذا اعتادت اللذات لا تنصرف إلى الطاعات إلا بالمجاهدات والتوبيخات الشديدة ، ومن ثم سميت هذه الأمور سيوفاً، وذبح النفس قهرها ونقلها عن هواها .

(٥) نجمت : طلعت .

(٦) طوارق نفسه : آثار خواطرها

المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها معها في فسادها .

يقول الجنيد : النفس الأمارة بالسوء هي الداعية إلى المهالك المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى ، المتهمة بأصناف الأسواء .

وقال أبو حفص : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال ، ولم يجرّها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه، والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل ، يقول : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(١) .

قال الجنيد : أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة ، فأردت أن أنام فلم أقدر عليه ، فقعدت فلم أطق القعود ، ففتحت الباب وخرجت ، فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بي رفع رأسه ، وقال : يا أبا القاسم إليّ الساعة ، فقلت : يا سيدي من غير موعد ، فقال : بلى ، قد سألت محرّك القلوب أن يحرّك لي قلبك ، فقلت : قد فعل ، فما حاجتك ؟ فقال : متى يصير داء النفس دواءها، فقلت : إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها، فأقبل على نفسه ، وقال : اسمعي قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات ، فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد، وقد سمعت وانصرف عني ولم أعرفه، ولم أقف عليه .

وقال أبو بكر الطمستاني : النعمة العظمى هي الخروج من النفس ، لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد إنسان ربه كمخالفة النفس والهوى .

سئل ابن عطاء عن أقرب شيء إلى مقت الله تعالى، فقال: رؤية النفس وأحوالها وأشد من ذلك مطالعة الأعراض على أفعالها .

وقال إبراهيم الخواص : كنت في جبل اللكام(٢) ، فرأيت رمّاناً فاشتهيته ، فدنوت منه وأخذت منه واحدة ، فشققتها فوجدتها حامضة ، فمضيت

(١) الآية : سورة يوسف ـ ٥٣ .

(٢) جبل اللكام : الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس .

وتركتُ الرمان فرأيتُ رجلاً مطروحاً قد اجتمعت عليه الزنابير، فقلتُ: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، فقلت: كيف عرفتني؟ فقال: من عرف الله تعالى لا يخفى عليه شيء[1]، فقلتُ: أرى لك حالاً مع الله تعالى، فلو سألته أن يحميك ويقيك الأذى من هذه الزنابير، فقال: وأنا أرى لك حالاً مع الله تعالى، فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان، فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا فتركته ومضيت[2].

وروي عن إبراهيم بن شيبان أنه قال: بتُّ تحت سقف ولا في موضع عليه غلق أربعين سنة، وكنتُ أشتهي في أوقات أن أتناول شبعة[3] عدس فلم يتفق (لي ذلك)، فكنتُ في أحد الأوقات في الشام فحُمل إليّ غضارة[4] فيها عدس، فتناولتُ منه، وخرجتُ فرأيتُ قوارير معلقة، فيها شبه نموذجات[5] فظننتها خلاً فقال لي بعض الناس: ما ترى في هذه النموذجات من الخمر؟ فقلتُ: لزمني فرض، فدخلتُ حانوت الخمّار، ولم أزل أصب تلك الدنان، وهو يتوهم أني أصبها بأمر السلطان، فلما علم حملني إلى ابن طولون فأمر بضربي مائتي خشبة وطرحني في السجن، فبقيتُ فيه مدة حتى دخل أبو عبد الله المغربي أستاذي ذلك البلد فشفع لي، فلما وقع بصره عليّ قال: ماذا فعلت؟ فقلتُ: شبعة عدس ومائتي خشبة، فقال لي: نجوت مجاناً[6]....

يقول السري: إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس فما أطعتها. سمعتُ أبا العباس البغدادي يقول: سمعتُ جلي يقول: آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه.

وجّه عصام بن يوسف البلخي شيئاً إلى حاتم الأصم فقبله، فقيل له: لماذا قبلتَه؟ فقال: وجدتُ في أخذه ذلي وعزه، وفي رفضي إياه عزي وذله، فاخترت

(١) بأن ييسر الله له كل ما يريد، تارة بالسؤال، وتارة بالقراءة، وتارة بغيره.

(٢) خشية أن أشتغل به فيفسد عليَّ توكلي.

(٣) شبعة: قدر ما يُشبع به.

(٤) غضارة: قدر وعاء من فخار.

(٥) النموذجات: مفردها نموذج وانموذج، وهي لفظة فارسية تعني مثال الشيء.

(٦) أي بلا بدل يعني: بلا عقوبة في الآخرة.

عزه على عزي ، وذلي على ذله .

وقيل لبعضهم : إني أريد أن أحج على التجريد ، فقال له : جرّد أولاً قلبك عن السهو ، ونفسك عن اللهو ، ولسانك عن اللغو ، ثم اسلك حيث شئت .

وقال أبو سليمان عبد الرحمن الداراني : من أحسن في ليلة كوفي في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفي في ليله ، ومن صدق في ترك شهوة كفي مؤونتها ، والله أكرم من أن يعذب قلباً ترك شهوة لأجله .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود حذّر وأنذر أصحابك من الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة .

ورؤي رجل جالساً في الهواء فقيل له : بمَ نلت هذا؟ فقال : تركتُ الهوى ، فسخر لي الهواء .

وقيل : لو عُرض للمؤمن ألف شهوة لأخرجها بالخوف ، أو لو عُرضت للفاجر شهوة واحدة لأخرجته من الخوف .

وقيل : لا تضع زمامك في يد الهوى ، فإنه يقودك إلى الظلمة .

وقال يوسف بن أسباط : لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق .

وقال إبراهيم الخواص : من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها وقال جعفر بن نصير : دفع إليّ الجنيد درهماً وقال : اشتر لي به التين الوزيري ، فاشتريته له ، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فمه ثم ألقاها وبكى ، وقال : احمله ، فقلت له في ذلك! فقال : هتف في قلبي هاتف فقال : أما تستحي شهوة تركتها من أجلي ثم تعود إليها . وقالوا :

نون الهوان من الهوى مسروقة وصريع كل هوى صريع هوان

١٤ ـ الحسد

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ثم قال :

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾(١) ، فختم السورة التي جعلها عوذة(٢) بذكر الحسد(٣)

حدثنا عبد الله بن مسعود وقال : إن النبي ﷺ قال : ثلاث هن أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن : إياكم والكبر ، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم . وإياكم والحرص(٤) ، فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة . وإياكم والحسد فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً(٥)

وقال بعضهم : الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد .

وقيل : المحسود لا يسود(٦)

وقيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾(٧)

قيل : (ما بطن) هو الحسد .

وفي بعض الكتب : الحاسد عدو نعمتي .

وقيل : أثر الحسد يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك .

وقال الأصمعي رأيت أعرابياً أتت عليه مائة وعشرون سنة ، فقلت : ما أطول عمرك ! فقال تركت الحسد فبقيت .

وقال ابن المبارك : الحمد لله الذي لم يجعل في قلب أميري ما جعل في قلب حاسدي .

---

(١) الآية : سورة الفلق ١-٥ .

(٢) العوذة : جمع عوذ ، والتعويذ جمع تعاويذ ، وهي أسماء بمعنى الرقية وهي التي تكتب وتعلق على الإنسان لتقيه من الجنون والعين .

(٣) الحسد هو أن يتمنى العبد زوال النعمة عن غيره سواء أراد رجوعها عليه أم لا ، وهو أمر محرم لأن فيه نسبة الظلم لله تعالى .

(٤) على اتباع الشهوات .

(٥) الحديث : قال في الكنز ٣/ ص ٢٥٦ رقم (٧٧٣٤) رواه ابن مسعود ، وأخرجه ابن عساكر .

(٦) في الدنيا ولا في الآخرة ، بل يعود عليه فيها ضرر الحسد ، وهو ألم الهم والحزن في الدنيا ، وألم العقوبة في الآخرة .

(٧) الآية : سورة الأعراف - ٣٣ .

وفي بعض الآثار : أن في السماء الخامسة ملكاً يمر به عمل كل عبد ، وله ضوء كضوء الشمس ، فيقول : قف فأنا ملك الحسد أضرب به وجه صاحبه فإنه حاسد .

وقال معاوية بن أبي سفيان : كل إنسان أستطيع أن أرضيه إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة .

ويقال : الحاسد ظالم غشوم لا يبقي ولا يذر .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد ، فإنه في غم دائم دائم ونفس متتابع .

وقيل : من علامات الحاسد أن يتملق إذا شهد ، ويغتاب إذا غاب ، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت .

وقال معاوية بن أبي سفيان : ليس في صفات الشر صفة أعدل من الحسد ، تقتل الحاسد قبل المحسود .

وقيل : أوحى الله عز وجل إلى سليمان بن داود عليهما السلام : أوصيك بسبعة أشياء : لا تغتابن صالحاً من عبادي ، ولا تحسدن أحداً منهم ، فقال سليمان : يا رب حسبي .

وقيل : رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش فغبطه ثم سأل : ما عمله ؟ فقيل : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وقيل : إن الحاسد إذا رأى نعمة بهت ، وإذا رأى عثرة شمت .

وقيل : الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه . وقيل : إياك ان تتمنى في مودة من يحسدك ، فإنه لا يقبل إحسانك .

وقيل : إذا أراد الله تعالى أن يسلط على عبد عدواً لا يرحمه ، سلط عليه حاسده :

وحسبك من حادث شامرئ ، ترى حاسديه له راحمينا

وقالوا :

كل العداوة قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقالوا :

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

وقال ابن المعتز :

قل للحسود إذا تنفس طعنة   يا ظالماً وكأنه مظلوم

١٥ - الغيبة

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ(١) ﴾ .

عن أبي هريرة (رضي) أن رجلاً قام ، وهو مع رسول الله ﷺ قبل ذلك جالس ، فقال بعض القوم : ما أعجز فلاناً ! فقال ﷺ : أكلتم أخاكم واغتبتموه .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار .

قال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت الحجاج(٢) ، فقال ابن سيرين : إن الله تعالى حكم عدل ، فكما يأخذ من الحجاج يأخذ للحجاج ، وإنك إذا لقيت الله عز وجل غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

وقيل : دعي إبراهيم بن أدهم إلى دعوة فحضر فذكروا رجلاً لم يأتهم ، فقالوا : إنه ثقيل ، فقال إبراهيم : إنما فعل بي هذا نفسي ، حيث حضرت موضعاً يغتاب فيه الناس ، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام .

وقيل : مثل الذي يغتاب الناس كمثل من نصب منجنيقاً(٣) يرمي به حسناته شرقاً وغرباً ، يغتاب واحداً خراسانياً وآخر حجازياً وآخر تركياً فيفرق حسناته ، ثم يقوم ولا شيء معه .

---

(١) الآية : سورة الحجرات - ١٢ .

(٢) تناولت الحجاج : اغتبته .

(٣) المنجنيق : لفظة يونانية ، وهي آلة كانوا يرمون بها الحجارة والمواد المشتعلة ، وجمعها مجانيق ومنجنيقات .

وقيل : يؤتى العبد يوم القيامة كتابه ، فلا يرى فيه حسنة ، فيقول : أين صلاتي وصيامي وطاعتي ؟ فيقال له : لقد ذهب عملك كله باغتيابك الناس .

وقيل : من اغتيب بغيبة غفر الله تعالى له نصف ذنوبه .

وقال سفيان بن الحسين : كنتُ جالساً عند إياس بن معاوية فنلت من إنسان ، فقال : هل غزوت في هذا العام الترك والروم ؟ فقلتَ : لا ، فقال : سلم منك الترك والروم وما سلم منك أخوك المسلم .

وقيل : يعطى الرجل كتابه فيرى فيه حسنات لم يعملها فيقال له : هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر .

وسئل سفيان الثوري عن قوله ﷺ : « إن الله يبغض أهل البيت اللحمين (١) » فقال : هم الذين يغتابون الناس يأكلون لحومهم .

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك فقال : لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديّ لأنهما أحق بحسناتي .

وقال يحيى بن معاذ : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسرّه فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه .

وقيل للحسن البصري : إن فلاناً اغتابك فبعث إليه طبق حلواء ، وقال : بلغني أنك أهديتَ إليّ حسناتك ، فكافأتك .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له(٢) .

قال الجنيد : كنتُ جالساً في مسجد الشونيزية أنتظر جنازة أصلي عليها ، وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ينتظرون الجنازة ، فرأيتُ فقيراً عليه أثر النسك يسأل الناس ، فقلتُ في نفسي : لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل به ، فلما انصرفت إلى منزلي ، وكان لي شيء من الورد بالليل حتى البكاء والصلاة وغير ذلك ، فثقل عليّ جميع أورادي ، فسهرت وأنا قاعد فغلبني النعاس ، فرأيتُ ذلك

---

(١) الحديث : قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٢٤ رقم ٢٤٥ : رواه كعب وأخرجه البيهقي في الشعب .

(٢) الحديث : أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال عن أنس بسند ضعيف .

الفقير قد جاءوا به على خوان ممدود، وقالوا لي: كل لحمه فقد اغتبته، وكشف لي عن الحال فقلت: ما اغتبته، إنما قلت في نفسي شيئاً، فقيل لي: ما أنت ممن يرضى منك بمثله، اذهب فاستحله، ولم أزل أتردد حتى رأيته في موضع يلتقط من الماء عند تراد الماء أوراقاً من البقل مما تساقط من غسل البقل، فسلمت عليه فقال: يا أبا القاسم أتعود؟ فقلت: لا، فقال: غفر الله تعالى لنا ولك.

يقول أبو جعفر البلخي: كان عندنا شاب من أهل بلخ، وكان يجتهد ويتعبد، إلا أنه كان يغتاب الناس باستمرار ويقول فلان كذا وفلان كذا، فرأيته يوماً قد خرج من عند المخنثين الغسالين، فقلت: يا فلان ما حالك؟ فقال: تلك الوقيعة في الناس أوقعتني إلى هذا، فقلت ابتليت بمخنث من هؤلاء، وها أنا ذا أخدمهم من أجله وتلك الأحوال كلها فقد ذهبت، فادع الله أن يرحمني.

١٦ - القناعة

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(١)، وقال كثير من المفسرين: الحياة الطيبة في الدنيا هي القناعة.

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «القناعة كنز لا يفنى»(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قانعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقلل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»(٣).

---

(١) الآية: سورة النحل - ٩٧.

(٢) القناعة هي الاكتفاء بما تندفع به الحاجة من مأكل وملبس وغيرهما وهي ممدوحة ومطلوبة، والحديث: قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٣٠٨ رقم ٧٧٩ رواه الطبراني في الأوسط، والعسكري من حديث المنكدر بن محمد المنكدر عن أبيه عن جابر، وكذلك عن العسكري عن أنس، والقضاعي بلفظ (القناعة مال لا ينفد)، وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير ص ٢٢٢ رقم ٦١٩٣.

(٣) الحديث قال في الكنز ١٦/ ص ٢٤٣ رقم (٤٤٣١٥) رواه البيهقي عن أبي هريرة.

وقيل : الفقراء أموات إلا من أحياه الله تعالى بعز القناعة .

وقال بشر الحافي : القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن .

يقول أبو سليمان الداراني : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد ، هذا أول الرضا وهذا أول الزهد .

وقيل : القناعة السكون عند عدم المألوفات .

وقال أبو بكر المراغي : العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ، وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل ، وأمر الدين بالعلم والاجتهاد .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء بالموجود .

وقيل في معنى قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً(١) ﴾ يعني : القناعة .

وقال محمد بن علي الترمذي : القناعة رضا النفس بما قسم لها من الرزق .

ويقال : القناعة الاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بحاصل .

وقال وهب : إن العز والغنى خرجا يجولان يطلبان رفيقاً ، فلقيا القناعة فاستقرا .

وقيل : من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة ، ومن رجع إلى الله تعالى على كل حال رزقه الله القناعة .

وقيل مر أبو حازم بقصاب ومعه لحم سمين ، فقال : خذ يا أبا حازم فإنه سمين ، فقال ليس معي درهم ، فقال : أنا أنظرك ، فقال : نفسي أحسن نظرة لي منك .

وقيل : من أقنع الناس ؟ فقيل : أكثرهم للناس معونة ، وأقلهم عليهم مؤونة .

وفي الزبور(٢) : القانع غني ولو كان جائعاً .

وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع : العز في الطاعة ،

---

(١) الآية : سورة الحج ـ ٥٨ .

(٢) الزبور : جمع زُبُر وهو الكتاب ، وغلب على مزامير داود عليه السلام .

والذل في المعصية ، والهيبة في قيام الليل ، والحكمة في البطن الخالي ، والغنى في القناعة .

يقول إبراهيم المارستاني : انتقم من حرصك بالقناعة ، كما تنتقم من عدوك بالقصاص .

وقال ذو النون المصري : من قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .

وقيل : من قنع استراح من الشغل واستطال على الكل .

وقال محمد الكتاني : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالعز والمروءة .

وقيل : من تابعت عيناه ما في أيدي الناس طال حزنه ، وأنشدوا :

وأحسن بالفتى من يوم عار ينال به الغنى كرم وجوع

وقيل : رأى رجل حكيماً يأكل ما تساقط من البقل على رأس ماء ، فقال : لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا ، فقال الحكيم : وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١) ﴾ هو القناعة في الدنيا ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (٢) ﴾ هو الحرص في الدنيا (٣) .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ (٤) ﴾ أي فكها من ذل الطمع .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (٥) ﴾ يعني البخل والطمع ، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ يعني بالسخاء والايثار .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي (٦) ﴾ أي

---

(١) و (٢) : الآية : سورة الانفطار ـ ١٣ .

(٣) وفي نسخة مخطوطة أخرى وجدنا العبارة : الحرص على الدنيا .

(٤) الآية : سورة البلد ـ ١٣ .

(٥) الآية : سورة الأحزاب ـ ٣٣ .

(٦) الآية : سورة ص ـ ٣٥ .

مقاماً في القناعة أنفرد به من أشكالي، وأكون راضياً فيه بقضائك.

وقيل في قوله تعالى: ﴿لأعذبنه عذاباً شديداً(١)﴾ يعني لأسلبنه القناعة ولأبتلينه بالطمع، يعني أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك.

وقيل لأبي يزيد البسطامي: بماذا وصلت إلى ما وصلت؟ فقال: جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، ورميت بها في بحر اليأس فاسترحت.

كان محمد بن فرحان بسامراء يقول: سمعت خالي عبد الوهاب يقول: كنت جالساً عند الجنيد أيام الموسم وحوله جماعة كثيرون من العجم والمولدين، فجاء إنسان بخمس مائة دينار، ووضعها بين يديه، وقال: تفرقها على هؤلاء الفقراء، فقال: ألك غيرها؟ قال: نعم، علي دنانير كثيرة، فقال: أتريد غير ما تملك؟ فقال: نعم، فقال الجنيد: خذها فإنك أحوج إليها منا، ولم يقبلها.

١٧ - التوكل

قال الله عز وجل: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه(٢)﴾ وقال تعالى أيضاً: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون(٣)﴾، وقال أيضاً: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين(٤)﴾.

عن عبد الله بن مسعود(٥) أن رسول الله ﷺ، قال: «أريت الأمم بالموسم، فرأيت أمتي ملأوا السهل والجبل، فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم، فقيل لي: أرضيت؟ فقلت: نعم، قال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون(٦)»، فقام

(١) الآية: سورة النمل - ٢١.

(٢) الآية: سورة الطلاق - ٣.

(٣) الآية: سورة آل عمران - ١٦٠.

(٤) الآية: سورة المائدة - ٢٣.

(٥) عبد الله بن مسعود الهذلي (توفي ٣٢ هـ/٦٥٣م): صحابي. من مكة المكرمة. ومن السابقين للإسلام. قصير القامة. له ٨٤٨ حديثاً.

(٦) الحديث: رواه ابن مسعود، وأخرجه أحمد في المسند ١/٤٠٣.

عكاشة بن محصن الأسدي(١) فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجعله منهم ، فقام آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال ﷺ : سبقك بها عكاشة .

قال أبو علي محمد الروذباري : قلتُ لعمرو بن سنان(٢) : احكِ لي عن سهل ابن عبد الله(٣) حكاية ، فقال : إنه قال : علامة المتوكل ثلاث : لا يسأل ولا يرد ولا يحبس .

يقول أبو موسى الديبلي : قيل لأبي يزيد البسطامي : ما التوكل ؟ فقال لي : ماذا تقول أنتَ ؟ قال : قلتُ : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك ، فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون ، وأهل النار في النار يتعذبون ، ثم وقع لك تمييز عليهما خرجتَ من جملة التوكل .

وقال سهل بن عبد الله : أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجلّ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

وقال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله تعالى .

قال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾(٤)

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب ، بعدما تحقق العبد أن التقدير من قِبَل الله تعالى ، وإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن اتفق شيء فبتيسيره .

(١) عكاشة بن محصن الأسدي (توفي ١٢ هـ/٦٥٣م) : من بني غنم ، صحابي . شهد المشاهد كلها مع الرسول ، وقتل في حرب الردة .

(٢) عمرو بن سنان التميمي المنقري (توفي ٥٧ هـ/٦٧٧م) : سيد الخطباء والشعراء في الجاهلية والإسلام . من نجد . كان جميل الشكل .

(٣) سهل بن عبد الله التستري (٢٠٠ - ٢٨٣هـ / ٨١٥ - ٨٩٦م) : من كبار الصوفيين والمتكلمين . ألف : (تفسير القرآن . ورقائق المحبين) .

(٤) الآية : سورة المنافقون - ٧ .

عن أنس بن مالك قال: جاء رجل على ناقة له فقال: يا رسول الله هل أدعها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل(١).

وقال إبراهيم الخواص: من صح توكله في نفسه صح توكله في غيره.

وقال بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله تعالى، يكذب على الله تعالى، لو توكل على الله تعالى لرضي بما يفعل الله تعالى به.

وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله تعالى وكيلاً.

قال إبراهيم الخواص: بينما أنا أسير في البادية وإذا بهاتف يهتف، فالتفت إليه فإذا أعرابي يسير، فقال لي يا إبراهيم: التوكل عندنا، أقم عندنا حتى يصح توكلك، ألم تعلم أن رجاءك لدخول بلد فيه أطعمة يحملك على الإقامة، اقطع رجاءك عن البلدان وتوكل.

وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل، فقال: أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

يقول أبو نصر السراج الطوسي: شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشبي وهو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطي شكر، وإن منع صبر.

وقال ذو النون المصري: التوكل ترك تدبير النفس والإنخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه.

يقول أبو جعفر بن الفرج: رأيت رجلاً يعرف بجمل عائشة من الشطار(٢)

---

(١) الحديث: فيه دلالة على أن السبب لكونه فعل الجارحة لا ينافي التوكل لكونه فعل القلب.
اخرجه الترمذي رقم (٢٥١٩) في صفة القيامة باب رقم (٦١) وهو حسن بشواهد.

(٢) الشطار: جمع، مفرده: الشاطر، وهو المتصف بالدهاء والخبث.

يُضْرَبُ بالسياط، فقلتُ له : أي وقتٍ يكونُ ألم الضرب عليكم أسهل ؟ فقال : إذا كان من ضربنا لأجله يرانا .

وقال الحسين بن منصور لإبراهيم الخواص : ماذا صنعت في هذه الأسفار وقطع هذه المفاوز(١) ؟ قال : بقيتُ في التوكل ، أصحح نفسي عليه ، فقال الحسين بن منصور : أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد .

يقول أبو نصر السراج الطوسي : التوكل ما قاله أبو بكر الدقاق وهو رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد، وهو كما قال سهل بن عبد الله : التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

يقول أبو يعقوب إسحاق النهر جوري : التوكل على الله تعالى بكمال الحقيقة مما وقع لابراهيم عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام : أما إليك فلا ، لأنه غابت نفسه بالله تعالى ، فلم يَرَ مع الله غير الله عزّ وجلّ .

سُئل ذو النون المصري : ما التوكل ؟ فقال : خلع الأرباب(٢) وقطع الأسباب ، فقال السائل : زدني ، فقال : إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية .

وسُئل حمدون القصار عن التوكل فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم ، وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى ذلك الدين في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم من غير أن تترك لها وفاءً لا تيأس من الله تعالى أن يقضيه عنك .

وسُئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حالٍ ، فقال السائل : زدني فقال : ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولّي لذلك .

---

(١) المفازة : جمع مفازات ومفاوز وهي المهلكة أو الفلاة التي لا ماء فيها ، وقيل : إن ذلك مأخوذ من فوّز أي مات لأن المفازة مظنّة للموت لخلوها من الماء ، وقيل سميت مفازة لأن من خرج منها وقطعها فاز .

(٢) المقصود من خلع الأرباب هو : خلع ما سوى الله تعالى مما يتملك القلب ، ويسيطر على شخصية الانسان ، ويجعل الإنسان مسخراً له كالدرهم والدينار وغيرهما .

وقال سهل بن عبد الله : التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقي على حاله فلا يتركنّ سنّته .

وقال أحمد بن عيسى الخرّاز : التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب .

وقيل : التوكل أن يستوي عندك الإكثار والتقلل .

وقال أحمد بن مسروق : التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام .

يقول أبو عثمان سعيد الحيري : التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه .

يقول الحسين بن منصور : المتوكل المحق لا يأكل ، وفي البلد من هو أحق به منه .

قال عمر بن سنان : اجتاز بنا إبراهيم الخواص فقلنا : حدّثنا بأعجب ما رأيته في أسفارك ، فقال لقيني الخضر عليه السلام فسألني الصّحبة فخشيت أن يفسد عليّ توكلي بسكوني إليه ففارقته .

وسُئل سهل بن عبد الله عن التوكل فقال : قلب عاش مع الله تعالى بلا علاقة .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض : فالمتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . ويقول : التوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية .

وسُئل الدقاق عن التوكل فقال : الأكل بلا طمع .

وقال يحيى بن معاذ : لبس الصوف حانوت ، والكلام في الزهد حرفة ، وصحبة القوافل تعرض ، وهذه كلها علاقات .

جاء رجل إلى الشبلي يشكو إليه كثرة العيال ، فقال : ارجع إلى بيتك فمن ليس رزقه على الله فاطرده عنك .

قال سهل بن عبد الله : من طعن في الحركة فقد طعن في السنّة ، ومن طعن

في التوكل فقد طعن في الإيمان .

قال إبراهيم الخواص : كنتُ في طريق مكة، فرأيتُ شخصاً وحشياً، فقلت: جني أو أنسيّ ؟ فقال : جنيّ، فقلتُ: إلى أين ؟ فقال: إلى مكة، فقلت: بلا زاد ؟ فقال: نعم فينا أيضاً من يسافر على التوكل، فقلتُ : وما التوكل ؟ فقال: الأخذ من الله تعالى.

كان إبراهيم الخواص مجرداً في التوكل ، يدقق فيه ، وكانت لا تفارقه (إبرة وخيوط وركوة(١) ومقراض(٢)) فقيل له : يا أبا اسحاق لماذا تحمل هذا وأنت تمتنع من كل شيء ؟ فقال : مثل هذا لا ينقض التوكل لأن لله تعالى علينا فرائض ، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد ، فربما يتمزق ثوبه فإن لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد صلاته ، وإذا لم يكن له معه ركوة تفسد طهارته ، فإذا رأيتَ الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في صلاته .

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : التوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص . وكان يقول : التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ .

يقول أبو جعفر الحداد : مكثت بضع عشرة سنة ، أعتقد التوكل ، وأنا أعمل في السوق ، آخذ كل يوم أجرتي ولا أنتفع منها بشربة ماء ، ولا بدخلة حمام ، وكنت أجيء بها إلى الفقراء في الشونيزية وأكون على حالي .

قال حسان بن أبي سنان : حججتُ أربع عشرة حجة حافياً على التوكل ، فكان يدخل في رجلي الشوك ، فأذكر أني اعتقدت على نفسي التوكل فأحكها في الأرض وأمشي .

قال أبو حمزة : إني لأستحيي من الله تعالى أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدتَ التوكل لئلا يكون شعبي على الشبع زاداً أتزوده .

---

(١) الركوة : جمع ركاء وركوات ، وهو إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء .

(٢) المقراض : جمع مقاريض ، ما يُقرض به الثوب أي يُقطع .

وسُئل حمدون القصار عن التوكل فقال: تلك درجة لم أبلغها بعد، وكيف يتكلم في التوكل من لم يصح له حال الإيمان.

وقيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه تعالى.

وعن بعضهم قال: كنت في البادية، فتقدمت القافلة فرأيت أمامي واحداً، فتسارعت حتى أدركته، فإذا هي امرأة بيدها عكاز، تمشي على التؤدة، فظننت أنها أعيت، فأدخلت يدي في جيبي، فأخرجت عشرين درهماً، فقلت: خذيها وامكثي حتى تلحقك القافلة فتكترين[1] بها، ثم ائتيني الليلة حتى أصلح أمرك، فقالت بيدها هكذا في الهواء، فإذا في كفها دنانير، فقالت: أنت أخذت الدراهم من الجيب، وأنا أخذت الدنانير من الغيب.

ورأى أبو سليمان الداراني رجلاً بمكة (شرفها الله تعالى) لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم، فمضت عليه أيام، فقال له أبو سليمان يوماً: أرأيت لو غارت زمزم! ماذا كنت تشرب فقام الرجل وقبل رأسه وقال: جزاك الله تعالى خيراً حيث أرشدتني، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام ومضى.

وقال إبراهيم الخواص: رأيت في طريق الشام شاباً حدثاً حسن المراعاة، فقال لي: هل لك في الصحبة؟ فقلت: إني أجوع، فقال: إن جعت جعت معك، فبقينا أربعة أيام ففتح علينا بشيء فقلت: هلم، فقال: اعتقدت أني لا آخذ بواسطة، فقلت: يا غلام دققت، فقال: يا إبراهيم، لا تتبهرج فإن الناقد بصير، مالك والتوكل؟ ثم قال: أقل التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو نفسك إلا إلى من إليه الكفايات.

وقيل: التوكل نفي الشكوك والتفويض إلى ملك الملوك[2].

وقيل دخل جماعة على الجنيد، فقالوا: أين نطلب الرزق؟ فقال: إن علمتم في أي موضع فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك، فقال: إن علمتم أنه

---

(١) تكترين: تستأجرين.

(٢) هنا يقول شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: إن التوكل على التفويض يطلق على التوكل على التسليم، والتوكل إنما كان من قوة اليقين وهو بعيد عن الشك.

ينساكم فاذكروه ، فقالوا : ندخل البيت فنتوكل ، فقال : التجربة شك . قالوا : فما الحيلة ؟ فقال : ترك الحيلة .

وقال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : يا أحمد إن طرق الآخرة كثيرة ، وشيخك عارف بكثير منها إلا هذا التوكل المبارك فإني ما شممت منه رائحة .

وقيل : التوكل الثقة بما في يد الله تعالى ، واليأس عما في أيدي الناس .

وقيل : التوكل فراغ السر عن التفكر في التقاضي في طلب الرزق .

وسئل الحارث المحاسبي عن المتوكل هل يلحقه طمع ؟ فقال : يلحقه من طريق الطباع خطرات ، ولا يضره شيء ، ويقويه على إسقاط الطمع اليأس عما في أيدي الناس .

وقيل : جاع أحمد النوري في البادية ، فهتف به هاتف : أيما أحب إليك سبب أو كفاية ؟ فقال : الكفاية ، فليس فوقها نهاية ، فبقي سبعة عشر يوماً لم يأكل .

وقال أبو علي الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فالزموه السوق ومروه بالعمل والكسب .

وقيل : نظر أبو تراب النخشبي إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ كي يأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : لا يصلح لك التصوف ، الزم السوق .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري : جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفاً فحدثتني نفسي ، فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئاً يسكن ضعفي ، فرأيت سلجمة(١) مطروحة ، فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة ، وكأن قائلاً يقول لي : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد ، فقعدت ، فإذا أنا برجل أعجمي ، فجلس بين يدي ووضع قمطرة(٢) وقال : هذه

---

(١) سلجمة : نوع من اللفت .

(٢) القِمَطْر وَالقِمطَر : جمع قماطر وهو ما تصان به الكتب ، وربما أنّث بالهاء (قمطرة) .

لك ، فقلت : كيف خصصتني بها ؟ فقال : إنا كنا في البحر منذ عشرة أيام ، وأشرفت السفينة على الغرق ، فنذر كل واحد منا إن خلصنا الله تعالى أن يتصدق بشيء ، ونذرت أنا إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع بصري عليه من المجاورين وأنت أول من لقيته ، فقلت : افتحها ففتحها ، فإذا فيها كعك سميد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا ، وقلت : رد الباقي إلى صبيانك هو هدية مني لكم ، وقد قبلتها ، ثم قلت في نفسي : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي .

يقول أبو بكر الرازي : كنت عند ممشاد الدينوري فجرى حديث الدين فقال : كان علي دين فاشتغل قلبي ، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول : يا بخيل ، أخذت علينا هذا المقدار ، عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالاً ولا قصاباً ولا غيرهم .

ويروى عن بنان الحمال قال : كنت في طريق مكة المكرمة حرسها الله تعالى أجيء من مصر ومعي زاد ، فجاءتني امرأة وقالت لي : يا بنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد ، وتتوهم أنه لا يرزقك ، قال : فرميت بزادي ، ثم أتى علي ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالاً في الطريق ، فقلت في نفسي : أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شيئاً فأرده عليه ، فإذا بتلك المرأة ، فقالت لي : أنت تاجر ، تقول : حتى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئاً ، ثم رمت إلي شيئاً من الدراهم وقالت : أنفقها ، فاكتفيت بها إلى قريب من مكة المكرمة . ويروى أن بنان الحمال احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا : هو ذا يجيء النفر فنشتري ما يوافق ، فلما ورد النفر اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا : إنها تصلح ، فقالوا لصاحبها : بكم هذه؟ فقال : إنها ليست للبيع ، فألحوا عليه فقال : إنها لبنان الحمال : أهدتها إليه امرأة من سمرقند فحملت إلى بنان وذكرت له القصة .

قال الحسن الخياط : كنت عند بشر الحافي ، فجاءه جماعة فسلموا عليه ، فقال : من أين أنتم ؟ قالوا : نحن من الشام ، جئنا نسلم عليك ، ونريد الحج ، فقال : شكر الله تعالى لكم ، فقالوا : تخرج معنا فقال : بثلاثة شروط وهي : لا نحمل معنا شيئاً ، ولا نسأل أحداً شيئاً ، وإن أعطانا أحد شيئاً لا نقبل ، قالوا : أما

أن لا نحمل فنعم، وأما أن لا نسأل فنعم، وأما أن لا نقبل إن أعطينا فهذا لا نستطيعه، فقال: خرجتم متوكلين على زاد الحجيج، ثم قال يا حسن: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ فهذا من الروحانيين(١)، وفقير لا يسأل، وإن أعطي قبل فذاك توضع له موائد في حظائر القدس(٢)، وفقير يسأل، وإن أعطي قبل قدر الكفاية فكفارته صدقة.

وقيل لحبيب العجمي: لم تركت التجارة؟ فقال: وجدت الكفيل ثقة.

وقيل: كان رجل في سفر، ومعه قرص، فقال: إن أكلته مت، فوكل الله تعالى به ملكاً، وقال: إن أكله فارزقه، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره، فلم يزل القرص معه حتى مات ولم يأكله، وبقي عنده القرص.

وقيل: من وقع في ميدان التفويض يزف إليه المراد، كما تزف العروس إلى زوجها، والفرق بين التضييع والتفويض، أن التضييع في حق الله تعالى وذلك مذموم، والتفويض في حقك وهو محمود.

وقال عبد الله بن المبارك: من أخذ فلساً(٣) من حرام فليس بمتوكل.

يقول أبو سعيد الخراز: دخلت البادية مرة بغير زاد فأصابتني فاقة(٤)، فرأيت المرحلة من بعيد، فسررت بأني وصلت، ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره، فآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة، وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعوا صوتاً في نصف الليل عالياً: يا أهل المرحلة إن لله تعالى ولياً حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه، فجاءني جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية.

قال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين، فبينما أنا أمشي في الطريق، إذ وقعت في بئر، فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت: لا والله، لا

---

(١) الروحانيون هم الذين ارتفعت همتهم عن الخلق وعاشوا بدوام ذكرهم لمولاهم.

(٢) القدس هو الطهر، ومثل هذا الإنسان تطهر قلبه من التدنس بالأغيار ناظر إلى ما يجريه الله بحسن الاختيار.

(٣) الفلس: جمع فلوس، وهي نقود نحاسية يتعامل بها.

(٤) الفاقة: الحاجة والفقر.

أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر، حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعالى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وبارية وطمّوا رأس البئر، فهممت أن أصيح ثم قلت في نفسي: أصيح إلى من هو أقرب منهما؟ وسكنت، فبينما أنا بعد ساعة إذا أنا بشيء جاء وكشف رأس البئر، وأدلى رجله وكأنه يقول لي تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك منه، فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع، فمر، وهتف بي هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن، نجيناك من التلف بالتلف، فمشيت وأنا أقول:

أهابك أن أبدي إليك الذي أخفي ... وسري يبدي ما يقول له طرفي
نهاني حيائي منك أن أكتم الهوى ... وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ... تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محباً أنت في الحب حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتف

سئل حذيفة المرعشي وقد خدم إبراهيم بن أدهم وصحبه، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة المكرمة حرسها الله تعالى أياماً لم نجد طعاماً، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إلي إبراهيم بن أدهم، وقال: يا حذيفة، أرى بك أثر الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ فقال: علي بدواة وقرطاس، فجئت به، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكل معنى:

أنا حامد، أنا شاكر، أنا ذاكر ... أنا جائع، أنا نائع (١)، أنا عاري
هي ستة، وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ... فأجر عبيدك من دخول النار
والنار عندي كالسؤال فهل ترى ... أن لا تكلفني دخول النار

ثم دفع إلي الرقعة، وقال: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفع

---

(١) النائع: المتمايل من الجوع. وفي بعض النسخ (أنا ضائع).

الرقعة إلى أول مَنْ يلقاك، قال: ففرحتُ، فأول من لقيني رجل كان على بغلة فدفعتها إليه فأخذها وبكى، وقال: ماذا فعل صاحبُ هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليّ صُرة فيها ست مائة دينار، ثم لقيتُ رجلاً آخر فقلت: مَنْ صاحبُ هذه البغلة؟ فقال: نصرانيّ، فجئتُ إلى إبراهيم بن أدهم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمسها فإنه يجيء الساعة، فلما كان بعد ساعة وافى النصراني، وأكبّ على رأس إبراهيم بن أدهم، وأسلم.

١٨ ـ الشكر

قال الله عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١).

عن يحيى بن يعلى عن أبي خباب عن عطاء قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير فقلتُ: أخبرينا بأعجب ما رأيتِ من رسول الله ﷺ فبكت، وقالت: وأيّ شأنه لم يكن عجباً؟ إنه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي، أو قالت في لحافي حتى مسّ جلدي جلده، ثم قال: يا بنت أبي بكر ذريني أتعبد لربي، قالت: إني أحب قربك، فأذنتُ له فقام إلى قربة من ماء فتوضأ وأكثر صبّ الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلتُ: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولِمَ لا أفعل وقد أنزل عليّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

---

(١) الآية: سورة إبراهيم ـ ٧.

(٢) الآية: سورة البقرة ـ ١٦٤. والحديث: رواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث.

وعلى هذا القول يوصف الحق سبحانه بأنه شكور توسعاً ، ومعناه : أنه يجازي العباد على الشكر فسمى جزاء الشكر شكراً ، كما قال : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، وقيل : شكره إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير من قولهم : دابة شكور ، إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف ، ويحتمل : أن يقال : حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه ، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه له ، ثم إحسان العبد طاعته لله تعالى ، وإحسان الحق إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له ، وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نطق اللسان وإقرار القلب بإنعام الرب تعالى .

والشكر ينقسم إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة ، وشكر بالبدن وهو اتصاف بالوفاق والخدمة ، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، ويقال : شكر هو شكر العالمين يكون من جملة أقوالهم ، وشكر هو نعت العابدين يكون نوعاً من أفعالهم ، وشكر هو شكر العارفين يكون باستقامتهم له في عموم أحوالهم .

وقال أبو بكر الورّاق : شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وقال حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلياً (١)

وقال الجنيد : الشكر فيه علة لأنه يطلب لنفسه المزيد ، فهو واقف مع الله تعالى على حظ نفسه .

وقال أبو عثمان : الشكر معرفة العجز عن الشكر .

ويقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر ، وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه ، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك ، فتشكره على الشكر ، ثم تشكره على شكر الشكر إلى ما لا يتناهى .

وقيل : الشكر إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة .

وقال الجنيد : الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة .

---

(١) الطفيلي : الذي يدخل وليمه ، ولم يُدْعَ إليها ، وهذا اللفظ منسوب إلى رجل اسمه طفيل .

وقال رويم : الشكر استفراغ الطاقة .

وقيل : الشاكر الذي يشكر على الموجود ، والشكور الذي يشكر على المفقود

ويقال : الشاكر الذي يشكر على الرفد ، والشكور الذي يشكر على الرد .

ويقال : الشاكر الذي يشكر على النفع ، والشكور الذي يشكر على المنع .

ويقال : الشاكر الذي يشكر على العطاء ، والشكور الذي يشكر على البلاء .

ويقال : الشاكر الذي يشكر عند البذل ، والشكور الذي يشكر عند المطل (١) .

يقول الجنيد : كنت بين يدي السري العب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت أن لا تعصي الله بنعمه ، فقال : يوشك أن يكون حظك من الله تعالى لسانك ، قال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري .

وقال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة .

وقيل : الشكر قيد الموجود (٢) وصيد المفقود (٣) .

وقال أبو عثمان : شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني .

وقيل : قال داود عليه السلام : إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك؟ فأوحى الله تعالى إليه : الآن قد شكرتني .

وقيل : قال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال : علم أن ذلك مني ، فكانت معرفته بذلك شكره لي .

---

(١) المطل : التسويف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى .

(٢) قيد الموجود : أي حفظه وصيانته .

(٣) صيد المفقود : أي الحصول على الممكن الموعود من الزيادة في قوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

وقيل : كان لبعضهم صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه، فقال له صاحبه : اشكر الله تعالى ، فضرب الرجل ، فكتب إليه ، فقال : اشكر الله تعالى فجيء بمجوسي مبطون(١)، وقيد وجعلت حلقة من قيده على رجل هذا، وحلقة على رجل المجوسي ، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات ، وهذا يحتاج أن يقوم على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إلى صاحبه فقال : اشكر الله تعالى فقال : إلى متى تقول : وأي بلاء فوق هذا ؟ فقال له صاحبه : لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك ، كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع ؟

وقيل : دخل رجل على سهل بن عبد الله ، فقال : إن اللص دخل داري وأخذ متاعي ، فقال : اشكر الله تعالى، لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟

وقيل : شكر العينين أن تستر عيباً تراه بصاحبك ، وشكر الأذنين أن تستر عيباً تسمعه عنه.

وقيل : الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه

يقول الجنيد : كان السري إذا أراد أن ينفعني يسألني ، فقال لي يوماً : يا أبا القاسم ما الشكر ؟ فقلت : أن لا يستعان بشيء من نعم الله تعالى على معاصيه ، فقال : من أين لك هذا ؟ فقلت : من مجالستك .

وقيل : التزم الحسن بن علي الركن ، وقال : إلهي أنعمت علي فلم تجدني شاكراً ، وابتليتني فلم تجدني صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أدمت الشدة بترك الصبر ، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم .

وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر(٢)

وقيل : أربعة لا ثمرة لأعمالهم : مسارة(٣) الأصم، وواضع النعمة عند من لا

---

(١) المبطون : عليل البطن .

(٢) الشكر الكامل عند الامكان يكون بالقلب واللسان والأفعال .

(٣) المسارة : المحادثة بشكل سري وهادىء .

بشكر، والباذر في السبخة (١)، والمسرج في الشمس (٢).

وقيل: لمّا بُشِّر إدريس عليه السلام بالمغفرة، سأل الحياة! فقيل له: لم؟! فقال: لأشكره فإني كنت أعمل قبله للمغفرة، فبسط الملك جناحه وحمله إلى السماء.

وقيل: مر أحد الأنبياء عليه السلام بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه، فأنطقه الله تعالى، فقال الحجر: منذ سمعت الله تعالى يقول: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (٣) ﴾ وأنا أبكي من خوف الله سبحانه وتعالى، قال: فدعا ذلك النبي أن يجير الله ذلك الحجر، فأوحى الله تعالى إليه إني أجرته من النار، فمر ذلك النبي، فلما عاد وجد الماء يتفجر منه مثل ذلك، فعجب، فأنطق الله تعالى ذلك الحجر، فسأله: لماذا تبكي؟ وقد غفر الله تعالى لك، فقال: ذلك كان بكاء الحزن والخوف، وهذا بكاء الشكر والسرور.

وقيل: الشاكر مع المزيد لأنه في شهود النعمة قال الله عز وجل ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ والصابر مع الله تعالى لشهود المبتلي، قال الله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤).

وقيل: قدم وفد على عمر بن عبد العزيز، وكان فيهم شاب فأخذ يخطب، فقال عمر: الكبر الكبر، فقال الشاب: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أحق منك بالخلافة، فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد أمننا منها عدلك، فقال: فمن أنتم؟ فقال: وفد الشكر، جئناك نشكرك وننصرف، وأنشدوا:

---

(١) السبخة: جمع سباخ، وهي أرض ذات نز وملح، و (الباذر في السبخة) هو من يزرع البذور في مثل هذه الأرض التي لا تصلح للزراعة.

(٢) المسرج في الشمس: هو الذي يضع السراج في ضوء الشمس. والمقصود بذلك هو الذي يضع الشيء في غير موضعه.

(٣) الآية: سورة البقرة - ٢٤

(٤) الآية: سورة الأنفال - ٤٦ -

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلت وأن بـرك نـاطق

وأرى الصنيعة (١) منك ثم أسرها إني إذاً ليـد الكـريم لسـارق

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ارحم عبادي المبتلى منهم والمعافى ، فقال : ما بال المعافى ؟ فقال : لقلة شكرهم على عافيتي إياهم .

وقيل : الحمد على الأنفاس والشكر على نعم الحواس .

وقيل : الحمد ابتداء منه ، والشكر اقتداء منك .

وفي الخبر الصحيح : أول من يدعى إلى الجنة الحامدون لله تعالى على كل حال .

وقيل : الحمد لله على ما دفع ، والشكر على ما صنع .

١٩ ـ اليقين

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٢) ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ ، أنه قال : « **لا ترضين أحداً بسخط الله تعالى ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله عز وجل ، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله تعالى ، فإن رزق الله تعالى لا يسوقه إليك حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهة كاره ، وإن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والفرج في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط** » (٣) .

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي : إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب يملأ القلب نوراً ، وينفي عنه كل ريب ، ويمتلىء القلب به شكراً ، ومن الله تعالى تخوفاً .

ويروى عن أبي جعفر الحداد قال : رآني أبو تراب النخشبي وأنا في البادية

---

(١) الصنيعة : جمع صنائع ، وهي الإحسان .

(٢) الآية : سورة البقرة ـ ٤ .

(٣) الحديث : قال في مجمع الزوائد ٤/٧١ : رواه الطبراني في الكبير ، وقال في كنز العمال ١٦٠/٣ رقم الحديث ٥٩٦١ : رواه الطبراني والبيهقي وابن حبان عن ابن مسعود .

جالساً أمام بركة ماء ، ولي ستة عشر يوماً لم آكل ولم أشرب ، فقال لي : ما جلوسك ؟ فقلت : أنا بين العلم واليقين أنتظر ما يغلب فأكون معه ، يعني : إن غلب العلم شربت ، وإن غلب اليقين مررت ، فقال : سيكون لك شأن (١) .

وقال أبو عثمان الحيري : اليقين قلة الاهتمام بالغد .

وقال سهل بن عبد الله : اليقين من زيادة الإيمان ، ومن تحقيقه ، وقال أيضاً : اليقين شعبة من الإيمان ، وهو دون التصديق .

وقال بعضهم : اليقين هو العلم المستودع في القلوب ، ويشير هذا القائل إلى أنه غير مكتسب .

وقال سهل بن عبد الله : ابتداء اليقين المكاشفة ، ولذلك قال بعض السلف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، ثم المعاينة ، ثم المشاهدة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : اليقين تحقق الأسرار بأحكام المغيبات .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم بمعارضة الشكوك ، واليقين لا شك فيه ، وقد أشار بذلك إلى العلم الكسبي وما يجري مجرى البديهي ، وكذلك علوم القوم في الابتداء أمر كسبي وفي الانتهاء أمر بديهي .

سمعت محمد بن الحسين يقول قال بعضهم : أول المقامات المعرفة ثم اليقين ثم التصديق ثم الاخلاص ثم الشهادة ثم الطاعة . . والإيمان اسم يجمع هذا كله . وقد أشار هذا القائل إلى أن أول الواجبات المعرفة بالله سبحانه وتعالى ، والمعرفة لا تحصل إلا بتقديم شرائطها ، وهو النظر الصائب ، ثم إذا توالت الأدلة وحصل البيان ، صار بتوالي الأنوار وحصول الاستبصار (٢) كالمستغني عن تأمل البرهان ، وهو حال اليقين ، ثم تصديق الحق سبحانه فيما أخبر عند إصغائه إلى إجابة الداعي فيما يخبر عنه من أفعاله في المستأنف ، لأن التصديق إنما يكون في الأخبار ، ثم الإخلاص فيما يتعقبه من أداء الأوامر ، ثم بعد ذلك إظهار الإجابة بجميل الشهادة ، ثم أداء الطاعات

---

(١) الشأن هو الارتفاع ، ومن شأنه مواصلته ستة عشر يوماً ، ولم يأذن لنفسه في الشرب ، بل انتظر ما يفعل الله به ليقوى يقينه بخوارق العادات .

(٢) الاستبصار : التمكن من النظر إلى الشيء ، وفيه تأمل .

بالتوحيد فيما أمر به ، والتجرد عما زجر عنه ، وإلى هذا المعنى أشار الإمام أبو بكر بن فورك فيما سمعته يقول : ذكر اللسان فضلة ، يفيض عليها القلب .

وقال سهل بن عبد الله : حرام على القلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه سكون إلى غير الله تعالى .

وقال ذو النون المصري : اليقين داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر في العواقب .

يقول ذو النون المصري : ثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس في العشرة ، وترك المدح لهم في العطية ، والتنزه(١) عن ذمهم عند المنع .

وثلاثة من أعلام يقين اليقين : النظر إلى الله تعالى في كل شيء ، والرجوع إليه في كل أمر ، والاستعانة به في كل حال .

وقال الجنيد : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ، ولا يتحوّل ، ولا يتغير في القلب .

وقال ابن عطاء : على قدر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين ، وأصل التقوى مباينة النهي ، ومباينة النهي مباينة النفس ، فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين .

وقال بعضهم : اليقين هو المكاشفة ، والمكاشفة على ثلاثة أوجه : مكاشفة بالأخبار ، ومكاشفة بإظهار القدرة ، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان .

واعلمْ أنّ المكاشفة في كلامهم عبارة عن ظهور الشيء للقلب باستيلاء ذكره من غير بقاء للريب ، وربما أرادوا بالمكاشفة ما يقرب مما يرى بين اليقظة والنوم ، وكثيراً ما يعبر هؤلاء عن هذه الحالة بالسبات(٢) .

سمعتُ الإمام أبا بكر بن فورك يقول : سألتُ أبا عثمان المغربي ، فقلتُ : ما هذا الذي تقول ؟ قال : الأشخاص أراهم كذا وكذا ، فقلتُ : تراهم معاينة أو مكاشفة ، فقال : مكاشفة .

---

(١) التنزّه : الابتعاد .

(٢) السبات : النوم ، أو خفته ، أو ابتداؤه .

وقال عامر بن عبد قيس : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

وقيل : اليقين رؤية العيان بقوة الإيمان .

وقيل : اليقين زوال المعارضات .

وقال الجنيد : اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في قول النبي ﷺ في عيسى بن مريم عليه السلام : لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء ، وقد أشار بهذا إلى حال نفسه ﷺ ليلة المعراج ، فقد جاء في لطائف المعراج : رأيت البراق قد بقي ومشيت .

سُئل السري عن اليقين ، فقال : اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضياً .

قال علي بن سهل : الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات ، واليقين خطرات ، كأنه جعل اليقين ابتداء الحضور ، والحضور دوام ذلك ، فكأنه جوز حصول اليقين خالياً من الحضور ، وأحال جواز الحضور بلا يقين ، ولهذا قال النوري : اليقين المشاهدة ، يعني أن في المشاهدة يقيناً لا شك فيه ، لأنه لا يشاهده من لا يثق بمأمنه .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين ملاك القلب ، وبه كمال الإيمان ، وباليقين عُرف الله تعالى ، وبالعقل عُقل عن الله تعالى .

وقال الجنيد : قد مشى رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً .

قال إبراهيم الخواص : لقيت غلاماً في التيه(١) كأنه سُبيكة(٢) فضة ، فقلت : إلى أين يا غلام ؟ فقال : إلى مكة حرسها الله تعالى ، . فقلت : هل تسير بلا زاد ولا راحلة ولا نفقة ؟ فقال لي : يا ضعيف اليقين ، الذي يقدر على حفظ السموات

---

(١) التيه : اسم الصحراء الواقعة على الحدود المصرية الفلسطينية ، داخل شبه جزيرة سيناء ، وهو الموضع الذي ضل فيه موسى عليه السلام مع قومه ، وهي أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة .

(٢) سبيكة : جمع سبائك ، وهي القطعة من الفضة ونحوها ، ذُوّبت وأُفرغت في قالب

والأرض ألا يقدر على أن يوصلني إلى مكة المكرمة بلا علاقة ؟ قال : فلما دخلت مكة المكرمة حرسها الله تعالى إذا أنا به في الطواف ، وهو يقول :

يا عين سحّي أبدًا　　　يا نفس موتي كمدا
ولا تحبي أحدا　　　إلّا الجليل الصمدا

فلما رآني قال لي : ألا تزال بعد ذلك الضعف من اليقين .

ويقول إسحاق النهر جوري : إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة، والرخاء مصيبة .

وقال أبو بكر محمد الوراق : اليقين على ثلاثة أوجه : يقين خبر(١) ، ويقين دلالة(٢) ، ويقين مشاهدة .

وقال أبو تراب عسكر النخشبي : رأيت غلاماً في البادية يمشي بلا زاد ، فقلت : إنْ لم يكن معه يقين فقد هلك ، ثم قلت : يا غلام أفي مثل هذا الموضع بلا زاد ؟ ، فقال : يا شيخ ارفع رأسك هل ترى غير الله عز وجل ؟ فقلت : الآن اذهب حيث شئت .

قال أبو سعيد أحمد الخرّاز : العلم ما استعملك ، واليقين ما حملك(٣) .

يقول إبراهيم الخواص : طلبت المعاش(٤) لأكل الحلال ، فاصطدت السمك ، وذات يوم وقعت في الشبكة سمكة فأخرجتها وطرحت الشبكة في الماء فوقعت فيها سمكة أخرى فرميت بها ثم عدت ، فهتف بي هاتف : لم تجد معاشاً إلا أنّ تأتي من يذكرنا فتقتلهم(٥) ، قال : فكسرت القصبة وتركت الصيد .

---

(١) وهو العلم الحاصل عن خبر الأنبياء بما غاب عن المشاهدة من الجنة والنار وغيرهما من أحوال يوم القيامة .

(٢) وهو ما حدث بالنظر الدال على حدوث العالم وقدم محدثه وكماله وكمال صفاته .

(٣) وهو العلم بأنه لا فاعل إلا الله ، ولا معين إلا الله ، ولا يجري عليك إلا ما سبق لك عنده .

(٤) المعاش : جمع معايش : ما تعيش به من المطعم والمشرب ، وما تكون به الحياة .

(٥) نزّل السمك منزلة من يعقل، فعبّر عنه بما يعبّر عمن يعقل، قال تعالى «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» الإسراء - ٤٤ - .

٢٠ ـ الصبر

قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ(١) ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ : «إنّ الصبر(٢) عند الصدمة الأولى(٣)».

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «الصبر عند الصدمة الأولى» ، ثم الصبر على أقسام : صبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب، فالصبر على المكتسب على قسمين: صبر على ما أمر الله تعالى به، وصبر على ما نهى عنه. وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما يناله فيه مشقة .

يقول الجنيد : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، وهجر الخلق في جنب الله شديد، والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله عز وجل أشد . فسئل عن الصبر فقال : تجرع المرارة من غير تعبيس(٤) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وقال أبو القاسم الحكيم : قوله تعالى : ﴿ واصبر ﴾ أمر بالعبادة، وقوله تعالى :

---

(١) الآية : سورة النحل ـ ١٢٧ .

(٢) الصبر : هو حبس النفس على شيء مزعج تتحمله ، أو شيء لذيذ تفارقه ، وهو ممدوح ومطلوب .

(٣) الحديث: رواه أنس بن مالك، وأخرجه البخاري ١٣٨/٣ في الجنائز باب الصبر عند الصدمة الأولى، ومسلم رقم ٦٢٦ في الجنائز باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، وأبو داود رقم ٣١٢٤ في الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى والترمذي رقم ٩٨٧ في الجنائز باب الصبر في الصدمة الأولى في الجنائز، والنسائي ٢٢/٤ في الجنائز باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة.

(٤) التعبيس : التجهّم وتقطيب الوجه

﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ عبودية ، فمن ترقى من درجة لَكَ إلى درجة بكَ ، فقد انتقل من درجة العبادة إلى درجة العبودية ، قال ﷺ : « بك أحيا وبك أموت »(١) .

وسئل أبو سليمان عن الصبر فقال : والله ما نصبر على ما نحب ، فكيف نصبر على ما نكره ؟ .

وقال ذو النون المصري : الصبر التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء : الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : الصبر هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى .

وقال أبو عثمان الحيري : الصبار : هو الذي عود نفسه الهجوم على المكاره .

وقيل : الصبر هو المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية . وقال أيضاً : أحسن الجزاء على عبادة هو الجزاء على الصبر ، ولا جزاء فوقه .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(٢) ﴾ .

وقال عمرو بن عثمان : الصبر هو الثبات مع الله تعالى ، وتلقي بلائه بالرحب والدعة .

وقال إبراهيم الخواص : الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين . . واعجباً كيف يصبرون ؟ وأنشدوا :

الصبر يجمل في المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

وقال رويم : الصبر ترك الشكوى .

وقال ذو النون المصري : الصبر هو الاستعانة بالله تعالى .

---

(١) الحديث : لم أجده .

(٢) الآية : سورة النحل ـ ٩٦ .

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الصبر كاسمه ، وأنشدني الشيخ أبو عبد الرحمن قال : انشدني أبو بكر الرازي قال : أنشدني ابن عطاء لنفسه :

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة وحسبي أن ترضى ويتلفني صبري

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام : متصبر وصابر وصبار.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبر مطية لا تكبو (١).

يقول علي بن عبد الله البصري : وقف رجل على الشبلي ، فقال : أي صبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله (٢) عز وجل ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله تعالى (٣) ، قال : لا ، قال : الصبر مع الله تعالى (٤) قال : لا ، قال : فأي شيء ؟ قال : الصبر عن الله عز وجل ، قال فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه أن تتلف.

يقول أبو محمد أحمد الجريري : الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيها ، والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة ، وأنشد بعضهم :

صبرتُ ولم أطلع هواك على صبري وأخفيت ما بي منك عن موضع الصبر

مخافة أن يشكو ضميري صبابتي إلى دمعتي سراً فتجري ولا أدري

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله تعالى معيته ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٥) ﴾ ، وقيل في معنى قوله : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا (٦) ﴾ : الصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة . وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالى ، وصابروا بقلوبكم على

---

(١) فمن جعل الصبر مطيته استقام في سيره وبَعُدَ خطوه في علمه وعمله .

(٢) الصبر في الله : هو الصبر على تغيير الأخلاق الذميمة والاتصاف بالأخلاق الحميدة ، والاشتغال بأنواع الطاعات .

(٣) الصبر لله تعالى : هو الصبر على ما يرد على القلب من الله وهو متأدب معه .

(٤) الصبر مع الله تعالى : هو الصبر على ذلك من التبري من الحول والقوة .

(٥) الآية : سورة الأنفال ـ ٤٦ .

(٦) الآية : سورة آل عمران ـ ٢٠٠ .

البلوي في الله تعالى ، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله تعالى . وقيل اصبروا في الله تعالى ، وصابروا بالله تعالى ، ورابطوا مع الله تعالى .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلّق بأخلاقي ، وإنّ من أخلاقي أنني أنا الصبور .

وقيل : تجرّع الصبر ، فإنْ قتلَك قتلك شهيداً ، وإن أحياك أحياك عزيزاً .

وقيل : الصبر لله تعالى عناء ، والصبر بالله تعالى بقاء ، والصبر في الله تعالى بلاء ، والصبر مع الله تعالى وفاء ، والصبر عن الله تعالى جفاء ، وأنشدوا :

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود

وأنشدوا :

وكيف الصبر عمّن حلّ مني ... بمنزلة اليمين من الشمال
إذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحب يلعب بالرجال

وقيل : الصبر على الطلب عنوان الظفر ، والصبر في المحن عنوان الفرج .

وقيل : المصابرة هي الصبر على الصبر ، حتى يستغرق الصبر في الصبر ، فيعجز الصبر عن الصبر ، كما قيل :

صابر الصبر فاستغاث به الصبـ ... ـر فصاح المحب بالصبر صبراً

وقيل : حبس الشبلي وقتاً في المارستان ، فدخل عليه جماعة ، فقال : من أنتم ؟ فقالوا : أحباؤك جاؤوك زائرين ، فأخذ يرميهم بالأحجار وهم يهربون ، وكان يقول لهم : يا كذابين ، لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي .

وفي بعض الأخبار : بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا(1) ﴾

وقال بعضهم : كنت بمكة المكرمة حرسها الله تعالى ، فرأيت فقيراً طاف بالبيت ، وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومر ، فلما كان الغد فعل مثل ذلك ، فراقبته أياماً وهو يكرر في كل يوم العمل نفسه ، وذات يوم طاف ونظر في الرقعة

(1) الآية : سورة الطور - ٤٨ .

وتباعد قليلاً ثم سقط ميتاً ، فأخرجتُ الرقعة من جيبه فإذا فيها قوله تعالى : ﴿ واصبرْ لحكمِ ربكَ فإنكَ بأعيننا ﴾ .

وقال بعضهم : دخلتُ بلاد الهند (١) فرأيتُ رجلاً بعين واحدة يسمونه (فلاناً الصبور) ، فسألتُ عن حاله ، فقيل لي : كان في عنفوان شبابه عندما سافر صديق له فخرج في وداعه ، فدمعت إحدى عينيه ولم تبك العين الأخرى ، فقال لعينه التي لم تدمع : لماذا لم تدمعي على فراق صاحبي ؟ لأحرمنك النظر إلى الدنيا ، وأغمض عينه ، فمنذ ستين سنة لم يفتح عينه .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ فاصبرْ صبراً جميلاً (٢) ﴾ : الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري من هو .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لوكان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت .

وكان ابن شبرمة إذا نزل به بلاء قال : سحابة ثم تنقشع .

وفي الخبر أن النبي ﷺ سئل عن الإيمان فقال : (الصبر والسماحة (٣)) .

وسئل السري عن الصبر فأخذ يتكلم فيه ، فدبت على رجله عقرب وهي تضربه بإبرتها ضربات كثيرة ، وهو ساكن لا يتحرك ، فقيل له : لماذا لم تبعد العقرب عن رجلك ؟ قال : استحييت من الله تعالى أن أتكلم في الصبر ولم أصبر (٤) .

وفي بعض الأخبار : الفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة .

وأوحى الله إلى بعض أنبيائه : ﴿ أنزلت بعبدي بلائي فدعاني فماطلته

---

(١) الهند : شبه جزيرة في آسيا الجنوبية ، يفصلها عن التيبت سلسلة جبال حملايا . مناطقها : الهندوستان وغانج ودكن .

(٢) الآية : سورة المعارج - ٥ .

(٣) الحديث : رواه جابر وأخرجه أبو يعلى في مسنده ، والبيهقي كما في كنز العمال ١/ص ٢٨٧ رقم (١٣٩٢) .

(٤) وذلك ليسلم من الدخول في ذم الله لمن يقول ما لا يفعل ، فيسلم من مقته ، كما قال =

بالإجابة ، فشكاني فقلتُ : يا عبدي كيف أرحمك من شيء به أرحمك ﴾ .

وقال ابن عيينة في معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ، يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا(١) ﴾ قال : لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساء .

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : إن حدّ الصبر أن لا تعترض على التقدير ، فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر .

قال الله تعالى في قصة أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ(٢) ﴾ مع ما أخبر عنه أنه قال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ(٣) ﴾ وسمعته يقول : استخرج من هذه المقالة ، يعني قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ لتكون متنفساً لضعفاء هذه الأمة . وقال بعضهم : (إنا وجدناه صابراً) ولم يقل : (صبوراً) لأن جميع أحواله لم تكن تتمثل في الصبر ، بل كان في بعض أحواله يستلذ البلاء ويستعذبه ، فلم يكن في حال الاستلذاذ صابراً ولذلك لم يقل : صبوراً .

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : حقيقة الصبر الخروج من البلاء ، حسب الدخول فيه ، مثل أيوب عليه السلام ، قال في آخر بلائه : (مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) ، فحفظ أدب الخطاب ، حيث عرّض بقوله : (وأنت أرحم الراحمين) ولم يصرّح بقوله : (ارحمني) .

واعلمْ أن الصبر على ضربين : صبر العابدين وصبر المحبّين ، فصبر العابدين أحسنهُ أن يكون محفوظاً ، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً ، وفي هذا المعنى أنشدوا :

تبيّن يوم البين أن اعتزامه ... على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وفي هذا المعنى سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول : أصبح يعقوبُ عليه السلام وقد وعد الصبر من نفسه ، فقال : (فصبر جميل) أي

= تعالى : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ سورة الصف ـ ٣ .

(١) الآية : سورة الأنبياء ـ ٧٣ .

(٢) الآية : سورة ص ـ ٤٤ .

(٣) الآية : سورة الأنبياء ـ ٨٣ .

فشأني صبر جميل ، ثم لم يمس حتى قال : ﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ(١) ﴾ .

٢١ ـ المراقبة

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا(٢) ﴾ .

جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل ، فقال : يا محمد ما الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، قال : صدقت . قال : فتعجبنا من تصديقه النبي ﷺ ، وهو يسأله . قال فأخبرني عما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، قال : صدقت . قال : فأخبرني ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: صدقت.. الحديث(٣) . قال الأستاذ الشيخ : هذا الذي قاله ﷺ : فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ إشارة إلى حال المراقبة(٤) ، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة ربه ، وهذا أصل كل خير له ، ولا يكاد (الإنسان) يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله في الوقت (نفسه) ، ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس، وراقب الله تعالى في عموم أحواله فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة ؟ .

يقول أحمد الجريري : من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

---

(١) الآية : سورة يوسف ـ ٨٤ .

(٢) الآية : سورة الأحزاب ـ ٥٢ .

(٣) الحديث: سبق تخريجه انظر صفحة (٢٠).

(٤) المراقبة لغة : دوام ملاحظة المقصود ، واصطلاحاً دوام النظر بالقلب إلى الله تعالى فيراقب الإنسان أفعاله وأحكامه ويعبر عنه باستشعاره نظر الله تعالى إليه في حركاته وسكناته .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : كان لبعض الأمراء وزير وكان بين يديه يوماً ، فالتفت إلى بعض الغلمان الذين كانوا وقوفاً لا لريبة . ولكن لحركة أو صوت أحس به منهم ، فاتفق أن ذلك الأمير نظر إلى هذا الوزير في تلك الحالة ، فخاف الوزير أن يتوهم الأمير أنه نظر إليهم لريبة ، فجعل ينظر إليه كذلك ، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على هذا الأمير وهو دائماً ينظر إلى جانب ، حتى توهم الأمير أن ذلك خلقه . فهذه مراقبة مخلوق لمخلوق فكيف مراقبة العبد لسيده .

سمعت فقيراً يقول : كان لأحد الأمراء غلام يقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من الغلمان ، ولم يكن أكثرهم قيمة ولا أحسنهم صورة ، فقالوا له في ذلك ، فأراد الأمير أن يبين لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره ، فذات يوم كان راكباً ومعه الحشم (١) ، وكان بقربهم جبل عليه ثلج ، فنظر الأمير إلى ذلك الثلج وأطرق رأسه ، فركب الغلام فرسه وانطلق بها ، ولم يعلم القوم لماذا ذهب ، فلم يلبث حتى جاء ومعه شيء من الثلج ، فقال له الأمير : ما أدراك أني أردت الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرت إليه ، ونظر السلطان إلى شيء لا يكون عن غير قصد صحيح ، فقال الأمير : إنما أخصه بإكرامي وإقبالي لأن لكل أحد شغلاً ، وشغله مراعاة لحظاتي ومراقبة أحوالي .

وقال بعضهم : من راقب الله تعالى في خواطره . عصمه الله تعالى في جوارحه .

وسئل أبو الحسين بن هند : متى يهش الراعي غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة ؟ فقال : إذا علم أن عليه رقيباً .

وقيل : كان ابن عمر في سفر فرأى غلاماً يرعى غنماً ، فقال له : هل تبيع من هذا الغنم واحدة ؟ فقال : إنها ليست لي ، فقال : قل لصاحبها : إن الذئب أخذ منها واحدة ، فقال العبد : فأين الله ؟؟ فكان ابن عمر يقول بعد ذلك إلى مدة : قال ذلك العبد : فأين الله ؟؟

---

(١) الحشم : الخدم وهم من يغضبون للإنسان أو يغضب لهم من أهل أو عبيد أو جيران .

وقال الجنيد : من تحقق(1) في المراقبة خاف على فوت حظه من ربه عز وجل لا غير(2) .

وكان لأحد المشايخ تلميذ يخصه بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره ، فقالوا له في ذلك ، فقال : سأوضح الأمر لكم ، فدفع إلى كل واحد من تلاميذه طائراً ، وقال له : اذبحه بحيث لا يراك أحد ، فمضوا ، ثم رجع كل واحد منهم وقد ذبح طائره ، وجاء هذا بالطائر حياً ، فقال له شيخه : لماذا لم تذبحه ؟ فقال : أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراه أحد ، ولم أجد موضعاً لا يراه فيه أحد ، فقال الشيخ : لهذا أخصه بإقبالي عليه .

وقال ذو النون المصري : علامة المراقبة إيثار ما آثر الله تعالى ، وتعظيم ما عظم الله تعالى ، وتصغير ما صغر الله تعالى .

وقال إبراهيم النصر اباذي : الرجاء يحركك إلى الطاعات ، والخوف يبعدك عن المعاصي ، والمراقبة تؤدي بك إلى طرق الحقائق .

سئل جعفر بن نصر عن المراقبة : فقال : مراعاة السر لملاحظة الحق سبحانه مع كل خطرة .

يقول أحمد الجريري : أمرنا هذا مبني على فصلين : وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون العلم على ظاهرك قائماً .

يقول عبد الله المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة .

وسئل ابن عطاء : ما أفضل الطاعات؟ فقال مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال إبراهيم الخواص : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى .

---

(1) تحقق : تثبت وتأكد .

(2) فقد يراقب العبد احكام ربه ليسلم من العقاب ، وقد يراقبها لزيادة الثواب ، وقد يراقبها ليرفع عنه الحجاب ، وقد يراقبها ليكون من الأحباب ، وإذا وصل إلى هذا الحال الشريف راقب ربه ودام نظره لما يتفضل به عليه ليسلم من الغفلات التي يفوت بسببها حظه من مولاه .

يقول أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم به الإنسان نفسه في هذه الطريقة، المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

قال أبو عثمان قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس، فكن واعظاً لقلبك ولنفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله تعالى يراقب باطنك.

يقول أبو سعيد الخراز: قال لي أحد مشايخي: عليك بمراعاة سرك والمراقبة، قال: فبينا أنا يوماً أسير في البادية إذا أنا بخشخشة خلفي، فهالني ذلك، وأردت أن ألتفت فلم ألتفت، فرأيت شيئاً واقفاً على كتفي. فانصرف، وأنا مراع لسري، ثم التفت، فإذا أنا بسبع عظيم.

وقال محمد الواسطي: أفضل الطاعات حفظ الأوقات، وهو أن لا يطالع العبد غير حده، ولا يراقب غير ربه، ولا يقارن غير وقته.

٢٢ ـ الرضا

قال الله عز وجل: ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ(١) ﴾.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم، فقال: يا أهل الجنة سلوني، قالوا: نسألك الرضا عنا، قال تعالى: ﴿رضاي أحلكم داري وأنالكم كرامتي﴾ هذا أوانها فاسألوني، قالوا: نسألك الزيادة، قال: فيؤتون بنجائب(٢) من ياقوت(٣) أحمر أزمتها زمرد(٤) أخضر وياقوت أحمر فجاؤوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها، فيأمر الله عز وجل بأشجار عليها الثمار، وتجيء

(١) الآية: سورة المائدة ـ ١١٩.

(٢) النجائب: مخلوقات متميّزة للركوب.

(٣) الياقوت: لفظة يونانية، مفردها ياقوتة، والجمع يواقيت، وهو حجر كريم، صلب شفاف، تختلف ألوانه.

(٤) زمرد: لفظة يونانية، مفردها زمردة، وهو حجر كريم شفاف، شديد الخضرة، وأشده خضرة أجوده وأصفاه جوهراً.

جوارٍ من الحور العين، ومن يقلن: نحن الناعمات فلا نبؤس(١)، ونحن الخالدات فلا نموت، لأزواج قوم مؤمنين كرام، ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر(٢) فتثير عليهم ريحاً(٣) يقال لها: المثيرة، حتى تنتهي بهم إلى جنة عدن، وهي قصبة الجنة(٤)، فتقول الملائكة: يا ربنا قد جاء القوم، فيقول الله: مرحباً بالصادقين، مرحباً بالطائعين، قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إلى الله عز وجل: فيتمتعون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضاً(٥)، ثم يقول: أرجعوهم إلى القصور بالتحف، قال: فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضاً، فقال رسول الله ﷺ: فذلك قوله ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾(٦).

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا: هل هو من الأحوال أو من المقامات؟:

قال أهل خراسان: الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل، ومعناه أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه، وقال العراقيون: إن الرضا من جملة الأحوال وليس ذلك كسباً للعبد. بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال. ويمكن الجمع بين قول الفريقين، فيقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من المقامات، ونهايته من جملة الأحوال، وليست بمكتسبة.

وتكلم الناس في الرضا، فكلٌ عبر عن حاله وشربه، فهم في العبارة عنه مختلفون، كما أنهم في الشرب والنصيب من ذلك متفاوتون.

فأما شرط العلم وهو الذي لا بد منه، فالراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما

---

(١) نبؤس: لا تجد عندنا غلظة أو فظاظة.

(٢) أذفر: فائح الرائحة وشديدها.

(٣) يقصد بالريح الرائحة.

(٤) قصبة الجنة: وسطها.

(٥) لاشتغال كل منهم بتمتعه بذلك.

(٦) الآية: سورة فصلت - ٣٢. والحديث: قال في كنز العمال ١٤/٦٤٨ رقم الحديث ٣٩٧٧٨: رواه ابن النجار، وقال في مجمع الزوائد ٧/٩٨ رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى ضعيف.

الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء .

واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به ، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد ، أو يجب عليه الرضا بـه كالمعاصي وفتون محن المسلمين .

وقال المشايخ : الرضا باب الله الأعظم ، يعنون أن من أكرم بالرضا فقد لوقي بالترحيب الأوفى ، وأكرم بالتقريب الأعلى .

قال عبد الواحد بن زيد : الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا .

واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق سبحانه إلا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه لأن الله عز وجل قال : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ(١) ﴾ .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : قال تلميذ لأستاذه : هل يعرف العبد أن الله تعالى راض عنه ؟ فقال : لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غيب ، فقال التلميذ : إنه يعلم ذلك ، فقال الأستاذ : كيف ؟ قال : إذا وجدت قلبي راضياً عن الله تعالى علمت أنه راض عني ، فقال الأستاذ : أحسنت يا غلام .

وقيل : قال موسى عليه السلام : إلهي دلني على عمل إذا عملته رضيت به عني ، فقال : إنك لا تطيق ذلك ، فخر موسى عليه السلام ساجداً متضرعاً ، فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن عمران ، إن رضاي في رضاك بقضائي .

قال عبد الرحمن الداراني : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض .

يقول إبراهيم النصر آباذي : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرضا على قسمين : رضا به ورضا عنه ، فالرضا به يكون مدبراً ، والرضا عنه يكون فيما يقضي .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : طريق السالكين أطول وهو طريق الرياضة : وطريق الخواص أقرب لكنه أشق ، وهو أن يكون عملك بالرضا ورضاك بالقضاء .

---

(١) الآية : سورة المائدة - ١١٩

وقال رويم : الرضا : أنه لو جعل الله جهنم عن يمينه ما سأل أن يحولها إلى يساره.

وقال أبو بكر بن طاهر : الرضا إخراج الكراهية من القلب ، حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور.

وقال محمد الواسطي : استعمل الرضا ما استطعت ، ولا تدع الرضا يستعملك فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع. واعلم أن هذا الكلام الذي قاله الواسطي شيء عظيم ، وفيه تنبيه على مقطعة للقوم خفية ، فإن السكون عندهم إلى الأحوال حجاب عن محوّل الأحوال ، فإذا استلذ رضاه ووجد بقلبه راحة الرضا ، حجب بحاله عن شهود حقه . ولقد قال الواسطي أيضاً : إياكم واستحلاء الطاعات فإنها سموم قاتلة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرضا سكون القلب إلى أحكامه ، وموافقة القلب بما رضي الله تعالى به واختاره .

وسئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .

وقيل : قال الشبلي بين يدي الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فقال الجنيد : قولك هذا ضيق صدر ، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء ، فسكت الشبلي .

يقول أبو سليمان : الرضا أن لا تسأل الله تعالى عن الجنة ، ولا تستعيذ به من النار.

يقول ذو النون المصري : ثلاثة من أعلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء . وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب في حشو البلاء (١).

قيل للحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إليّ من الغنى ، والسقم أحب إليّ من الصحة ، فقال : رحم الله تعالى أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل له.

---

(١) لأن الراضي بحسن ما يجريه الله تعالى عليه لا اختيار له ، وإنما هو مذعن لما يختاره الله تعالى له ، لعلمه بفضل ربه عليه ، وحسن اختياره له فيما يجريه عليه .

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته .

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء » فقال : لأنه الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

يقول أبو سليمان : أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرضا، لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً .

وقال أبو عمر الدمشقي : الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان .

وقال الجنيد : الرضا رفع الاختيار .

وقال ابن عطاء : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، وهو ترك التسخط .

وقال رويم : الرضا استقبال الأحكام بالفرح .

وقال الحارث المحاسبي : الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام .

وقال النوري : الرضا سرور القلب بمر القضاء .

ويقول أحمد الجريري : من رضي بدون قدره رفعه الله تعالى فوق غايته .

قال أبو تراب النخشبي : لا ينال الرضا من للدنيا في قلبه مقدار حبة واحدة .

عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ : «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً»(١) .

وقيل : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد . . فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى فافعل، وإلا فاصبر .

وقيل : إن عتبة الغلام بات ليلة يقول إلى الصباح : إن تعذبني فأنا لك محب ، وإن ترحمني فأنا لك محب .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الإنسان خزف، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحق تعالى .

---

(٥) الحديث: رواه مسلم في الإيمان رقم ٣٤، والترمذي رقم : ٢٧٥٨، وأحمد في مسنده ٢٠٨/١ .

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: غضب رجل على عبد له، فاستشفع العبد إلى سيده إنساناً فعفا عنه، فأخذ العبد يبكي، فقال له الشفيع: لماذا تبكي وقد عفا عنك سيدك؟ فقال السيد: إنه يطلب الرضا مني ولا سبيل إليه، فإنما يبكي لأجله.

٢٣ - العبودية

قال الله عز وجل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(١)﴾.

عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»(٢).

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من العبادة، فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة. فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية(٣) للخواص، والعبودة(٤) لخواص الخواص(٥). وسمعته يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين. وسمعته يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة

---

(١) الآية: سورة الحجر - ٩٩.

(٢) الحديث: رواه البخاري ٢/١١٩ - ١٢٤ في الجماعة باب من جلس ينتظر الصلاة وفضل المساجد وفي أبواب أخرى، ومسلم رقم (١٠٣١) في الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة والموطأ ٢/٩٥٢ - ٩٥٣ في الشعر باب ما جاء في المتحابين في الله والترمذي رقم (٢٣٩٢) في الزهد باب ما جاء في الحب في الله والنسائي ٨/٢٢٢ - ٢٢٣ في القضاة باب الإمام العادل.

(٣) العبودية هي تذلل وتبرء من الحول والقوة في عبادته، وأصلها العبادة وهي القيام بالفعل المطلوب شرعاً.

(٤) العبودة: الطاعة أو الاسترقاق.

(٥) وذلك لكمال معرفته بربه حيث أتى بما طلب منه، ورأى نفسه محلاً لجريان قضاء الله فيه.

صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يَضِنَّ(1) عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة.

ويقال: العبودية القيام بحق الطاعات بشرط التوقير، والنظر إلى ما منك بعين التقصير، وشهود ما يحصل من مناقبك من التقدير.

ويقال: العبودية ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار.

ويقال: العبودية التبري من الحول والقوة، والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول والمنة.

ويقال: العبودية معانقة ما أمرتَ به، ومفارقة ما زُجرت عنه.

وسُئل أبو عبد الله محمد بن خفيف: متى تصح العبودية؟ فقال: إذا طرح كله على مولاه، وصبر معه على بلواه.

يقول سهل بن عبد الله: لا يصح التعبد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء: الجوع والعري والفقر والذل.

وقيل: العبودية أن تسلم إليه كُلَّك، وتحمل عليه كَلَّك.

وقيل: من علامات العبودية ترك التدبير وشهود التقدير.

وقال ذو النون المصري: العبودية أن تكون عبده في كل حال، كما أنه ربك في كل حال.

وقال أحمد الجريري: عبيد النعم كثير عددهم، وعبيد المنعم عزيز وجودهم.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: أنت عبد مَن أنتَ في رقّه وأسره، فإن كنتَ في أسر نفسك، فأنت عبد نفسك، وإن كنتَ في أسر دنياك، فأنت عبد دنياك.

---

(1) يَضِنُّ: يبخل.

وقال رسول الله ﷺ : تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد الخميصة(1) .

يقول إسماعيل بن نجيد : لا تصفو لأحد قدم في العبودية حتى يشاهد أعماله عنده رياء وأحواله دعاوى(2) .

يقول عبد الله بن منازل : العبد عبد ما لم يطلب لنفسه خادماً ، فإذا طلب لنفسه خادماً فقد سقط عنه حد العبودية وترك آدابها .

ويقول سهل بن عبد الله : لا يصلح للعبد التعبد حتى يكون بحيث لا يرى عليه أثر المسكنة في العدم ، ولا أثر الغنى في الوجود .

وقيل : العبودية شهود الربوبية(3) .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : سمعت إبراهيم النصر آباذي يقول : قيمة العابد بمعبوده ، كما أن شرف العارف بمعروفه .

وقال أبو حفص : العبودية زينة العبد ، فمن تركها تعطل من الزينة .

قال النباجي : أصل العبادة في ثلاثة أشياء : لا ترد من أحكامه شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً ، ولا يسمعك تسأل غيره حاجة .

يقول ابن عطاء : العبودية في أربع خصال : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر عن المفقود .

يقول عمرو بن عثمان المكي : ما رأيت أحداً من المتعبدين في كثرة من لقيت بمكة المكرمة حرسها الله تعالى ، ولا أحداً ممن قدم علينا في المواسم أشد اجتهادا

---

(1) الخميصة : كساء أسود مربع، له علمان والقصد للثياب كلها، وعبد الخميصة من يهتم بمظهره. والحديث: رواه البخاري ٦٠ و ٦١ في الجهاد باب الحراسة في الغزو في سبيل الله وفي الرقاق باب ما تبقى من فتنة المال.

(2) مع سلامتها في الواقع من ذلك .

(3) وهو سبب عظيم في دوام العبودية ، لأن العبد إذا توالت عليه مراقبته لجلال مولاه ذل في نفسه بالنظر لما هي عليه من جهة طبعها لا بالنظر لما خصها .

ولا أدوم على العبادة من المزني رحمه الله تعالى ، ولا رأيتُ أحداً أشد تعظيماً لأوامر الله تعالى منه ، ومَا رأيتُ أحداً أشد تضييقاً على نفسه وتوسعة على الناس منه .

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : ليس شيء أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج ، وكان أشرف أوقاته في الدنيا : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ﴾(1) ، وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾(2) ، فلو كان اسم أجل من العبودية لسمّاه به ، وفي هذا المعنى أنشدوا :

يا عمرو ثاري عند زهرائي ... يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

وقال بعضهم : إنما هو شيئان : سكونك إلى اللذة واعتمادك على الحركة ، فإذا أسقطت عنك هذين فقد أديت حق العبودية .

وقال محمد الواسطي : احذروا لذة العطاء فإنها غطاء لأهل الصفاء .

وقال أبو علي الجوزجاني : الرضا دار العبودية ، والصبر بابه ، والتفويض بيته ، فالصوت على الباب ، والفراغة(3) في الدار ، والراحة في البيت .

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : كما أن الربوبية نعت للحق سبحانه لا يزول ، فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه ما دام ، وأنشد بعضهم :

فإن تسألوني قلتُ ها أنا عبده ... وإن سألوه قال هذاك مولايا

يقول إبراهيم النصر اباذي : العبادات إلى طلب الصفح والعفو عن تقصيرها أقرب إلى طلب التعويض والجزاء . وقال أيضاً : العبودية إسقاط رؤية التعبد في مشاهدة المعبود .

---

(1) الآية : سورة الإسراء - ١ .

(2) الآية : سورة النجم - ١٠ .

(3) الفراغة : الجزع والقلق . والفراغة : نطفة الرجل .

ويقول الجنيد : العبودية ترك الأشغال والاشتغال بالشغل الذي هو أصل الفراغة .

٢٤ - الإرادة

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ(١) ﴾ .

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، فقيل له كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت»(٢) .

والإرادة(٣) بدء طريق السالكين ، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى ، وإنما سُميت هذه الصفة إرادة ، لأن الإرادة مُقدمة كل أمر ، فمَا لَمْ يرد العَبد شيئاً لَمْ يفعله .

فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عزّ وجلّ سُمّي إرادة، تشبيهاً بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها ، والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة ، كما أن العالم من له علم ، لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له(٤) ، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مُريداً ، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مُريداً .

وقد تكلم الناس في معنى الإرادة فكل عبّر حسب ما لاح لقلبه ، فأكثر المشايخ قالوا : الإرادة ترك ما عليه العادة ، وعادة الناس في الغالب التعريج في أوطان الغفلة ، والركون إلى اتباع الشهوة ، والإخلاد إلى ما دعت إليه المنية ، والمريد منسلخ عن هذه الجملة ، فصار خروجه أمارة ودلالة على صحة الإرادة ، فسميت تلك الحالة إرادة ، وهي خروج عن العادة ، فإذا ترك العادة أمارة الإرادة ،

---

(١) الآية : سورة الأنعام - ٥٢ .

(٢) الحديث : رواه أنس بن مالك، وأخرجه الترمذي رقم ٢١٤٣ في القدر باب ما جاء أن الله كتب

(٣) كتاباً لأهل الجنة وأهل النار، وقال : هذا حديث صحيح .

الإرادة هي التجرد لله في السلوك إلى كمال التوحيد ، وهي ممدوحة ومطلوبة .

أي لا اختيار له في نفسه ، ولا تمييز لمراده ، وإنما تجرد لمراد الحق تعالى .

وأما حقيقتها فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وتعالى ، ولهذا يقال : إنها لوعة تهون كل روعة .

وقيل عن بعض المشايخ : كنت بالبادية وحدي ، فضاق صدري فقلت : يا إنس كلموني يا جن كلموني ، فهتف بي هاتف : ماذا تريد ؟ فقلت : أريد الله تعالى ، فقال : متى تريد الله تعالى ؟ يعني : أن من قال للإنس والجن كلموني متى يكون مريداً لله عز وجل ، والمريد لا يفتر آناء الليل والنهار ، فهو في الظاهر بنعت المجاهدات ، وفي الباطن بوصف المكابدات ، فارق الفراش ، ولازم الانكماش ، وتحمل المصاعب ، وركب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاق ، وعانق الأهوال ، وفارق الأشكال ، كما قيل :

ثم قطعت الليل في مهمه لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوبا

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الإرادة لوعة في الفؤاد ، لدغة في القلب ، غرام في الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيران تتأجج في القلوب . وسمعته يقول : كنت في ابتداء صباي محترقاً في الإرادة ، وكنت أقول في نفسي : ليت شعري ؟ ما معنى الإرادة ؟

قال يوسف بن الحسين : كان بين أبي سليمان الداراني وأحمد بن أبي الحواري عقد ، لا يخالفه أحمد في شيء يأمره به ، فجاءه يوماً وهو يتكلم في مجلسه ، فقال إن التنور قد سجر فما تأمر ؟ فلم يجبه ، فقال مرتين أو ثلاثة ، فقال أبو سليمان اذهب فاقعد فيه ، كأنه ضاق به قلبه ، وتغافل عنه أبو سليمان ثم تذكره ، فقال : أدركوا أحمد فإنه في التنور ، لأنه آلى على نفسه أن لا يخالفني ، فنظروا فإذا هو في التنور لم تحترق منه شعرة .

وقيل : من صفات المريد التحبب إليه بالنوافل ، والخلوص في نصيحة الأمة ، والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود في محبوبه ، والتعرض لكل سبب يوصل إليه ، والقناعة بالخمول[1] ، وعدم القرار بالقلب إلى أن يصل إلى الرب .

(١) ليسلم من آفات الشهرة وما يدخل عليه من تشويش الخلق وتعلقهم به إذا عرفوا مقامه ورفعة منزلته عند ربه .

وقال أبو بكر محمد الوراق: آفة المريد ثلاثة أشياء: التزوج وكتابة الحديث والأسفار.

وقيل له: لماذا تركت كتابة الحديث؟ فقال: منعتني عنها الإرادة.

وقال حاتم الأصم: إذا رأيت المريد يريد غير مراده فاعلم أنه قد أظهر نذالته.

يقول محمد الكتاني: من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة.

ويقول الجنيد: إذا أراد الله تعالى بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية، ومنعه من صحبة القرّاء.

قال أبو علي الدقاق: نهاية الإرادة أن تشير إلى الله تعالى فتجده مع الإشارة، فقلت: ماذا يستوعب الإرادة؟ فقال: أن تجد الله تعالى بلا إشارة. ويقول الدقاق أيضاً: لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة.

قال أبو عثمان الحيري: إذا سمع المريد شيئاً من علوم القوم فعمل بها صار ذلك حكمة في قلبه الى آخر عمره ينتفع به، ولو تكلم به انتفع به من سمعه، ومن سمع شيئاً من علومهم، ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها.

وقال أيضاً: من لم تصح إرادته ابتداء لا يزيده مرور الأيام إلا إدباراً.

وقال محمد الواسطي: أول مقام المريد إرادة الحق بإسقاط إرادته.

وقال يحيى بن معاذ: أشد شيء على المريدين معاشرة الأضداد.

يقول يوسف بن الحسين: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب فلا يجيء منه شيء.

وسئل الجنيد: ما للمريدين في مجري الحكايات؟ فقال: الحكايات جند من جنود الله تعالى يقوي بها قلوب المريدين، فقيل له: فهل لك في ذلك شاهد؟ فقال: نعم قوله عز وجل: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾(١).

---

(١) الآية: سورة هود: ١٢٠.

يقول الجنيد: المريد الصادق غني عن علم العلماء، فأما الفرق بين المريد والمراد: فكل مريد على الحقيقة مراد، إذ لو لم يكن مراد الله عز وجل بأن يريده لم يكن مريداً، إذ لا يكون إلا ما أراده الله تعالى، وكل مراد مريد، لأنه إذا أراده الحق سبحانه بالخصوصية وفقه للإرادة، ولكن القوم فرقوا بين المريد والمراد، فالمريد عندهم هو المبتدي، والمراد هو المنتهي، والمريد الذي نصب بعين التعب، وألقي في مقاساة المشاق، والمراد الذي كفي بالأمر من غير مشقة، فالمريد متعن، والمراد مرفوق به مرفه، وسنة الله تعالى مع القاصدين مختلفة، فأكثرهم يوفقون للمجاهدات، ثم يصلون بعد مقاساة اللتيا والتي إلى سني المعالي، وكثير منهم يكاشفون في الابتداء بجليل المعاني، ويصلون إلى ما لم يصل إليه كثير من أصحاب الرياضات، إلا أن أكثرهم يردون إلى المجاهدات بعد الإرفاق، ليستوفى منهم ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة(١).

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: المريد متحمل والمراد محمول، وسمعته يقول: كان موسى عليه السلام مريداً، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(٢)، وكان نبينا ﷺ مراداً فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(٣)، وكذلك قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ: لَن تَرَانِي﴾(٤)، وقال لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾(٥)، وكان أبو علي الدقاق يقول: إن المقصود في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ستر للقصة وتحسين للحالة.

وسئل الجنيد عن المريد والمراد، فقال: المريد تتولاه سياسة العلم، والمراد

---

(١) ليس مراده أنهم يردون إلى ما خرجوا منه من الأخلاق الذميمة والأعمال الشاقة بل مراده أنهم يلقون في مقاماتهم العالية من المجاهدات وملازمة الآداب والامتحان في ذلك ما لقيه أرباب البدايات في بدايتهم.

(٢) الآية: سورة طه: ٢٥.

(٣) الآية: سورة الشرح: ١ - ٤.

(٤) الآية: سورة الأعراف - ١٤٣.

(٥) الآية: سورة الفرقان: ٤٥.

تتولاه رعاية الحق سبحانه، لأنه المريد يسير والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر؟.

وقيل: أرسل ذو النون إلى أبي يزيد رجلاً، وقال له: قل له إلى متى النوم والراحة وقد جازت⁽¹⁾ القافلة؟ فقال أبو يزيد: قل لأخي ذي النون: الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة، فقال ذو النون: هنيئاً له، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا.

٢٥ - الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾⁽²⁾.

عن ثوبان مولى النبي ﷺ عن النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أنّ خير دينكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»⁽³⁾.

قال الأستاذ الشيخ: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾⁽⁴⁾، ومن لم يكن مستقيماً في صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره، ولم يبن سلوكه على صحة، فمن شرط المستأنف الاستقامة في أحكام البداية، كما أن من حق العارف الاستقامة في آداب النهاية، فمن أمارات استقامة أهل البداية أن لا تشوب معاملتهم فترة، ومن أمارات استقامة أهل الوسايط أن لا يصحب منازلتهم وقفة، ومن أمارات استقامة أهل النهاية أن لا تتداخل مواصلتهم حجبة.

---

(١) جازت القافلة: سارت ومضت.

(٢) الآية: سورة فصّلت: ٣٠.

(٣) الحديث: رواه ثوبان، واخرجه عنه أحمد في مسنده ٥/٢٢٧، ٢٨٢، وقال السيوطي في الجامع الصغير: أخرجه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في السنن عن ثوبان وابن ماجه والطبراني في الكبير عن ابن عمر، والطبراني أيضاً عن سلمة بن الأكوع. (صحيح)، الجامع الصغير ١/ص ١٢٩ رقم (٩٩٤).

(٤) الآية: سورة النحل: ٩٢.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة، فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في معنى قوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ لم يشركوا. وقال عمربن الخطاب رضي الله عنه: لم يروغوا روغان(١) الثعالب، فقول الصديق محمول على مراعاة الأصول في التوحيد، وقول عمر محمول على ترك طلب التأويل والقيام بشرط العهود. وقال ابن عطاء: استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى. وقال أبو علي الجوزجاني: كنْ صاحبَ الاستقامة لا طالب الكرامة؛ فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة. يقول علي الشبوي: رأيتُ النبي ﷺ في المنام، فقلتُ له: روي عنك أنك قلتَ: شيبتني هود، فما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء أمْ هلاك الأمم؟ فقال: لا، ولكن قوله تعالى: ﴿فاستقِمْ كما أُمِرْتَ﴾(٢).

وقيل: إن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر، لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق. لذلك قال النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا».

قال محمد الواسطي: الخصلة التي بها كملت المحاسن، وبفقدها قبحت المحاسن. الاستقامة.

وروي عن دلف الشبلي أنه قال: الاستقامة أن تشهد الوقت قيامة.

ويقال: الاستقامة في الأقوال بترك الغيبة، وفي الأفعال بنفي البدعة، وفي الأعمال بنفي الفترة، وفي الأحوال بنفي الحجبة.

سمعتُ الأستاذ الإمام أبا بكر محمد بن الحسين بن فورك يقول: السين في الاستقامة سين الطلب، أي طلبوا من الحق ان يقيمهم على توحيدهم ثم على استدامة عهودهم وحفظ حدودهم.

---

(١) راغ: حاد عن الطريق، وذهب هكذا وهكذا مكراً وخديعة.

(٢) الآية: سورة هود: ١١٢.

واعلم أن الاستقامة توجب إدامة الكرامة، قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾(١) لم يقل سقيناهم بل أسقيناهم(٢)، فهو يشير إلى الدوام(٣).

قال الجنيد: لقيت شاباً من المريدين في البادية تحت شجرة من شجر أم غيلان، فقلت: ما أجلسك ههنا؟ فقال: حال أتفقدته فمضيت وتركته، فلما انصرفت من الحج إذا أنا بالشاب قد انتقل إلى موضع قريب من الشجرة، فقلت: ما جلوسك ههنا؟! فقال وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع فلزمته، قال الجنيد: فلا أدري أيهما كان أشرف، لزومه لافتقاد حاله، أو لزومه للموضع الذي نال فيه مراده.

٢٦ - الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٤).

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغلّ(٥) عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين»(٦).

قال الأستاذ الشيخ: الإخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى، ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية الفعل عن

---

(١) الآية: سورة الجن: ١٦.

(٢) التفريق بين (سقاه وأسقاه) غير واضح، والحقيقة أن سقاه: أعطاه ماء ليشرب، وأسقاه دله على الماء ليتناوله متى شاء.

(٣) أي دوام الخير من المطر وما يترتب عليه.

(٤) الآية: سورة الزمر: ٣.

(٥) لا يغلّ بفتح الياء مع ضم الغين أي لا يخون. ومع كسر الغين أي لا يحقد.

(٦) الحديث: رواه أبو بكرة، وأخرجه أحمد في مسنده، ١٨٣/٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٧/١ - ١٣٩ صححه ابن حبان وابن حجر، وروى الحديث كثير من الصحابة.

ملاحظة المخلوقين، ويصح أن يقال: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص.

سُئل النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألتُ جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألتُ ربَّ العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سِرٌّ مِنْ سري استودعته قلب من أحببته من عبادي»(١).

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الإخلاص: التوقي عن ملاحظة الخَلق(٢)، والصدق: التنقي من مطالعة النفس، فالمخلِص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له.

وقال ذو النون المصري: الإخلاص لا يتم إلاّ بالصدق فيه، والصبر عليه، والصدق لا يتم إلاّ بالإخلاص فيه والمداومة عليه.

وقال أبو يعقوب السوسي: متى شهدوا الإخلاص في إخلاصهم احتاج إخلاصهم الى إخلاص(٣).

وقال ذو النون المصري: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

يقول أبو عثمان المغربي: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وأما إخلاص الخواص فهو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص.

وقال أبو بكر الدقاق: نقصان كل مخلِص في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا

---

(١) أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفة.

(٢) بأن لا يفرح برؤيتهم لما هو فيه من العمل ليمدحوه ويصلوه أو لئلا يستنقصوه.

(٣) فحق المخلص ان لا يرى إخلاصه ولا يسكن اليه، فمتى خالف ذلك لم يكمل إخلاصه، بل سماه بعضهم رياء، فقال: (رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين).

أراد الله تعالى أن يخلص إخلاصه سقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه. فيكون مُخلَصاً لا مخلِصاً.

قال سهل بن عبد الله : لا يعرف الرياء إلا مخلِص.

قال أبو سعيد الخراز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين.

وقال ذو النون المصري: الإخلاص ما حُفظ من العدو أن يفسده.

وقال أبو عثمان الحيري : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. وقال حذيفة المرعشي : الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وقيل : الإخلاص ما أُريد به الحق سبحانه، وقُصد به الصدق(1) وقيل : الإغماض عن رؤية الأعمال.

يقول السري السقطي: من تزيّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى.

يقول الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال الجنيد: الإخلاص سرّ بين الله والعبد، ولا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوًى فيميله.

وقال رويم: الإخلاص من العمل هو الذي لا يريد صاحبه عليه عوضاً من الدارين، ولا حظاً من الملكين.

وقيل لسهل بن عبد الله: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب.

وسُئل بعضهم عن الإخلاص فقال: أن لا تُشهد على عملك غير الله عز وجل.

---

(1) الصدق: هو الحكم المطابق للواقع، ومحله اللسان والقلب والأفعال، فهو في اللسان الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، وفي القلب العزم الأكيد، وفي الأفعال إيقاعها على وجه النشاط والجدّ.

وقال بعضهم: دخلت على سهل بن عبد الله يوم جمعة قبل الصلاة، فرأيت في البيت حية، فجعلت أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فقال: ادخل، لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان، وعلى وجه الأرض شيء يخافه. ثم قال: هل لك في صلاة الجمعة؟ فقلت بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة فأخذ بيدي، فما كان إلا قليل حتى رأيت المسجد فدخلناه وصلينا الجمعة، ثم خرجنا فوقف ينظر إلى الناس وهم يخرجون، فقال: أهل (لا إله إلا الله) كثير، والمخلصون منهم قليل.

قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

قال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا هو الإخلاص. وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر.

يقول أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

٢٧ - الصدق

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: اتَّقُوا اللهَ، وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١).

قال النبي ﷺ: «لا يزال العبد يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله تعالى صديقاً، ولا يزال يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً»(٢).

قال الأستاذ الشيخ: والصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة. قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(٣)

---

(١) الآية: سورة التوبة: ١١٩.

(٢) الحديث: رواه عبد الله بن مسعود، وأخرجه أبو داود رقم ٤٩٨٩ في الأدب باب في التشديد في الكذب، والترمذي رقم ١٩٧٢ في البر باب ما جاء في الصدق والكذب.

(٣) الآية: سورة النساء: ٦٩.

والصادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصِّدِّيق المبالغة منه، وهو الكثير الصدق، والذي يكون الصدق غالبه كالسكّير والخمّير وبابه(١)، وأقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصدّيق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله.

قال أحمد بن خضرويه: من أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق، فإن الله تعالى مع الصادقين(٢).

يقول الجنيد: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

وقال أبو سليمان الداراني: لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: الصدق موافقة السر النطق.

وقال النقاد: الصدق منع الحرام من الشدق.

وقال عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله عز وجل بالعمل.

يقول سهل بن عبد الله: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

قال أبو سعيد القرشي: الصادق هو الذي يتهيأ له أن يموت، ولا يستحيي من سره لو كشف.

قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: كان أبو علي الثقفي يتكلم يوماً فقال له عبد الله بن منازل: يا أبا علي استعدّ للموت فلا بدّ منه، فقال أبو علي: وأنت يا عبد الله استعد للموت فلا بدّ منه، فتوسد عبد الله ذراعه ووضع رأسه، وقال: لقد

---

(١) إن السكّير هو الكثير السكر من شرب المسكرات، والخمّير هو الكثير شرب الخمر، وبابه وهو كل ما كان وزنه (فعّيل) كشرّير.

(٢) أي إن الله مع الصادقين بالعون والحفظ لأنهم صدقوا فيه، وفي القيام بحقه.

(٣) الآية: سورة البقرة: ٩٤.

متّ فانقطع أبو علي لأنه لم يمكنه أن يقابله بما فعل ، لأنه كان لأبي علي علاقات . وكان عبد الله مجرداً لا شغل له .

وكان أحمد بن محمد الدينوري يتكلم فصاحت عجوز في المجلس صيحة ، فقال لها أبو العباس : موتي فقامت وخطت خطوات ثم التفتت إليه وقالت : لقد متّ ، ووقعت ميّتة .

وقال محمد الواسطي : الصدق صحة التوحيد مع القصد .

وقيل : نظر عبد الواحد بن زيد الى غلام ممّن أصحابه قد نحل بدنه ، فقال : أتديم الصوم يا غلام ؟ فقال : ولا أديم الإفطار ، فقال : أتديم القيام بالليل ؟ فقال : ولا أديم النوم ، فقال : فما الذي أنحلك ؟ فقال : هوى دائم وكتمان دائم عليه ، فقال عبد الواحد : اسكت فما أجراك ، فقام الغلام وخطا خطوتين وقال : إلهي إن كنت صادقاً فخذني ، فخرّ ميتاً .

وقال أبو عمرو الزجاجي : ماتت أمي فورثت منها داراً فبعتها بخمسين ديناراً ، وخرجت إلى الحج ، فلما بلغت بابل(١) استقبلني واحد من القناقنة(٢) ، وقال : ماذا معك ؟ فقلت في نفسي : الصدق خير ، قلت : خمسون ديناراً ، فقال : ناولينها ، فناولته الصرّة ، فعدّها فإذا هي خمسون ديناراً ، فقال : خذها فلقد أخذني صدقك ، ثم نزل عن الدابة وقال : اركبها ، فقلت : لا أريد ، فقال : لا بد ، وألحّ عليّ فركبتها ، فقال : وأنا على أثرك ، فلما كان العام المقبل لحق بي ولازمني حتى مات .

يقول إبراهيم الخواص : الصادق لا تراه إلاّ في فرض يؤديه ، أو فضل يعمله لربه .

يقول الجنيد : حقيقة الصدق أن تصدق في مواطن لا ينجيك منها إلّا الكذب .

---

(١) بابل : مدينة قديمة أنقاضها واقعة على الفرات ، جنوبي شرقي بغداد ، جعلها الاسكندر عاصمة الشرق ، وبرج بابل بناه أولاد نوح ليصلوا به إلى السماء .

(٢) القناقنة : تركيب خاطىء لأن المفرد هو القناقن ، ويعني المهندس الذي يعرف وجود الماء تحت الأرض ، ويقصد بالقناقن هنا الدليل الهادي .

وقيل: ثلاثة لا تخطيء: الصادق(١) الحلاوة، والهيبة والملاحة(٢).

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريرته، صدقته عند المخلوقين في علانيته.

وقيل: دخل إبراهيم بن دوحة مع إبراهيم بن ستنبة البادية، فقال ابن ستنبة: اطرح ما معك من العلائق، قال: فطرحت كل شيء ذكرت إلا ديناراً، فقال: يا إبراهيم لا تشغل سري، اطرح ما معك من العلائق، قال: فطرحت الدينار، ثم قال: يا إبراهيم اطرح ما معك من العلائق فتذكرت أن معي شسوعاً(٣) للنعل فطرحتها، فما احتجت في الطريق الى شسع إلا وجدته بين يديّ، فقال إبراهيم بن ستنبة: هكذا من عامل الله تعالى بالصدق.

وقال ذو النون المصري: الصدق سيف الله تعالى ما وضع على شيء إلا قطعه.

وقال سهل بن عبد الله: أول خيانة الصديقين حديثهم مع أنفسهم.

وسئل فتح الموصلي عن الصدق، فأدخل يده في كير الحداد، وأخرج الحديدة المحماة ووضعها على كفه، وقال: هذا هو الصدق. وقال يوسف بن أسباط: لإن أبيت ليلة أعامل الله تعالى بالصدق أحب إليّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله تعالى.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الصدق أن تكون كما ترى من نفسك، أو ترى من نفسك كما تكون.

وسئل الحارث المحاسبي عن علامة الصدق فقال: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس

---

(١) الصادق: أي لا تتجاوزه الى غيره.

(٢) الحلاوة: في منطقه لإتيانه بالحق في رفق وسهولة والهيبة: الحرمة لله تعالى على الدوام توقفه عما يكرهه مولاه. والملاحة: ضياء الطاعة على وجهه.

(٣) الشسوع: مفردها الشسع، هو زمام للنعل بين الإصبع الوسطى والتي تليها.

على مثاقيل الذّر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصدّيقين.

وقال بعضهم: من لم يؤدّ الفرض الدائم، لا يقبل منه الفرض المؤقت. وقيل: ما الفرض الدائم؟ قال: الصدق.

وقيل: إذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تبصر فيها كلّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

وقيل: عليك بالصّدق، حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك، ودع الكذب، حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك.

وقيل: كل شيء شيء، ومصادقة الكذاب لا شيء.

وقيل: علامة الكذّاب جوده باليمين بغير مستحلف.

وقال ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريف.

وقيل: ما أملق تاجر صدوق.

٢٨ ـ الحياء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾(١).

قال رسول الله ﷺ: «الحياء(٢) من الإيمان»(٣). وقال نبي الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء»، قالوا: إنا نستحيي يا نبي الله والحمد لله، قال: «ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى،

---

(١) الآية: سورة العلق: ١٤.

(٢) الحياء هو ما يمنعك عما يضرك، وسببه ملازمة من يستحيا منه كأهل العلم والأدب، وثمرته الأمن من المقت والعذاب وخفة الحساب، وهو ممدوح ومطلوب.

(٣) الحديث: رواه أبو هريرة، وأخرجه الترمذي رقم ٢٠١٠ في البرّ والصلة باب ما جاء في الحياء، وقال: حديث حسن صحيح.

وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »(١).

قال بعض الحكماء: أحيوا الحياء(٢) بمجالسة من يستحيا منه.

ويقول ابن عطاء: العلم الأكبر: الهيبة والحياء، فإذا ذهبت الهيبة والحياء لم يبق فيه خير.

يقول ذو النون المصري: الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى. وقال أيضاً: الحب ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق.

وقال أبو عثمان: من تكلم في الحياء ولا يستحيي من الله عز وجل فيما يتكلم به فهو مستدرج.

دخل الحسن الحداد على عبد الله بن منازل فقال: من أين جئت؟ فقال: من مجلس أبي القاسم المذكر فقال: في أيّ شيء كان يتكلم؟ فقال: في الحياء، فقال عبد الله: واعجباه، من لم يستحي من الله تعالى كيف يتكلم في الحياء؟

قال السري السقطي: إن الحياء والأنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزهد والورع حطّا، وإلا رحلا.

يقول أحمد الجريري: تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقّ الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(٣) إن البرهان أنها ألقت ثوباً على وجه صنم في زاوية البيت، فقال يوسف: ماذا تفعلين؟ فقال: استحيي منه، قال يوسف عليه السلام: أنا أولى منك أن أستحيي من الله تعالى.

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذي رقم (٢٤٦٠) في صفة القيامة، وجاء في الترغيب والترهيب » رواه الطبراني مرفوعاً عن عائشة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وله شواهد يرتقي بها.

(٢) أحيوا الحياء: احذروا أن يمازحه رياء.

(٣) الآية: سورة يوسف: ٢٤.

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾(١) قيل: إنما استحيت منه، لأنها كانت تدعوه إلى الضيافة فاستحيت أن لا يجيب موسى عليه السلام، فصفة المضيف الاستحياء، وذلك استحياء الكرم.

يقول أبو سليمان الداراني: قال الله تعالى: يا عبدي، إنك ما استحييت مني(٢) أنسيت الناس عيوبك(٣)، وأنسيت الارض ذنوبك(٤)، ومحوت من أم الكتاب(٥) زلاتك، ولا أناقشك الحساب يوم القيامة.

وقيل: رؤي رجل يصلي خارج المسجد، فقيل له: لماذا لا تدخل المسجد فتصلي فيه، فقال: استحي منه أن أدخل بيته وقد عصيته.

وقيل: من علامات المستحي أن لا يرى بموضع يستحيا منه.

وقال بعضهم: خرجنا ليلة فمررنا بأجمة(٦)، فإذا رجل نائم، وفرس عند رأسه ترعى، فحركناه وقلنا: ألا تخاف أن تنام في مثل هذا الموضع المخيف وهو مسبع(٧)، فرفع رأسه وقال: أنا استحي منه أن أخاف غيره، ووضع رأسه ونام، وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس.

وإلا فاستح مني أن تعظ الناس.

وقيل: الحياء على وجو: حياء الجناية(٨): كآدم عليه السلام، لما قيل له: أفراراً منا؟ فقال: لا، بل حياء منك. وحياء التقصير: كالملائكة يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. وحياء الإجلال كإسرافيل عليه السلام، تسربل بجناحه حياء من الله عز وجل. وحياء الكرم كالنبي عليه السلام كان يستحي من أمته أن يقول:

---

(١) الآية: سورة القصص: ٢٥.

(٢) ما استحييت: ما مصدرية ظرفية.

(٣) لئلا يفضحوك.

(٤) لئلا تشهد عليك يوم القيامة.

(٥) أم الكتاب: يقصد بها اللوح المحفوظ.

(٦) الأجمة: جمع اجمات وآجام وهي مأوى الأسد، أو الشجر الكثير الملتف.

(٧) مكان تكثر فيه السباع.

(٨) وهي الإخلال (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

اخرجوا، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾(١). وحياء حشمة(٢) كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأل المقداد(٣) حتى سأل رسول الله ﷺ عن حكم المذي(٤) لمكان فاطمة رضي الله عنه. وحياء الاستحقار كموسى عليه السلام، قال: إني لتعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحيي أن أسألك يا رب، فقال الله عز وجل له: سلني، حتى ملح عجينك وعلف شاتك. وحياء الإنعام: وهو حياء الرب سبحانه يدفع الى العبد كتاباً مختوماً بعدما عبر الصراط وإذا فيه: فعلت ما فعلت، ولقد استحييت أن أظهر عليك، فاذهب فإني قد غفرت لك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: إن يحيى بن معاذ قال: سبحان من يذنب العبد فيستحيي هو منه.

يقول الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقاء: القسوة في القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة في الدنيا وطول الأمل.

وفي بعض الكتب: ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أن أرده، ويعصيني فلا يستحيي مني.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيا من الله تعالى مطيعاً أستحيا الله تعالى منه وهو مذنب.

قال الأستاذ الشيخ: واعلم ان الحياء يوجب التذويب، فيقال: الحياء ذوبان الحشا لاطلاع المولى.

ويقال: الحياء انقباض القلب لتعظيم الرب.

---

(١) الآية: سورة الأحزاب: ٥٣.

(٢) قد يرجع حياء الحشمة الى حياء الإجلال.

(٣) المقداد بن الأسود الكندي البهراني الحضرمي (٣٧ ق هـ - ٣٣ هـ/ ٥٨٧ - ٦٥٣ م): صحابي، أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام. أصله من حضرموت سكن المدينة المنورة، له ٤٨ حديثاً.

(٤) المذي: هو سائل يخرج من الرجل بعد خروج المني بفترة قصيرة.

وقيل: إذا جلس الرجل ليعظ الناس ناداه ملكاه: عظ نفسك بما تعظ به أخاك، وإلا فاستحي من سيدك فإنه يراك.

وسئل الجنيد عن الحياء فقال: رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء.

وقال محمد الواسطي: لم يذق لذعات الحياء من لابس خرق حد أو ناقض عهد. وقال أيضاً: المستحيي يسيل منه العرق وهو الفضل الذي فيه وما دام في النفس شيء فهو مصروف عن الحياء.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: الحياء ترك الدعوى بين يدي الله عز وجل.

ويقول أبو بكر الوراق: ربما أصلي لله تعالى ركعتين فأنصرف عنهما، وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء.

٢٩ ـ الحرية

قال الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١)، قال: إنما آثروا على أنفسهم لتجردهم عما خرجوا منه، وآثروا لحه.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه، وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر(٢)، وإنما يرجع الأمر إلى آخره»(٣).

قال الأستاذ الشيخ: إن الحرية(٤) تتجدد في أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن

---

(١) الآية: سورة الحشر: ٩.

(٢) أي إلى قبر عمقه كذلك.

(٣) الحديث: قال في كنز العمال ٣/٢٩٦ رقم ٧١٢٣: رواه ابن لال في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود.

(٤) الحرية هي أن لا يكون العبد تحت عبودية المخلوقات، ويقال: الإعراض عن الكل، والإقبال على من له الكل، ويقال: أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى، وكلها متقاربة، وهي ممدوحة ومطلوبة.

قلبه بين الأشياء، فتتساوى عنده أخطار الإعراض.

قال حارثة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: عزفت(١) نفسي عن الدنيا، فاستوى عندي حجرها وذهبها.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: من دخل الدنيا وهو عنها حر، ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حر.

وقال الأستاذ أبا علي الدقاق من كان في الدنيا حراً منها، كان في الآخرة حراً منها.

قال الأستاذ الشيخ: واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية، فإذا صدقت لله تعالى عبوديته خلصت عن رق الأغيار حريته، فأما من متوهم أن العبد يسلم لمن أن يخلع وقتاً عذار العبودية ويحيد بلحظة عن حد الأمر والنهي، وهو مميز في التكليف فذلك انسلاخ من الدين.

قال الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(٢) يعني الأجل، وعليه أجمع المفسرون.

وإن الذي أشار إليه القوم من الحرية هو أن لا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات، لا من أعراض الدنيا، ولا من أعراض الآخرة، فيكون فرداً للفرد، لم يسترقه عاجل دنيا، ولا حاصل هوى، ولا آجل منى، ولا سؤال ولا قصد، ولا هدف ولا حظ.

وسئل الشبلي: ألا تعلم أنه رحمن؟ فقال: بلى، ولكن منذ عرفت رحمته ما سألته أن يرحمني، ومقام الحرية عزيز.

وكان أبو العباس السياري يقول: لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محالا ... أن ترى مقلتاي طلعة حر

---

(١) عزفت: زهدت.

(٢) الآية: سورة الحجر: ٩٩.

وأما أقاويل المشايخ في الحرية، فقال الحسين بن منصور: من أراد الحرية فليصل للعبودية.

وسئل الجنيد عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة فقال: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، ويقول الجنيد أيضاً: إنك لا تصل الى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديتك بقية.

وقال بشر الحافي: من أراد ان يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى.

وقال الحسين بن منصور: إذا استوفى العبد مقامات العبودية كلها يصير حراً من تعب العبودية، فيترسم بالعبودية بلا عناء ولا كلفة، وذلك مقام الأنبياء والصديقين، يعني يصير محمولاً لا يلحقه بقلبه مشقة، وإن كان متحلياً بها شرعاً.

أنشدنا منصور الفقيه لنفسه:

ما بقي في الإنس حر ... لا ولا في الجن حر

قد مضى حر الفريقين ... فحلو العيش مر

واعلم: أن معظم الحرية في خدمة الفقراء.

سمعت الشيخ أبا علي الدقاق يقول: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً.

وقال ﷺ: «سيد القوم خادمهم»(١).

يقول يحيى بن معاذ: أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة يخدمهم الأحرار والأبرار.

وقال إبراهيم بن أدهم: إن الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل ان يخرج منها.

---

(١) الحديث: قال العجلوني في كشف الخفاء ٥٦٢/١ رقم ١٥١٥: رواه أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة والخطيب وأبو نعيم في ترجمة إبراهيم بن أدهم بسند ضعيف جداً، والطبراني بمعناه بسند ضعيف. الحديث ضعيف، على أنه قد يقال حسن لتعدد طرقه.

وقال أيضاً: لا تصحب إلا حرّاً كريماً، يسمع ولا يتكلم.

٣٠ ـ الذِكر

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اذكُرُوا اللَّهَ ذِكراً كَثِيراً﴾(١).

قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم(٢)، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطاء الذهب والورق، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم»، قالوا: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله تعالى»(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله»(٤)، وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»(٥).

قال الأستاذ الشيخ: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العُمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر.

والذكر على نوعين: ذكر اللسان وذكر القلب(٦)، فذكر اللسان يصل به العبد إلى استدامة ذكر القلب والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الذكر منشور الولاية، فمن وفق للذكر فقد أُعطي المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل.

وقيل إن دلف الشبلي كان في ابتداء أمره ينزل كل يوم سَرَباً ويحمل مع نفسه

---

(١) الآية: سورة الأحزاب: ٤١.

(٢) المليك: هو الملك والسيد والرئيس والزعيم.

(٣) الحديث: قال الهندي في كنز العمال ١/٤٢٨ و ١٨٤٩: أخرجه البيهقي عن ابن عمر.

(٤) الحديث رواه أنس بن مالك، وأخرجه مسلم رقم ١٤٨ في الإيمان باب ذهاب الإيمان في آخر الزمان.

(٥) الحديث: رواه أنس بن مالك، وأخرجه الترمذي رقم ٢٢٠٨ في الفتن رقم (٣٥).

(٦) فإن اقتصر على احدهما فالثاني افضل، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء: بل يذكر بهما جميعاً، ويقصد وجه الله تعالى.

حزمة من القضبان، فكان إذا دخلت قلبه غفلة ضرب نفسه بتلك القضبان حتى يكسرها على نفسه، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يمسي، فكان يضرب بيديه ورجليه على الحائط.

وقيل: ذكر الله بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وإن البلاء إذا أظل العبد، فإذا فزع بقلبه إلى الله تعالى يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه.

وسئل محمد الواسطي عن الذكر فقال: الخروج من ميدان الغفلة إلى قضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب.

يقول ذو النون المصري: من ذكر الله تعالى ذكراً على الحقيقة(١) نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله تعالى عليه كل شيء، وكان له عوضاً عن كل شيء.

سئل أبو عثمان: نحن نذكر الله تعالى ولا نجد في قلوبنا حلاوة، فقال: احمدوا الله تعالى على أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته(٢).

وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إذا رأيتم الجنة فارتعوا فيها، فقيل له: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر»(٣).

حدثنا جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس: ارتعوا في رياض الجنة، قلنا: يا رسول الله، ما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، قال: اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزله من نفسه»(٤).

---

(١) الذكر على الحقيقة أي الذكر الكامل، وهو الاستغراق في المذكور.

(٢) أي بالذكر، فإذا شكرتموه نقلكم إلى ما هو أعلى في درجات الذكر وهذا إرشاد ووفاء بقوله تعالى ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ سورة إبراهيم، رقم ٧.

(٣) الحديث: رواه أنس بن مالك، وأخرجه الترمذي رقم ٣٥٠٥ في الدعوات باب رقم (٨٧). وقال: إنه حديث حسن.

(٤) الحديث: رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذي رقم ٣٥٠٤ في الدعوات باب أسماء الله الحسنى بالتفصيل.

يقول دلف الشبلي: أليس الله تعالى يقول: أنا جليس من ذكرني، ما الذي استفدتم أيها الناس من مجالسة الحق سبحانه؟ وكان الشبلي ينشد في مجلسه:

ذكرتُك لا أني نسيتك لمحةً ... وأيسر ما في الذِكر ذكر لساني

وكنت بلا وجدٍ أموت من الهوى ... وهام عليّ القلب بالخفقان

فلما أراني الوجد أنك حاضري ... شهدتك موجوداً بكل مكان

فخاطبت موجوداً بغير تكلم ... ولاحظت معلوماً بغير عيان

ومن خصائص الذِكر أنه غير موقت، بل ما من وقتٍ من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله تعالى، إما فرضاً وإما ندباً، والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الأوقات، والذكر مستدام في عموم الحالات، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾(١). سمعت الإمام أبا بكر بن فورك رحمه الله يقول: قياماً بحق الذكر، وقعوداً عن الدعوى.

سُئل الأستاذ أبو علي الدقاق: هل الذكر أتم أم الفكر؟ فقال الأستاذ أبو علي: ما الذي يقع للشيخ منه؟ فقال الشيخ أبو عبد الرحمن: عندي أن الذكر أتم من الفكر، لأن الحق سبحانه يوصَف بالذكر ولا يوصف بالفكر، وما وصف به الحق سبحانه أتم مما اختصّ به الخلق. فاستحسنه الأستاذ أبو علي رحمه الله.

يقول محمد الكتاني: لولا أن ذكره فرض عليّ لما ذكرته إجلالاً له، مثلي يذكره؟! ولم يغسل فمه بألف توبة عن ذكره.

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق ينشد لبعضهم:

ما إنْ ذكرتُك إلا همّ يزجرني ... قلبي وسرّي وروحي عند ذكراكا

حتى كأن رقيباً منك يهتف بي ... إياك ويحك والتذكار إياكا

ومن خصائص الذِكر: أن يقابله ذكر آخر، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٢).

---

(١) الآية: سورة آل عمران: ١٩١.

(٢) الآية: سورة البقرة: ١٥٢.

وفي الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: أعطيت أمتك ما لم أعط أمة من الأمم، فقال: وما ذاك يا جبريل؟ فقال: قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾، لم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة، وقيل: إن الملك يستأمر الذاكر في قبض روحه.

وفي بعض الكتب أن موسى عليه السلام قال: يا رب أين تسكن؟ فأوحى الله تعالى إليه: في قلب عبدي المؤمن، ومعناه سكون الذكر في القلب، فإن الحق سبحانه وتعالى منزه عن كل سكون وحلول وإنما هو إثبات ذكر وتحصيل.

سأل سفيان الثوري ذا النون المصري عن الذكر فقال: الذكر هو غيبة الذاكر عن الذكر، ثم أنشأ يقول:

لا لأني أنساك أكثر ذكرا ... ك ولكن بذاك يجري لساني (١)

وقال سهل بن عبد الله: ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادي: يا عبدي ما أنصفتني، أذكرك وتنساني، وأدعوك إليّ وتذهب إلى غيري، وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف (٢) على الخطايا، يا ابن آدم ماذا تقول غداً إذا جئتني؟.

وقال أبو سليمان الداراني: إنّ في الجنّة قيعاناً، فإذا أخذ الذاكر في الذكر، أخذت الملائكة في غرس الأشجار فيها، فربما يقف بعض الملائكة فيقال له: لماذا وقفت؟ فيقول: فتر (٣) صاحبي (٤).

وقيل: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: الصلاة والذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وقال أحمد الأسود: كنت مع إبراهيم الخواص في سفر، فجئنا الى موضع فيه

---

(١) أي: أن ما يحملني على كثرة الذكر بلساني هو زوال غفلتي ونسياني لك عن قلبي، بل إني أذكرك بكل حال، لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

(٢) اعتكف: حبس نفسه في المكان للمواظبة على شيء معيّن.

(٣) فتر صاحبي: ضعف جسمه.

(٤) فتر صاحبي عن العمل فجوزي بذلك، لقوله تعالى: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ ولخبر: (إنما هي أعمالكم ترد عليكم)، وهؤلاء الملائكة يحتمل أنهم يطلعون على أعمال العباد.

حيات كثيرة، فوضع ركوته، وجلس وجلست، فلما كان برد الليل وبرد الهواء خرجت الحيات، فصحت بالشيخ، فقال: اذكر الله تعالى، فذكرت فرجعت، ثم عادت الحيات فصحت به، فقال: مثل ذلك، فلم أزل إلى الصباح في مثل تلك الحالة، فلما أصبحنا قام ومشى ومشيت معه، فسقطت من وطائه[1] حية عظيمة قد تطوقت به، فقلت: ما أحسست بها، فقال: لا، منذ زمان ما بت ليلة أطيب من ليلة البارحة.

وقيل: من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر.

يقول السري السقطي: جاء في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى: إذا كان الغالب على عبدي ذكري عشقني وعشقته.

ويقول السري أيضاً: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: بي فافرحوا، وبذكري تنعموا.

وقال أحمد النوري: لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر.

وجاء في الإنجيل: اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، وارض بنصرتي لك فإن نصرتي لك خير لك من نصرتك لنفسك.

وقيل لراهب: هل أنت صائم؟ فقال الراهب: إني صائم بذكره، فإذا ذكرت غيره أفطرت.

وقيل إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرع، كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فتجتمع إليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال قد مسه الإنس.

وقال سهل بن عبد الله: ما أعرف معصية أقبح من نسيان هذا الرب.

وقيل: الذكر الخفي لا يرفعه الملك، لأنه لا اطلاع له عليه، فهو سر بين العبد وبين الله عز وجل.

---

(١) الوطاء: مكان الجلوس.

وقال بعضهم: وُصف لي ذاكر في أجمة فأتيته، فبينا هو جالس إذا سبع عظيم ضربه واستلب منه قطعة فغشي عليه وعليّ، فلما أفاق قلت: ما هذا؟ فقال: قيض الله هذا السبع عليّ، فكلما دخلتني فترة عضني عضة كما رأيت.

قال عبد الله الجريري: كان بين أصحابنا رجل يكثر من قول: الله الله، فوقع يوماً على رأسه جذع فشجّ رأسه وسقط الدم، وكُتب على الأرض: الله الله.

٣١ ـ الفتوة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ، وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾(١)

قال ﷺ: «لا يزال الله تعالى في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم»(٢).

وقال الأستاذ الشيخ: أصل الفتوة أن يكون العبد دائماً في أمر غيره.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: لا يكون كمال هذا الخلق إلاّ لرسول الله ﷺ فإن كل واحد يوم القيامة يقول: نفسي نفسي، ونبينا ﷺ يقول: «أمتي أمتي».

يقول الجنيد: الفتوة بالشام، واللسان بالعراق، والصدق بخراسان.

وقال الفضيل: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقيل: الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.

وقال أبو بكر الوراق: الفتى من لا خصم له.

وقال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن تكون خصماً لربك على نفسك.

ويقال: الفتى من لا يكون خصماً لأحد.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: سمعت النصر آباذي يقول: سُمّي

---

(١) الآية: سورة الكهف: ١٣.

(٢) الحديث: رواه أبو هريرة وزيد بن ثابت، وأخرجه الطبراني عن سمويه في الكبير كما في الكنز ٦/ ص ٤٤٨ رقم ١٦٤٨٠

أصحاب الكهف فتية لأنهم آمنوا بالله تعالى بلا واسطة(١).

وقيل: الفتى من كسر الصنم، قال الله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾(٣)

وصنم كل إنسان نفسه، فمن خالف هواه فهو فتىً على الحقيقة.

وقال الحارث المحاسبي: الفتوة أن تنصف وتنتصف.

وقال عمرو بن عثمان المكي: الفتوة حسن الخلق(٤).

وسئل الجنيد عن الفتوة فقال: أن لا تنافر فقيراً ولا تعارض غنياً.

وقال أبو القاسم النصر آباذي: المروءة شعبة من الفتوة، وهي الإعراض عن الكونين والأنفة منهما(٥).

وقال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن يستوي عندك المقيم والطارىء.

سئل أحمد بن حنبل: ما الفتوة؟ فقال: ترك ما تهوى لما تخشى.

وقيل لبعضهم: ما الفتوة؟ فقال: أن لا يميز بين أن يأكل عنده ولي أو كافر.

يقول بعض العلماء: استضاف مجوسي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: بشرط أن تسلم، فذهب المجوسي، فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل: منذ خمسين سنة نطعمه على كفره، فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه، فمضى إبراهيم عليه السلام على أثره حتى أدركه، واعتذر إليه، فسأله عن السبب، فذكر ذلك له، فأسلم المجوسي.

وقال الجنيد: الفتوة كف الأذى وبذل الندى.

---

(١) فقد فارقوا أهلهم، وخرجوا إلى ربهم، معرضين عن حظوظهم الدنيوية، فمُدحوا بكونهم تركوها لله تعالى، ولذلك خُرقت لهم العادة، فلبثوا في كهفهم (ثلاثة مائة سنين وازدادوا تسعاً) ولم يتغيّر لهم حال.

(٢) الآية: سورة الأنبياء: ٦٠.

(٣) الآية: سورة الأنبياء: ٥٨.

(٤) لاشتماله على جميع الصفات الحميدة.

(٥) الأنفة: عزة النفس.

وقال سهل بن عبد الله: الفتوة اتباع السنة.

وقيل: الفتوة الوفاء والحفاظ(١).

وقيل: الفتوة فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها.

وقيل: الفتوة أن لا تهرب إذا أقبل السائل.

وقيل: أن لا تحتجب من القاصدين.

وقيل: أن لا تدخر ولا تعتذر.

وقيل: الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة.

وقيل: أن تدعو عشرة اشخاص(٢) فلا تتغير إن جاءك تسعة أو أحد عشر.

وقيل: الفتوة ترك التمييز(٣).

قال أحمد بن خضرويه لامرأته: أريد أن أتخذ دعوة أدعو عياراً(٤) شاطراً، كان في بلدهم رئيس الفتيان، فقالت امرأته: إنك لا تهتدي الى دعوة الفتيان، فقال: لا بد، فقالت: إن فعلت فاذبح الأغنام والبقر والحمر وألقها من باب دار الرجل الى باب دارك، فقال: أما الأغنام والبقر فأعلم فما بال الحمر؟ فقالت: تدعو فتى الى دارك فلا أقل من أن يكون لكلاب المحلة خير.

وقيل: اتخذ بعضهم دعوة وفيهم شيخ شيرازي، فلما أكلوا وقع عليهم النوم في حال السماع، فقال الشيخ الشيرازي لصاحب الدعوة: ما السبب في نومنا؟ فقال: لا أدري، اجتهدت في جميع ما أطعمتكم إلا الباذنجان، فلم أسأل عنه، فلما أصبحوا سألوا بائع الباذنجان، فقال: لم يكن لي شيء فسرقت الباذنجان من الموضع الفلاني، وبعثه فحملوه الى صاحب الأرض ليجعله في حل، فقال الرجل: تسألون مني ألف باذنجانة، قد وهبته تلك الأرض ووهبته ثورين وحماراً وآلة الحرث، لئلا يعود الى مثل ما فعل.

---

(١) الحفاظ: أي حفظك الحدود بأن لا تتعداها.

(٢) عشرة أشخاص: مجرد عدد لا يقصد به تحديد العشرة.

(٣) ترك التمييز في إطعامك بين ما إذا أكله (حبيب أو مبغض أو مستحق أو غيره) وذلك لزهدك في الدنيا.

(٤) العيار: كثير المجيء والذهاب، أو الذكي كثير التطواف.

وقيل: تزوج رجل بامرأة، فقبل الدخول ظهر بالمرأة الجدري، فقال الرجل: اشتكت عيني، ثم قال: عميت، فزفت إليه المرأة، ثم ماتت بعد عشرين سنة، ففتح الرجل عينيه فقيل له في ذلك، فقال: لم أعم ولكن تعاميت حذراً أن تحزن، فقيل له: سبقت الفتيان.

وقال ذو النون المصري: من أراد الظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد، فقيل له: كيف هو؟ فقال: لما حملت إلى الخليفة فيما نسب إلي من الزندقة (١)، رأيت سقاء عليه عمامة وهو مترد بمنديل مصري وبيده كوزان (٢) خزف رقاق، فقلت: هذا ساقي السلطان، فقالوا: لا، هذا ساقي العامة، فأخذت الكوز وشربت، وقلت لمن معي: أعطه ديناراً فلم يأخذ، وقال: أنت أسير وليس من الفتوة أن نأخذ منك شيئاً.

وقيل: ليس من الفتوة أن تربح على صديقك. قاله بعض أصدقائنا وكان فتى يسمى أحمد بن سهل التاجر، وقد اشتريت منه قطعة قماش، فأخذ الثمن رأس ماله فقط، فقلت له: ألا تأخذ ربحاً؟ فقال: أما الثمن فآخذه ولا أحملك منة، لأنه ليس له من الخطر ما أتخلق به معك، ولكن لا آخذ الربح، إذ ليس من الفتوة أن تربح على صديقك.

وقيل: خرج إنسان يدعي الفتوة من نيسابور إلى نسا (٣)، فاستضافه رجل، ومعه جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض النيسابوري عن غسل اليد، وقال: ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدي الرجال، فقال واحد منهم: أنا منذ سنين أدخل هذه الدار ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلاً.

سمعت منصور المغربي يقول: أراد واحد أن يمتحن نوحاً العيار النيسابوري، فباع له جارية في زي غلام، واشترط أنه غلام، وكانت وضيئة الوجه، فاشتراها نوح

---

(١) الزندقة: مصدر، وصاحبها زنديق، وجمعه زنادقه وزناديق، الكلمة فارسية، وهي تعني الكفر باطناً مع التظاهر بالإيمان.

(٢) الكوز: جمع أكواز وكيزان، وهو إناء كالابريق لكنه أصغر منه، والكلمة في أساسها آرامية.

(٣) نسا: اسم علة مواضع في إيران وفارس وكرمان وهمدان. اشهرها: نسا خراسان.

على أنها غلام، ولبثت عنده شهوراً كثيرة، فقيل للجارية: هل علم سيدك أنك جارية؟ فقالت: لا إنه ما مسني، ويتصور أني غلام.

وقيل إن بعض الشطار (١) طلب منه تسليم غلام كان يخدمه الى السلطان فأبى، فضرب ألف سوط فلم يسلم الغلام، فاتفق أنه احتلم تلك الليلة، وكان الجو بارداً جداً، فلما أصبح إغتسل بالماء البادر، فقيل له: خاطرت بروحك، فقال: استحييت من الله تعالى أن أصبر على ضرب ألف سوط ولأجل مخلوق، ولا أصبر على مقاساة برد الاغتسال لأجله.

وقيل: قدم جماعة من الفتيان لزيارة واحد يدعي الفتوة، فقال الرجل: قدم السفرة فلم يقدم، فقال الرجل ثانياً وثالثاً، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا، فقال الرجل: لماذا أبطأت بالسفرة؟ فقال الغلام: كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة الى الفتيان مع النمل، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل من السفرة، فلبثت حتى دب النمل، فقالوا: أحسنت يا غلام، مثلك من يخدم الفتيان.

وقيل: إن رجلاً من الحجاج نام بالمدينة المنورة فتوهم أن همياناً (٢) له سرق، فخرج فرأى جعفر الصادق فتعلق به، وقال له: لقد أخذت همياني، فقال: ماذا كان فيه؟ فقال: ألف دينار، فأدخله داره، ووزن له ألف دينار، فرجع الرجل الى منزله ودخل بيته، فرأى هميانه في بيته، وكان قد توهم أن سرق فخرج إلى جعفر معتذراً ورد عليه الدنانير فأبى أن يقبلها وقال: شيء أخرجته من يدي لا استرده فقال الرجل: من هذا؟ فقيل له: جعفر الصادق.

وقيل: سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال: ما تقول أنت؟ فقال شقيق: إن أعطينا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، فقال جعفر بن محمد: الكلاب عندنا بالمدينة تفعل كذلك، فقال شقيق: يا ابن بنت رسول الله: ما الفتوة عندكم؟ فقال: إنْ أُعطينا آثرنا، وإن مُنعنا شكرنا.

---

(١) الشطار: مفردها الشاطر، وهو المتصف بالدهاء والخبث.

(٢) الهميان: جمع همايين، وهي كلمة فارسية وتعني كيساً يوضع فيه مال ويُشدّ على الوسط.

يقول عبد الله المرتعش: دخلنا مع أبي حفص على مريض نعوده ونحن جماعة، فقال للمريض: أتحبّ انْ تبرأ؟ فقال: نعم، فقال لأصحابه: تحملوا عنه، فقام العليل وخرج معنا، وأصبحنا كلنا أصحاب فراش نعاد.

٣٢ ـ الفراسة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(١) قيل: للمتفرسين.

قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(٢).

قال الأستاذ الشيخ: الفراسة(٣) خاطر يهجم على القلب فينفي ما يضاده، وله على القلب حكم، اشتقاقاً من فريسة السبع، وليس في مقابلة الفراسة مجوزات للنفس، وهي حسب قوة الإيمان، فكل من كان أقوى إيماناً كان أحدَّ فراسة.

وقال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة، بل حكم حق جرى على لسان عبد. وقوله: ينظر بنور الحق يعني بنور خصه به الحق سبحانه.

وقال محمد الواسطي: إن الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب، من غيب إلى غيب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه إياها، فيتكلم على ضمير الخلق. ويروى عن أبي الحسن الديلمي أنه قال: دخلت أنطاكيا(٤) لأجل إنسان أسود قيل لي: إنه يتكلم على

---

(١) الآية: سورة الحجر: ٧٥.

(٢) الحديث: رواه أبو سعيد الخدري، وأخرجه الترمذي رقم ٣١٢٥ في التفسير باب من سورة الحجر وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣، ونسبه لابن جرير وابن أبي حاتم والبخاري في التاريخ وابن السني وأبي نعيم في الطب وابن مردويه والخطيب.

(٣) الفراسة بكسر الفاء مأخوذة من التفرّس وهو التثبت والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال، وقد تكون وهبية الهامية يخلقها الله في القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

(٤) أنطاكيا: مدينة في تركيا، بناها سلوقوس ٣٠٠ ق م. ثم أصبحت ثالثة مدن الامبراطورية الرومانية بعد روما والاسكندرية. دمّرها الفرس ٥٤٠ م. وأجهزت عليها الزلازل في القرن =

الأسرار، فأقمتُ فيها إلى أنْ خرج من جبل لكام ومعه شيء من المُباح يبيعه، وكنتُ جائعاً منذ يومين لم آكل شيئاً، فقلتُ له: بكم هذا؟ وأوهمته أني أشتري ما بين يديه، فقال: اقعد حتى إذا بعناه نعطيك ما تشتري به شيئاً، فتركته وسرت إلى غيره أوهمه أني أساومه، ثم رجعتُ إليه، وقلتُ له: إن كنتَ تبيع هذا فقل لي بكم؟ فقال: إنما جعتَ يومين، اقعد حتى إذا بعناه نعطيك ما تشتري به شيئاً فقعدتُ، فلما باعه أعطاني شيئاً ومشى، فتبعته فالتفت إليّ وقال: إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله تعالى، إلا أن يكون لنفسك فيها حظ فتحجب عن الله تعالى.

يقول محمد الكتاني: الفراسة مكاشفة اليقين، ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان.

وقيل: كان الشافعي ومحمد بن الحسن رحمهما الله تعالى في المسجد الحرام، فدخل رجل فقال محمد بن الحسن: أتفرس أنه نجار، وقال الشافعي: أتفرس أنه حداد، فسألاه فقال: كنت قبل هذا حداداً، والآن أعمل في النجارة.

وقال أبو سعيد الخزاز: المستنبط من يلاحظ الغيب دائماً ولا يغيب عنه؛ ولا يخفي عليه شيء، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(1).

والمتوسم هو الذي يعرف الوسيم، وهو العارف بما في سويداء القلوب بالاستدلال والعلامات، قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ أي للعارفين بالعلامات التي يبديها على الفريقين من أوليائه وأعدائه، والمتفرس ينظر بنور الله تعالى، وذلك من سواطع أنوار لمعت في قلبه فادرك المعاني وهي من خواص الإيمان، والذين هم أكثر منه حظاً الربانيون، قال الله تعالى: ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ ﴾(2)

= السادس الميلادى. فتحها العرب المسلمون ٦٣٨ م واستعمرها الصليبيون ١٠٩٨ م ودخلها السلطان بيبرس ١٢٦٨ م ثم الأتراك.

(1) الآية: سورة النساء: ٨٣.

(2) الآية: سورة آل عمران: ٧٩

يعني: علماء حكمة متخلقين بأخلاق الحق نظراً وخلقاً، وهم فارغون عن الإخبار عن الخلق، والنظر إليهم، والاشتغال بهم.

وقيل: كان أبو القاسم المنادي مريضاً وكان كبير الشأن من مشايخ نيسابور، فزاره أبو الحسن البوشنجي والحسن الحداد واشتريا في الطريق بنصف درهم تفاحاً نسيئة[1] وحملاه إليه، فلما قعدا، قال أبو القاسم: ما هذه الظلمة؟ فخرجا وقالا: ماذا فعلنا؟ وتفكرا فقالا: لعلنا لم نؤد ثمن التفاح، فأعطيا الثمن وعادا إليه، فلما وقع بصره عليهما، قال: يمكن للإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة: أخبراني عن شأنكما؛ فذكرا له القصة، فقال: نعم، كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن، والرجل يستحيي منكما في التقاضي، فكان يتقي التبعة، فكان يتقي التبعة، وأنا السبب، إنما رأيت ذلك فيكما، وكان أبو القاسم المنادي هذا يدخل السوق كل يوم ينادي[2]، فإذا وقع بيده ما فيه كفايته من دانق الى نصف درهم خرج وعاد إلى رأس وقته ومراعاة قلبه.

وقال الحسين بن منصور: الحق إذا استولى على سر ملكه الأسرار فيعاينها ويخبر عنها. وسئل بعضهم عن الفراسة فقال: أرواح[3] تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق نطق مشاهدة، لا نطق ظن وحسبان.

وقيل: كان يحيى بن زكريا الشختني[4] وبين امرأة علاقة قبل توبته، فذات يوم كان واقفاً على رأس أبي عثمان الحيري بعد أن صار من خواص تلاميذه، فتفكر في شأنها، فرفع أبو عثمان رأسه إليه وقال: أما تستحيي؟. قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي علي رضي الله عنه عقد لي المجلس في مسجد المطرز[5]، فاستأذنته للخروج إلى نسا، فأذن لي، فكنت أمشي معه

---

(١) النسيئة: مؤجل الثمن.

(٢) ينادي: أي يدلل على الأمتعة.

(٣) أرواح: تعبير صوفي دقيق عن رفعة المستوى النوراني القلبي وشفافية حاسة النظر القلبي والروحي.

(٤) الشختني: نسبة الى شختن، وهي قرية بنيسابور.

(٥) مسجد المطرز في نيسابور.

يوماً في طريق مجلسه ، فخطر ببالي : ليته ينوب عني في مجالسي أيام غيبتي ، فالتفت إليّ وقال : أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجلس ، فمشيت قليلا ، فخطر ببالي أنه مريض ، يشق عليه أن ينوب عني يومين في الأسبوع ، فليته يقتصر على يوم واحد في الأسبوع ، فالتفت إليّ وقال : إن لم يمكني في الأسبوع يومان أنوبَ عنك في الأسبوع مرة واحدة ، فمشيتُ معه قليلاً ، فخطر ببالي شيء ثالث فالتفت إليّ وصرّح بالإخبار عنه على القطع .

وكان شاه الكرماني حادّ الفراسة لا يخطىء ، ويقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمّر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعوّد أكل الحلال لم تخطىء فراسته .

وسُئل أبو الحسين النوري : من أين تولّدت فراسة المتفرسين؟ فقال : من قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾(١) فمن كان حظه من ذلك النور أتم كانت مشاهدته أحكم ، وحكمه بالفراسة أصدق ، ألا ترى كيف أوجب نفخ الروح فيه السجود له بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ قال الأستاذ الشيخ : وهذا الكلام من أبي الحسين النوري فيه شيء من الغموض والإيهام بذكر نفخ الروح لا لتصويب من يقول بقِدَم الأرواح ، ولا كما يلوح لقلوب المستضعفين ، فإن الذي يصح عليه النفخ والاتصال والانفصال فهو قابل للتأثير والتغيير ، وذلك من سمات الحدوث ، وإن الله سبحانه وتعالى خصّ المؤمنين ببصائر وأنوار بها يتفرسون ، وهي في الحقيقة معارف ، وعليه يحمل قوله ﷺ « فإنه ينظر بنور الله » أي : بعلم وبصيرة يخصه الله تعالى بهما ، ويفرده بهما من دون أشكاله ، وتسمية العلوم والبصائر أنواراً غير مستبدع(٢) ، ولا يبعد وصف ذلك بالنفخ ، والمراد منه الخلق .

وقال الحسين بن منصور : المتفرّس هو المصيب بأول مرماه إلى مقصده(٣) .

---

(١) الآية : سورة الحجر ـ ٢٩ .

(٢) المستبدع : هو الذي يعتبر الشيء بديعاً .

(٣) لأن الفراسة مما يخلقه الله تعالى في قلب العبد بشكل فطري ، من غير اكتساب ، وهو من ثمرات الإيمان الكامل .

ولا يعرّج على تأويل وظنّ وحسبان.

وقيل: فراسة المريدين تكون ظنًّا يوجب تحقيقًا، وفراسة العارفين تحقيق يوجب حقيقة.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم، ويخرجون منها من حيث لا تحسّون.

يقول أبو جعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارض معارض من جنسه فهو خاطر وحديث نفس.

يروى عن أبي عبد الله الرازي نزيل نيسابور أنه قال: كساني ابن الأنباري صوفًا ورأيت على رأس دلف الشبلي قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف، فتمنيت في نفسي أن يكونا جميعًا لي، فلما قام الشبلي من مجلسه التفت إليّ فتبعته، وكانت عادته إذا أراد أن أتبعه يلتفت إليّ، فلما دخل داره دخلت، فقال: انزع الصوف فنزعته، فلفّه وطرح القلنسوة عليه، ودعا بنار فأحرقهما.

وقال أبو حفص النيسابوري: ليس لأحد أن يدعي الفراسة، ولكنه يتقي الفراسة من الآخرين لأن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن» ولم يقل: تفرّسوا، وكيف يصح دعوى الفراسة لمن هو في محل اتقاء الفراسة.

وقال أحمد بن مسروق: دخلت على شيخ من أصحابنا أعوده فوجدته على حال رثة، فقلت في نفسي: من أين يرتفق[١] هذا الشيخ؟ فقال: يا أبا العباس دع عنك هذه الخواطر الدنيئة فإن لله ألطافًا خفية.

وقال الزبيدي: كنت في مسجد ببغداد مع جماعة من الفقراء فلم يفتح علينا بشيء أيامًا، فأتيت إبراهيم الخواص لأسأله شيئًا، فلما وقع بصره عليّ قال: الحاجة التي جئت لأجلها يعلمها الله تعالى أم لا؟ فقلت: بلى، فقال: اسكت ولا تبدها لمخلوق، فرجعت ولم ألبث إلا قليلًا حتى فتح علينا بما فوق الكفاية.

(١) يرتفق: يستعين وينتفع.

وقيل: كان سهل بن عبد الله يوماً في الجامع فوقع حمام في المسجد من شدة ما لحقه من الحر والمشقة، فقال سهل: إن شاه الكرماني مات الساعة بمشيئة الله تعالى، فكتبوا في ذلك، فكان كما قال.

وقيل: خرج أبو عبد الله التروغندي إلى طوس[1] وكان كبير الوقت، فلما بلغ خرو قال لصاحبه[2]: اشتر الخبز، فاشترى ما يكفيهما، فقال: اشتر أكثر، فاشترى صاحبه ما يكفي عشرة أشخاص تعمداً فكأنه لم يجعل لقول ذلك الشيخ تحقيقاً، قال: فلما صعدنا إلى الجبل إذا بجماعة قيدتهم اللصوص لم يأكلوا منذ مدة، فسألونا الطعام، فقال: قدم إليهم السفرة، قال الأستاذ الإمام رضي الله عنه: كنت بين يدي الأستاذ أبي علي رحمه الله يوماً فجرى حديث الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله وأنه يقوم في السماع موافقة للفقراء، فقال الأستاذ أبو علي مثله في حاله، لعل السكون أولى به، ثم قال في ذلك المجلس: امض إليه فتجده وهو قاعد في بيت كتبه، وعلى وجه الكتب مجلدة حمراء مربعة صغيرة فيها أشعار الحسين بن منصور، فاحمل تلك المجلدة ولا تقل له شيئاً، وجئني بها، وكان وقت هاجرة[3] فدخلت عليه فإذا هو في بيت كتبه والمجلدة موضوعة كما ذكر، فلما قعدت أخذ الشيخ أبو عبد الرحمن في الحديث، وقال: كان بعض الناس ينكر على أحد من العلماء حركته في السماع، فرؤي ذلك الإنسان يوماً خالياً في بيت وهو يدور كالمتواجد فسئل عن حاله، فقال: كانت مسألة قد أشكلت علي، فتبين لي معناها، فلم أتمالك من السرور حتى قمت أدور، فقيل له: مثل هذا يكون حالهم، فلما رأيت ما أمرني به الأستاذ أبو علي وما وصف لي على الوجه الذي قال، وجرى على لسان الشيخ أبي عبد الرحمن ما كان قد ذكره به تحيرت وقلت: كيف أفعل بينهما؟ ثم فكرت في نفسي، وقلت: لا وجه إلا الصدق، إن الأستاذ أبا علي وصف لي هذه المجلدة،

---

(١) طوس: مقاطعة في خراسان شمالي شرقي إيران. من مدنها: توقان وطابران التي أطلق عليها اسم طوس. فتحها العرب ٦٤٩ م، ثم خربها المغول ١٣٨٩ م. وفيها قبر هارون الرشيد.

(٢) صاحبه: أي تلميذه.

(٣) وقت الهاجرة: منتصف النهار في الحر.

وقال لي: احملها إليّ من غير أن تستأذن الشيخ وأنا ذا أخافك، وليس يمكنني مخالفته، فأي شيء تأمر، فأخرج مسدساً من كلام الحسين وفيه تصنيف له سماه كتاب (الصيهور في نقض الدهور)، وقال: احمل هذا إليه وقل له: إني طالعت تلك المجلدة، وأنقل منها أبياتاً إلى مصنفاتي فخرجت.

ويروى عن الحسن الحداد أنه قال: كنت عند أبي القاسم المنادي، وعنده جماعة من الفقراء، فقال لي: اخرج وائتهم بشيء، فسررت حيث أذن لي في التكلف للفقراء، وأن آتيهم بشيء بعد ما علم فقري، قال: فحملت مكتلاً(١) وخرجت، فلما أتيت سكة سيار رأيت شيخاً بها فسلمت عليه وقلت: جماعة من الفقراء في موضع، فهل لك أن تتخلق معهم بشيء فأمر (خادمه بإخراج ما عنده) فأخرج إليّ شيئاً من الخبز واللحم والعنب، فلما بلغت الباب ناداني أبو القاسم المنادي من وراء الباب رده إلى الموضع الذي أخذته منه، فرجعت واعتذرت إلى الشيخ وقلت: لم أجدهم، وعرضت بأنهم تفرقوا فرددت السبب(٢) عليه، ثم جئت السوق ففتح عليّ بشيء فحملته فقال: ادخل فقصصت عليه القصة، فقال: نعم ذاك ابن سيار رجل سلطاني(٣) إذا جئت للفقراء بشيء فائتهم بمثل هذا لا بمثل ذاك.

وقال أبو الحسين القرافي: زرت أبا الخير التيناتي فلما ودعته خرج معي إلى باب المسجد، فقال: يا أبا الحسين، أنا أعلم أنك لا تحمل معك معلوماً، ولكن احمل هاتين التفاحتين، فأخذتهما ووضعتهما في جيبي وسرت فلم يفتح لي بشيء ثلاثة أيام، فأخرجت واحدة منهما وأكلتها، ثم أردت أن أخرج الثانية فإذا هما جميعاً في جيبي، فكنت آكل منهما ويعودان حتى وصلت إلى باب الموصل، فقلت في نفسي: إنهما يفسدان عليّ حال توكلي إذ صارتا معلوماً لي، فأخرجتهما من جيبي بالكلية(٤)، فنظرت فإذا فقير ملفوف في عباءة يقول: أشتهي تفاحة فناولته إياهما،

---

(١) المكتل: جمع مكاتل. وهو شبه الزنبيل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره، وهو يسع خمسة عشر صاعاً.

(٢) المقصود بالسبب هو الطعام.

(٣) سلطاني: منسوب للسلطان.

(٤) لأستريح منهما، ولئلا يسكن قلبي لغير الله تعالى.

فلما عبرت وقع لي أن الشيخ إنما بعثهما إليه، وكنت في رفقة في الطريق، فانصرفت إلى الفقير فلم أجده.

كان شاب يصحب الجنيد، وكان يتكلم عن خواطر الناس، فذكر للجنيد فقال له الجنيد: ما هذا الذي ذكر عنك؟ فقال للجنيد: إعتقد شيئاً، فقال: اعتقدت، فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا، فقال الجنيد: لا، فقال: اعتقد ثانياً، ففعل، فقال: اعتقدت كذا وكذا، فقال: لا، فقال ثالثاً؛ فقال: مثله. فقال الشاب: هذا عجب أنت صدوق، وأنا أعرف قلبي، فقال الجنيد: صدقت في الأول والثاني والثالث، ولكني أردت أن أمتحنك: هل يتغير قلبك.

اعتل إبراهيم الرقي، فحمل إليه دواء في قدح، فأخذه، ثم قال: وقع اليوم في المملكة حدث لا آكل ولا أشرب حتى أعلم ما هو، فورد الخبر بعده بأيام أن القرطبي دخل مكة المكرمة في ذلك اليوم، وقتل في تلك المعركة العظيمة.

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان بن عفان(١) رضي الله عنه، وكنت رأيت في الطريق إمرأة تأملت محاسنها، فقال عثمان: رضي الله عنه: يدخل علي أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينيه، فقلت: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

وقال أحمد الخراز: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان يسأل شيئاً، فقلت في نفسي: مثل هذا كل(٢) على الناس، فنظر إلي وقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾(٣). قال: فاستغفرت في سري فناداني وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾(٤).

ويروى عن إبراهيم الخواص أنه قال: كنت في بغداد في جامع المدينة،

---

(١) عثمان بن عفان (٤٧ ق هـ - ٣٥ هـ/ ٥٧٧ - ٦٥٦ م): قرشي. أمير المؤمنين. ذو النورين. ثالث الخلفاء الراشدين. ولد بمكة المكرمة. وكان غنياً شريفاً.

(٢) الكَل: العالة على الناس.

(٣) الآية: سورة البقرة - ٢٣٥.

(٤) الآية: سورة الشورى - ٢٥.

وهناك جماعة من الفقراء، فاقبل شاب ظريف، طيب الرائحة، حسن الحرمة(١) حسن الوجه، فقلت لأصحابنا: يقع لي أنه يهودي، وكلهم كرهوا ذلك، فخرجت وخرج الشاب، ثم رجع إليهم، وقال: ماذا قال الشيخ فيَّ؟ فاحتشموه، فألح عليهم، فقالوا: قال: إنك يهودي، قال: فجاءني وأكب على يدي وأسلم، فقيل له: ما السبب؟ قال: نجد في كتبنا: أن الصدِّيق لا تخطيء فراسته، فقلت: امتحن المسلمين فتأملتهم، فقلت: إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة لأنهم يقولون(٢) حديثه سبحانه، فلبست عليكم فلما اطلع هذا الشيء عليَّ، وتفرس فيَّ علمت أنه صديق، وصار الشاب من كبار الصوفية.

قال أحمد الجريري: هل فيكم من إذا أراد الحق سبحانه أن يحدث في المملكة حدثاً أعلمه به قبل أن يبديه؟ ؟ قلنا: لا، فقال: ابكوا على قلوب لم تجد من الله تعالى شيئاً(٣).

وقال أبو موسى الديلمي: سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل، فقال: لو أدخلت يدك في فم التنين حتى تبلغ الرسغ لا تخف مع الله تعالى غيره، قال: فخرجت إلى أبي يزيد لأسأله عن التوكل، فدققت الباب، فقال: أليس لك في قول عبد الرحمن كفاية؟ فقلت: افتح الباب، فقال: ما زرتني أتاك الجواب من وراء الباب، ولم يفتح لي الباب(٤)، قال: فمضيت ولبثت سنة، ثم قصدته فقال: مرحباً جئتني زائراً، فمكثت عنده شهراً، فكان لا يخطر بقلبي شيء إلا حدثني عنه، فعند وداعه قلت: أفدني فائدة فقال: حدثتني أمي أنها كانت حاملاً بي، فكانت إذا قدم لها طعام من حلال امتدت يدها إليه، وإذا كان فيه شبهة انقبضت يدها عنه.

وقال إبراهيم الخواص: دخلت البادية فأصابتني شدة فلما بلغت مكة المكرمة داخلني شيء من الإعجاب، فنادتني عجوز: يا إبراهيم، كنت معك في البادية فلم أكلمك لأني لم أرد أن أشغل سرك، أخرج عنك هذا الوسواس.

(١) حسن الحرمة: مجتمع شعر الرأس، وفي نسخة: الخدمة وفي أخرى: الجملة.

(٢) وجدنا في بعض نسخ الكتاب المخطوطة بدلاً من (يقولون ـ يتلون).

(٣) لفقدها الفراسة.

(٤) قوله (ما زرتني) أي: أنك ما جئتني زائراً بل سائلاً.

وروي أن عليّ بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني(1) كان يخرج كل سنة إلى الحج ويمر بنيسابور ولا يدخل على أبي عثمان الحيري، قال: فدخلت عليه مرة وسلمت، فلم يرد عليّ السلام، فقلت في نفسي: مسلم يدخل عليه ويسلم فلا يرد سلامه، فقال أبو عثمان: أمثل هذا يحج ويدع أمه لا يبرها؟ قال: فرجعت إلى فرغانة ولزمتها حتى ماتت، ثم قصدت أبا عثمان، فلما دخلت استقبلني وأجلسني، ثم إن الفرغاني لازمه، وسأله سياسة دابته فولاه ذلك حتى مات أبو عثمان.

وقال خير النساج: كنت جالساً في بيتي، فوقع لي أن الجنيد بالباب، فنفيت هذا الخاطر عن قلبي، فوقع ثانياً وثالثاً، فخرجت فإذا الجنيد بالباب، فقال: لماذا لم تخرج مع الخاطر الأول؟.

وقال محمد بن الحسين البسطامي: دخلت على أبي عثمان المغربي فقلت في نفسي: لعله يتشهى عليّ شيئاً، فقال أبو عثمان: لا يكفي الناس أن آخذ منهم، حتى يزيدوا مسألتي إياهم.

وقال أحد الفقراء: كنت في بغداد، فوقع لي أن عبد الله المرتعش يأتيني بخمسة عشر درهماً، لأشتري بها الركوة والنعل(2) وادخل البادية، قال: فدق عليّ الباب ففتحت فإذا أنا بالمرتعش ومعه خريقة، فقال: خذها، فقلت: يا سيدي لا أريدها، قال: فلماذا تؤذينا؟ كم أردت؟ فقلت: خمسة عشر درهماً، فقال: هي خمسة عشر درهماً.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(3) أي ميت الذهن، فأحياه الله تعالى بنور الفراسة، وجعل له نور التجلي والمشاهدة لا يكون كمن يمشي بين أهل الغفلة غافلاً.

وقيل: إذا صحت الفراسة ارتقى صاحبها إلى المشاهدة.

---

(1) الفرغاني نسبه إلى فرغانة وهي بلدة في تركستان الروسية، والمرغيناني نسبة إلى مرغينان من نواحي فرغانة.

(2) النعل: الحذاء.

(3) الآية: سورة الأنعام - ١٢٢.

يقول أحمد بن مسروق: قدم علينا شيخ فكان يتكلم علينا في هذا الشأن بكلام حسن، وكان عذب اللسان، جيد الخاطر، فقال لنا في بعض كلامه: كل ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي، فوقع في قلبي أنه يهودي، وكان الخاطر يقوى ولا يزول، فذكرت ذلك لأحمد الجريري فكبر عليه ذلك، فقلت: لا بد أن أخبر الرجل بذلك، فقلت له: تقول لنا ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي، إنه يقع لي أنك يهودي، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه، فقال: صدقت، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وقال: لقد مارست جميع المذاهب، وكنت أقول: إن كان مع قوم منهم شيء فمع هؤلاء، فداخلتكم لأختبركم فأنتم على الحق، وحسن إسلامه.

ويحكي عن الجنيد أن السري السقطي كان يقول له: تكلم على الناس، فقال الجنيد: وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس، فإني كنت أتهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت ذات ليلة النبي ﷺ في المنام، وكانت ليلة جمعة، فقال لي: تكلم على الناس، فانتبهت وأتيت باب السري السقطي قبل أن أصبح، فدققت عليه الباب، فقال: لم تصدقنا حتى قيل لك، فقعد للناس بالغد في المسجد، فانتشر الخبر بين الناس، أن الجنيد قعد يتكلم على الناس، فوقف عليه غلام نصراني متنكراً، وقال له أيها الشيخ: ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإن المؤمن ينظر بنور الله تعالى»، فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه، وقال: أسلم فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام.

٣٣ ـ الخُلُق

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أحسنهم خلقاً». قيل: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً، قال: أحسنهم خلقاً.

قال الأستاذ الشيخ: الخلق الحسن أفضل مناقب العبد، يظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخلقه مشهود بخلقه.

(١) الآية: سورة القلم ـ ٤.
(٢) الحديث: رواه أنس بن مالك، وأخرجه ابن ماجة رقم ٤٢٥٩ في الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: إن الله تعالى خص نبيه ﷺ بما خصه به، ثم لم يثن عليه بشيء من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه، فقال عز من قائل: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

وقال محمد الواسطي: وصفه بالخلق العظيم، لأنه جاد بالكونين، واكتفى بالله تعالى، وقال أيضاً: الخلق العظيم أن لا يخاصِم ولا يخاصَم من شدة معرفته بالله تعالى.

وقال الحسين بن منصور: معناه لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك الحق.

وقال أحمد بن عيسى الخرّاز: لم يكن لك همة غير الله تعالى.

يقول محمد الكتاني: التصوف خلق من زاد عليك بالخلق، فقد زاد عليك في التصوف.

ويروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إذا سمعتموني أقول لمملوك: (أخزاه الله تعالى) فاشهدوا أنه حر.

وقال الفضيل بن عياض: لو أنّ العبد أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين.

وقيل: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا رأى واحداً من عبيده يحسن الصلاة يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة، وكان يعتقهم، فقيل له في ذلك، فقال: من خدعنا في الله تعالى انخدعنا له.

يقول الحارث المحاسبي: فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة(١)، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء(٢) مع الوفاء.

ويقول عبد الله بن محمد الرازي: الخلق استصغار ما منك، واستعظام ما منه إليك.

---

(١) الصيانة: العفاف والسلامة من الإعجاب والكبر.

(٢) الإخاء: أي المؤاخاة في الله تعالى بأن تساعد أخاك في غيبته، وتقوم بحقوقه في حضرته، وتنصحه إن رأيت منه زللاً، وتشجعه إن رأيت منه خيراً، ولا تبخل عليه بشيء.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم المنقري، قيل: وما بلغ من خلقه؟ فقال: بينا هو جالس في داره إذ جاءت جارية له بسفود(١) عليه شواء فسقط من يدها، فوقع على ابن له فمات، فدهشت الجارية، فقال: لا روعة عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى.

وقال شاه الكرماني: علامة حسن الخلق كف الأذى واحتمال المؤن.

وقال النبي ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق»(٢).

وقيل لذي النون المصري: من أكثر الناس هماً؟ قال: أسوأهم خلقاً.

وقال وهب: ما تخلق عبد بخلق أربعين صباحاً إلا جعل الله تعالى ذلك طبيعة فيه.

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾(٣) أي: وخلقك فحسن.

وقيل: كان لبعض النساك شاة، فرآها على ثلاث قوائم، فقال: من فعل هذا بها؟ فقال غلام له: أنا، فقال: لماذا؟ قال: لأغمك بها، فقال: لا بل لأغمن من أمرك بذلك، اذهب فأنت حر.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم، مرتين: إحداهما: كنت ذات يوم قاعداً فجاء إنسان وبال علي، والثانية: كنت قاعداً فجاء إنسان وصفعني(٤).

وقيل: كان أويس القرني إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فيقول: إن كان لا

---

(١) السفود: جمع سفافيد، وهو حديدة يشوى عليها اللحم.

(٢) الحديث: رواه أبو هريرة، وأخرجه البزار، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم والبيهقي في الشعب كما في الكنز ٣/ ص ٦ رقم ٥١٥٨.

(٣) الآية: سورة المدثر - ٤.

(٤) يعتبر إبراهيم بن أدهم هذين المثالين نموذجين لكظم الغيظ في أشد حالاته.

بد أن ترموني بالحجارة فارموني بالصغار كي لا تدقوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة .

وشتم رجل الأحنف بن قيس وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف، وقال يا فتى، إن بقي شيء في قلبك فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك.

وقيل لحاتم الأصم: أيحتمل الرجل من كل أحد؟ (١)، فقال: نعم، إلا من نفسه

وروي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً ، فقال: ألا تسمع يا غلام ؟ فقال: نعم، قال: فما حملك على ترك جوابي، فقال: أمنت عقوبتك فتكاسلت ، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى .

وقيل : نزل معروف الكرخي الدجلة ليتوضأ، ووضع مصحفه وملحفته، فجاءت امرأة وحملتهما، فتبعها معروف، وقال: يا أختي أنا معروف الكرخي ولا بأس عليك ، هل لك ابن يقرأ ؟ قالت : لا، قال : فزوج، قالت : لا، قال : فهاتي المصحف وخذي الثوب .

ودخل اللصوص مرة دار الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي بالمكابرة وحملوا ما وجدوه، الشيخ أبا عبد الرحمن يقول: اجتزت بالسوق فرأيت جبتي على من يزيد فأعرضت ولم ألتفت إليه.

يقول أحمد الجريري: قدمت من مكة المكرمة حرسها الله تعالى، فبدأت بالجنيد لكي لا يتعنى إلي (٢)، فسلمت عليه ثم مضيت إلى منزلي، فلما صليت الصبح في المسجد إذا به خلفي في الصف، فقلت له: إنما جئتك أمس لئلا تتعنى، فقال: ذاك فضلك، وهذا حقك.

وسئل أبو حفص عن الخلق فقال: الخلق هو ما اختاره الله عز وجل لنبيه ﷺ

---

(١) والمقصود: هل يحتمل الإنسان الخطأ من أي إنسان؟

(٢) كان لا بد من لقائي بالجنيد، لهذا ذهبت إليه وبدأته بالزيارة حتى لا يتكلف مشقة مجيئه لعندي.

في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

وقيل: الخلق أن تكون من الناس قريباً، وفيما بينهم غريباً.

وقيل: الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق.

وقيل: كان أبو ذر الغفاري على حوض يسقي إبلاً له، فأسرع بعض الناس إليه فانكسر الحوض فجلس، ثم اضطجع، فقيل له في ذلك، فقال: إن رسول الله ﷺ أمرنا إذا غضب الرجل أن يجلس فإن ذهب عنه، وإلا فليضطجع.

وقيل مكتوب في الإنجيل: عبدي اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب.

وقال لقمان لابنه: لا تعرف ثلاثة إلا عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، والأخ عند الحاجة إليه.

وقال موسى عليه السلام: إلهي أسألك أن لا يقال لي ما ليس فيّ، فأوحى الله تعالى إليه: ما فعلت ذلك لنفسي(٢) فكيف أفعله لك؟.

وقيل ليحيى بن زياد الحارثي وكان له غلام سيء: لماذا تمسك هذا الغلام؟ (٣) فقال: لأتعلم عليه الحلم.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(٤): الظاهرة تسوية الخلق، والباطنة تصفية الخلق.

وقال الفضيل بن عياض: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق.

---

(١) الآية: سورة الأعراف - ١٩٩.

(٢) ليس ذلك لقصور قدرته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل لأن ما سبق في علم الله تعالى لا بد من حدوثه.

(٣) لماذا تمسك هذا الغلام؟ أي: لماذا تحتفظ بهذا الغلام السيء، فلا تبيعه ولا تعتقه ولا تتصرف فيه بما تشاء رغم ما يصدر منه من إزعاج.

(٤) الآية: سورة لقمان - ٢٠.

وقيل: الخُلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة.

وروي أن إبراهيم بن أدهم خرج إلى بعض البراري فاستقبله جندي فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب الجندي رأس إبراهيم، فلما جاوزه قيل له: إنه إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان فجاء يعتذر إليه، فقال إبراهيم: إنك لما ضربتني سألت الله تعالى لك الجنة، فقال الجندي: لماذا؟ فقال إبراهيم: علمت أني أوجر عليك، فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير، ونصيبك مني الشر.

وروي أن سعيد بن إسماعيل الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وصل باب داره، قال: يا أستاذ: ليس الآن وقت دخولك، وقد ندمت، فانصرف. فرجع سعيد فلما وصل منزله عاد إليه الرجل وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر، وقال: احضر الساعة، فقام سعيد ومضى، فلما وصل باب داره، قال مثل ما قال في المرة الأولى، ثم فعل كذلك في المرة الثالثة والرابعة، وأخذ سعيد ينصرف ويحضر، فلما كان بعد عدة مرات قال: يا أستاذ أردت اختبارك وأخذ يعتذر ويمدحه، فقال سعيد: لا تمدحني على خلق تجد مثله مع الكلاب، الكلب إذا دعي حضر، وإذا زجر انزجر. وقيل إن سعيد الحيري اجتاز بسكة وقت الهاجرة فألقي عليه من سطح طست رماد، فتغير أصحابه وبسطوا ألسنتهم في الملقي، فقال سعيد: لا تقولوا شيئاً، من استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وقيل: نزل بعض الفقراء على جعفر بن حنظلة، فكان جعفر يخدمه جداً، والفقير يقول: نعم الرجل أنت لو لم تكن يهودياً، فقال جعفر: عقيدتي لا تقدح فيما تحتاج إليه(١) من الخدمة، فسل لنفسك الشفاء، ولي الهداية.

وقيل: كان لعبد الله الخياط حريف(٢) مجوسي يخيط له ثياباً، ويدفع إليه دراهم زيوفاً(٣)، وكان عبد الله يأخذها، فاتفق أنه قام من حانوته يوماً لشغل فجاء المجوسي بالدراهم الزيوف فدفعها إلى تلميذه، فلم يقبلها، فدفع إليه الصحاح،

---

(١) قدح فيه: طعن فيه وعابه وتنقصه.

(٢) حريفك: معاملك في حرفتك.

(٣) زافت الدراهم زيوفاً: صارت مردودة عليه لغش فيها.

فلما رجع عبد الله قال لتلميذه: أين قميص المجوسي؟ فذكر له القصة، وقال: بئس ما عملت، إنه منذ مدة يعاملني بمثلها، وأنا أصبر عليه، وألقيها في بئر، لئلا يضر بها غيري.

وقيل: الخلق السيء يضيق قلب صاحبه، لأنه لا يسع فيه غير مراده كالمكان الضيق لا يسع فيه غير صاحبه.

وقيل: حسن الخلق أن لا تتغير ممن يقف في الصف بجانبك.

وقيل: من سوء خلقك وقوع بصرك على سوء خلق غيرك.

وسئل رسول الله ﷺ عن الشؤم، فقال: سوء الخلق.

عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ادع الله تعالى على المشركين، فقال: إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً(١).

٣٤ - الجود والسخاء

قال الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«السخي قريب من الله تعالى، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله تعالى، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. والجاهل السخي أحب إلى الله تعالى من العابد البخيل»**.

قال الأستاذ الشيخ: لا فرق على لسان العلم بين الجود والسخاء، ولا يوصف الحق سبحانه بالسخاء لعدم التوقيف، وحقيقة الجود أن لا يصعب عليه البذل.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم عن أبي هريرة في البر باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.

(٢) الخصاصة: هي الحاجة الشديدة. والآية: سورة الحشر - ٩.

(٣) الحديث: أخرجه الترمذي رقم (١٩٦٢) في البر والصلة باب ما جاء في السخاء عن أبي هريرة وروي عن عائشة وقال: حديث غريب، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن جابر، والطبراني في الأوسط عن عائشة وقال: ابن الأثير الجزري ومعنى الحديث صحيح.

والسخاء عند القوم يحتل المرتبة الأولى، ثم يأتي الجود بعده ثم الإيثار: فمن أعطى بعض الناس وأبقى بعضهم فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، والذي قاسى الضرر وآثر غيره بالبلغة[1] فهو صاحب إيثار.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رضي الله عنه يقول: قال أسماء بن خارجة[2]: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة طلبها، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه، وإن كان لئيماً أصون عنه عرضي.

وقيل: كان مورق العجلي يتلطف في إدخال الرفق على إخوانه، يضع عندهم ألف درهم، فيقول: أمسكوها عندكم حتى أعود إليكم، ثم يرسل إليهم: أنتم في حل منها.

وقيل: لقي رجل من أهل منبج[3] رجلاً من أهل المدينة فقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل المدينة، فقال: لقد أتانا منكم رجل يقال له: الحكم بن المطلب فأغنانا، فقال المدني: كيف وما أتاكم إلا في جبة صوف؟!، فقال: ما أغنانا بمال، ولكنه علمنا الكرم، فعاد بعضنا على بعض حتى استغنينا.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: لما سعى غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة أمر بضرب أعناقهم، فأما الجنيد فإنه تستر بالفقه، كان يفتي على مذهب أبي ثور، وأما الشحام والرقام والنوري وجماعة، فقبض عليهم فبسط النطع لضرب أعناقهم، فتقدم النوري، فقال السياف: أتدري إلى ماذا تبادر؟ فقال: نعم، فقال: وما يعجلك؟ قال: أوثر على أصحابي بحياة ساعة فتحير السياف، وأنهى الخبر إلى الخليفة، فردهم إلى القاضي ليتعرف حالهم، فألقى القاضي على أبي الحسين النوري مسائل فقهية فأجابه عن الكل، ثم أخذ يقول: وبعد فإن لله تعالى عباداً إذا

---

(١) البلغة: ما يكفي من العيش، ولا يزيد منه شيء.

(٢) أسماء بن خارجة الفزاري (توفي ٦٦ هـ/ ٦٨٦ م): تابعي. من الكوفة. كان سيد قومه. وهو جواد مقدّم عند الخلفاء.

(٣) منبج: منطقة في محافظة حلب بسورية. ومنبج مدينة قديمة تقع شمالي شرقي حلب. حكمها الشاعر أبو فراس الحمداني ٩٤٧ م، وفيها أسره الروم وذهبوا به إلى القسطنطينية.

قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله، وسرد ألفاظاً أبكى القاضي، فأرسل القاضي إلى الخليفة وقال: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم.

وقيل: كان علي بن الفضيل يشتري من باعة المحلة، فقيل له: لو دخلت السوق فاسترخصت، فقال: هؤلاء نزلوا بقربنا رجاء منفعتنا.

وقيل: بعث رجل إلى جبلة بجارية وكان بين أصحابه، فقال: قبيح أن أتخذها لنفسي وأنتم حضور، وأكره أن أخص بها واحداً، وكلكم له حق وحرمة وهذه لا تحتمل القسمة، وكانوا ثمانين فأمر لكل واحد بجارية أو وصيف.

وقيل: عطش عبيد الله بن أبي بكرة يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت كوزاً وقامت خلف الباب، وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإني امرأة من العرب مات خادمي منذ أيام، فشرب عبيد الله الماء، وقال لغلامه: احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله تسخر بي فقال: احمل إليها عشرين ألف درهم، فقالت: أسأل الله تعالى العافية، فقال: يا غلام: احمل إليها ثلاثين ألف درهم فردت الباب، وقالت: أف لك، فحمل إليها ثلاثين ألف درهم فأخذتها، فما أمست حتى كثر خطابها.

وقيل: الجود إجابة الخاطر الأول(١).

سمعت أصحاب أبي الحسن البوشنجي رحمه الله يقولون: كان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء يقضي حاجته، فدعا تلميذاً له وقال له: انزع عني هذا القميص وادفعه إلى فلان، فقيل: هلا صبرت حتى تخرج من الخلاء؟ فقال: لم آمن على نفسي أن يتغير علي ما وقع لي من التخلف منه بذلك القميص.

وقيل لقيس بن سعد بن عبادة(٢): هل رأيت أسخى منك؟ فقال: نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها، فقالت: إنه نزل بك ضيوف، فجاء بناقة ونحرها، وقال: شأنكم بها، فلما كان بالغد جاء بأخرى، وقال: شأنكم بها، فقلنا: ما أكلنا

---

(١) لأنه لو لم تحصل الإجابة لخيف على صاحبه تغيّره فيما عزم عليه.

(٢) قيس بن سعد بن عبادة (توفي ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م): انصاري خزرجي مدني. وال صحابي. من دهاة العرب وأجوادهم. صحب علياً في خلافته. له ١٦ حديثاً.

من التي نحرت البارحة إلا اليسير، فقال: إني لا أطعم ضيوفي الغاب(١)، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل، وضعنا له مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتموني ثمن قراي(٢)، ثم إنه لحقنا وقال: لتأخذنه، وإلا طعنتكم برمحي، فأخذناه وانصرف وأنشأ يقول:

وإذا أخذت ثواب ما أعطيته ... فكفى بذاك لنائل تكديرا

دخل أحمد بن عطاء الروذباري دار بعض أصحابه فوجده غائباً وباب البيت مقفل، فقال صوفي وله باب بيت مقفل: اكسروا القفل، فكسروا القفل، وأمر بجمع ما في الدار وأنفذوه إلى السوق وباعوه ثم سكنوا في الدار، وعندما جاء صاحب المنزل لم يستطع أن يقول شيئاً، فدخلت امرأته بعدهم الدار، وعليها كساء، فرمت الكساء، وقالت: يا أصحابنا هذا أيضاً من جملة المتاع فبيعوه، فقال الزوج لها: لماذا تكلفت هذا باختيارك؟ فقالت: اسكت مثل هذا الشيخ يباسطنا، ويحكم علينا، ويبقى لنا شيئاً نذخره عنه.

وقال بشر بن الحارث: النظر إلى البخيل يقسي القلب.

وقيل: مرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه، فسأل عنهم، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله تعالى مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر من ينادي: من كان لقيس عليه دين فهو منه في حل، فكسرت عتبته بالعشي لكثرة من عاده.

وقيل: لعبد الله بن جعفر: إنك تبذل الكثير إذا سئلت، وتضن بالقليل إذا نوجزت، فقال: إني أبذل مالي وأضن بعقلي.

وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم، وفيها غلام أسود يعمل فيها إذ أتي الغلام بقوته، فدخل كلب الحائط، ودنا من الغلام، فرمى

---

(١) الغاب والغبيب: اللحم البائت.

(٢) القرى: ما يقدم للضيف.

إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلها، وعبد الله ينظر فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده، قال: فما أنت صانع اليوم قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء، إن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط والغلام وما فيها من الآلات فأعتق الغلام ووهبها له.

وقيل: أتى رجل صديقاً له ودق عليه الباب، فلما خرج إليه قال: لماذا جئتني؟ قال: لأربع مائة درهم دين ركبتني، فدخل الدار ووزن له أربع مائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكياً، فقالت له امرأته: هل تعللت حين شقت عليك الإجابة؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي به.

وقال مطرف بن الشخير: إذا أراد أحدكم مني حاجة فليرفعها في رقعة، فإني أكره أن أرى في وجهه ذل الحاجة.

وقيل: أراد رجل أن يضاد عبد الله بن العباس فأتى وجوه البلد، وقال لهم: يقول لكم ابن العباس تغدوا عندي اليوم، فأتوه فملؤوا الدار فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر، فأمر بشراء الفواكه في الوقت وأمر بالخبز والطبخ وأصلح أمراً، فلما فرغوا قال لوكلائه: أموجود لنا كل يوم هذا؟ فقالوا: نعم، فقال: فليتغد هؤلاء كلهم عندنا كل يوم.

كان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي يتوضأ يوماً في صحن داره، فدخل إنسان وسأله شيئاً من الدنيا ولم يحضره شيء، فقال: اصبر حتى أفرغ، فصبر، فلما فرغ قال: خذ القمقمة واخرج، فأخذها وخرج، ثم صبر حتى علم أنه بعد فصاح، وقال: دخل إنسان وأخذ القمقمة فمشوا خلفه فلم يدركوه، وإنما فعل ذلك لأن أهل المنزل كانوا يلومونه على كثرة البذل.

وهب الأستاذ أبو سهل جبته من إنسان في الشتاء، وكان يلبس جبة النساء حين يخرج إلى التدريس إذ لم يكن له جبة أخرى، فقدم أعضاء الوفد المعروفون من فارس، فيهم من كل نوع إمام من الفقهاء والمتكلمين والنحويين، فأرسل إليه صاحب الجيش أبو الحسن وأمره بأن يركب للاستقبال، فلبس دراعة فوق تلك الجبة

التي للنساء، وركب، فقال صاحب الجيش : إنه يستخف بي أمام البلد فهو يركب في جبّة النساء، ثم إنه ناظرهم أجمعين، فظهر كلامه على كلامهم جميعاً في كل فن

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمه الله يقول : لم يناول الأستاذ أبو سهل أحداً شيئاً بيده ، بل كان يطرحه على الأرض ليأخذه الآخذ من الأرض، وكان يقول : الدنيا أقل خطراً من أن أرى لأجلها يدي فوق يد أحد ، وقال ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفلى»(١) .

وقيل: كان أبو مرثد رحمه الله أحد الكرام، فمدحه بعض الشعراء فقال أبو مرثد: ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني إلى القاضي، وادع علي عشرة آلاف درهم أقر لك بها ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركونني مسجوناً ، ففعل ذلك ، فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم، وخرج من السجن .

وقيل: سأل رجل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه شيئاً فأعطاه خمسين ألف درهم وخمس مائة دينار، وقال: ائت بحمال يحملهم لك، فأتى بحمال، فأعطاه طيلسانه وقال: يكون كراء الحمال من قبلي.

وسألت امرأة الليث بن سعد سكرجة(٢) عسل، فأمر لها بزق من عسل، فقيل له في ذلك، فقال: إنها سألت على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر نعمتنا.

وقال بعضهم: صليت الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريماً لي ، فلما سلمت وضع بين يدي كل واحد حلة(٣) ونعلين، فقلت: ما هذا؟ فقالوا : إن الأشعث قدم من مكة ، فأمر بهذا لأهل جماعة مسجده ، فقلت: إنما جئت أطلب غريماً لي، ولست من جماعته، فقالوا: هو لكل من حضر.

وقيل: لما قربت وفاة الشافعي رضي الله تعالى عنه قال: مروا فلاناً يغسلني ،

---

(١) اليد العليا هي اليد المعطية، واليد السفلى هي اليد الآخذة. والحديث: رواه أبو أمامة الباهلي وأخرجه مسلم رقم ١٠٣٦ في الزكاة، والترمذي رقم ٢٣٤٤ في الزهد باب رقم ٣٢.

(٢) السكرجة: لفظة فارسية، تعني الصحفة التي يوضع فيها الطعام..

(٣) الحلة: جمع حُلل وحلال: وهي كل ثوب جديد.

وكان الرجل غائباً، فلما قدم أخبر بذلك فدعا بتذكرته، فوجد عليه سبعين ألف درهم ديناً فقضاها، وقال: هذا غسلي إياه. وقيل لما قدم الشافعي من صنعاء(١) إلى مكة المكرمة كان معه عشرة آلاف دينار فقيل له: تشتري بها قينة(٢)، فضرب خيمته خارج مكة المكرمة، وصب الدنانير، فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة، فلما جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب، ولم يبق معه شيء.

وقيل: خرج سري السقطي يوم عيد، فاستقبله رجل كبير الشأن، فسلم سري عليه سلاماً ناقصاً، فقيل له: هذا رجل كبير الشأن، فقال: قد عرفته، ولكن روى مسنداً أنه إذا التقى المسلمان قسمت بينهما مائة رحمة، تسعون لأبشهما، فأردت أنْ يكون معه الأكثر.

وقيل: بكى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، وأخاف أن يكون الله تعالى قد أهانني.

وروي عن أنس بن مالك أنه قال: زكاة الدار أن يتخذ فيها بيت للضيافة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾(٣) قيل: قيامه عليهم بنفسه، وقيل: لأن ضيف الكريم كريم.

وقال إبراهيم بن الجنيد: كان يقال: أربعة لا ينبغي للشريف أن يأنف منهن وإن كان أميراً: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وخدمته لعالم يتعلم منه، والسؤال عما لم يعلم.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾(٤) إنهم كانوا يتحرجون أن يأكل أحدهم وحده، فرخص لهم في ذلك.

---

(١) صنعاء: من عواصم اليمن. منها يصدرون البن.

(٢) القينة: الأمة، الجارية.

(٣) الآية: سورة الذاريات - ٢٤.

(٤) الآية: سورة النور - ٦١.

وقيل: أضاف عبدُ الله بن عامر بن كريز رجلاً فأحسن قِراه، فلما أراد الرجل أن يرتحل عنه لم يعنه غلمانه، فقيل له في ذلك، فقال عبد الله: إنهم لا يعينون من يرتحل عنا.

وأنشد عبد الله بن باكويه الصوفي قال: أنشدني المتنبي(1) في هذا المعنى:

إذا ترحَّلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

وقال بعضهم: دخلتُ على بشر بن الحارث في يوم شديد البرد وقد تعرَّى من الثياب وهو ينتفض، فقلتُ: يا أبا نصر، إن الناس يزيدون في الثياب في مثل هذا اليوم، وأنت قد نقصتَ، فقال: تذكَّرتُ الفقراء وما هم فيه، ولم يكن لي ما أواسيهم به، فأردتُ أن أوافقهم بنفسي في مقاساة البرد.

وقال أبو علي الدقاق: ليس السخاء أن يعطي الواجد المعدم، إنما السخاء أن يعطي المعدمُ الواجد.

٣٥ ـ الغيرة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(2).

قال رسول الله ﷺ: «ما أحدٌ أغيرُ من الله تعالى، ومن غيرته حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»(3). وقال رسول الله: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار،

---

(1) المتنبي: أحمد بن الحسين (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ/ ٩١٥ ـ ٩٦٥ م): الكوفي الكندي أبو الطيب. ولد بالكوفة في محلة كندة ونشأ بالشام. كان شاعر سيف الدولة الحمداني ومدح كافور الاخشيدي.

(2) الآية: سورة الأعراف ـ ٣٣.

(3) الحديث: روت عائشة مثله وأخرجه البخاري ٢/ ٤٣٨ و٤٣٩ وما بعدها في الكسوف في باب الصدقة، ومسلم رقم ٩٠١ و٩٠٢ و٩٠٣ في الكسوف باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، وأحمد في المسند ٦/ ١٦٤، وروى عبد الله بن مسعود مثله أيضاً، وأخرجه البخاري =

وغيرة الله تعالى أن يأتي العبد المؤمن ما حرّم الله تعالى عليه »(١).

قال الأستاذ الشيخ: الغيرة كراهية مشاركة الآخرين، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه: أنه لا يرضى بمشاركة غيره معه، فيما هو حق له من طاعة عبده.

رُوي عن سَرِي السقطي أنه قرىء بين يديه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾(٢) فقال السري لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة، ولا أحد أغير من الله تعالى. ومعنى قوله: « هذا حجاب الغيرة » يعني: أنه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين.

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: إن أصحاب الكسل عن عبادته، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان، فاختار لهم البعد عنه، وأخرهم عن محل القرب، ولذلك تأخروا. وفي هذا المعنى أنشدوا:

أنا صب لمن هويت ولكن ما احتيالي بسوء رأي الموالي

وفي هذا المعنى قالوا أيضاً: سقيم ليس يعاد، ومريد لا يُراد.

يقول العباس الزوزني: كانت لي بداية حسنة، وكنت أعرف كم بقي بيني وبين الوصول إلى مقصودي من الظفر بمرادي، فرأيت ليلة من الليالي في المنام كأنني أتدهده من حالق(٣) جبل، فأردت الوصول إلى ذروته، قال: فحزنت فأخذني النوم، فرأيت قائلاً يقول: يا عباس، الحق، لم يرد منك أن تصل إلى ما كنت تطلب، ولكنه فتح على لسانك الحكمة(٤)، قال فأصبحت وقد ألهمت كلمات الحكمة.

= ٩/ ٢٨٠ في النكاح باب الغيرة ومسلم ٢٧٦٠ في التوبة باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش. والترمذي رقم ٣٥٢٠ في الدعوات باب رقم (٩٧).

(١) الحديث: رواه أبو هريرة. وأخرجه البخاري ٢٨١/٩ في النكاح باب الغيرة، ومسلم رقم ٢٧٦١ في التوبة باب غيرة الله تعالى، والترمذي رقم ١١٦٨ في الرضاع. باب ما جاء في الغيرة.

(٢) الآية: سورة الإسراء - ٤٥.

(٣) حالق: منيف مرتفع، وهو مأخوذ من حلّق الطائر.

(٤) في ذلك تحريض على رضا العبد بالمقام الذي أقامه الله فيه، وإن علم أن فوقه أرفع منه.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: كان شيخ من الشيوخ له حال ووقت مع الله تعالى، فخفي مدة لم ير بين الفقراء، ثم إنه ظهر بعد ذلك، لا على ما كان عليه من الوقت، فسئل عنه، فقال: آه، وقع حجاب. وكان الأستاذ أبو علي رحمه الله تعالى إذا وقع شي في خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين يقول: هذا من غيرة الحق سبحانه، يريد أن لا يجري عليهم ما يجري من صفاء هذا الوقت، وقد قالوا في هذا المعنى:

همت بإتياننا حتى إذا نظرت ... إلى المرآة نهاها وجهها الحسن

وقيل لبعضهم: هل تريد أن تراه؟، فقال: لا، فقيل: لماذا؟ فقال: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي، وقد قالوا في هذا المعنى:

إني لأحسد ناظري عليكا ... حتى أغض إذا نظرت إليكا
وأراك تخطر في شمائلك التي ... هي فتنتي فأغار منك عليكا

وسئل الشبلي: متى تستريح؟ فقال: إذا لم أر له ذاكراً.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول في قول النبي ﷺ في مبايعته فرساً من أعرابي، وأنه استقاله، فأقاله، فقال الأعرابي: عمرك الله تعالى، ممن أنت؟ فقال له النبي ﷺ: امرؤ من قريش، فقال بعض أصحابه من الحاضرين للأعرابي: كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك، فكان رحمه الله تعالى يقول: إنما قال: امرؤ من قريش غيرة، وإلا كان واجباً عليه التعرف إلى كل واحد أنه من هو، ثم إن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي بقوله: كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك، ومن الناس من قال: إن الغيرة من صفات أهل البداية، وإن الموحد لا يشهد الغيرة ولا يتصف بالاختيار، وليس له فيما يجري في المملكة تحكم، بل الحق سبحانه أولى بالأشياء فيما يقضي على ما يقضي.

يقول سعيد بن سلام المغربي: الغيرة عمل المريدين(١) فأما أهل الحقائق فلا.

(١) الذين لم يتمكنوا في التوحيد.

يقول ذلف الشبلي : الغيرة غيرتان : غيرة البشرية على النفوس، وغيرة الإلهية على القلوب. وقال أيضاً : غيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله تعالى، والواجب أن يقال : الغيرة غيرتان : غيرة الحق سبحانه على العبد : وهو أن لا يجعله للخلق فيضن به عليهم، وغيرة العبد للحق : وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق تعالى، فلا يقال : أنا أغار على الله تعالى، ولكن يقال : أنا أغار لله تعالى، فإذاً الغيرة على الله تعالى جهل، وربما تؤدي إلى ترك الدين، والغيرة لله تعالى توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له، واعلموا أن من سنة الحق تعالى مع أوليائه : أنهم إذا ساكنوا غيراً، أو لاحظوا شيئاً، أو ضاجعوا بقلوبهم شيئاً، شوش عليهم ذلك فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغة عما ساكنوه أو ضاجعوه كآدم عليه السلام، لما وطن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه منها، وإبراهيم عليه السلام لما أعجبه إسماعيل عليه السلام أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾(١) وصفا سره منه أمره بالفداء عنه.

يقول محمد بن حسان : بينا أنا أدور في جبل لبنان(٢) إذ خرج علينا شاب، قد أحرقته السموم والرياح، فلما نظر إلي ولى هارباً فتبعته، وقلت له : عظني بكلمة، فقال : احذر فإنه غيور، لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه.

قال النصر آباذي : الحق تعالى غيور، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه، وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه أن لفلان إلي حاجة، ولي أيضاً إليه حاجة، فإن قضى حاجتي قضيت حاجته، فقال ذلك النبي عليه السلام في مناجاته : إلهي كيف يكون لك حاجة؟ فقال : إنه ساكن بقلبه غيري، فليفرغ قلبه عنه أقض حاجته.

وقيل : إن أبا يزيد البسطامي رأى جماعة من الحور العين في منامه، فنظر

---

(١) الآية : سورة الصافات ـ ١٠٣.

(٢) جبل لبنان : أو سلسلة الجبال الغربية في لبنان، وهي كتلة من الجبال تهبط جوانبها الشرقية سهل البقاع سريعة الانحدار، وتنحني جوانبها الغربية نحو الساحل تدريجياً، كثيرة الينابيع ماهولة.

إليهن فسلب وقته أياماً، ثم إنه رأى في منامه جماعة منهن فلم يلتفت إليهن، وقال: إنكن شواغل.

وقيل: مرضت رابعة العدوية فقيل لها: ما سبب علتك؟ فقالت: نظرت بقلبي إلى الجنة، فأدبني ربي فله العتبى، لا أعود.

ويروى عن سري السقطي أنه قال: كنت أطلب رجلاً صديقاً لي مدة من الأوقات، فمررت ببعض الجبال، فإذا أنا بجماعة زمنى[1] وعميان ومرضى، فسألت عن حالهم، فقالوا: ههنا رجل يخرج في السنة مرة يدعو لهم، فيجدون الشفاء فصبرت حتى خرج، ودعا لهم، فوجدوا الشفاء، فقفوت أثره وتعلقت به، وقلت له: بي علة باطنة، فما دواؤها؟ فقال: يا سري، خل عني، فإنه غيور لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه.

قال الأستاذ الشيخ: فمنهم من غيرته حين يرى الناس يذكرونه تعالى بالغفلة فلا يمكنه رؤية ذلك ويشق عليه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: لما دخل الأعرابي مسجد رسول الله ﷺ وبال فيه، وتبادر إليه الصحابة لإخراجه، قال رحمه الله تعالى: إنما أساء الأعرابي الأدب، ولكن الخجل وقع على الصحابة، والمشقة حصلت لهم حين رأوا من وضع حشمته، كذلك العبد إذا عرف جلال قدره سبحانه شق عليه سماع ذكر من يذكره بالغفلة، وطاعة من لا يعبده بالحرمة.

روي أن دلف الشبلي مات له ابن كان اسمه أبا الحسن، فجزعت أمه عليه، وقطعت شعر رأسها، فدخل الشبلي الحمام ونور بلحيته، فكل من أتاه معزياً، قال: ما هذا يا أبا بكر؟ فكان يقول: موافقة لأهلي، فقال له بعضهم: أخبرني يا أبا بكر لماذا فعلت هذا؟ فقال: علمت أنهم يعزونني على الغفلة، ويقولون: آجرك الله تعالى، ففديت ذكرهم لله تعالى بالغفلة بلحيتي.

وسمع أحمد النوري رجلاً يؤذن، فقال: طعنة وسم الموت، وسمع كلباً

---

(١) زمنى: مصابون بالزمانة، أي أصحاب عاهات.

يَنْبَح، فقال: لبيك وسعديك، فقيل له: إنّ هذا تَرْكٌ للدّين، فإنه يقول للمؤذن في تشهده: طعنة وسم الموت، ويلبّي نباح الكلب، فسُئل عن ذلك فقال: أما ذلك فكان ذكره لله تعالى على رأس الغفلة، وأما الكلب فقد قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾(١).

وأذّن دُلَف الشبلي فلما انتهى إلى الشهادتين، قال: لولا أنك أمرتني ما ذكرتُ معك غيرك.

وسمع رجلاً يقول: جلّ الله جلاله، فقال له: أحبّ أنْ تجلّه عن هذا.

يقول أبو الحسن الخزفاني رحمه الله تعالى: لا إله إلا الله من داخل القلب، محمد رسول الله من القرط، ومن نظر إلى ظاهر هذا اللفظ توهم أنه استصغر الشرع، ولا كما يخطر بالبال إذ الأخطار للأغيار بالإضافة إلى قدر الحق سبحانه متصاغرة في التحقيق.

٣٦ ـ الولاية

قال الله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢).

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: من آذى لي ولياً فقد استحل محاربتي، وما تقرّب إليّ العبد بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض روح عبدي المؤمن، لأنه يكره الموت، وأكره مساءته، ، ولا بدّ له منه»(٣).

قال الأستاذ الشيخ: للولي معنيان: أحدهما: فعيل بمعنى مفعول، وهو من

---

(١) الآية: سورة الإسراء ـ ٤٤.

(٢) الآية: سورة يونس ـ ٦٢.

(٣) الحديث: روته عائشة، وأخرج أحمد مثله عنها ٥/٥٥ ـ ٥٧، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى في مسنده، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الطب، وابن عساكر كما في الكنز ص ٢٣٠ رقم ١١٥٧

يتولى الله سبحانه أمره، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(١)، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته. والثاني: فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته، فعبادته تجري على التوالي، من غير أن يتخللها عصيان، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي ولياً يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء.

ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً، كما أن من شرط النبي أن يكون معصوماً، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع.

قصد أبو يزيد البسطامي بعض من وصف بالولاية، فلما وافى مسجده قعد ينتظر خروجه، فخرج الرجل وتنخم(٢) في المسجد، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يكون أميناً على أسرار الحق؟(٣).

واختلفوا في أن الولي هل يجوز أن يعلم أنه ولي أم لا؟ فمنهم من قال: لا يجوز ذلك، فالولي يلاحظ نفسه بعين التصغير، وإن ظهر عليه شيء من الكرامات خاف أن يكون مكراً، وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً، وإنما يخاف سقوطه عما هو فيه، وأن تكون عاقبته بخلاف حاله، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل.

ومنهم من قال: يجوز أن يعلم الولي أنه ولي، وليس من شرط تحقيق الولاية في الحال الوفاء في المآل.

ثم إن ذلك من شرطه أيضاً فيجوز أن يكون هذا الولي قد خص بكرامة، هي تعريف الحق إياه أنه مأمون العاقبة، إذ القول بجواز كرامات الأولياء واجب، وهو

---

(١) الآية: سورة الأعراف ـ ١٩٦.

(٢) تنخّم: دفع بشيء من صدره أو أنفه.

(٣) أسرار الحق التي وهبها لأوليائه، والغرض من ذلك: تحذير الناس من الاغترار بجمال الأفعال، وحسن المقال، وجريان خوارق العادات، فلا يراعى في الولي إلا الاستقامة على ما ثبت بالأدلة الصحيحة، وجريان الخوارق على يد العبد لا يدل على ولايته، بل قد يكون ممكوراً به.

وإن فارقه خوف العاقبة فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال في الحال أتم وأشد، فإن اليسير من التعظيم والهيبة أهدى للقلوب من كثير من الخوف.

ولما قال ﷺ: عشرة في الجنة من أصحابه، فالعشرة لا محالة صدقوا الرسول ﷺ وعرفوا سلامة عاقبتهم، ثم لم يقدح ذلك في حالهم، ولأن من شرط صحة المعرفة بالنبوة الوقوف على حد المعجزة، ويدخل في جملته العلم بحقيقة الكرامات، فإذا رأى الكرامات ظاهرة عليه لا يمكنه أن لا يميز بينها وبين غيرها، فإذا رأى شيئاً من ذلك علم أنه في الحال على الحق.

ثم يجوز أن يعرف أنه في المآل يبقى على هذه الحالة، ويكون هذا التعريف كرامة له، والقول بكرامات الأولياء صحيح، وكثير من حكايات القوم تدل على ذلك، وإلى هذا القول كان يذهب شيخنا الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى.

وقيل: إن إبراهيم بن أدهم قال لرجل: أتحب أن تكون لله تعالى ولياً؟ فقال: نعم، فقال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرغ نفسك لله تعالى، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك.

وقال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء: هم عباد تسربلوا بالأنس بعد المكابدة، واعتنقوا الروح بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية.

يقول أبو يزيد البسطامي: أولياء الله عرائس الله تعالى، ولا يرى العرائس إلا المحرمون، فهم مخدرون عنده في حجاب الأنس، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة.

سمعت أبا بكر الصيدلاني وكان رجلاً صالحاً يقول: كنت أصلح اللوح في قبر أبي بكر الطمستاني أنقر فيه اسمه في مقبرة الحيرة(١)، وكان يقلع ذلك اللوح ويسرق، ولم يسرق غيره من القبور، فكنت أتعجب منه، فسألت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يوماً عن ذلك فقال: إن ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدنيا، وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذي تصلحه فيه، وإن الحق سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره، كما آثر هو ستر نفسه.

(١) الحيرة: قصبة الملوك اللخميين في العراق. على بُعد ٥ كم جنوبي الكوفة، والى الجنوب الشرقي من النجف. فتحها خالد بن الوليد صلحاً ٦٣٣ م. وقد باد أثرها مع الزمن.

وقال سعيد بن سلام المغربي: قد يكون الولي مشهوراً ولكنه لا يكون مفتوناً(١).

يقول النصر آباذي: ليس للأولياء(٢) سؤال، إنما هو الذبول والخمول. وقال أيضاً: نهايات الأولياء بدايات الأنبياء.

وقال سهل بن عبد الله: الولي هو الذي توالت أفعاله على الموافقة.

وقال يحيى بن معاذ: الولي لا يرائي ولا ينافق، وما أقل صديق من كان هذا خلقه.

وقال أبو علي الجوزجاني: الولي هو الفاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق سبحانه، تولى الله تعالى سياسته فتوالت عليه أنوار التولي، لم يكن له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله تعالى قرار.

وقال أبو يزيد البسطامي: حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم باسم منها، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، فمن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فمن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق، ومن كان حظه من اسمه الآخر كان مرتبطاً بما يستقبله، وكل كوشف على قدر طاقته إلا من تولاه الحق سبحانه ببره، وقام عنه بنفسه، وهذا الذي قاله أبو يزيد البسطامي يشير إلى أن الخواص من عباده ارتقوا عن هذه الأقسام، فلا العواقب هم في ذكرها، ولا السوابق هم في فكرها، ولا الطوارق لهم في أسرها، وكذا أصحاب الحقائق يكونون محواً عن نعوت الخلائق. قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾(٣).

وقال يحيى بن معاذ: الولي ريحان الله تعالى في الأرض، يشمه الصديقون،

---

(١) وذلك بأن تكون شهرته بركة عليه وعلى غيره فلا تشغله عن ربه فيسعد بها وتضاعف أعماله بكثرة من يقتدى به بخلاف شغلته شهرته عن ربه فإنه يكون مفتوناً بها.

(٢) في أغلب أحوالهم.

(٣) الآية: سورة الكهف ـ ١٨.

فتصل رائحته إلى قلوبهم، فيشتاقون به إلى مولاهم، ويزدادون عبادة على تفاوت أخلاقهم.

وسئل محمد الواسطي: كيف يُغذّى الولي في ولايته؟ فقال: في بدايته بعبادته، وفي كهولته بستره بلطافته، ثم يجذبه إلى ما سبق له من نعوته وصفاته، ثم يذيقه طعم قيامه به في أوقاته.

وقيل: علامة الولي ثلاثة: شغله بالله تعالى، وفراره إلى الله تعالى، وهمه الله عز وجل.

وقال الخرّاز: إذا أراد الله تعالى أنْ يوالي عبْداً من عبيده فتح عليه باب ذكره، فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحُجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هوى، فحينئذ صار العبد زمناً فانياً، فوقع في حفظه سبحانه، وبرىء من دعاوى نفسه.

قال عسكر النخشبي: إذا ألف القلب الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالى، ويقال: من صفة الولي أن لا يكون له خوف، لأن الخوف ترقّب مكروه يحلّ في المستقبل، أو انتظار محبُوب يفوت في المستأنف، والولي ابن وقته، ليس له مستقبل فيخاف شيئاً، وكما لا خوف له لا رجاء له، لأن الرجاء انتظار محبُوب يحصل، أو مكروه يكشف، وكذلك في الثاني من الوقت، وكذلك لا حزن له، لأن الحزنَ مِن حزونة الوقت، ومن كان في ضياء الرضا وبرد الموافقة فأنى يكون له حزن؟ قال الله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١).

(١) الآية: سورة يونس - ٦٢.

قال الله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(٢).

قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»(٣).

قال الأستاذ الشيخ: والدعاء مفتاح الحاجة، ومستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوي المآرب.

وقد ذمَّ الله تعالى قوماً تركوا الدّعاء، فقال: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾(٤) قيل: لا يمدّونها إلينا في السؤال.

وقال سهل بن عبد الله: خلق الله تعالى الخلق، وقال: ناجوني، فإنْ لم تفعلوا، فانظروا إليّ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا مني، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابي، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي. وقال سهل بن عبد الله أيضاً: أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال، ودعاء الحال أن يكون صاحبه مضطراً لا بد له مما يدعو لأجله.

قال أبا عبد الله المكانسي: كنت عند الجنيد فأتت امرأة إليه، وقالت: ادع الله تعالى لي، فإن ابناً لي ضاع، فقال: اذهبي واصبري، فمضت ثم عادت، فقالت: مثل ذلك فقال لها الجنيد: اذهبي واصبري، فمضت ثم عادت، ففعلت مثل ذلك مرات، والجنيد يقول لها: اصبري، فقالت: عيل صبري، ولم يبق لي فقال لها الجنيد: إن كان كما قلت فاذهبي فقد رجع ابنك، فمضت ثم عادت تشكر له، فقيل للجنيد: كيف عرفت ذلك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾(٥).

---

(١) الآية: سورة الأعراف - ٥٥.

(٢) الآية: سورة غافر - ٦٠.

(٣) الحديث: رواه أنس بن مالك. وأخرجه الترمذي رقم ٣٣٦٨ في الدعوات باب رقم (٢) وقال: إنه حديث غريب.

(٤) الآية: سورة التوبة - ٦٧.

(٥) الآية: سورة النمل - ٦٢.

واختلف الناس في أيهما أفضل: الدعاء أم السكوت والرضا؟ فمنهم من قال: الدعاء في نفسه عبادة، قال النبي ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»، فالإتيان بما هو عبادة أولى من تركه، ثم هو حق الحق سبحانه وتعالى، فإن لم يستجب للعبد ولم يصل إلى حظ نفسه فلقد قام بحق ربه، لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية. ولقد قال أبو حازم الأعرج: لأن أحرم الدعاء أشد علي من أن أحرم الإجابة.

وطائفة قالوا: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم، والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى، ولهذا قال محمد الواسطي: اختيار ما جرى لك في الأزل خير لك من معارضة الوقت. وقد قال ﷺ مخبراً عن الله تعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وقال قوم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، وصاحب رضا بقلبه، ليأتي بالأمرين كليهما، والأولى أن يقال: إن الأوقات مختلفة، ففي بعض الأحوال: الدعاء أفضل من السكوت وهو الأدب، وفي بعض الأحوال: السكوت أفضل من الدعاء وهو الأدب وإنما يعرف ذلك في الوقت، لأن علم الوقت إنما يحصل في الوقت، فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء له أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم، ويصح أن يقال: ينبغي للعبد أن لا يكون ساهياً عن شهود ربه تعالى في حال دعائه، ثم يجب عليه أن يراعي حاله فإن وجد من الدعاء زيادة بسط في وقته، فالدعاء له أولى، وإن عاد إلى قلبه في وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض، فالأولى له ترك الدعاء في هذا الوقت. وإن لم يجد في قلبه زيادة بسط ولا حصول زجر، فالدعاء وتركه ههنا سيان، فإن كان الغالب عليه في هذا الوقت العلم فالدعاء أولى لكونه عبادة، وإن كان الغالب عليه في هذا الوقت المعرفة والحال والسكوت فالسكوت أولى، ويصح أن يقال ما كان للمسلمين فيه نصيب، أو للحق سبحانه فيه حق، فالدعاء أولى، وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم، وفي الخبر المروي: أن العبد يدعو الله تعالى وهو يحبه، فيقول: يا جبريل أخر حاجة عبدي فإني أحب أن أسمع صوته، وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه فيقول يا جبريل اقض لعبدي حاجته فإني أكره أن أسمع صوته.

ويروى أن يحيى بن سعيد القطان رحمه الله تعالى رأى الحق سبحانه في

منامه، فقال: إلهي كم أدعوك ولا تجيبني، فقال: يا يحيى لأني أحب أن أسمع منصوتك. وقال ﷺ: والذي نفسي بيده: إن العبد ليدعو الله تعالى وهو عليه غضبان فيعرض عنه، ثم يدعوه فيقول الله تعالى لملائكته: أبى عبدي أن يدعو غيري فقد استجبت له»(١).

حدّث الحسن عن أنس بن مالك: كان رجل في عهد رسول الله ﷺ يتاجر من بلاد الشام إلى المدينة المنوّرة(٢)، ومن المدينة المنورة إلى بلاد الشام، ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله عز وجل، قال: فبينما هو جاء من الشام يريد المدينة إذ عرض له لصّ على فرس، فصاح بالتاجر: قف، فوقف التاجر، وقال له: شأنك بما لي وخلّ سبيلي، فقال له اللص: المال مالي وإنما أريد نفسك، فقال له التاجر: ما ترجو بنفسي شأنك والمالَ، وخلّ سبيلي، قال: فردّ عليه اللص مثل المقالة الأولى، فقال له التاجر: انظرني حتى أتوضأ وأصلي وأدعو ربّي عز وجل، قال: افعلْ ما بدا لك، قال: فقام التاجر وتوضأ وصلى أربع ركعات ثم رفع يديه إلى السماء فكان من دعائه أن قال: يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدىء يا معيد، يا فعّال لما يريد، أسألك بنورٍ وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرتَ بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، لا إله إلا أنت، يا مغيث أغثني (ثلاث مراتٍ)، فلما فرغ من دعائه، إذا بفارس على فرس أشهب عليه ثياب خضر وبيده حربة من نور، فلما نظر اللص إلى الفارس، وترك التاجر ومرّ نحو الفارس، فلمّا دنا منه شدّ الفارس على اللص، فطعنه طعنة أذراه(٣) عن فرسه، ثم جاء إلى التاجر فقال له: قمْ فاقتله، فقال له التاجر: من أنت؟ فما قتلتُ أحداً قط، ولا تطيب نفسي لقتله، قال: فرجع الفارس إلى اللصّ فقتله، ثم جاء إلى التاجر، وقال: اعلم أني ملك من السماء الثالثة، حين دعوتَ الأولى سمعنا

---

(١) روى سيدنا علي مثله، وأخرجه عنه ابن السني والحاكم كما في الكنز ٢/ص ٧٤ رقم ٣١٩٣. كما رواه أبو هريرة وأخرجه عنه أبو الشيخ في الثواب كما في الكنز ٢/٧٨ رقم ٣٢١٤.

(٢) المدينة المنورة: مدينة في الحجاز، من مدن الإسلام المقدسة، وهي يثرب التي لجأ إليها النبي ٦٢٢ م، وفيها مات ودفن ٦٣٢ م، تبعد عن دمشق ١٣٠٣ كم.

(٣) أذراه: ألقاه.

لأبواب السماء قعقعة، فقلنا: أمر حدث، ثم دعوت الثانية ففتحت أبواب السماء، ولها شرر كشرر النار، ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل عليه السلام علينا من السماء وهو ينادي: من لهذا المكروب؟ فدعوت ربي عز وجل أن يوليني قتله، واعلم يا عبد الله أنه من دعا بدعائك هذا في كل كربة، وكل شدة، وكل نازلة، فرج الله تعالى عنه وأعانه، قال: وجاء التاجر سالماً غانماً حتى دخل المدينة المنورة، وجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بالقصة وأخبره بالدعاء، فقال له النبي ﷺ: لقد لقنك الله عز وجل أسماءه الحسنى التي إذا دعي بها أجاب، وإذا سئل بها أعطى.

ومن آداب الدعاء: حضور القلب، وأن لا يكون ساهياً، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عبد من قلب لاه ﴾ (١).

ومن شروطه: أن يكون مطعمه حلالاً فقد قال النبي ﷺ لسعد: « أطب كسبك تستجب دعوتك » (٢).

وقيل: الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانه لقم الحلال.

وكان يحيى بن معاذ يقول: إلهي كيف أدعوك وأنا عاص؟ وكيف لا أدعوك وأنت كريم؟.

وقيل: مر موسى عليه السلام برجل يدعو ويتضرع، فقال موسى عليه السلام: إلهي لو كانت حاجته بيدي قضيتها فأوحى الله تعالى إليه: أنا أرحم به منك، ولكنه يدعوني وله غنم، وقلبه عند غنمه، وإني لا أستجيب لعبد يدعوني وقلبه عند غيري، فذكر موسى عليه السلام للرجل ذلك، فانقطع إلى الله تعالى بقلبه، فقضيت حاجته.

وقيل لجعفر الصادق عليه السلام: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه.

---

(١) الحديث: رواه أبو هريرة. وأخرجه الترمذي رقم ٣٤٧٤ في الدعوات باب رقم (٦٦)، وأحمد في المسند ٢/١٧٧. وقال المنذري: إنه حديث حسن.

(٢) الحديث: قال في مجمع الزوائد ١٠/٢٩١ رواه الطبراني في الصغير وفيه من لم أعرفهم ا. هـ. والحديث بغير هذا اللفظ، وهو خطاب لسعد بن أبي وقاص.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: ظهر بيعقوب بن الليث علةٌ أعيت الأطباء(١)، فقالوا له: في ولايتك رجل صالح يسمى سهل بن عبد الله، لو دعا لك لعل الله تعالى يستجيب له، فاستحضر سهلاً، وقال: ادع الله عز وجل لي، فقال سهل: كيف يُستجاب دعائي فيك وفي مجلسك مظلومون؟ فأطلق كل مَنْ في حبسه، فقال سهل: اللهم كما أريته ذلّ المعصية فأره عزّ الطاعة وفرج عنه، فعوفي، فعرض مالاً على سهل فأبى أن يقبل، فقيل له: لو قبلته ودفعته للفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء فإذا هي جواهر، فقال لأصحابه: من يعطى مثل هذا، هل يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟.

وقيل: كان صالح المري يقول كثيراً: من أدمن قرع باب يوشك أن يُفتح له، فقالت له رابعة: إلى متى تقول هذا؟ متى أغلق هذا الباب حتى يستفتح؟ فقال صالح: شيخ جهل وامرأة علمت.

يقول السري: حضرتُ مجلس معروف الكرخي، فقام إليه رجل فقال: يا أبا محفوظ ادع الله تعالى أن يرد عليّ كيسي فإنه سُرق وفيه ألف دينار، فسكت فأعاد ثم سكت فأعاد، فقال معروف: ماذا أقول؟ أقول ما زويته عن أنبيائك وأصفيائك فردّه عليه، فقال الرجل: فادع الله تعالى فقال اللهم: خرْ له.

وروي عن الليث أنه قال: رأيتُ عقبة بن نافع ضريراً، ثم رأيته بصيراً، فقلتُ له: بم ردّ عليك بصرك؟ فقال: أتيت في منامي، فقيل: قلْ يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيفاً لما يشاء، ردّ عليّ بصري، فقلتها، فردّ الله عز وجل عليّ بصري.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: كان بي وجع العين حين رجعتُ من مرو إلى نيسابور، وكنتُ خلال أيام لا أجد النوم فتناعست صباحاً، فسمعتُ قائلاً يقول لي: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(٢) فانتبهت وقد فارقني الرمد

---

(١) في هذا دلالة على أن من الكرب العظيمة ما لا يفرجها مال ولا جاه ولا سلطنة ولا طب، وإنما يفرّجها صحيح الافتقار والتوبة والالتجاء إلى من بيده النفع والضر.

(٢) الآية: سورة الزمر ـ ٣٦.

وزال آنئذٍ الوجع، ولم يصبني بعد ذلك وجع العين.

وروي عن محمد بن خزيمة أنه قال: لما مات أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى كنت بالإسكندرية، فاغتممت فرأيت في المنام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وهو يتبختر(1)، فقلت: يا أبا عبد الله، أية مشية هذه؟ فقال: مشية الخدام في دار السلام، فقلت: ما فعل الله عز وجل بك؟ فقال: غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب، وقال: يا أحمد، هذا بقولك القرآن كلامي، ثم قال: ادعني يا أحمد بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري، فكنت تدعو بها في دار الدنيا، فقلت: يا رب كل شيء، بقدرتك على كل شيء، اغفر لي كل شيء، ولا تسألني عن شيء، فقال: يا أحمد هذه الجنة فادخلها فدخلتها.

وقيل: تعلق شاب بأستار الكعبة، وقال: إلهي لا شريك لك فيؤتي، ولا وزير لك فيُرشى، إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتك فبجهلي فلك الحجة عليّ، فبإثبات حجتك عليّ وانقطاع حجتي لديك إلا غفرت لي، فسمع هاتفاً يقول: الفتى عتيق من النار.

وقيل: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب عز وجل يفعل ما يشاء.

وقيل: دعاء العامة بالأقوال، ودعاء الزهاد بالأفعال، ودعاء العارفين بالأحوال.

وقيل: خير الدعاء ما هيجته الأحزان.

وقال بعضهم: إذا سألت الله تعالى حاجة فتعجلت، فسل الله عز وجل، فلعل ذلك يوم إجابتك.

وقيل: ألسنة المبتدئين منطلقة بالدعاء، وألسنة المتحققين خرست عن ذلك.

وطلب من محمد الواسطي أن يدعو، فقال: أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا ما لك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور.

---

(1) يتبختر: يمشي مشية المتكبر المعجب بنفسه.

وروي عن عبد الله بن مبارك أنه قال: ما دعوتُ منذ خمسين سنة، ولا أريد أن يدعو لي أحد.

وقيل: الدعاء سُلم المذنبين.

وقيل: الدعاء المراسلة، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد.

وقيل: لسان المذنبين دموعهم.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: إذا بكى المذنب، فقد راسل الله عز وجل، وفي هذا المعنى قالوا:

دموع الفتى عما يُجنّ تترجم ... وأنفاسه يُبدين ما القلبُ يكتم

وقال بعضهم: الدعاء ترك الذنوب.

وقيل: الدعاء لسان الاشتياق إلى الحبيب.

وقيل: الإذن في الدعاء خير من العطاء.

وقال محمد الكتاني: لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة إلا لفتح باب المغفرة.

وقيل: الدُعاء يوجب الحضور، والعطاء يوجب الصَرف، والمقام على الباب أتم من الانصراف بالمبار.

وقيل: الدعاء مواجهة الحق بلسان الحياء.

وقيل: شرط الدعاء الوقوف مع القضاء بوصف الرضا.

وقيل: كيف تنتظر إجابة الدعوة وقد سددت طريقها بالهفوة.

وقيل لبعضهم: ادع لي، فقال: كفاك من الأجنبية أن تجعل بينك وبينه واسطة.

يقول عبد الرحمن بن أحمد سمعتُ أبي يقول: جاءتْ امرأة إلى تقي بن مخلد فقالت له: إن ابني قد أسره الروم، ولا أقدر على مال أكثر من دويرة، ولا أقدر على بيعها، فلو أشرتَ إلى من يفديه بشيء، فإنه ليس لي ليل ولا نهار، ولا نوم ولا قرار، فقال: نعم، انصرفي حتى انظر في أمره إن شاء الله تعالى، قال وأطرق الشيخ وحرك شفتيه، قال: فلبثنا مدة، فجاءت المرأة ومعها ابنها، وأخذت تدعو له، وتقول: رجع سالماً، وعنده حديث يحدثك به، فقال

الشابُ: كنتُ في يدي بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسرى، وكان لنا إنسان يستخدمنا كل يوم، حيث يخرجنا إلى الصحراء للخدمة، ثم يعيدنا، وعلينا قيودنا، فبينا نحن نجيء من العمل بعد المغرب مع صاحبنا الذي كان يستخدمنا، انفتح القيد من رِجْلي ووقع على الأرض، ووصف اليوم والساعة، فوافق الوقت الذي جاءت فيه المرأة، ودعا الشيخ قال: فنهض إليَّ الذي كان يستخدمني وصاح عليَّ، وقال: كسرت القيد، قلتُ: لا إنه سقط من رجلي، قال: فتحير وأخبر صاحبه، وأحضروا الحَدَّاد، وقيدوني، فلما مشيت خطوات سقط القيد من رجلي، فتحيروا في أمري، فدعوا رهبانهم فقالوا لي: ألك والدة؟ قلتُ: نعم، فقالوا: وافق دعاؤها الإجابة، وقالوا: أطلقك الله عز وجل فلا يمكننا تقييدك، فزودوني وأوصلوني إلى ناحية المسلمين.

٣٨ - الفقــر

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ، يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(١).

عن أبي هريرة (رض) عن النبي ﷺ قال: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم»(٢).

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «إن المسكين ليس بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، فقيل: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد ما يغنيه، ويستحيي أن يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه»(٣) قال الأستاذ الشيخ: معنى قوله: يستحيي أن يسأل الناس، أي يستحيي من الله تعالى أن يسأل الناس لا أنه يستحيي من الناس. والفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء، واختيار الحق سبحانه لخواصه من الأتقياء، والأنبياء، والفقراء صفوة

(١) الآية: سورة البقرة: ٢٧٣.

(٢) الحديث: رواه الترمذي رقم ٢٣٥٤ في الزهد، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) الحديث: رواه أحمد في المسند وقال في مجمع الزوائد ٩٢/٣: رجال أحمد رجال الصحيح ٣٩٣/٢، ٣٩٥، ٤٥٧، ٢٦٠/٢، ٢٦٩، ٣١٦، ٣٨٤.

الله عزّ وجل من عباده ومواضع أسراره بيّن خلقه بهم يصون الخلق، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق، والفقراء الصبر(١) جلساء الله تعالى يوم القيامة، بذلك ورد الخبر عن النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين، والفقراء الصبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة»(٢). وقيل: إن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها، وقال: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم، لا أفعل.

وقال معاذ النسفي: ما أهلك الله تعالى قوماً، وإن عملوا ما عملوا حتى أهانوا الفقراء وأذلوهم.

وقيل: لو لم يكن للفقير فضيلة غير إرادته سعة المسلمين ورخص أسعارهم لكفاه، ذلك لأنه يحتاج إلى شرائها، والغني يحتاج إلى بيعها، هذا لعوام الفقراء فكيف حال خواصهم؟

سُئل يحيى بن معاذ عن الفقر، فقال: حقيقته أنْ لا يستغني إلاّ بالله تعالى، ورسمه عدم الأسباب كلها.

يقول إبراهيم القصار: الفقر لباس يورث الرضا، إذا تحقق العبد فيه.

وجاء فقير إلى أبي علي الدقاق في سنة أربع أو خمس وتسعين وثلاث مائة (للهجرة) من زوزن، وعليه مسح وقلنسوة مسح، فقال له بعض أصحابنا: بكم اشتريت هذا المسح؟ (وذلك على وجه المطايبة)، فقال: اشتريته بالدنيا، وطُلب مني بالآخرة فلم أبعه(٣). وقال الأستاذ أبو علي الدقاق: قام فقير في مجلس يطلب شيئاً، وقال: إني جائع منذ ثلاث، وكان هناك بعض المشايخ، فصاح عليه: كذبت، إن الفقر سر الله تعالى، وهو لا يضع سره عند من يحمله الى من يريد.

يقول حمدون القصار: إذا اجتمع إبليس(٣) وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم

---

(١) الصبر: الصابرون.

(٢) الحديث: قال في كنز العمال ٦/٤٦٩ رقم الحديث ١٦٥٨٧: رواه ابن لال عن ابن عمر.

(٢) لأن حالي هو شغلي بالله تعالى لا بغيره. وسكوني إليه لا إلى غيره.

(٣) إبليس: جمع أبالسة وأباليس، وهو علم جنس للشيطان.

بثلاثة أشياء: رَجُل مؤمن قَتل مؤمناً، ورجل يَموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

يقول الجنيد: يا معشر الفقراء، إنكم تعرفون بالله تعالى، وتكرمون لله تعالى، فانظروا كيف تكونون مع الله تعالى إذا خلوتم به. وسُئل الجُنيد عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى: أهو أتمّ أم الاستغناء بالله تعالى؟ فقال: إذا صحّ الافتقار إلى الله عز وجل، فقد صحّ الاستغناء بالله تعالى، وإذا صحّ الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال: أيهما أتم الافتقار أم الغنى؟، لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلّا بالأخرى.

وسُئل رُوَيْم بن أحمد عن نعت الفقير، فقال: إرسال النفس في أحكام الله تعالى. وقيل: نعت الفقير ثلاثة أشياء: حفظ سره، وأداء فرضه، وصيانة فقره.

وقيل لأحمد بن عيسى الخراز: لماذا تؤخر عن الفقراء رفق الأغنياء؟ فقال لثلاث خصال: لأنّ ما في أيديهم غير طيب، ولأنهم غير موفقين، ولأن الفقراء مُرادون بالبلاء.

وقيل: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إذا رأيتَ الفقراء فسائلهم كما تسائل الأغنياء، فإن لم تفعل فاجعلْ كلّ شيء علمتك إياه تحت التراب.

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: لأن أقع من فوق قصر فأتحطم أحب إليّ من مجالسة الغني، لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إياكم ومجالسة الموتى»، قيل: يا رسول الله، ومن الموتى؟ قال: «الأغنياء» (١).

وقيل للرَّبيع بن خيثم: قد غلا السّعر، قال: نحن أهون على الله من أن يجيعنا، إنما يجيع أولياءه.

وقال إبراهيم بن أدهم: طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى، وطلب النّاس الغنى فاستقبلهم الفقر.

(١) الحديث: رواه الترمذي رقم ١٧٨١ (بلفظ الأغنياء بدل الموتى) في اللباس باب ما جاء في ترقيع الثوب وضعفه، ورواه الحاكم وصححه.

قيل ليحيى بن معاذ: ما الفقر؟ قال: خوف الفقر، قيل: فما الغنى؟ قال: الأمن بالله تعالى.

يقول ابن الكريني: إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى، حذراً أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره، كما أن الغني يحترز من الفقر، حذراً أن يدخل عليه فيفسد عليه غناه.

وسئل أبو حفص: بماذا يقدم الفقير على ربه عز وجل؟ فقال: وما للفقير أن يقدم به على ربه تعالى سوى فقره.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أتريد أن تكون لك يوم القيامة مثل حسنات الناس أجمع؟ قال: نعم، قال: عد المريض، وكن لثياب الفقراء فاليا(١)، فجعل موسى عليه السلام على نفسه في كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يفلي ثيابهم، ويعود مرضاهم(٢).

وقال سهل بن عبد الله: خمسة أشياء من جوهر النفس: فقير يظهر الغنى، وجائع يظهر الشبع، ومحزون يظهر الفرح، ورجل بينه وبين رجل عداوة يظهر له المحبة، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يظهر ضعفاً.

وقال بشر بن الحارث: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر.

وقال ذو النون المصري: علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر.

وقال دلف الشبلي: أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد، فأنفقها في يوم، ثم خطر بباله أن لو أمسك منها قوت يوم، ما صدق في فقره.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: تكلم الناس في الفقر والغنى أيهما أفضل؟ وعندي أن الأفضل أن يعطى الرجل كفايته ثم يصان فيه.

وسئل أحمد بن الجلاء عن الفقر، فسكت حتى خلا، ثم ذهب ورجع عن قريب، ثم قال: كان عندي أربعة دوانيق، فاستحييت من الله عز وجل أن أتكلم في

---

(١) فلى وفلّى رأسه أو ثوبه: نقاهما من القمل.

(٢) وفي ذلك دلالة على كرامة الفقراء على الله تعالى، وشرف منزلتهم عنده، وكمال رحمته بهم.

الفقر، فذهبتُ وأخرجتها ثم قعدتُ وتكلمتُ في الفقر.

يقول إبراهيم بن المولد: سألتُ أحمد بن الجلاء: متى يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه، فقلتُ: كيف ذلك؟ فقال: إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له.

وقيل: صحة الفقر أن لا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره.

وقال عبد الله بن المبارك: إظهار الغنى في الفقر أحسن من الفقر.

يقول بنان المصري: كنتُ بمكة المكرمة قاعداً، وشاب بين يدي، فجاءه إنسان وحمل إليه كيساً فيه دراهم، ووضعه بين يديه، فقال: لا حاجة لي فيه، فقال: فرّقه على المساكين، فلما كان العشاء رأيته في الوادي يطلب شيئاً لنفسه، فقلت: لو تركت شيئاً لنفسك مما كان معك، قال: لم أعلم أني أعيش إلى هذا الوقت(١).

يقول أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى مولاه دوام الفقر إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

يقول عبد الله المرتعش: ينبغي للفقير أن لا تسبق همته خطوته(٢).

يقول أحمد بن محمد الروذباري: كان أربعة في زمانهم: الأول: كان لا يقبل من الإخوان ولا من السلطان شيئاً وهو يوسف بن أسباط ورث من أبيه سبعين ألف درهم، ولم يأخذ منها شيئاً، وكان يعمل الخوص(٣) بيده. والثاني: كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً وهو أبو إسحاق الفزاري، فكان ما أخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون، والذي كان يأخذه من السلطان كان يخرجه إلى أهل طرسوس(٤). والثالث كان يأخذ من الإخوان ولا يأخذ من السلطان، وهو عبد الله بن المبارك، يأخذ من الإخوان ويكافىء عليه. والرابع: كان يأخذ من السلطان، ولا يأخذ من الإخوان، وهو مخلد بن الحسين كان يقول: السلطان لا يمن والإخوان يمنون.

---

(١) وفي ذلك دلالة على فقره وزهده وقصر أمله.

(٢) خطوته: أي حالته التي هو فيها.

(٣) الخوص: واحدته خوصة، وهو ورق النخيل، ويسمى بائعه الخوّاص.

(٤) طرسوس: مدينة في تركيا (قيليقيا). كانت من العواصم. فتحها المأمون ٧٨٨ م. وفيها دُفن.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول في الخبر: «من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه»، وإنما ذلك لأن المرء بقلبه ولسانه ونفسه، فإذا تواضع لغني بنفسه ولسانه ذهب ثلثا دينه، فلو اعتقد فضله بقلبه كما تواضع له بلسانه ونفسه ذهب دينه كله (١).

وقيل: أقل ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

وقيل: من أراد الفقر لشرفه مات فقيراً، ومن أراد الفقر لئلا يشتغل عن الله تعالى مات غنياً.

وقال علي المزين: كانت الطرق إلى الله تعالى أكثر من نجوم السماء، فما بقي منها طريق، إلا طريق الفقر، وهو أصح الطرق (٢).

وسئل دلف الشبلي عن حقيقة الفقر، فقال: أن لا يستغني بشيء دون الله عز وجل.

يقول منصور بن خلف المغربي: قال لي أبو سهل الخشاب الكبير: الفقر فقر وذل، فقلت: لا، بل فقر وعز، فقال: فقر وثرى، فقلت: لا، بل فقر وعرش.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: سئلت عن معنى قوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً» (٣) قال: فقلت: آفة الشيء وضده حسب فضيلته وقدره، فكلما كان في نفسه أفضل فضده وآفته أنقص، كالإيمان: لما كان أشرف الخصال كان ضده الكفر، فلما كان الخطر على الفقر الكفر دل على أنه أشرف الأوصاف.

يقول الجنيد: إذا لقيت الفقير فالقه بالرفق، ولا تلقه بالعلم، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه، فقلت: يا أبا القاسم، وهل هناك فقير يوحشه العلم؟ فقال: نعم،

(١) لأن الدنيا عند الله تعالى حقيرة تافهة، فعلى العبد احتقارها، ولا ينبغي له أن يتذلل بشيء من ذلك في طلبها.

(٢) إنه أصح الطرق لسلامته من الآفات التي تدخل بقية الطرق.

(٣) الحديث: قال في كشف الخفاء ١٠٨/٢: رواه أبو نعيم في الحلية والطبراني بسند ضعيف عن أنس.

الفقير إذا كان صادقاً في فقره فطرحت عليه علمك ذاب كما يذوب الرصاص في النار.

يقول مظفر القرمسيني: الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله تعالى حاجة.

قال الأستاذ أبو القاسم: وهذا اللفظ فيه شيء من الغموض، وإنما أشار قائله إلى سقوط المطالبات، وانتفاء الاختيار، والرضا بما يجريه الحق سبحانه.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: الفقر عدم الإملاك، والخروج من أحكام الصفات.

وقال أبو حفص: لا يصح لأحد الفقر حتى يكون العطاء أحب إليه من الأخذ، وليس السخاء أن يعطي الواجد المعدم، إنما السخاء أن يعطي المعدم الواجد.

يقول أحمد بن الجلاء: لولا شرف التواضع لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر.

وقال يوسف بن أسباط: منذ أربعين سنة ما ملكت قميصين.

وقال بعضهم: رأيت كأن القيامة قد قامت، وقيل: أدخلوا مالك بن دينار ومحمد بن واسع الجنة، فنظرت أيهما يتقدم فتقدم محمد بن واسع، فسألت عن سبب تقدمه، فقيل لي: إنه كان له قميص واحد ولمالك قميصان.

وقال محمد المسوحي: الفقير الذي لا يرى لنفسه حاجة إلى شيء من الأسباب.

وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه.

وتذاكروا عند يحيى بن معاذ في الفقر والغنى فقال: لا يوزن غداً لا الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر، فيقال: يشكر ويصبر.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام: إن أردت ان تعرف رضاي عنك، فانظر كيف رضا الفقراء عنك.

وقال أحمد بن نصر الزقاق الكبير: من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام المحض.

وقيل: كان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كأنهم الأمراء.

ويقول أبو بكر بن طاهر: من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة، فإن كان لا بد، فلا تجاوز رغبته كفايته.

وأنشد ابن عطاء لبعضهم:

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه ... فقلتُ خلعةَ ساقٍ حُبّه جُرعا

فقرٌ وصبرٌ هما ثوبايَ تحتهما ... قلبٌ يرى إلفه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي ... والعيد ما كنتَ لي مرأى ومستمعا

وقال أبو بكر المصري وقد سُئل عن الفقير الصادق فقال: هو الذي لا يملك ولا يملك.

وقال ذو النون المصري: دوام الفقر الى الله تعالى مع التخليط أحب إليّ من دوام الصفاء مع العجب.

ويقول أبو عبد الله الحصري: مكث أبو جعفر الحداد عشرين سنة يعمل كل يوم بدينار وينفقه على الفقراء، ويصوم ويخرج بين العشائين. فيتصدق عليه من الأبواب.

ويقول أحمد النوري: نعت الفقير السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود(١).

يقول محمد بن علي الكتاني: كان عندنا بمكة المكرمة حرسها الله تعالى فتى عليه أطمار رثة، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا، فوقعت محبته في قلبي ففتح لي بمائتي درهم من وجه حلال، فحملتها إليه، ووضعتها على طرف سجادته، وقلت له: إنه فتح لي ذلك من وجه حلال تصرفه في بعض أمورك، فنظر إليّ شزراً(٢)، ثم كشف عما هو مستور عني، وقال: اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلات، تريد أن تخدعني عنها بهذه، وقام وبددها، وقعدت التقط فما رأيت كعزه حين مر، ولا كذلي حين كنت التقطها.

---

(١) إن الموجب عند العدم هو ثقة الإنسان بضمان الله تعالى لرزقه، وأما الموجب لإيثاره عند الوجود فهو الوصول لرضا الله تعالى.

(٢) نظر شزراً: نظر بجانب عينه، مع إعراض أو غضب أو احتقار.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: ما وجبت علي زكاة الفطر أربعين سنة، ولي قبول عظيم بين الخاص والعام.

ـ سئل محمد الدقي عن سوء أدب الفقراء مع الله تعالى في أحوالهم، فقال: إنحطاطهم من الحقيقة الى العلم.

يقول خير النساج: دخلت بعض المساجد، وإذا فيه فقير، فلما رآني تعلق بي، وقال: أيها الشيخ، تعطف علي فإن محنتي عظيمة، فقلت: وما هي؟ فقال: فقدت البلاء، وقويت بالعافية، فنظرت فإذا قد فتح عليه بشيء من الدنيا.

يقول محمد بن عمر الوراق: طوبى للفقير في الدنيا والآخرة، فسألوه عنه، فقال: لا يطلب السلطان منه في الدنيا الخراج، ولا الجبار في الآخرة الحساب.

٣٩ ـ التصوف

قال الأستاذ الشيخ: الصفاء محمود بكل لسان، وضده الكدورة مذمومة.

عن يزيد بن أبي زياد عن أبي جحيفة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متغير اللون، فقال: «ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم»(١).

وقال الأستاذ هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجل صوفي وللجماعة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: متصوف، وللجماعة: المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال: إنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف. ومن قال: إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي. ومن قال: إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة. وقول من قال: إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق، وتكلم الناس في التصوف ما معناه، وفي الصوفي من هو؟ فكل عبر بما وقع له وسنذكر بعض مقالاتهم فيه على التلويح.

---

(١) الحديث: قال في الكنز ٥٥١/١٥ رقم الحديث ٤٢١٣٨: رواه الدارقطني عن جابر.

سُئل أحمد الجريري عن التصوف، فقال: الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني.

وسُئل الجنيد عن التصوف، فقال: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به.

وسُئل الحسين بن منصور عن الصوفي، فقال: وحداني الذات، لا يقبله أحد، ولا يقبل أحداً.

يقول أبو حمزة البغدادي: علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الشهرة، وعلامة الصوفي الكاذب أن يستغني بعد الفقر، ويعز بعد الذل، ويشتهر بعد الخفاء.

وسُئل عمرو بن عثمان المكي عن التصوف، فقال: أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت.

وقال محمد بن علي القصاب: التصوف أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم، مع قوم كرام.

وسُئل سمنون عن التصوف، فقال: أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء.

وسُئل رويم عن التصوف فقال: استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد.

وسُئل الجنيد عن التصوف، فقال: هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة.

يقول رويم بن أحمد: التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار.

وقال معروف الكرخي: التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق.

وقال حمدون القصار: اصحب الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به.

وسُئل الخراز عن أهل التصوف، فقال: أقوام أعطوا حتى بسطوا(1)،

(1) بسطوا: أي والى عليهم الحق نعمه، وخوارق عاداته، حتى سكنوا إليه، وانشرحت صدورهم إليه.

ومنعوا(١) حتى فقدوا(٢)، ثم نودوا من أسترار قريبة(٣): ألا فابكوا علينا.

وقال الجنيد: التصوف عنوة لا صلح فيها. وقال أيضاً: هم أهل بيت وأحد لا يدخل فيهم غيرهم. وقال أيضاً: التصوف ذكر مع اجتماع(٤)، ووجد مع استماع(٥)، وعمل مع اتباع. وقال أيضاً: الصوفي كالأرض، يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح. وقال أيضاً: إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء. وقال: إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره، فاعلم أن باطنه خراب.

وقال سهل بن عبد الله: الصوفي من يرى دمه هدراً وملكه مباحاً.

وقال أحمد النوري: نعت الصوفي السكون عند العدم والايثار عند الوجود.

وقال محمد بن علي الكتاني: التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء.

وقال أحمد بن محمد الروذباري: التصوف الإناخة(٦) على باب الحبيب، وإن طرد عنه، وقال أيضاً: صفوة القرب بعد كدورة البعد.

وقيل: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح.

وقيل: التصوف كف فارغ وقلب طيب.

وقال دلف الشبلي: التصوف الجلوس مع الله تعالى بلا هم.

وقيل: الصوفي هو المشير عن الله عز وجل، فإن الخلق أشاروا إلى الله تعالى.

---

(١) منعوا عن الالتفات إلى غيره.

(٢) فقدوا: أي فنوا عن أنفسهم فلم يلتفتوا إليها.

(٣) قريبة: لطيفة.

(٤) بأن لا يحدّث الذاكر نفسه بغير ما هو فيه، لأن الذكر مع الغفلة مذموم.

(٥) لأن الوجد الصحيح ما كان عن سماع صحيح، محرك للقلوب ليكون سنده كتاب الله تعالى أو سنة رسوله أو نحوهما.

(٦) الإناخة: الإقامة.

وقال دلف الشبلي : الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق ، كقوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾(١) قطعه عن كل غير ، ثم قال : لن تراني . وقال أيضاً : الصوفية أطفال في حجر الحق . وقال أيضاً : التصوف برقة(٢) محرقة . وقال أيضاً : هو العصمة عن رؤية الكون .

وقال رويم بن أحمد : ما تزال الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم .

وقال أحمد الجريري : التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب .

وقال علي المزين : التصوف الانقياد للحق .

وقال عسكر النخشبي : الصوفي لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء .

وقيل : الصوفي لا يتبعه طلب ، ولا يزعجه سبب .

سُئل ذون النون المصري عن الصوفيين ، فقال : هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء ، فآثرهم الله عز وجل على كل شيء .

وقال محمد الواسطي : كان للقوم إشارات ، ثم صارت حركات ، ثم لم يبق إلا حسرات .

وسُئل أحمد النوري عن الصوفي ، فقال : هو الذي سمع السماع وآثر الأسباب .

يقول أبو نصر السراج الطوسي : قلتُ لعلي الحصري : من الصوفي عندك؟ فقال : الذي لا تقله الأرض ولا تظله السماء . قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : إنما أشار إلى حال المحو .

وقيل : الصوفي من إذا استقبله حالان أو خلقان كلاهما حسن ، كان مع الأحسن .

وسُئل دلف الشبلي : لماذا سموا بهذه التسمية؟ فقال : لبقية بقيت عليهم من

---

(١) الآية : سورة طه : ٤١ .

(٢) البَرْقة : الدهشة والخوف . البُرْقة : أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين .

نفوسهم، ولولا ذلك لمّا تعلقت بهم تسمية.

وسُئل أحمد بن الجلاء: ما معنى صوفي؟ فقال: لا نعرفه في شرط العلم، ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب، كان مع الله تعالى بلا مكان، ولا يمنعه الحق سبحانه من علم كل مكان، فسمي صوفياً.

وقال أبو يعقوب المزابلي: التصوف حال تضمحل فيها معالم الإنسانية.

وقال أبو الحسن السيرواني: الصوفي يكون مع الواردات لا مع الأوراد.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: أحسن ما قيل في هذا الباب قول من قال: هذا طريق لا يصلح إلا للأقوام، قد كنس الله تعالى بأرواحهم المزابل. وقال رحمه الله تعالى يوماً: لم يكن للفقير إلا روح فعرضها على كلاب هذا الباب فلم ينظر كلب إليها.

وقال أبو سهل الصعلوكي رحمه الله تعالى: التصوف الإعراض عن الإعتراض.

وقال علي الحصري: الصوفي لا يوجد بعد عدمه، ولا يعدم بعد وجوده. قال الاستاذ أبو القاسم القشيري: ومعنى قوله: لا يوجد بعد عدمه، أي إذا فنيت آفاته لا تعود تلك الآفات، وقوله: ولا يعدم بعد وجوده، أي إذا اشتغل بالحق علم يسقط بسقوط الخلق، فالحادثات لا تؤثر فيه.

ويقال: الصوفي هو المصطلم عنه بما لاح له من الحق.

ويقال: الصوفي مقهور بتصريف الربوبية، مستور بتصرف العبودية.

ويقال: الصوفي لا يتغير، فإن تغير لا يتكدر.

٤٠ - الأدب

قال الله عز وجل: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(١) قيل(٢): حفظ آداب الحضرة. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا

(١) الآية: سورة النجم: ١٧.

(٢) حفظ: أي النبي ﷺ حفظ بذلك ما لله من الحقوق التي لزمته.

﴿النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١)، جاء في التفسير عن ابن عباس: فقهوهم وأدبوهم.

عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «حق الولد على والده: أن يحسن اسمه، ويحسن مرضعه، ويحسن أدبه»(٢).

وروي عن سعيد بن المسيّب أنه قال: من لم يعرف ما لله عزّ وجلّ عليه في نفسه، ولم يتأدب بأمره ونهيه كان في الأدب في عزلة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل أدبني فأحسن أدبي»(٣).

وحقيقة الأدب اجتماع خصال الخير، فالأديب هو الذي اجتمعت فيه خصال الخير، ومنه المأدبة اسم للمجمع.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى وسمعته يقول: رأيت من أراد ان يمد يده في الصلاة إلى أنفه فقبض على يده، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: وإنما أشار إلى نفسه. وكان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء، وكان يوماً في مجمع، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأني رأيته غير مستند، فتنحى عن الوسادة قليلا، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملته بعده فكان لا يستند إلى شيء.

يقول الجلاجلي البصري: التوحيد موجب يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له فلا توحيد له، والإيمان موجب يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له فلا إيمان له ولا توحيد، والشريعة موجب يوجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد.

---

(١) الآية: سورة التحريم: ٦.

(٢) الحديث: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير رقم ٣٧٤٦.

(٣) الحديث: رواه ابن مسعود، وأخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء. وصحّحه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٣١٠، ولكن المناوي ضعّفه في الفيض ١/ ٢٤٤، والسخاوي في المقاصد

وقال ابن عطاء: الأدب الوقوف مع المستحسنات، فقيل: وما معناه؟ قال: أن تعامل الله تعالى بالأدب سراً وعلناً، فإذا كنت كذلك كنت أديباً ولو كنت أعجمياً، ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل ملاحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

يقول عبد الله الجريري: منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسي في الخلوة، فإن حسن الأدب مع الله تعالى أولى.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل الى القتل.

روي عن ابن سيرين أنه سئل: أي الآداب أقرب إلى الله تعالى؟ فقال: معرفة بربوبيته، وعمل بطاعته، والحمد لله على السراء، والصبر على الضراء.

وقال يحيى بن معاذ: إذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: ترك الأدب موجب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب.

وقيل للحسن البصري: قد أكثر الناس في علم الآداب، فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً، فقال: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عز وجل عليك.

وقال يحيى بن معاذ: من تادب بادب الله تعالى صار من أهل محبة الله تعالى.

وقال سهل بن عبد الله: لقد استعان القوم بالله تعالى على أمر الله تعالى، وصبروا لله تعالى على آداب الله تعالى.

وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: نحن الى قليل من الأدب أحوج منا الى كثير من العلم. وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون.

وقيل: ثلاث خصال ليس معهن غربة: مجانبة أهل الريب، وحسن الأدب،

وكذا الأذى، وأنشدنا الشيخ أبو عبد الله في هذا المعنى :

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب.
وثانية حسن أخلاقه وثالثة اجتناب الريب

ولما دخل أبو حفص بغداد، قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين، فقال أبو حفص: حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن.

وعن عبد الله بن المبارك أنه قال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف.

سمعت منصور بن خلف المغربي يقول: قيل لبعضهم: يا سيء الأدب، فقال: لست بسيء الأدب، فقيل له: من أدبك؟ فقال: أدبني الصوفية.

قال أبو نصر السراج الطوسي: الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب. وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات. وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الإلتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب.

وروي عن سهل بن عبد الله أنه قال: من قهر نفسه بالأدب، فهو يعبد الله تعالى بالإخلاص.

وقيل: كمال الأدب لا يصفو إلا للأنبياء عليهم السلام والصديقين.

وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر الناس في الأدب، ونحن نقول: هو معرفة النفس.

وقال دلف الشبلي: الإنبساط بالقول مع الحق سبحانه وتعالى ترك الأدب.

وقال ذو النون المصري: أدب العارف فوق كل أدب لأن معروفه يؤدب قلبه.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت: الأدب أو العطب.

وقيل: مدّ ابن عطاء رجله يوماً بين أصحابه، وقال: ترك الأدب بين أهل الأدب أدب، ويشهد لهذه الحكاية الخبر الذي روى أن النبي ﷺ كان عنده أبو بكر وعمر، فدخل عثمان، فغطى فخذه وقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة، نبه ﷺ أن حشمة عثمان رضي الله عنه وإن عظمت عنده، فالحالة التي بينه وبين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كانت أصفى، وفي قريب من هذا المعنى أنشدوا:

في انقباض وحشمة فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

وقال الجنيد: إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب[1].

قال أبو عثمان الحيري: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب.

وقال أحمد النوري: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

وقال ذو النون المصري: إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول في قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2]، قال: لم يقل: (ارحمني) لأنه حفظ آداب الخطاب. وكذلك عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[3] وقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[4] ولم يقل: (لم أقل) رعاية لآداب الحضرة.

يقول الجنيد: جاءني بعض الصالحين يوم جمعة، فقال لي: ابعث معي فقيراً

---

(١) سقوط شروط الأدب هنا يكون تكلفاً لا وجوداً.

(٢) الآية: سورة الأنبياء: ٨٣.

(٣) الآية: سور المائدة: ١١٨.

(٤) الآية: سورة المائدة: ١١٦.

يدخل عليّ سروراً، ويأكل معي شيئاً، فالتفت فإذا أنا بفقير، شهدت فيه الفاقة فدعوته، وقلت له: امض مع هذا الشيخ وأدخل عليه سروراً، فمضى، فلم ألبث أن جاءني الرجل، وقال لي: يا أبا القاسم لم يأكل ذلك الرجل إلا لقمة وخرج، فقلت: لعلك قلت كلمة جفاء عليه، فقال لي: لم أقل له شيئاً، فالتفت فإذا أنا بالفقير جالس، فقلت له: لماذا لم تتم عليه السرور؟ فقال: يا سيدي خرجت من الكوفة(١)، وقدمت بغداد، ولم آكل شيئاً، وكرهت أن يبدو سوء أدب مني من جهة الفاقة في حضرتك، فلمّا دعوتني سررت إذ جرى ذلك ابتداء منك، فمضيت وأنا لا أرضى له الجنان(٢)، فلمّا جلست على مائدته يسوّي لقمة، وقال: كل فهذا أحب إليّ من عشرة آلاف درهم، فلما سمعت هذا منه علمت أنه دنيء الهمة، فتظرفت أن آكل طعامه، فقال الجنيد: ألم أقل لك إنك أسأت أدبك معه، فقال: يا أبا القاسم، التوبة فسأله أن يمضي معه ويفرحه

٤١ ـ أحكام السفر

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾(٣)

عن ابن عمر كان رسول الله ﷺ إذا استوى على البعير خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾(٤)، ثم يقول: «اللهم، إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، ، وهوّن علينا سفرنا، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في المال والأهل»، فإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: «آيبون، تائبون، لربنا حامدون»(٥).

---

(١) الكوفة: مدينة في العراق على الشاطىء الغربي للفرات أسسها سعد بن أبي وقاص بعد القادسية ٦٣٨ م. واتخذها العباسيون عاصمة ٧٤٩ م. وتقلص ظلها بعد تأسيس بغداد. أنجبت علماء ومحدثين ونحويين. كانت مع البصرة مركزاً للثقافة العربية.

(٢) لا أرضى له الجنان بل أتمنى له ما هو أعلى منها.

(٣) الآية: سورة يونس: ٢٢.

(٤) الآية: سورة الزخرف: ١٣ و١٤.

(٥) الحديث: أخرجه مسلم رقم (١٣٤٢) في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج =

قال الأستاذ الشيخ: لما كان رأي كثير من هذه الطائفة اختيار السفر، أفردنا لذكر السفر في هذه الرسالة باباً، لكونه من أعظم شأنهم، وهؤلاء مختلفون: فمنهم من آثر الإقامة على السفر ولم يسافر، إلا لغرض كحجة الإسلام، والغالب عليهم الإقامة مثل الجنيد وسهل بن عبد الله وأبي يزيد البسطامي وأبي حفص وغيرهم. ومنهم من آثر السفر، وكانوا على ذلك إلى أن خرجوا من الدنيا مثل أبي عبد الله المغربي وإبراهيم بن أدهم وغيرهم. وكثير منهم سافروا في حال ابتداء شبابهم أسفاراً كثيرة ثم قعدوا عن السفر في آخر أحوالهم مثل سعيد بن إسماعيل الحيري ودلف الشبلي وغيرهم، ولكل منهم أصول بنوا عليها طريقتهم.

واعلم أن السفر على قسمين: سفر بالبدن وهو الانتقال من بقعة إلى بقعة، وسفر بالقلب وهو الارتقاء من صفة إلى صفة، فترى الكثيرين يسافرون بأجسامهم، والقلائل يسافرون بقلوبهم.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: كان في قرية بظاهر نيسابور شيخ من شيوخ هذه الطائفة، وله على هذا اللسان تصانيف، سأله بعض الناس: هل سافرت أيها الشيخ؟ فقال: سفر الأرض أم سفر السماء؟ سفر الأرض لا، وسفر السماء بلى. وسمعته رحمه الله تعالى يقول: جاءني بعض الفقراء يوماً وأنا بمرو، فقال لي: قطعت إليك شقة بعيدة، والمقصود لقاؤك، فقلت له: كان يكفيك خطوة واحدة، لو سافرت عن نفسك.

وحكاياتهم في السفر تختلف عما ذكرنا من أقسامهم في أحوالهم. يقول أحنف الهمداني: كنت في البادية: وحدي، فأعييت، فرفعت يدي وقلت: يا رب، ضعيف زمن، وقد جئت إلى ضيافتك، فوقع في قلبي أن يقال لي: من دعاك؟ فقلت: يا رب، هي مملكة تحتمل الطفيلي، فإذا أنا بهاتف من ورائي، فالتفت فإذا أعرابي على راحلة، فقال: يا أعجمي إلى أين؟ قلت: إلى مكة المكرمة حرسها الله تعالى، قال: أو دعاك؟ قلت: لا أدري، فقال: أليس قد قال: ﴿من استطاع إليه

= وغيره، والترمذي رقم (٣٤٤٤) في الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا ركب دابة، وأبو داود رقم (٢٥٩٩) في الجهاد باب ما يقول الرجل إذا سافر.

سبيلاً ﴾(١) ؟ فقلت : المملكة واسعة تحتمل الطفيلي ، فقال : يا طفيلي أنت ، أيمكنك أن تخدم الجمل ؟ ، قلت : نعم ، فنزل عن راحلته وأعطانيها ، وقال : سر عليها .

قال بعض الفقراء لمحمد الكتاني : أوصني ، قال : اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، وأن لا تموت إلا بين منزلين .

ويروى عن عليّ الحصري أنه كان يقول : جلسة خير من ألف حجة ، وإنما أراد جلسة تجمع الهم على نعت الشهود ، ولعمري إنها أتم من ألف حجة على وصف الغيبة عنه .

وقال محمد بن إسماعيل الفرغاني : كنا نسافر مقدار عشرين سنة أنا وأبو بكر الزقاق ومحمد الكتاني لا نختلط بأحد ولا نعاشر أحداً ، فإذا قدمنا بلداً فإن كان فيه شيخ سلمنا عليه وجالسناه الى الليل ، ثم نرجع إلى مسجد فيصلي محمد الكتاني من أول الليل إلى آخره ، ويختم القرآن الكريم ويجلس الزقاق مستقبلاً القبلة ، وكنت أستلقي متفكراً ، ثم نصبح ونصلي صلاة الفجر على وضوء العتمة ، فإذا وقع معنا إنسان ينام كنا نراه أفضلنا .

سئل رويم بن أحمد عن أدب السفر فقال : أن لا يجاوز همه قدمه ، وحيثما وقف قلبه يكون منزله .

وروي عن مالك بن دينار أنه قال : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : اتخذ نعلين من حديد ، وعصا من حديد ، ثم سح في الأرض واطلب الآثار والعبر ، حتى ينخرق النعلان وتنكسر العصا .

وقيل : كان محمد بن إسماعيل المغربي يسافر دائماً ومعه أصحابه ، ويكون محرماً ، فإذا تحلل من إحرامه أحرم ثانياً ولم يتسخ له ثوب ، ولا طال له ظفر ولا شعر ، وكان أصحابه يمشون في الليل وراءه ، فكان إذا حاد أحدهم عن الطريق يقول : يمينك يا فلان ، يسارك يا فلان ، وكان لا يمد يده إلى ما وصلت إليه يد

---

(١) الآية : سورة آل عمران : ٩٧ .

الأدميين ، وكان طعامه أصل شيء من النبات ، يؤخذ فيقطع لأجله ، وقيل : كل صاحب يقول له : قم فيقول : إلى أين ؟ فليس بصاحب ، وقال الشاعر :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم لأي مكان

ورُوي عن أبي علي الرباطي قال: صحبتُ عبدَ الله المروزي وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد ولا راحلة، فلما صحبتُه قال لي: أيما أحب إليك تكون أنت الأمير أم أنا؟ فقلتُ: لا، بل أنت، فقال: وعليك الطاعة، فقلتُ: نعم، فأخذ مخلاة، ووضع فيها زاداً وحملها على ظهره، فإذا قلتُ: أعطني حتى أحملها، قال: الأمير أنا وعليك الطاعة، قال: فأخذنا المطر ليلة، فوقف إلى الصباح على رأسي وعليه كساء يمنع عني المطر، فكنت أقول في نفسي: يا ليتني مت ولم أقل له: أنت الأمير، ثم قال لي: إذا صحبتَ إنساناً فاصحبه كما رأيتني صحبتك.

وقدم شاب على أحمد بن محمد الروذباري فلما أراد الخروج قال: يقول الشيخ شيئاً فقال: يا فتى كانوا لا يجتمعون عن موعد ولا يتفرقون عن مشورة.

وقال أبو عبد الله النصيبيني: سافرتُ ثلاثين سنة ما خُطت قط خرقة على مرقعتي، ولا عدلت إلى موضع علمتُ أن لي فيه رفيقاً، ولا تركت أحداً يحمل معي شيئاً.

واعلم: أن القوم استوفوا آداب الحضور من المجاهدات ثم أرادوا أن يضيفوا إليها شيئاً، فأضافوا أحكام السفر إلى ذلك، رياضة لنفوسهم حتى أخرجوها عن المعلومات، وحملوها على مفارقة المعارف، كي يعيشوا مع الله عز وجل بلا علاقة ولا واسطة، فلم يتركوا شيئاً من أورادهم في أسفارهم، وقالوا: الرخص لمن كان سفره ضرورة، ونحن لا شغل لنا ولا ضرورة في أسفارنا علينا.

قال النصرآباذي: ضعفت في البادية مرة فيئست من نفسي، فوقع بصري على القمر وكان ذلك بالنهار، فرأيت مكتوباً عليه ﴿فسيكفيكهم الله﴾ (١) فاستقللت وفتح عليَّ من ذلك الوقت هذا الحديث.

---

(١) الآية: سورة البقرة: ١٣٧.

وقال أبو يعقوب السوسي: يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره: علم يسوسه، وورع يحجزه، ووجد يحمله، وخلق يصونه.

وقيل: سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وقيل: كان إبراهيم الخواص لا يحمل شيئاً في السفر، وكان لا يفارقه الإبرة والركوة، أما الإبرة فلخياطة ثوبه إن تمزق ستراً للعورة، وأما الركوة فللطهارة، وكان لا يرى لذلك علاقة ولا معلوماً.

وروي عن أبي عبد الله الرازي قال: خرجت من طرسوس حافياً، وكان معي رفيق، فدخلنا بعض قرى الشام، فجاءني فقير بحذاء، فامتنعت من قبوله، فقال لي رفيقي: البس هذا فقد عييت، فإنه قد فتح عليك بهذا النعل بسببي، فقلت: ما لك؟ فقال: نزعت نعلي موافقة لك ورعاية لحق الصحبة.

وقيل: كان إبراهيم الخواص في سفر ومعه ثلاث نفر فبلغوا مسجداً في بعض المفارز وباتوا فيه ولم يكن له باب وكان برد شديد، فقاموا فلما أصبحوا رأوه واقفاً على الباب فقالوا له في ذلك فقال: خشيت أن تجدوا البرد، وكان قد وقف طيلة ليلته.

وقيل: إن محمد الكتاني استأذن أمه في الحج فأذنت له، فخرج، فأصاب ثوبه البول في البادية، فقال: إن هذا الخلل في حالي، فانصرف، فلما دق باب داره أجابته أمه، ففتحت فرآها جالسة خلف الباب، فسألها عن جلوسها، فقالت له: منذ خرجت، اعتقدت أن لا أبرح هذا الموضع حتى أراك.

يقول إبراهيم القصار: سافرت ثلاثين سنة أصلح قلوب الناس للفقراء.

وقيل: زار رجل داود الطائي فقال له: يا أبا سليمان كانت نفسي تنازعني الى لقائك منذ زمان، فقال: لا بأس إذا كانت الأبدان هادئة، والقلوب ساكنة، فالتلاقي أيسر. سمعت أبا نصر الصوفي رحمه الله تعالى يقول: خرجت من البحر بعمان(١)، وقد أثر في الجوع، فكنت أمر في السوق، فبلغت حانوت مأكولات، فرأيت فيه

---

(١) عمان. سلطنة مستقلة في شبه الجزيرة العربية. تقع بين خليج عمان والمشيخات المحمية =

حملانا مشوية وحلواء، فتعلقت برجل وقلت له: اشتر لي من هذه الأشياء فقال: لماذا؟ ألك عليّ شيء؟ أو عندي دين؟ فقلت: لا بد أن تشتري لي من هذا، فرآني رجل، فقال: اتركه يا فتى، إن الذي يجب أن يشتري لك ما تريد أنا لا هو، اقترح عليّ واحكم بما تريد، ثم اشترى لي ما أردت وذهب.

وقال أبو الحسين المصري: اتفقت مع الشجري في السفر من طرابلس[1] فسرنا أياماً لم نأكل شيئاً، فرأيت قرعاً مطبوخاً، فأخذت آكله، فالتفت إليّ الشيخ ولم يقل شيئاً فرميت به وعلمت أنه كرهه، ثم فتح علينا بخمسة دنانير، فدخلنا قرية، فقلت: يشتري لنا شيئاً لا محالة فمر ولم يفعل، ثم قال: لعلك تقول: نمشي جياعاً ولم تشتر لنا شيئاً، هوذا، فوافي اليهودية قرية على الطريق، وثم رجل صاحب عيال، إذا دخلناها، يشتغل بنا، فادفعها إليه، لينفقها علينا وعلى عياله، فوصلنا إليها، ودفع الدنانير إلى الرجل فأنفقها، فلما خرجنا قال لي: إلى أين يا أبا الحسين؟ فقلت: أسير معك، فقال: لا إنك تخونني في قرعة، وتصحبني، لا تفعل وأبى أن أصحبه.

سمعت محمد بن عبد الله الشيرازي يقول: سمعت أبا أحمد الصغير يقول: سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول: كنت في حال حداثتي استقبلني بعض الفقراء، فرأى فيّ أثر الضر والجوع، فأدخلني داره وقدم إليّ لحماً طبخ بالكشك، وكان اللحم متغير الطعم، فكنت آكل الثريد وأتجنب اللحم لتغيره، فلقمني لقمة فأكلتها بجهد، ثم لقمني ثانية فبلغتني مشقة، فرأى ذلك فيّ، وخجل وخجلت لأجله، فخرجت وانزعجت في الحال للسفر، فأرسلت إلى والدتي من يحمل إليّ مرقعتي، فلم تعارضني الوالدة ورضيت بخروجي، فارتحلت من القادسية[2] مع جماعة من

- والربع الخالي وحضرموت وبحر عمان. عاصمتها مسقط.

(١) طرابلس: مدينة لبنانية هامة. وهي مرفأ هام تنتهي إليها أنابيب نفط العراق. وهي من المدن الفينيقية فتحها العرب ٧٠٥ م. نكبتها الزلازل ١١٧٠ م. ودخلها السلطان قلاوون ١٢٩١ م. ثم انتقلت للعثمانيين.

(٢) القادسية: مدينة في العراق. هزم العرب فيها الفرس، وفتحوا بلاد الفرس للإسلام ٦٣٦ م بقيادة سعد بن أبي وقاص.

الفقراء، فضعفنا ونفد ما كان معنا وأشرفنا على التلف، فوصلنا الى حي من أحياء العرب ولم نجد شيئاً، واضطررنا إلى أن اشترينا منهم كلباً بدنانير وشووه، وأعطوني قطعة من لحمه، فلمّا أردتُ أكله فكّرتُ في حالي فوقع لي أنه عقوبة خجل ذلك الفقير، فتبتُ في نفسي وسكتُ فدلّونا على الطريق، فمضيتُ وحججتُ ثم رجعتُ معتذراً الى الفقير.

٤٢ ـ الصحبة

قال الله عز وجلّ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(١).

قال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: لما أثبت سبحانه للصِّدِّيق رضي الله عنه الصُّحبة، بيّن أنه أظهر عليه الشفقه، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ، إنّ الله مَعَنَا﴾ فالحرّ شفيق على من يصحبه.

عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «متى ألقى أحبابي؟» فقال أصحابه: بأبينا أنتَ وأمنا، أو لسنا أحبابك؟ فقال: «أنتم أصحابي، أما أحبابي فهم قوم لم يروني، وآمنوا بي، وأنا إليهم بالأشواق لأكثر»(٢).

والصحبة على ثلاثة أقسام: صحبة مع مَنْ فوقك، وهي في الحقيقة خدمة، وصحبة مع من دونك وهي تقضي على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والحرمة، وصحبة الأكفاء والنظراء، وهي مبنيّة على الإيثار والفتوة، فمن صحب شيخاً فوقه في الرتبة، فأدبه ترك الاعتراض، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل، وتلقي أحواله بالإيمان به.

سمعتُ منصور بن خلف المغربي وقد سأله بعض أصحابنا: كم سنة صحبتَ سعيدَ بن سلام المغربي؟ فنظر إليه شزراً، وقال: إني لم أصحبه بل خدمته مدة.

---

(١) الآية: سورة التوبة: ٤٠.

(٢) الحديث: قال في كنز العمال ١٤/٥٢ رقم ٣٧٩١٣: رواه أبو الشيخ في الثواب.

وأما إذا صحبك مَن هو دونك فالخيانة منك في حق صحبته أن لا تنبهه على ما فيه من نقصان في حالته.

كتب أبو الخير التيناتي إلى جعفر بن محمد بن نصر: وزر جهل الفقراء عليكم، لأنكم اشتغلتم بنفوسكم عن تأديبهم فبقوا جهلة، وأما إذا صحبت من هو في درجتك فسبيلك التعامي عن عيوبه، وحمل ما ترى منه على وجه من التأويل جميل ما أمكنك، فإن لم تجد تأويلات تحدت إلى نفسك بالتهمة، وإلى التزام اللائمة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: إن فلاناً لا يقع من قلبي، فقال أبو سليمان: وليس يقع أيضاً من قلبي، ولكن يا أحمد لعلنا أوتينا من قبلنا، لسنا من جملة الصالحين، فلسنا نحبهم(١).

وقيل: صحب رجل إبراهيم بن أدهم، فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل: إن رأيت فيّ عيباً فنبهني عليه، فقال إبراهيم: إني لم أر بك عيباً، لأني لاحظتك بعين الوداد فاستحسنت منك ما رأيت، فسل غيري عن عيبك، وفي هذا المعنى قالوا:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

قال أبو أحمد القلانسي: صحبت أقواماً بالبصرة فأكرموني، فقلت مرة لبعضهم: أين إزاري؟ فسقطت من أعينهم.

قال رجل لسهل بن عبد الله: أريد ان أصحبك يا أبا محمد، فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الباقي؟ فقال: الله تعالى، فقال فليصحبه الآن.

وكان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد وحفظ البساتين وغيره، وينفق على أصحابه. وقيل: كان مع جماعة من أصحابه فكان يعمل بالنهار وينفق عليهم، ويجتمعون بالليل في موضع وهم صيام، فكان يبطىء في الرجوع من العمل، فقالوا

(١) أي: حقنا أن نحبهم، وإن لم نكن منهم، وفي ذلك دلالة: على أنه ينبغي للعبد إذا وجد نقصاً في غيره أن يرده إلى نفسه، وعلى أنه حق من المتكافئين أن ينبه كلّ صاحبه فيما يحتاج إلى التنبيه فيه، برفق وحسن سياسة.

ذات ليلة: تعالوا نأكل فطورنا دونه، حتى يعود بعد هذا أسرع، فأفطروا وناموا، فلما رجع إبراهيم وجدهم نائمين فقال: مساكين، لعلهم لم يكن لهم طعام، فعمد إلى شيء من الدقيق كان هناك، فعجنه وأوقد النار ووضع الملة(١)، فانتبهوا وهو ينفخ في النار، واضعاً محاسنه على التراب، فقالوا له في ذلك، فقال: قلت لعلكم لم تجدوا فطوراً فنمتم، فأحببت أن تستيقظوا والملة قد أدركت، فقال بعضهم لبعض: انظروا إيش الذي عملنا، وإيش الذي به يعاملنا.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه أحد شارطه على ثلاثة أشياء: أن تكون الخدمة والأذان له، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله تعالى عليهم من الدنيا كيدهم، فقال له ذات يوم رجل من أصحابه: أنا لا أقدر على هذا، فقال: أعجبني صدقك.

وقال يوسف بن الحسين: قلت لذي النون المصري: مع مَنْ أصحب؟ فقال: مع مَنْ لا تكتمه شيئاً يعلمه الله تعالى منك.

وقال سهل بن عبد الله لرجل: إن كنتَ ممن يخاف السباع فلا تصحبْني

قال بشر بن الحارث: صحبة الأشرار توجب سوء الظن بالأخيار.

وقال الجنيد: لما دخل أبو حفص بغداد، كان معه إنسان أصلع لا يتكلم بشيء، فسألتُ أصحاب أبي حفص عن حاله، فقالوا: هذا رجل أنفق عليه مائة ألف درهم، واستدان مائة ألف درهم أنفقها عليه، ولا يرخص أبو حفص أن يتكلم بحرف(٢).

وقال ذو النون المصري: لا تصحبْ مع الله تعالى إلاّ بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان(٣) إلا

---

(١) الملة: الرماد الحار والجمر.

(٢) وذلك لما رآه في حقه: من أن السكوت أفضل له، وربما كان الغالب عليه آفة لسانه، وهي أعظم الآفات، فمن قوي على الخلاص منها، قوي على ما هو دونها.

(٣) الشيطان: جمع شياطين، وهو روح شريرة، وسمي بذلك لبعده عن الخير والحق، كما يطلق على كل عات متمرد من إنس أو جن، ومنه: شياطين العرب أي متمردوها.

بالعداوة. وقال رجل لذي النون المصري: مَنْ أصاحب؟ فقال: مَن إذا مرضت عادك، وإذا أذنبت تاب عليك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الشجر إذا نبت بنفسه، ولم يستنبته أحد يورق ولكنه لا يثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به لا يجيء منه شيء. وكان الأستاذ أبو علي يقول: أخذت هذا الطريق عن النصر آباذي، والنصر آباذي عن الشبلي، والشبلي عن الجنيد، والجنيد عن السري والسري عن معروف الكرخي، ومعروف الكرخي عن داود الطائي، وداود الطائي لقي التابعين: وسمعته رحمه الله تعالى يقول: لم أختلف إلى مجلس النصر آباذي قط إلا اغتسلت قبله.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: لم أدخل على الأستاذ أبي علي في وقت بدايتي إلا صائماً، وكنت أغتسل قبله، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة، فأرجع من الباب احتشاماً منه أنْ أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شبه خدر، حتى لو غرز فيَّ إبرة مثلاً، لعلي كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لي لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتي، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً، وكنت أفكر في نفسي كثيراً أنه لو بعث الله عز وجل في وقتي رسولاً إلى الخلق هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبي فوق ما كان منه رحمه الله تعالى، فكان لا يتصور لي أن ذلك ممكن. ولا أذكر أني في طول اختلافي إلى مجلسه، ثم كوني معه بعد حصول الوصلة أن جرى في قلبي، أو خطر ببالي عليه اعتراض، إلى أن خرج رحمه الله تعالى من الدنيا.

قال محمد بن النضر الحارثي: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: (كنْ يقظاناً مرتاداً لنفسك أخداناً(١)، وكل خدن لا يؤاتيك على مسرَّة فاقصه(٢)، ولا تصحبه فإنه يقسي قلبك، وهو لك عدو، وأكثر من ذكري تستوجب شكري، والمزيد من فضلي.

(١) الخدن: جمع أخدان: وهو الحبيب والصاحب، وهو لفظ يُستعمل للمذكر وللمؤنث.

(٢) اقصه: أبعده عنك.

يقولُ أبو بكر الطمستاني: اصحبوا مع الله تعالى، فإن لَم تطيقوا فاصحبوا مع مَنْ يَصْحب مع الله تعالى لتوصلكم بركات صحبتهم إلى صحبة الله عز وجلّ.

٤٣ ـ التوحيد

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد، فقال لأهله: إذا متُّ فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروا نصفي في البر، ونصفي في البحر، في يوم ريح، ففعلوا، فقال الله عز وجلّ للريح: أدّي ما أخذتِ فإذا هو بين يديه، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: استحياء منك، فغفر له»(٢).

قال الأستاذ: التوحيد هو الحكم بأنّ الله تعالى واحد، والعلم بأن الشيء واحدٌ أيضاً توحيدٌ.

ويقال: وحدّتُه إذا وصفتُه بالوحدانية، كما يقال: شجّعت فلاناً إذا نسبتُه إلى الشجاعة. ويقال في اللغة: وحَد يحدُ فهو واحد وَوَحَدٌ ووحيد، كما يقال: فَرَد فهو فارد وفَرَدٌ وفريدٌ، والأصل: أحد ـ وحد، فقلبت الواو همزة، والواو المفتوحة قد تُقلب همزة، كما تُقلب المكسورة والمضمومة.

ومعنى كونه سبحانه واحداً على لسان العلم قيل: هو الذي لا يصح في وصفه الوضع والرفع بخلاف قولك إنسان واحد، لأنك تقول: إنسان بلا يد ولا رجل، فيصح رفع شيء منه، والحق سبحانه أحديّ الذات بخلاف اسم الجملة الحاملة.

---

(١) الآية: سورة البقرة: ١٦٣.

(٢) الحديث: رواه أبو هريرة. وأخرجه البخاري ١٣/٣٩٢ في التوحيد باب قول الله تعالى ﴿يريدون ان يبدلوا كلام الله﴾ وفي الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ومسلم رقم ٢٧٥٦، في التوبة باب في سعة رحمة الله تعالى وانها سبقت غضبه، والنسائي ٤/١١٣ باب أزواج المؤمنين في الجنائز، وأحمد في المسند ٥/٣٨٣ والموطأ ١/٢٤٠ في الجنائز باب جامع الجنائز.

وقال بعض أهل التحقيق: معنى أنه واحد نفي القسيم لذاته، ونفي التشبيه عن حقه وصفاته، ونفي الشريك معه في أفعاله ومصنوعاته.

والتوحيد ثلاثة: الأول: توحيد الحق للحق وهو علمه بأنه واحد والثاني توحيد الحق سبحانه للخلق وهو حكمه سبحانه بأن العبد موحد وخلقه توحيد العبد. والثالث توحيد الخلق للحق سبحانه، وهو علم العبد بأن الله عز وجل واحد، وحكمه وإخباره عنه بأنه واحد، فهذه جملة في معنى التوحيد على شرط الإيجاز والتحديد.

سُئل ذو النون المصري عن التوحيد، فقال: أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وكل ما تصور في نفسك فالله عز وجل بخلافه.

قال أحمد الجريري: ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد.

وسُئل الجنيد عن التوحيد، فقال: إفراد المُوحَّد بتحقيق وحدانيته، بكمال أحديته، أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. وقال الجنيد: إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد تناهت إلى الحيرة. وسُئل الجنيد عن التوحيد فقال: معنى تضمحل فيه الرسوم، وتندرج فيه العلوم، ويكون الله تعالى كما لم يزل.

وقال علي الحصري: أصولنا في التوحيد خمسة أشياء: رفع الحدث، وإفراد القِدَم، وهجر الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما عُلم وجُهل.

قال منصور المغربي: التوحيد هو إسقاط الوسائط عند غلبة الحال، والرجوع إليها عند الأحكام، وإن الحسنات لا تغير الأقسام من الشقاء والسعادة.

وسُئل الجنيد عن توحيد الخاص، فقال: أن يكون العبد شبحاً بين يدي الله سبحانه، تجري عليه تصاريف تدبيره، في مجاري أحكام قدرته، في لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه، وعن دعوة الخلق له، وعن استجابته بحقائق وجوده، ووحدانيته في حقيقة قربه، بذهاب حسه وحركته لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه،

وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله، فيكون كما كان قبل أن يكون(١).

وسُئل علي البوشنجي عن التوحيد، فقال: غير مشبه الذات ولا منفي الصفات.

سُئل سهل بن عبد الله عن ذات الله عز وجل، فقال: ذات الله تعالى موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالإبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حدّ ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته(٢)، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلّهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعقول لا تدركه(٣)، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وقال الجنيد: أشرف كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحانه من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته، إلا بالعجز عن معرفته، وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد: ليس يريد الصديق رضي الله عنه أنه لا يعرف لأن عند المحققين العجز عجز عن الموجود دون المعدوم، كالمقعد عاجز عن قعوده إذ ليس بكسب له ولا فعل والقعود موجود فيه، وكذلك العارف عاجز عن معرفته، والمعرفة موجودة فيه لأنها ضرورية، وعند هذه الطائفة: المعرفة به سبحانه في الانتهاء ضروريّة، فالمعرفة الكسبية في الابتداء، وإن كانت معرفة على التحقيق، فلم يعدها الصديق رضي الله عنه شيئاً بالإضافة إلى المعرفة الضروريّة كالسّراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه.

قال الجنيد: التوحيد الذي انفرد به الصوفية هو إفراد القِدَم عن الحدث، والخروج عن الأوطان، وقطع المحاب، وترك ما عُلم وجهل، وأن يكون الحق سبحانه مكان الجميع.

---

(١) والمراد بذلك: أن حق العبد أن يكون راضياً بما يجريه الله تعالى عليه، مما يرضاه له، وتشهد بصحته الشريعة، لكمال حفظه فلا يجري عليه ما لا ينفعه.

(٢) لا بالإحاطة، فلا يرى رؤية الأشباح، وإنما يُرى على ما هو عليه من جلاله وعظمته وتنزّهه عن مشابهة غيره.

(٣) العقول لا تدركه إدراك إحاطة، بل إدراكاً بوجه ما.

وقال يوسف بن الحسين: من وقع في بحار التوحيد لا يزداد على ممر الأوقات إلا عطشاً.

وقال الجنيد: علم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مفارق لعلمه. وقال أيضاً: علم التوحيد طوي بساطه منذ عشرين سنة، والناس يتكلمون في حواشيه.

وقف رجل على الحسين بن منصور فقال: من الحق الذي يشيرون إليه؟ فقال: معل الأنام ولا يعتل.

يقول دلف الشبلي: من اطلع على ذرة من علم التوحيد ضعف عن حمل بقة(١) لثقل ما حمله.

وسئل دلف الشبلي عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد، فقال: ويحك، من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد(٢)، ومن أشار إليه فهو ثنوي(٣)، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه واصل فليس له حاصل، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بخيالكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم، فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم.

وقال يوسف بن الحسين: توحيد الخاصة أن يكون بسره ووجده وقلبه، كأنه قائم بين يدي الله تعالى، تجري عليه تصاريف تدبيره وأحكام قدرته، في بحار توحيده بالفناء عن نفسه، وذهاب حسه، بقيام الحق سبحانه له في مراده منه، فيكون كما قبل أن يكون في جريان حكمه سبحانه عليه.

---

(١) البق: واحدته البقة. وهو جنس حشرات من فصيلة البقيات، تمتص دم الإنسان وتتغلغل في المواضع الدافئة.

(٢) الملحد: جاءت من ألحد في الدين بمعنى مال وحاد وطعن فيه أو ترك القصد فيما أمر به ومال للظلم وشك في الله تعالى. والجمع ملحدون وملاحدة، وهم فرقة من الكفار يسمون بالدهريين وبالدهرية.

(٣) الثنوية: مذهب ماني وأشياعه. يقولون بوجود مبدئين أساسيين متضادين لا ينفكان وهما في عراك أبدي: مبدأ الخير ومبدأ الشر، أو مبدأ النور ومبدأ الظلمة.

وقيل: التوحيد للحق سبحانه، والخلق طفيلي.

وقيل: التوحيد إسقاط الياءات(1) فلا تقل: لي وبي ومني وإليّ.

وقيل لأبي بكر الطمستاني: ما التوحيد؟ فقال: توحيد وموحِّد وموحَّد، هذه ثلاث. وقال رويم بن أحمد: التوحيد محو آثار البشرية، وتجرد الألوهية.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول في آخر عمره، وكانت العلة قد اشتدت به: من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم، ثم قال كالمفسِّر لقوله مشيراً إلى ما كان فيه من حاله: هو أن يقرضك بمقاريض القدرة، في إمضاء الأحكام قطعة قطعة، وأنت شاكر حامد.

وقال دلف الشبلي: ما شم روائح التوحيد، من تصور عنده التوحيد(2).

وقال أبو سعيد أحمد الخرّاز: أول مقام لمن وجد علم التوحيد وتحقق بذلك، فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله عزّ وجلّ.

وقال دلف الشبلي لرجل: أتدري لماذا لا يصح توحيدك؟ فقال: لأنك تطلبه بك(3)

وقال ابن عطاء: علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد، وهو أن يكون القائم به واحداً.

ويقال: من الناس من يكون في توحيده مكاشفاً بالأفعال، يرى الحادثات بالله تعالى. ومنهم من هو مكاشف بالحقيقة فيضمحل إحساسه بما سواه، فهو يشاهد الجمع سراً بسر، وظاهره بوصف التفرقة.

وقد سئل الجنيد عن التوحيد، فقال: سمعت قائلاً يقول:

---

(1) المقصود بالياءات هنا: حروف الجر التي تتصل بياء المتكلم، وكلها تشير للذاتية وترتبط بها.

(2) لان كمال التوحيد أن يشتغل العبد بالله تعالى شغلاً ينسبه غير الله تعالى، ومن جملته توحيده، فمن تصوره، لم يستغرق في كمال توحده.

(3) لانك تطلبه بك لا بالله، فإن طَلَبْتَه به صح توحيدك، وهذا أصل كل خير. وكل مقام رُفع يجب على العبد أن يخلص فيه لربه، ويتبرأ من حوله وقوته، فلا يلتفت لنفسه ولا لكسبه.

وغنى لي قلبي   وغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا   وكانوا حيثما كنا

فقال السائل: أهلك القرآن والأخبار! فقال: لا ولكن الموحد يأخذ أعلى التوحيد من أدنى الخطاب وأيسره.

٤٤ - الخروج من الدنيا

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ، يَقُولُونَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمُ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١). يعني: طيبة نفوسهم ببذلهم مهجهم، لا يثقل عليهم رجوعهم إلى مولاهم.

عن أنس (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعالج كرب الموت، وسكرات الموت، وإن مفاصله ليسلّم بعضها على بعض، تقول: عليك السلام تفارقني وأفارقك الى يوم القيامة»(٢). عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله تعالى وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف...

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: اعلم أن أحوالهم في حال النزع مختلفة، فبعضهم يغلب عليه الهيبة، وبعضهم يغلب عليه الرجاء، ومنهم من كشف له في تلك الحالة ما أوجب له السكون وجميل الثقة.

قال أحمد الجريري: كنت عند الجنيد في حال نزعه، وكان يوم الجمعة ويوم نيروز(٣)، وهو يقرأ القرآن الكريم فختم، فقلت في هذه الحالة: يا أبا القاسم، فقال: ومن أولى مني بذلك، وها هي صحيفتي تطوى.

---

(١) الآية: سورة النحل: ٣٢.

(٢) الحديث: اختص القشيري بهذا الحديث، كما نوّه على ذلك الهندي في كنز العمال ١٥/ ص ٥٦٣ رقم ٤٢١٨٣.

(٣) النيروز: كلمة معرّبة، أصلها في الفارسية (نو روز)، وهي تعني: أول يوم من أيام السنة الشمسية، ويقصدون به يوم الفرح بشكل عام.

قال أبو محمد عبد الله الإبراهيمي الهروي: مكثت عند دلف الشبلي الليلة التي مات فيها، فكان يقول طول ليله هذين البيتين:

كل بيت أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتي الناس بالحجج

وقيل لبشر الحافي وقد احتضر: كأنك يا أبا نصر تحب الحياة، فقال: القدوم على الله عز وجل شديد.

وقيل: كان سفيان الثوري إذا سافر بعض أصحابه، قال لهم: إذا وجدتم الموت فاشتروه لي، فلما قربت وفاته كان يقول: كنا نتمناه، فإذا هو شديد.

وقيل: لما حضرت الحسن بن علي بن أبي طالب(١) الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أقدم على سيد لم أره. ولما حضر بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه، غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه.

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك، وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾(٢).

وقيل: كان يغلب على مكحول الحزن، فدخلوا عليه في مرض موته وهو يضحك، فقيل له في ذلك فقال: ولماذا لا أضحك؟ وقد دنا فراق من كنت أحذره، وأسرع القدوم على من كنت أرجوه وآمله.

وقال رويم بن أحمد: حضرت وفاة أحمد بن عيسى الخراز، وهو يقول في آخر أنفاسه:

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكر
همومهم جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر

(١) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي (٣ - ٥٠ هـ/ ٦٢٤ - ٦٧٠ م): سبط رسول الله ﷺ. ولد بالمدينة المنورة. وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله وهو أكبر أولادها. وكان فصيحاً. آثر حقن الدماء يوم المحنة والفتنة، قال ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

(٢) الآية: سورة الصافات: ٦١.

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري

فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد أحمد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقاً.

وقال بعضهم وقد قربت وفاته: يا غلام، اشدد كتفي، وعفر خدي، ثم قال: دنا الرحيل ولا براءة لي من ذنب، ولا عذر أعتذر به، ولا قوة انتصر، أنت لي، أنت لي، ثم صاح صيحة ومات، فسمعوا صوتاً يقول: استكان العبد لمولاه فقبله.

وقيل لذي النون المصري عند موته: ماذا تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

وقيل لبعضهم وهو في النزع قل: الله، فقال: إلى متى تقولون وأنا محترق بالله تعالى؟.

وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال: السلام عليكم، فردوا عليه السلام، فقال: هل ههنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه، قال: فأشاروا عليه بمكان وعين ماء، فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله عز وجل، ومضى إلى المكان الذي أشاروا إليه ومد رجليه ومات.

كان أبو العباس أحمد الدينوري يتكلم يوماً في مجلسه، فصاحت امرأة تواجداً، فقال لها: موتي، فقامت المرأة، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه، وقالت: قد مت، ووقعت ميتة.

وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري عند وفاته، فقيل له: كيف تجد العلة؟ فقال: سلوا العلة عني كيف تجدني؟ فقيل: قل: لا إله إلا الله، فحول وجهه إلى الجدار، وقال: أفنيت كلي بك، هذا جزاء من يحبك.

وقيل لأبي محمد الدبيلي وقد حضرته الوفاة: قل: لا إله إلا الله، فقال: هذا شيء قد عرفناه، وبه نفنى، ثم أنشأ يقول:

تسربل ثوب التيه لما هويته ... وصد ولم يرض بأن أك عبده

وقيل لدلف الشبلي عند وفاته: قل: لا إله إلا الله، فقال:

قال سلطان حبه ... أنا لا أقبل الرشا
فسلوه بحقه ... لِمْ بقتلي تحرشا

وقال أحمد بن عطاء: سمعت أحد الفقراء يقول: لما مات يحيى الأصطخري جلسنا حوله، فقال له أحدنا قل: أشهد أن لا إله إلا الله، فجلس مستوياً(١)، ثم أخذ بيد واحد منا، وقال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم أخذ بيد آخر حتى عرض الشهادة على جميع الحاضرين، ثم مات.

ويروى عن فاطمة أخت محمد الروذباري أنها قالت: لما قرب أجل أخي (أبي علي أحمد الروذباري)، وكان رأسه في حجري، ففتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت، وهذه الجنان قد زينت، وهذا قائل يقول لي: يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى، وإن لم تردها، ثم أنشأ يقول:

وحقك ما نظرت إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ ... وبالخد المورد من جناكا

وقال بعضهم: رأيت فقيراً غريباً يجود بنفسه والذباب على وجهه، فجلست أذب الذباب عن وجهه ففتح عينيه، وقال: من هذا؟ أنا منذ كذا سنة في طلب وقت يصفو لي، فلم يبق إلا الآن، جئت أنت توقع نفسك فيه، مر عافاك الله تعالى

سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سمعت أبا نصر السراج يقول: كان سبب وفاة أبي الحسين أحمد النوري أنه سمع هذا البيت:

لا زلت أنزل من ودادك منزلاً ... تتحير الألباب عند نزوله

فتواجد أحمد النوري وهام في الصحراء، فوقع في أجمة قصب، قد قطعت وبقيت أصولها مثل السيوف، فكان يمشي عليها، ويعيد البيت إلى الغداة، والدم يسيل من رجليه، ثم وقع مثل السكران، فتورمت قدماه ومات. وروي أنه قيل له عند

(١) إن قول أحدنا قل: اشهد أن لا إله إلا الله، إشارة إلى أنهم يعتقدون غفلته عن ربه لشغله بألمه، فأخذ يذكرهم، ويبين لهم أنه أشد منهم يقظة وحضوراً بذلك.

النزع : قل لا إله إلا الله ، فقال : أليس إليه أعود.

سمعت منصور المغربي يقول : دخل على إبراهيم الخواص يوسف بن الحسين عائداً له ، بعدما أتت عليه أيام لم يعده فيها ولم يتعهده ، فلما رآه قال لإبراهيم الخواص : أتشتهي شيئاً ؟ قال : نعم قطعة كبد مشوي[1].

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : لعل الإشارة فيه أنه أراد: أشتهي قلباً يرق لفقير، وكبداً تشوي وتحترق لغريب.

وقيل : كان سبب موت أحمد بن عطاء أنه دخل على الوزير، فكلمه الوزير بكلام غليظ، فقال ابن عطاء : اهدأ يا رجل، فأمر فضرب بخفه على رأسه، فمات.

يقول أبو بكر محمد الدقي : كنا عند أبي بكر الزقاق بالغداة ، فقال : إلهي كم تبقيني ههنا ، فما بلغ الغداة الأولى حتى مات.

وروى عن أبي علي الروزباري أنه قال: رأيت في البادية غلاماً حدثاً، فلما رآني قال: أما يكفيه أن شغفني بحبه حتى أعلني ثم رأيته يجود بنفسه فقلت له: قل لا إله إلا الله فأنشد يقول:

أيا من ليس لي عنه وإن عذبني بد
ويا من نال من قلبي منالا ما له حد

وقيل للجنيد : قل : لا إله إلا الله، فقال : ما نسيته فأذكره. وقال:

حاضر في القلب يعمره لست أنساه فأذكره
فهو مولاي ومعتمدي ونصيبي منه أوفره

سأل جعفر بن نصر بكران الدينوري : وكان يخدم الشبلي : ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال : لي علي درهم مظلمة ، وقد تصدقت عن صاحبه بألوف ، فما على قلبي شغل أعظم منه. ثم قال : وضئني للصلاة ، ففعلت فنسيت تخليل لحيته ، وقد أمسك على لسانه ، فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ، ثم مات.

---

(١) وجدنا في إحدى النسخ المخطوطة : (قطعة كبد مشوية).

فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته حتى في آخر عمره أدب من آداب الشريعة.

يقول علي المزين: كنت بمكة المكرمة حرسها الله تعالى، فوقع بي انزعاج، فخرجت أريد المدينة المنورة، فلما وصلت إلى بئر ميمون(١) إذا أنا بشاب مطروح، فعدلت إليه وهو ينزع، فقلت له: قل: لا إله إلا الله، ففتح عينيه، وأنشأ يقول:

أنا إن مت فالهوى حشو قلبي ... وبداء الهوى تموت الكرام

فشهق شهقة، ثم مات، فغسلته وكفنته وصليت عليه، فلما فرغت من دفنه سكن ما بي من إرادة السفر، فرجعت الى مكة حرسها الله تعالى.

وقيل لبعضهم: أتحب الموت؟ فقال: القدوم على من يرجى خيره، خير من البقاء مع من لا يؤمن شره.

وروي عن الجنيد أنه قال: كنت عند أستاذي ابن الكريني وهو يجود بنفسه، فنظرت إلى السماء، فقال: بعد(٢)، ثم نظرت إلى الأرض فقال: بعد، يعني أنه أقرب اليك من أن تنظر إلى السماء أو إلى الأرض، بل هو وراء المكان(٣). سمعت أحد أصحابنا يقول: قال أبو يزيد عند موته: ما ذكرتك إلا عند غفلة، ولا قبضتني إلا عن فترة.

يقول أبو علي محمد الروذباري: دخلت مصر(٤) فرأيت الناس مجتمعين، فقالوا: كنا في جنازة فتى سمع قائلاً يقول:

كبرت همة عبد ... طمعت في أن تراكا

---

(١) بئر ميمون: في مكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي، وبالقرب منه قبر أبي جعفر المنصور.

(٢) بعد: أي هذا بعد.

(٣) وراء المكان: أي قبله.

(٤) مصر: دولة عربية إسلامية. تقع في الشمال الشرقي للقارة الأفريقية. يحدها شمالاً البحر المتوسط، وشرقاً فلسطين والبحر الأحمر، وجنوباً السودان، وغرباً ليبيا.

فشهق شهقة، ومات.

وقيل: دخل جماعة على ممشاد الدينوري في مرضه، فقالوا له: ما فعل الله تعالى بك وما صنع؟ فقال: منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها، فما أعرتها طرفي، وقالوا له عند النزع: كيف تجد قلبك؟ فقال: منذ ثلاثين سنة فقدت قلبي.

وكان سبب موت أبي الحسين بن بنان أنه ورد على قلبه شيء فهام على وجهه، فلحقوه في متاهة بني إسرائيل في الرمل، ففتح عينيه، وقال: ارتع فهذا مرتع الأحباب، وخرجت روحه.

وقال أبو يعقوب إسحاق النهر جوري: كنت بمكة المكرمة حرسها الله تعالى، فجاءني فقير معه دينار، فقال: إذا كان الغد فأنا أموت، فأصلح لي بنصف هذا الدينار قبراً، والنصف الثاني لتجهيزي، فقلت في نفسي: لقد دوخل الشاب(١)، فقد أصابته فاقة الحجاز(٢)، فلما كان الغد جاء ودخل الطواف، ثم مضى وتمدد على الأرض، فقلت: هو ذا يتماوت، فذهبت إليه فحركته، فإذا هو ميت، فدفنته كما أمر.

وقيل: لما تغيرت الحال على أبي عثمان سعيد الحيري مزق ابنه أبو بكر قميصاً، ففتح أبو عثمان عينيه، وقال: يا بني، إن خلاف السنة في الظاهر من رياء في الباطن.

وقيل: دخل أحمد بن عطاء على الجنيد وهو يجود بنفسه، فسلم فأبطأ في الجواب، ثم رد وقال: اعذرني فقد كنت في وردي ثم مات.

وروى أبو علي أحمد الروذباري قال: قدم علينا فقير فمات، فدفنته، وكشفت عن وجهه، لأضعه في التراب، ليرحم الله عز وجل غربته، ففتح عينيه، وقال: يا أبا علي أتذللني بين يدي من يدللني، فقلت: يا سيدي أحياة بعد موت؟ فقال: بل أنا حي، وكل محب لله عز وجل حي، لا يضرنك غداً بجاهي يا روذباري.

---

(١) دوخل الشاب: أصابه خلل في عقله.

(٢) فاقة الحجاز: الحاجة والفقر اللذان يصادفهما المرء في هذه المنطقة.

ويروى عن أبي الحسن علي الأصبهاني أنه قال: أترون أني أموتُ كما يموتُ الناس بمرض وعيادة، إنما أُدعى، فيقال: يا علي فأجيب، وذات يوم كان يمشي فقال: لبيك، ومات.

يقول أبو الحسن علي المزّين: لما مرض أبو يعقوب إسحاق النهرجوري مرض وفاته، قلتُ له وهو في النزع: قلْ: لا إله إلا الله، فتبسم إليّ، وقال: إياي تعني، وعزة من لا يذوق الموت، ما بيني وبينه إلا حجاب العزة، وانطفأ من ساعته، فكان علي المزين يأخذ بلحيته ويقول: حجّام مثلي يلقن أولياء الله تعالى الشهادة، واخجلتاه منه، وكان يبكي إذا ذكر هذه الحكاية.

وقال أبو الحسين المالكي: كنتُ أصحب خيراً النساج سنين كثيرة، فقال لي قبل موته بثمانية أيام: أنا أموت يوم الخميس وقتَ المغرب، وأُدفن يوم الجمعة قبل الصلاة، فلا تنس هذا، قال أبو الحسين: فأنسيتُه إلى يوم الجمعة فلقيني من أخبرني بموته، فخرجتُ لأحضر جنازته، فوجدتُ الناس راجعين يقولون: يُدفن بعد الصلاة، فلم أنصرف وحضرتُ، فوجدتُ الجنازة قد أُخرجت قبل الصلاة كما قال، فسألتُ من حضر وفاته، فقال: إنه غُشي عليه(١) ثم أفاق، ثم التفتَ ناحية البيت، وقال: قفْ عافاك الله، فإنما أنتَ عبد مأمور وأنا عبد مأمور، والذي أُمرتَ به لا يفوتك، والذي أُمرتُ به يفوتني، فدعا بماء، فجدّد وضوءه وصلى، ثم تمدّد وأغمض عينيه، فرؤي في المنام بعد موته، فقيل له: كيف حالك؟ فقال: لا تسل، لكني تخلصت من دنياكم الوضرة(٢).

وذكر مصنّف كتاب (بهجة الأسرار)(٣) أنه لما مات سهل بن عبد الله انكبّ الناس على جنازته، وكان في البلد يهودي نيّف على السبعين، فسمع الضجة فخرج لينظر ما كان، فلما نظر إلى الجنازة صاح قائلاً: أترون ما أرى؟ فقالوا: لا، ماذا ترى؟ فقال: أرى أقواماً ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة، ثم إنه تشهد وأسلم وحسن إسلامه.

---

(١) غشي عليه: أُغمي عليه.

(٢) الوضرة: الفاسدة.

(٣) بهجة الأسرار ومعدن الأنوار تأليف نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن جرير اللخمي =

يقول أبو سعيد أحمد الخرّاز: كنتُ بمكة المكرمة حرسها الله تعالى، فجزتُ يوماً بباب بني شيبة، فرأيتُ شاباً حَسَن الوجه ميتاً، فنظرتُ في وجهه فتبسّم في وجهي، وقال لي: يا أبا سعيد، أما علمت أن الأحباء أحياء وإن ماتوا، وإنما يُنقلون من دار إلى دار.

يقول أحمد الجريري: بلغني أنه قيل لذي النون المصري عند النزع: أوصنا، فقال: لا تشغلوني، فإني متعجّب من محاسن لطفه.

وقال أبو عثمان الحيري: سُئل أبو حفص في حال وفاته: ما الذي تعظنا به؟ فقال: لستُ أقوى على القول، ثم رأى من نفسه قوة، فقلتُ له: قلْ، حتى أروي عنك، فقال: الانكسار بكل القلب عن التقصير.

٤٥ ـ المعرفة بالله

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾(١) جاء في التفسير: وما عرفوا الله حق معرفته.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «إن دعامة البيت أساسه، ودعامة الدين المعرفة بالله تعالى واليقين والعقل القامع»، فقلتُ: بأبي أنت وأمي ما العقل القامع؟ قال: «الكف عن معاصي الله، والحرص على طاعة الله عز وجل»(٢).

قال الأستاذ القشيري: المعرفة على لسان العلماء هي العلم، فكل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم بالله تعالى عارف، وكل عارف عالم، وعند هؤلاء القوم: المعرفة صفة مَن عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى

= الشطنوفي. طبعته مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩١٢ م في القاهرة. عدد صفحاته ٢٣٨ صفحة. قياس الصفحة ٢٨ سم.

(١) الآية: سورة الأنعام ٩١.

(٢) الحديث: قال صاحب الكنز: ٣٨١/٣ رقم (٧٠٤٧) أخرجه الديلمي عن عائشة رضي الله عنها.

في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله تعالى في جميع أحواله، وانقطعت عنه هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبياً، ومن آفات نفسه بريا، ومن المساكنات والملاحظات نقياً، ودامت في السر مع الله تعالى مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره، فيما يجريه من تصاريف أقداره، يسمى عند ذلك عارفاً، وتسمى حالته معرفة، وفي الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه(١) تحصل معرفته بربه عز وجل. وقد تكلم المشايخ في المعرفة فكلٌ نطق بما وقع له، وأشار إلى ما وجده في وقته.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: من أمارات المعرفة بالله تعالى حصول الهيبة من الله، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته. وسمعته يقول: المعرفة توجب السكينة في القلب، كما أن العلم يوجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

يقول دلف الشبلي: ليس لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لعبد دعوى، ولا لخائف قرار، ولا لأحد من الله عز وجل فرار. وسئل الشبلي عن المعرفة، فقال: أولها المعرفة لله تعالى، وآخرها ما لا نهاية له.

وقال أبو حفص: منذ عرفت الله تعالى ما دخل قلبي حق ولا باطل.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: وهذا الذي أطلقه أبو حفص فيه طرف من الإشكال(٢)، وأجل ما يحتمله أن المعرفة عند القوم توجب غيبة العبد عن نفسه

---

(١) عن نفسه وعن سائر المخلوقات، فلا يطلقون العارف: إلا على من توالى عليه العلم بالله وصفاته والنظر في مصنوعاته، وغلب عليه ذلك بحيث صار حالاً له، حتى قالوا: (من عرف الله كلَّ لسانُه) أي شغلته معرفته بالله تعالى عن ذكر غيره.

(٢) لأن من عرف الله تعالى لا يستغني عن النظر في عبادته، ليوقعها بحسب ما طلب وهذا حق، ولا بد من دخوله قلبه، والشيطان عدو له، لا يسكت عنه، وذلك باطل، ولا بد أن يدركه بقلبه، ثم يتقيه.

لاستيلاء ذكر الحق سبحانه عليه، فلا يشهد غير الله عزّ وجلّ ولا يرجع إلى غيره، فكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكره فيما يسنح له من أمر، أو يستقبله من حال، فالعارف رجوعه إلى ربه، فإذا لم يكن مشتغلاً إلا بربه تعالى لم يكن راجعاً إلى قلبه، وكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له، وفرق بين من عاش بقلبه وبين من عاش بربه عزّ وجلّ.

وسُئل أبو يزيد البسطامي عن المعرفة، فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾(١). وقال أبو يزيد أيضاً: للخلق أحوال ولا حال للعارف، حيث محيت رسومه، وفنيت هويته بهوية غيره، وغيبت آثاره بآثار غيره.

وقال محمد الواسطي: لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله تعالى وافتقار إليه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: أراد محمد الواسطي بهذا أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته، والعارف محق في معروفه، فكيف يصح له ذلك، وهو لاستهلاكه في وجوده، أو لاستغراقه في شهوده إن لم يبلغ الوجود مختطف عن إحساسه بكل وصف هو له، ولهذا قال الواسطي أيضاً: من عرف الله تعالى انقطع بل خرس، وانقمع(٢)، قال ﷺ: « لا أحصي ثناء عليك »(٣) هذه صفات الذين بعد مرماهم، فأما من نزلوا عن هذا الحد، فقد تكلموا في المعرفة وأكثروا.

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: من كان بالله أعرف كان له أخوف.

وقال بعضهم: من عرف الله تعالى تبرم بالبقاء، وضاقت عليه الدنيا بسعتها(٤).

---

(١) الآية: سورة النمل: ٣٤.

(٢) انقمع: صرف نفسه عما يريد.

(٣) رواه البيهقي من طريق العلاء بن الحارث وقال: هذا مرسل جيد.

(٤) فقد ذكر القرآن الكريم عن كعب بن مالك وأصحابه: أنهم لما تخلفوا عن غزوة تبوك وهجروا نزلت فيهم الآية: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ سورة التوبة: ١١٨، وذلك لمعرفتهم بالله وعظمته وعظمة =

وقيل: من عرف الله تعالى صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله تعالى.

وقيل: من عرف الله تعالى ذهبت عنه رغبة الأشياء، وكان بلا فصل ولا وصل.

وقيل: المعرفة توجب الحياء والتعظيم، كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم.

وقال رويم بن أحمد: المعرفة للعارف مرآة، إذا نظر فيها تجلى له مولاه.

وقال ذو النون المصري: ركضت أرواح الأنبياء في ميدان المعرفة، فسبقت روح نبينا ﷺ أرواح الأنبياء عليهم السلام إلى روضة الوصال. وقال ذو النون أيضاً: معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى، يحتملك ويحلم عنك، تخلقاً بأخلاق الله عز وجل. وسئل الحسين بن يزدانيار: متى يشهد العارف الحق سبحانه؟ فقال: إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد، وذهبت الحواس، واضمحل الإخلاص.

وقال الحسين بن منصور الحلاج: إذا بلغ العبد مقام المعرفة أوحى الله تعالى إليه بخواطره وحرس سره أن يسنح فيه غير خاطر الحق. وقال أيضاً: علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة.

وقال سهل بن عبد الله: المعرفة غايتها شيئان: الدهشة والحيرة.

يقول ذو النون المصري: أعرف الناس بالله تعالى أشدهم تحيراً فيه.

وقال رجل للجنيد: من أهل المعرفة أقوام، يقولون: إن ترك الحركات من باب البر والتقوى، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإلى الله تعالى رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة.

وقيل لأبي يزيد البسطامي: بماذا وجدت هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عار.

رسوله وتخلّفهم عن الجهاد مع رسوله، فكل من عرف الجليل العظيم لا يحتمل قلبه الاشتغال بغيره ولا البعد عنه.

وقال أبو يعقوب إسحاق النهرجوري: قلتُ لأبي يعقوب السوسي: هل يتأسف العارف على شيء غير الله عز وجلّ؟ فقال: وهل يرى غيره فيتأسف عليه؟ قلتُ: فبأيّ عين ينظر إلى الأشياء؟ فقال: بعين الفناء والزوال.

وقال أبو يزيد البسطامي: العارف طيار والزاهد سيار.

وقيل: العارف تبكي عينه ويضحك قلبه.

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر، وكالسحاب يظلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب.

وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا، ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه عزّ وجلّ.

وقال أبو يزيد البسطامي: إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم، والوقوف مع ما له.

يقول يوسف بن علي: لا يكون العارف عارفاً حقاً حتى لو أعطي مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عزّ وجلّ طرفة عين.

يقول أحمد بن عطاء: المعرفة على ثلاثة أركان: الهيبة والحياء والأنس.

وقيل لذي النون المصري: بماذا عرفتَ ربّك؟ قال: عرفتُ ربّي بربي، ولولا ربي لما عرفتُ ربّي.

وقيل: العالم يقتدى به، والعارف يهتدى به.

وقال دلف الشبلي: العارف لا يكون لغيره لاحظاً، ولا بكلام غيره لافظاً، ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظاً.

وقيل: العارف قد أنس بذكر الله تعالى، فأوحشه من خلقه، وافتقر إلى الله تعالى فأغناه عن خلقه، وذل لله تعالى فأعزه في خلقه.

وقال أبو الطيب السامري: المعرفة طلوع الحق(١) على محل الأسرار(٢)، بمواصلة الأنوار(٣).

---

(١) طلوع الحق: ظهوره وغلبته.

(٢) محل الأسرار: هو قلب العبد.

(٣) اي بتوالي أنوار معرفته عليه حتى لا ينساه في شيء من حالاته.

وقيل : العارف فوق ما يقول[1] ، والعالم دون ما يقول .

وقال أبو سليمان عبد الرحمن الداراني :

إن الله تعالى يفتح للعارف وهو على فراشه، ما لا يفتح لغيره، وهو قائم يصلي .

وقال الجنيد : العارف من نطق الحق عن سره وهو ساكت .

وقال ذو النون المصري : لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالى .

يقول رويم بن أحمد : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين .

وقال أبو بكر محمد الوراق : سكوت العارف أنفع ، وكلامه أشهى وأطيب .

وقال ذو النون المصري : الزهاد ملوك الآخرة ، وهم فقراء العارفين .

وسئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء من لون إنائه ، يعني أنه بحكم وقته .

وسئل أبو يزيد البسطامي عن العارف ، فقال : لا يرى في نومه غير الله تعالى ، ولا في يقظته غير الله تعالى ، ولا يوافق غير الله تعالى ، ولا يطالع غير الله تعالى .

يقول عبد الله بن محمد الدمشقي سئل أحد المشايخ : بماذا عرفت الله تعالى ؟ فقال بلمعة لمعت بلسان مأخوذ عن التميز المعهود ، ولفظة جرت على لسان هالك مفقود ، يشير إلى وجد ظاهر ، ويخبر عن سر ساتر ، هو بما أظهره ، وغيره بما أشكله ثم أنشد :

نطقت بلا نطق هو النطق إنه لك النطق لفظاً أو يبين عن النطق
تراءيت كي أخفى وقد كنت خافياً وألمعت لي برقاً فأنطقت بالبرق

وسئل أبو تراب عسكر النخشبي عن صفة العارف ، فقال : الذي لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء .

---

(١) إذ لا قدرة له على تعبيره عن جميع مقاماته وأحواله لقصور العبارة عنه، كما تقصر عن الفرق بين حموضة النارنج وحموضة الليمون، وإذا قصرت العبارة عن ذلك فمما يواليه الله تعالى ويفتح به على قلوب العارفين أولى .

ويقول أبو عثمان سعيد المغربي: العارف تضيء له أنوار العلم فتبصر به عجائب الغيب.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: العارف مستهلك في بحار التحقيق، كما قال قائلهم: المعرفة أمواج تغط، وترفع وتحط.

وسُئل يحيى بن معاذ عن العارف، فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان.

وقال ذو النون المصري: علامة العارف ثلاثة: لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله عز وجل عليه على هتك أستار محارم الله تعالى.

وقيل: ليس العارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا؟.

وقال أبو سعيد أحمد الخرّاز: المعرفة تأتي من عين الجود، وبذل المجهود.

سُئل الجنيد عن قول ذي النون المصري في صفة العارف: (كان ههنا فذهب) فقال الجنيد: العارف لا تحصره حال عن حال، ولا يحجبه منزل عن التنقل في المنازل، فهو مع أهل كل مكان، بمثل الذي هو فيه، يجد مثل الذي يجدون، وينطق بمعالمها لينتفعوا بها.

يقول محمد بن الفضل الفراوي: المعرفة حياة القلب مع الله تعالى.

وسُئل أبو سعيد أحمد الخرّاز: هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء؟ فقال: نعم، إنما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله تعالى، فإذا نزلوا إلى حقائق القرب، وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك.

٤٦ - المحبة

قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾(١)

(١) الآية: سورة المائدة - ٥٤.

عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله تعالى لقاءه»[1] .

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، عن جبريل عليه السلام ، عن ربه سبحانه وتعالى ، قال : ﴿من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وما ترددت في شيء كترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت، وأكره مساءته ولا بد له منه، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً﴾[2] .

وقال النبي ﷺ : «إذا أحب الله عز وجل العبد قال لجبريل: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض الله عز وجل عبداً قال مالك: لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك»[3].

قال الأستاذ القشيري : المحبة حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه ، والمحبة على لسان العلماء هي الإرادة ، وليس مراد القوم بالمحبة الإرادة، فإن الإرادة[4] لا تتعلق بالقديم[5]، اللهم إلا أن يحمل على إرادة التقرب إليه والتعظيم له. ونحن نذكر من تحقيق هذه المسألة طرفين إن شاء الله تعالى، فمحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه[6]، كما أن رحمته له إرادة الإنعام، فالرحمة خاص من الإرادة، والمحبة أخص من الرحمة

---

(١) الحديث: رواه عبادة بن الصامت ، وأخرجه البخاري ٣٠٨/١١ في الرقاق باب من أحب لقاء الله .

(٢) الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه الأولياء، والحكيم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الأسماء، وابن عساكر عن أنس.

(٣) الحديث: رواه أبو هريرة. وأخرجه مسلم في البر والصلة، والترمذي في التفسير.

(٤) الإرادة الخاصة بالعبد.

(٥) بناء على أن أثرها التخصيص، فلا تتعلق بالقديم، كما لا تتعلق بالمستحيل.

(٦) أي لإنعام على العبد مخصوص بدرجة رفيعة، كحفظه وتقريبه له، وعداوته لمن عاداه.

فإرادة الله تعالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام، وتسمى رحمة، وإرادته لأن يخصه بالقربة والأحوال العلية وتسمى محبة، فإرادته سبحانه صفة واحدة، فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أسماؤها، فإذا تعلقت بالعقوبة يسمى غضباً، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة، وإذا تعلقت بخصوصها تسمى محبة.

قال قوم: محبة الحق سبحانه للعبد مدحه له وثناؤه عليه بالجميل، فيعود معنى محبته له على هذا القول إلى كلامه، وكلامه قديم.

وقال قوم: محبته للعبد من صفات فعله، وهو إحسان مخصوص يلقى الله العبد به، وحالة مخصوصة يرقيه إليها، كما قال بعضهم: إن رحمته بالعبد نعمته معه.

وقال قوم من السلف: محبته من الصفات الخبرية فأطلقوا اللفظ وتوقفوا عن التفسير، فأما ما عدا هذه الجملة مما هو في المعقول من صفات محبة الخلق كالميل إلى الشيء والاستئناس بالشيء، وكحالة يجدها المحب مع محبوبه من المخلوقين، فالقديم سبحانه يتعالى عن ذلك، وأما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة، وقد تحمله تلك الحالة على تعظيمه، وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه.

وليست محبة العبد له سبحانه متضمنة ميلاً، ولا كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والدرك والإحاطة، والمحب بوصف الاستهلاك في المحبوب أولى منه بأن يوصف بالميل. ولا توصف المحبة بوصف، ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة(١)، والاستقصاء(٢) في المقال عند حصول الاشكال، فإذا زال الاستعجام والاستبهام سقطت الحاجة إلى الاستغراق في شرح الكلام(٣).

---

(١) فعدم وصفها بذلك، أو تحديدها يكون: إما لعسرة أو لكونها ضرورية، كما قيل في تعريف العلم.

(٢) أي الاستغراق والإمعان.

(٣) فمحبة العبد مختلفة، فتارة تكون للحنو والشفقة كمحبة الوالد لولده، وتارة للنعم فيحب من أنعم الله تعالى عليه.

وعبارات الناس عن المحبة كثيرة، وقد تكلموا في أصلها في اللغة: فبعضهم قال: الحب اسم لصفاء المودة، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان.

وقيل: الحباب ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذه المحبة غليان القلب وثورانه عند العطش، والاهتياج إلى لقاء المحبوب.

وقيل: إنه مشتق من حَباب الماء بفتح الحاء وهو معظمه، فسمي بذلك لأن المحبة غاية معظم ما في القلب من المهمات.

وقيل: اشتقاقه من اللزوم والثبات، يقال: أحب البعير وهو أن يبرك فلا يقوم، فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه.

وقيل: الحب مأخوذ من الحَب وهو القرط، قال الشاعر:

تبيت الحية النضناض(1) منه مكان الحَب يستمع السرارا

وسمي القرط حباً: إما للزومه للأذن، أو لقلقه، وكلا المعنيين صحيح في الحب.

وقيل: هو مأخوذ من الحب، والحب جمع حبة، وحبة القلب ما به قوامه، فسمي الحب حباً باسم محله.

وقيل: هو مأخوذ من الحِبة بكسر الحاء، وهي بزور الصحراء، فسمي الحب حباً لأنه لباب الحياة، كما أن الحب لباب النبات.

وقيل: الحب هي الخشبات الأربع التي توضع عليها الجرة، فسميت المحبة حباً لأنه يتحمل عن محبوبه كل عز وذل.

وقيل: هو من الحُب الذي فيه الماء، لأنه يمسك ما فيه فلا يسع فيه غير ما امتلأ به، كذلك إذا امتلأ القلب بالحب فلا مساغ فيه لغير محبوبه.

---

(1) النضناض: الحية التي أخرجت لسانها تحركه، أو التي لا تستقر في مكان، أو التي إذا نهشت قتلت من ساعتها.

وأما أقاويل الشيوخ فيه: فقال بعضهم: المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم.

وقيل: المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

وقيل: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

وقيل: محو المحب لصفاته، وإثبات المحبوب بذاته.

وقيل: مواطأة القلب لمرادات الرب.

وقيل: خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة.

وقال أبو يزيد البسطامي: المحبة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال سهل بن عبد الله: الحب معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة.

وسئل الجنيد عن المحبة، فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب، أشار بهذا إلى استيلاء ذكر المحبوب، حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا ذكر صفات المحبوب، والتغافل بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها.

وقال أبو علي أحمد الروذباري: المحبة الموافقة.

وقال أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.

وقال دلف الشبلي: سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

وقال أحمد بن عطاء: المحبة إقامة العتاب على الدوام.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: المحبة لذة، ومواضع الحقيقة دهشة، وسمعته يقول: العشق مجاوزة الحد في المحبة، والحق سبحانه لا يوصف بأنه يجاوز الحد، فلا يوصف بالعشق [1]، ولو جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ذلك استحقاق قدر الحق سبحانه، فلا يقال: إن عبداً جاوز الحد في محبة الله تعالى، فلا يوصف الحق سبحانه بأنه يعشق، ولا العبد في صفته

---

(١) لا يوصف الله بالعشق، وإن وصف بالمحبة، لأن الله تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا يؤثر في ذلك كون الوصف كماً لا عادةً، فإنا نصفه تعالى بأنه حكيم وعليم وكريم، لأنه وصف نفسه بها، ولا نصفه بأنه مهندس أو سخي أو فقيه أو نحوي أو أصولي.

سبحانه بأنه يعشق، فنفي العشق ولا سبيل له إلى وصف الحق سبحانه لا من الحق للعبد، ولا من العبد للحق سبحانه(١).

يقول دلف الشبلي: المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك.

وسئل أحمد بن عطاء عن المحبة، فقال: أغصان تغرس في القلب، فتثمر على قدر العقول. وسمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت النصر آباذي يقول: محبة توجب حقن الدماء، ومحبة توجب سفك الدماء.

يقول أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص: ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»(٢) فهم مع الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء، ولا يزيد بالبر.

وقال أيضاً: ليس بصادق من ادعى محبته، ولم يحفظ حدوده.

وقال الأستاذ الجنيد: إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب، وفي هذا المعنى يقول الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى:

إذا صفت المودة بين قوم ودام ودادهم سمج الثناء

وكان يقول: لا ترى أباً شفيقاً يبجل ابنه في الخطاب، والناس يتكلفون في مخاطبته، والأب يقول: يا فلان.

وقال محمد بن علي الكتاني: المحبة هي الإيثار للمحبوب.

يقول بندار بن الحسين: رؤي مجنون بني عامر في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين.

وقال أبو يعقوب السوسي: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله عز وجل، وينسى حوائجه إليه.

---

(١) فلا الحق عشق عبده، ولا العبد عشق الحق.

(٢) الحديث: رواه عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري. وأخرجه عنهما البخاري في الأدب، ومسلم في البر والصلة. كما رواه صفوان بن عسال وأخرجه عنه الترمذي في الزهد، وقال عنه: هذا حديث صحيح.

وقال الحسين بن منصور: حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: قيل للنصر آباذي: ليس لك من المحبة شيء، فقال: صدقوا ولكن لي حسراتهم، فها أنا أحترق فيه.

وسمعته يقول: قال النصر آباذي: المحبة مجانبة السلو على كل حال، ثم أنشد:

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة ... فإني من ليلي لها غير ذائق

وأكثر شيء نلته من وصالها ... أماني لم تصدق كلمحة بارق

وقال محمد بن الفضل الفراوي: المحبة سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب.

وقال الجنيد: المحبة إفراط الميل بلا نيل.

ويقال: المحبة تشويش في القلوب يقع من المحبوب.

ويقال: المحبة فتنة تقع في الفؤاد من المراد، وانشد أحمد بن عطاء:

غرست لأهل الحب غصناً من الهوى ... ولم يك يدري ما الهوى أحد قبلي

فأورق أغصاناً وأينع صبوة ... وأعقب لي مراً من الثمر المحلي

وكان جميع العاشقين هواهم ... إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

وقيل: الحب أوله ختل (١) وآخره قتل.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول في معنى قوله ﷺ: «حبك للشيء يعمي ويصم» (٢) فقال: يعمي عن الآخرين غيرة، وعن المحبوب هيبة، ثم أنشد:

---

(١) ختل: خداع.

(٢) الحديث: رواه أنس بن مالك وأخرجه أبو داود رقم ٥١٣٠ في الأدب باب في الهوى، وأحمد في المسند ١٩٤/٥ و٤٥٠/٦ عن أبي الدرداء مرفوعاً. وقال السخاوي في المقاصد صفحة ١٨١ رقم ٣٨١: رواه أبو داود والعسكري من حديث بقية ابن الوليد، وبالغ الصنعاني فحكم عليه بالوضع ولكنه حسن لسكوت أبي داود.

إذا مـا بـدا لي تعـاظمتـه   فأصدر في حـال من لم يرد

يقول الحارث المحاسبي: المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً(١)، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

يقول سري السقطي: لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا.

وقـال دلف الشبلي: المحب إذا سكت هلك، والعـارف إن لم يسكت هلك(٢).

وقيل: المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب.

وقيل: المحبة بذل المجهود، والحبيب يفعل ما يشاء. وقال أحمد النوري: المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار.

وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة.

وقال الجنيد: دفع السري إليّ رقعة، وقال: هذه لك خير من سبع مائة قصة أو حديث، فإذا فيها:

ولما ادّعيت الحبّ قالت كذبتني   فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا   وتـذبل حتى لا تجيب المناديا

وتنحّل حتى لا يبقي لك الهوى   سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

وقال ابن مسروق: رأيت سمنون يتكلم في المحبة، فتكسرت قناديل المسجد كلها. ويقال: كان سمنون جالساً في المسجد يتكلم في المحبة، إذ جاء طير صغير فقرب منه، ثم قرب فلم يزل يدنو حتى جلس على يده، ثم ضرب بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم، ثم مات.

---

(١) على ما أمرك به ونهاك عنه.

(٢) هلك غماً، لأنه لا يقدر على النطق بكل ما يخلقه الله تعالى في قلبه، وربما نطق بما لا يفهم فكان فيه ضرره.

وقال الجنيد: كل محبة كانت لغرض، إذا زال الغرض زالت تلك المحبة.

وقيل: حبس دلف الشبلي في المارستان(١) فدخل عليه جماعة، فقال: من أنتم؟ قالوا: محبوك يا أبا بكر، فأقبل يرميهم بالحجارة فقال: إن ادعيتم محبتي فاصبروا على بلائي، وأنشد دلف الشبلي:

يا أيها السيد الكريم   حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني   أنت بما مر بي عليم

كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي: سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب إليه أبو يزيد: لقد شرب غيرك بحور السموات والأرض وما روي بعد. ويقول هل من مزيد؟ وقالوا:

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي   وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا   ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقا   فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس   فما نفد الشراب وما رويت

وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أني إذا اطلعت على قلب عبد، فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي(٢).

ورأيت بخط الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله تعالى، في بعض الكتب المنزلة: عبدي، أنا وحقك لك محب، فبحقي كن لي محباً.

وقال عبد الله بن المبارك: من أعطي شيئاً من المحبة، ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع.

وقيل: المحبة ما يمحو أثرك.

وقيل: المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي

---

(١) المارستان: جمع مارستانات، وهي لفظة فارسية، تعني المشفى.
(٢) ملأته من حبي أي ملأته من محبتي لإعراضه عن المشغلات والشهوات.

يحصل عند الشهود لا يوصف(١)، وأنشدوا:

فأسكر القوم دور كأس ... وكان سكري من المدير

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق ينشد كثيراً:

لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقال أحمد بن عطاء: المحبة إقامة العتاب على الدوام(٢).

وكان للأستاذ أبي علي الدقاق جارية تسمى فيروز، وكان يحبها إذ خدمته فترة طويلة، وسمعته يقول: كانت فيروز تؤذيني يوماً وتستطيل عليّ بلسانها، فقال لها أبو الحسن القاري: لماذا تؤذين هذا الشيخ؟ فقالت: لأني أحبه.

وقال يحيى بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب.

وقيل: إن شاباً أشرف على الناس في يوم عيد، وقال:

من مات عشقاً فليمت هكذا ... لا خير في عشق بلا موت

وألقى نفسه من سطح عال، فوقع ميتاً.

وروي أن هندياً عشق جارية، فرحلت الجارية فخرج الرجل في وداعها، فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى فأغمض العين التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة، ولم يفتحها عقوبة لها، لأنها لم تبك على فراق حبيبته، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

بكت عيني غداة البين دمعاً ... وأخرى بالبكا بخلت علينا

فعاقبت التي بخلت بدمع ... بأن أغمضتها يوم التقينا

وقال أحدهم: كنا عند ذي النون المصري فتذاكرنا المحبة، فقال ذو النون:

---

(١) لا يوصف لعظمه، فشغلك بالله عن غيرك من المخلوقين، وأنت مدرك لشغلك به عن غيره، حتى عن نفسك سكرة أخرى أعظم من تلك، وهي محبة العارفين، وتلك محبة العابدين والزاهدين.

(٢) إقامة العتاب: أي الاعتذار لله تعالى من التقصير، مع كمال الجد.

الخوف أولى بالمسيء إذا تألـه والحزن
والحب يجمل بالتقي وبالنقي من الدرن

وقال يحيى بن معاذ: من نشر المحبة عند غير أهلها، فهو في دعواه دعي.

وكان سمنون يقدم المحبة على المعرفة، والأكثرون يقدمون المعرفة على المحبة.

وعند المحققين: المحبة استهلاك في لذة، والمعرفة شهود في حيرة، وفناء في هيبة.

وقال أبو بكر محمد الكتاني: جرت مسألة في المحبة بمكة المكرمة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على كلامك مزيد، جبرك الله تعالى يا تاج العارفين.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيري معاً.

قال أبو العباس خادم الفضيل من عياض: احتبس بول الفضيل فرفع يديه وقال: اللهم بحبي لك إلا أطلقته عني فما برحنا حتى شفي.

وقيل: المحبة الإيثار، كامرأة العزيز لما تناهت في أمرها قالت: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾(١)، وفي الابتداء قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢)، فحملته الذنب في الابتداء، وفي الانتهاء نادت على نفسها بالخيانة.

---

(١) الآية: سورة يوسف ـ ٥١.

(٢) الآية: سورة يوسف ـ ٢٥.

روى أبو سعيد حمد الخرّاز أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله اعذرني، فإن محبة الله تعالى شغلتني عن محبتك، فقال: يا مبارك(١) من أحب الله تعالى فقد حبني.

وقالت رابعة العدوية في مناجاتها: (إلهي أتحرق بالنار قلباً يحبك؟)، فهتف بها هاتف: ما كنا نفعل هكذا، فلا تظني بنا ظن السوء(٢).

وقيل: الحب حرفان: حاء وباء، والإشارة فيه أن من أحب فليخرج عن روحه وبدنه وقلبه، وكالإجماع من إطلاقات القوم أن المحبة هي الموافقة، وأشد الموافقات الموافقة بالقلب، والمحبة توجب انتفاء المباينة، فإن المحب دائماً مع محبوبه، وبذلك ورد الخبر.

وعن أبي موسى الأشعري: أن النبي ﷺ قيل له: إن الرجل ليحب القوم، ولما يلحق بهم، فقال: المرء مع من أحب.

وقال أبو حفص: أكثر فساد الأحوال من ثلاثة: (فسق العارفين، وخيانة المحبين، وكذب المريدين).

قال أبو عثمان: فسق العارفين إطلاق الطرف واللسان والسمع إلى أسباب الدنيا ومنافعها، وخيانة المحبين اختيار هواهم على رضا الله عز وجل فيما يستقبلهم، وكذب المريدين أن يكون ذكر الخلق ورؤيتهم تغلب عليهم على ذكر الله عز وجل ورؤيته.

قال أبو علي ممشاد بن سعيد العكبري: راود خطاف خطافة(٣) في قبة سليمان عليه السلام فامتنعت عليه، فقال لها: لم تمنعين علي؟ وإن شئت قلبت القبة على سليمان (وسليمان يسمع كلامهما فقد آتاه الله منطق الطير) فدعاه سليمان عليه

---

(١) (يا مبارك): يستعمل هذا التعبير لمن ضعف بصره.

(٢) في ذلك تنبيه على طلب حسن الظن بالله تعالى، فإنه لا يخلف الميعاد، ولو أراد بالمحب العذاب لما خلق له المحبة.

(٣) خطاف خطافة: أي عصفور عصفورة.

السلام وقال: ما حملك على ما قلت: فقال يا نبي الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم، فقال: صدقت.

٤٧ ـ الشوق

قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

عن عطاء بن السائب عن أبيه، قال: صلى بنا عمار بن يا سر صلاة فأوجز فيها، فقلت: خففت يا أبا اليقظان، فقال: وما عليّ من ذلك، ولقد دعوت الله بدعوات، سمعتها من رسول الله ﷺ، فلما قام تبعه رجل من القوم، فسأله عن الدعوات فقال: اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني ما علمت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، اللهم اجعلنا هداة مهتدين.

قال الأستاذ القشيري: الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق(٢).

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يفرق بين الشوق والاشتياق، فيقول: الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول باللقاء، وفي معناه أنشدوا:

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته   حتى يعود إليه الطرف مشتاقاً

يقول النصر آباذي: للخلق كلهم مقام الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق،

---

(١) الآية: سورة العنكبوت ـ ٥.

(٢) لأن الشوق ثمرة المحبة، ويؤخذ من كلامه: أن الله تعالى لا يوصف بالشوق، وإن وُصف بالمحبة.

ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه، حتى لا يُرى له أثر ولا قرار(١).

وقيل: جاء أحمد بن حامد الأسود إلى عبد الله بن المبارك فقال: رأيتُ في المنام أنك تموتُ إلى سنة، فلو استعددت للخروج، فقال له عبد الله بن المبارك: لقد أجلتنا إلى أمد بعيد، أعيش أنا إلى سنة، لقد كان لي أنس بهذا البيت الذي سمعته من هذا الثقفي يعني أبا علي:

يا من شكا شوقه من طول فرقته ... اصبرْ لعلك تلقى من تحبُّ غداً

وقال أبو عثمان: علامة الشوق حب الموت مع الراحة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات(٢).

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: خرج داود عليه السلام يوماً إلى بعض الصحارى منفرداً فأوحى الله تعالى إليه: ما لي أراك يا داود وحيداً؟ فقال: إلهي استأثر الشوق إلى لقائك على قلبي، فحال بيني وبين صحبة الخلق، فأوحى الله تعالى إليه: ارجعْ إليهم، فإنك إن أتيتني بعبد آبق(٣)، أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذاً(٤).

وقيل: كانت عجوز قد جاء بعض أقاربها من السفر، فأظهر قومها السرور، والعجوز تبكي، فقيل لها: ما الذي يبكيك؟ فقالت: ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله تعالى.

وسئل أحمد بن عطاء عن الشوق، فقال: احتراق الأحشاء، وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد، وسئل أيضاً عن الشوق، فقيل له: هل الشوق أعلى أم المحبة؟ فقال: المحبة، لأن الشوق يتولد منها.

---

(١) لاشتغاله عن نفسه كلياً، بما هو مستغرق فيه من صفات الله العظيمة، كالكمال والجلال.

(٢) بأن يعرض العبد عنها شوقاً إلى ربه، كما يعرض الطفل عن اللبن حين يطيب له الطعام ويشتاق إليه.

(٣) آبق: هارب من سيده.

(٤) الجهبذ: جمع جهابذة، وهي لفظة فارسية، وتعني: الناقد أو العارف بتمييز الجيد من الرديء.

وقال بعضهم: الشوق لهيب ينشأ بين الحشا، يلتهب عند الفرقة، فإذا وقع اللقاء أنطفأ، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوق.

وقيل لبعضهم: هل تشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلى غائب، وهو حاضر.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في قوله عز وجل: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(١) قال: معناه شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا، وسمعته رحمه الله تعالى يقول: من علامات الشوق تمني الموت على بساط العوافي كيوسف عليه السلام لما ألقي في الجب لم يقل: توفني، ولما أدخل السجن لم يقل توفني، ولما دخل عليه أبواه، وخرّ الإخوة له سجداً، قال: توفني مسلماً، وفي هذا المعنى قالوا:

نحن في أكمل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودّي ... أنكم غُيَّب ونحن حضور

وفي هذا المعنى، قالوا أيضاً:

من سره العيد الجديد ... فقد عدمت به السرورا
كان السرور يتم لي ... لو كان أحبابي حضورا

وقال أبو عبد الله بن خفيف: الشوق ارتياح القلوب بالوجد، ومحبة اللقاء والقرب.

وقال أبو يزيد البسطامي: إن لله عباداً لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة، كما يستغيث أهل النار من النار.

قال الحسين الأنصاري: رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت، وشخص قائم تحت العرش، فيقول الحق سبحانه: يا ملائكتي من هذا؟ فقالوا: الله أعلم، فقال: هذا معروف الكرخي، سكر من حبي، فلا يفيق إلا بلقائي. وفي بعض الحكايات في مثل هذا المنام أنه قيل: هذا معروف الكرخي خرج من الدنيا مشتاقاً إلى الله تعالى، فأباح الله عزّ وجلّ له النظر إليه، وقال فارس: قلوب المشتاقين منورة بنور الله تعالى، فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور بين السماء والأرض، فيعرضهم الله تعالى على الملائكة فيقول:

---

(١) الآية: سورة طه - ٨٤.

هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدكم أني إليهم أشوق(١).

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في قوله ﷺ: «أسألك الشوق إلى لقائك» قال: كان الشوق مائة جزء، تسعة وتسعون له، وجزء متفرق بين الناس، فأراد أن يكون ذلك الجزء له أيضاً، فغار أن تكون شظية من الشوق لغيره.

وقيل: شوق أهل القرب أتم من شوق المحجوبين(٢) عنه، ولهذا قيل:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الخيام من الخيام

وقيل: إن المشتاقين يتحسسون حلاوة الموت عند وروده، لما قد كشف لهم من روح الوصول أحلى من الشهد(٣).

يقول سري السقطي: الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه، وإذا تحقق في الشوق فإنه يلهو عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه.

وقال أبو عثمان سعيد الحيري في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾(٤) هذا تعزية للمشتاقين، ومعناه: أني أعلم أن اشتياقكم إليّ غالب، وأنا أجلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لشبان بني إسرائيل: لماذا تشغلون أنفسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم؟ ما هذا الجفاء؟. وقيل أيضاً: أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إليّ، وانقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين إليّ؟.

---

(١) أشواق: أكثر محبة، لأن الله تعالى لا يوصف بالشوق، فوصفه به هنا مجاز على سبيل المشاكلة.

(٢) المحجوبون عنه، لأن من نال شيئاً، طلب الزيادة منه، بخلاف المحجوب عنه، فإنه إذا فتح الله عليه بشيء منه، قنع به.

(٣) لأن العبد إذا كمل اشتياقه للقاء ربه، لم يقم لاشتياقه شيء، ويؤيده خبر: لا يجد الشهيد من ألم القتل في سبيل الله كما يجد من القرصة، فإنه لما كمل شوقه من الحب للقاء حبه، لم يجد من السيف ألماً.

(٤) الآية: سورة العنكبوت ـ ٥.

وقيل: مكتوب في التوراة: شوقناكم فلم تشتاقوا، وخوفناكم فلم تخافوا، ونحنا لكم فلم تنوحوا.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: بكى شعيب حتى عمي، فرد الله عز وجل بصره عليه، ثم بكى حتى عمي فرد الله عز وجل بصره عليه، ثم بكى حتى عمي فأوحى الله تعالى إليه: إن كان هذا البكاء لأجل الجنة فقد أبحتها لك، وإن كان لأجل النار فقد أجرتك منها، فقال: لا، بل شوقاً إليك، فأوحى الله عز وجل إليه: لأجل ذلك أخدمتك نبيي وكليمي عشر سنين.

وقيل: من اشتاق إلى الله تعالى اشتاق إليه كل شيء.

وفي الخبر: اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان.

وقال مالك بن دينار: قرأت في التوراة: شوقناكم فلم تشتاقوا، وزمرنا لكم(١) فلم ترقصوا(٢).

وسئل الجنيد: من أي شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سروراً به، ووجداً من شدة الشوق إليه.

٤٨ - حفظ قلوب المشايخ

قال الله تعالى في قصة موسى مع الخضر عليه السلام: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾(٣).

قال الإمام الجنيد: لما أراد صحبة الخضر، حفظ شرط الأدب، فاستأذن أولاً في الصحبة، ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه في شيء ولا يعترض عليه في حكم، ثم لما خالفه موسى عليه السلام تجاوز عنه في المرة الأولى والثانية، فلما صار إلى الثالثة، والثلاث آخر حد القلة وأول حد الكثرة، سامه الفرقة، فقال:

(١) زمرنا لكم: أي خلقنا لكم على لسان داود عليه السلام من الأصوات الحسنة ما يحرك الجبال.
(٢) فلم ترقصوا: لم تتحركوا.
(٣) الآية: سورة الكهف - ٦٦.

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾(1).

قال رسول الله ﷺ: «ما أكرم شاب شيخاً لسنه، إلا قيض الله تعالى له من يكرمه عند كبر سنه»(2).

وسمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى، يقول: بدء كل فرقة المخالفة، يعني: أن من خالف شيخه لم يبق على طريقته، وانقطعت العلاقة بينهما، وإن جمعتهما البقعة، فمن صحب شيخاً من الشيوخ، ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة.

وقال أحد المشايخ: عقوق الأساتذة لا توبة عنها.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: خرجت إلى مرو في حياة شيخي الأستاذ أبي سهل الصعلوكي، وكان له قبل خروجي أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن الكريم والختم، فوجدته عند رجوعي قد رفع ذلك المجلس، وعقد لأبي الغفاني في ذلك الوقت مجلس القول، فداخلني من ذلك شيء فكنت أقول في نفسي: قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول، فقال لي يوماً: يا أبا عبد الرحمن، ماذا يقول الناس عني: فقلت: يقولون رفع مجلس القرآن الكريم ووضع مجلس القول، فقال: من قال لأستاذه: (لماذا) فإنه لا يفلح أبداً.

ومن المعروف أن الجنيد قال: دخلت على سري السقطي يوماً فأمرني شيئاً فقضيت حاجته سريعاً، فلما رجعت إليه ناولني رقعة، وقال: هذا لمكان قضائك لحاجتي سريعاً، فقرأت الرقعة فإذا فيها مكتوب: سمعت حادياً يحدو في البادية:

أبكي وهل يدريك ما يبكيني ... أبكي حذار أن تفارقيني
وتقطعي حبلي وتهجريني

ويروى عن أبي الحسن الهمداني العلوي قال: كنت ليلة عند جعفر الخلدي، وكنت أمرت في بيتي أن يعلق طير في التنور، وكان قلبي معه، فقال لي جعفر أقم الليلة،

---

(1) الآية: سورة الكهف - ٧٨.

(2) الحديث: أخرجه الترمذي رقم (٢٠٢٣) في البر باب رقم (٧٥) وإسناده ضعيف.

فتعللت بشيء ورجعت إلى منزلي، فأخرج الطير من التنور ووضع بين يدي، فدخل كلب من الباب، وحمل الطير عند تغافل الحاضرين فلما أصبحت دخلت على جعفر فحين وقع بصره علي قال: من لم يحفظ قلوب المشايخ سلط عليه كلب يؤذيه.

سمع عبد الله الرازي أبا عثمان سعيد الحيري يصف محمد بن الفضل البلخي ويمدحه، فاشتاق إليه فخرج إلى زيارته، فلم يقع بقلبه من محمد بن الفضل ما اعتقد، فرجع إلى أبي عثمان وسأله: كيف وجدته؟ فقال: لم أجده كما ظننت، فقال: لأنك استصغرته، وما استصغر أحد أحداً، إلا حرم فائدته، ارجع إليه بالحرمة، فرجع إليه عبد الله فانتفع بزيارته.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: لما نفى أهل بلخ محمد بن الفضل من البلد، دعا عليهم، وقال: اللهم امنع عنهم الصدق، فلم يخرج من بلخ بعده صدّيق.

سمعت أحمد بن يحيى الأبيوردي رحمه الله تعالى يقول: من رضي عنه شيخه لا يكافأ في حال حياته لئلا يزول عن قلبه تعظيم ذلك الشيخ، فإذا مات الشيخ أظهر الله عز وجل عليه ما هو جزاء رضاه، ومن تغير عليه قلب شيخه لا يكافأ في حال حياة ذلك الشيخ لئلا يرق له، فإنهم مجبولون على الكرم، فإذا مات ذلك الشيخ، فحينئذ يجد المكافأة بعده.

٤٩ ـ السماع

قال الله عزوجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ(١)، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٢)، الألف واللام في قوله: (القول) يقتضي التعميم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الأحسن، وقال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾(٣) جاء في التفسير: أنه السماع.

(١) يستمعون القول: الذي أثنى الله تعالى عليه، وأمر باستماعه وتدبّره واتباعه.

(٢) الآية: سورة الزمر ١٧ ـ ١٨.

(٣) الآية: سورة الروم ـ ١٥.

واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة إذا لم يعتقد المستمع محظوراً، ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم ينجر في زمام هواه، ولم ينخرط في سلك لهوه فهو مباح في الجملة.

ولا خلاف في أن الأشعار أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان، هذا ظاهر من الحال، ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات وتذكر ما أعدّ الله تعالى لعباده المتقين من الدرجات، ويحمله على التحرز من الزلات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات، مستحب في الدين، ومختار في الشرع، وقد جرى على لفظ، رسول الله ﷺ ما هو قريب من الشعر، وإن لم يقصد أن يكون شعراً.

قال أنس بن مالك: كان الأنصار يحفرون الخندق(١) فجعلوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً

فأجابهم رسول الله ﷺ:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره ... فأكرم الأنصار والمهاجره

وليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن شعر لكنه قريب منه، وقد سمع السلف والأكابر الأبيات بالألحان، فممن قال بإباحته من السلف مالك بن أنس وأهل الحجاز(٢) فكلهم يبيحون الغناء(٣). وأما الحداء(٤) فقد أجمعوا على إجازته، وقد

---

(١) الخندق: حفر الرسول ﷺ وأنصاره خندقاً أمام المدينة المنورة، وكان ذلك عام ٦٢٦ م، وجعلوه حصناً لهم، وكان خصومهم القرشيون بقيادة أبي سفيان. وسميت المعركة التي جرت هناك (معركة الخندق).

(٢) الحجاز: بلاد في شبه جزيرة العرب. يحدها خليج العقبة شمالاً، والبحر الأحمر غرباً، ونجد شرقاً، وعسير جنوباً. وهي تنقسم إلى سلسلة جبال مشرفة على بطائح نجد وساحل تهامة.

(٣) المنقول عن مالك والحجازيين كراهته، فإن أريد بالإباحة مقابل الحرمة وبالكراهة كراهة التنزيه فلا منافاة.

(٤) الحداء: هو غناء للإبل أثناء سيرها.

وردت الأخبار واستفاضت الآثار في ذلك، وروي عن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع، فقيل له: إذا أتي بك يوم القيامة، ثم يؤتى بحسناتك وسيئاتك ففي أي الجانبين سماعك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات يعني: أنه من المباحات(١). وأما الشافعي رحمه الله تعالى فإنه لا يحرمه ويجعله في العوام مكروهاً، حتى لو احترف الغناء، أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهي ترد به الشهادة، ويجعله مما يسقط المروءة، ولا يلحقه بالمحرمات، وليس كلامنا في هذا النوع من السماع فإن هذه الطائفة جلت رتبتهم عن أن يستمتعوا بلهو، أو يقعدوا للسماع بسهو، أو يكونوا بقلوبهم مفكرين في مضمون لغو، أو يستمعوا على صفة غير كفء.

وقد روي عن ابن عمر آثار في إباحة السماع، وكذلك عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكذلك عن عمر رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك في الحداء وغيره، وأنشد بين يدي النبي ﷺ الأشعار فلم ينه عنها، وروي أنه ﷺ استنشد الأشعار. ومن المشهور الظاهر أنه دخل بيت عائشة رضي الله عنها، وفيه جاريتان تغنيان فلم ينههما. وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل عليها، وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت به الأنصار يوم بعاث(٢)، فقال أبو بكر: مزمار الشيطان مرتين، فقال النبي ﷺ: دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيداً وعيدنا هذا اليوم(٣).

وعن عائشة (رضي الله عنها) أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار فجاء النبي ﷺ فقال: أهديتم الفتاة؟ فقالت: نعم، قال: فأرسلت من يغني؟ قالت: لا فقال النبي ﷺ فلو أرسلتم من يقول أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم.

وقال رسول الله ﷺ: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»(٤) وقد دل هذا على فضيلة الصوت

(٣) والمشهور عن ابن جريج منعه.

(٤) بعاث: موضع بالقرب من المدينة المنورة، اشتهر بالحرب التي نشبت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة.

(٣) الحديث: رواه البخاري ٢/٣٦٦ - ٣٧٠ في العيدين في أبواب كثيرة منها باب النكاح، ومسلم رقم (٨٩٢) في العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه، والنسائي ٣/١٩٥ - ١٩٧ في العيدين باب اللعب في المسجد يوم العيد ونظر النساء إلى ذلك، وباب الرخصة في الاستماع إلى الغناء، وضرب الدف يوم العيد.

(٤) الحديث: رواه ابن عازب، وأخرجه الدارمي.

الحسن(١) . وقال أيضاً : «لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن»(٢) .

وقال أيضاً : «صوتان ملعونان : صوت ويل عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمة»(٣) . . مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا في غير هذه الأحوال ، وإلا بطل التخصيص . والأخبار في هذا الباب تكثر ، والزيادة على هذا القدر من ذكر الروايات تخرجنا عن المقصود من الاختصار .

وقد روي أن رجلاً أنشد بين يدي رسول الله ﷺ :

أقبلت فلاح لها ... عارضان كالسبج
أدبرت فقلت لها ... والفؤاد في وهج
هل علي ويحكما ... إن عشقت من حرج

فقال رسول الله ﷺ : لا .

هذا وإن حسن الصوت مما أنعم الله تعالى به على صاحبه من الناس، قال الله عز وجل: ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾(٤)، قيل في التفسير: من ذلك الصوت الحسن.

وذم الله سبحانه الصوت الفظيع، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾(٥).

واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الجميلة، واستروحها إليها مما لا يمكن جحوده، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسي السير ومشقة الحمولة فيهون عليه بالحداء، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ

---

(١) لما فيه من زيادة التأثير في قلب السامع .

(٢) الحديث : رواه أنس ، وأخرجه الضياء عبد الرزاق في جامعة .

(٣) الحديث: رواه البزار والضياء عن أنس بن مالك .

(٤) الآية: سورة فاطر - ١ .

(٥) الآية: سورة لقمان - ١٩ .

خُلِقَتْ ﴾(١). وقال رسول الله ﷺ : « مَا أَذِنَ اللهُ تعالى لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن »(٢).

وقيل إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجن والإنس، والطير والوحش إذا قرأ الزبور.

وقال ﷺ : لأبي موسى الأشعري : « لقد أعطي مزماراً من مزامير داود »(٣) وقال معاذ لرسول الله ﷺ : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً(٤).

روى أبو بكر محمد الدينوري الدقي قال: كنت في البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب، وأضافني رجل منهم، فرأيت غلاماً أسود مقيداً هناك، ورأيت جمالاً قد ماتت بفناء البيت، فقال لي الغلام: أنت الليلة ضيف، وأنت على مولاي كريم، فتشفع لي، فإنه لا يردك، فقلت: لصاحب البيت: لا آكل طعامك حتى تحل هذا العبد(٥)، فقال: هذا الغلام قد أفقرني وأتلف مالي، فقلت: فماذا فعل؟ فقال: له صوت طيب، وكنت أعيش من جهد هذه الجمال، فحملها أحمالاً ثقيلة، وحدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد، فلما حط عنها ماتت كلها، ولكن قد وهبته لك(٦)، وحل عنه القيد، فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته فسألته ذلك، فأمر الغلام أن يحدو على جمل كان على بئر هناك يستقي عليه، فحدا الغلام، فهام الجمل على وجهه، وقطع حباله، ولا أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه، فوقعت لوجهي حتى أشار عليه بالسكوت.

سئل الجنيد: ما بال الإنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال:

---

(١) الآية: سورة الغاشية - ١٧.

(٢) الحديث: رواه أبو هريرة. وأخرجه البخاري ٣٧٣/١٠ في الأدب، ومسلم رقم ٤٧ في صلاة المسافرين، وأبو داود رقم ٥١٥٤ في الصلاة، والنسائي في الصلاة، وأحمد في مسنده.

(٣) الحديث: رواه البخاري ٨١/٩ في فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ومسلم رقم ٧٩٣ في صلاة المسافرين باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، والترمذي رقم ٣٩٥٤ في المناقب باب مناقب أبي موسى.

(٤) لحبرته: أي لزينته لك تزييناً.

(٥) تحل هذا العبد: أي تفك قيوده.

(٦) أي قبلت شفاعتك فيه.

إن الله تعالى لما خاطب الذر في الميثاق الأول، بقوله: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾(1)؛ استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح، فلما سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، وهو مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم، كما أنه مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم.

كان الحارث بن أسد المحاسبي يقول: ثلاث إذا وجدن متع بهن، وقد فقدناها: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الصوت مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وسئل ذو النون المصري عن الصوت الحسن، فقال: مخاطبات وإشارات أودعها الله تعالى كل طيب وطيبة، وسئل مرة أخرى عن السماع، فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

وقال الجنيد: تتنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن عند السماع(2): فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ولا يقولون إلا عن وجد، وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة(3) وعند مجاراة العلم فإنهم لا يذكرون إلا صفة الأولياء(4).

يقول الجنيد: السماع فتنة(5) لمن طلبه، وترويح لمن صادفه. وقال أيضاً: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الزمان والمكان والإخوان.

وسئل الشبلي عن السماع، فقال: ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف

---

(1) الآية: سورة الأعراف - ٧٢.

(2) قال الله تعالى: ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا، لعلكم ترحمون ﴾ سورة الأعراف - ٢٠٤.

(3) لينشطوا للعبادة.

(4) من حيث أحوالهم ومقاماتهم.

(5) أي امتحان وابتلاء.

الإشارة حل له استماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية.

وقيل: لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حي، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة، وقلبه حي بنور الموافقة.

وسئل أبو يعقوب إسحاق النهرجوري عن السماع، فقال: حال يبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الاحتراق.

وقيل: السماع لطف عند الأرواح لأهل المعرفة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى، يقول: السماع طبع إلا عن شرع، وخرق إلا عن حق، وفتنة إلا عن عبرة.

ويقال: السماع على قسمين: سماع بشرط العلم والصحو، فمن شرط صاحبه معرفة الأسماء والصفات، وإلا وقع في الكفر المحض. وسماع بشرط الحال، فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتنقي من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة.

وروي عن أحمد بن أبي الحواري أنه قال: سألت أبا سليمان عن السماع، فقال: من اثنين أحب إلي من الواحد.

وسئل أبو الحسين أحمد النوري عن الصوفي، فقال: من سمع السماع وآثر الأسباب.

وسئل أبو علي أحمد الروذباري عن السماع يوماً فقال: ليتنا تخلصنا منه رأساً برأس.

يقول أبو عثمان سعيد المغربي: من ادعى السماع، ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب، وتصفيق الرياح، فهو فقير مدع.

وكان ابن زيري شيخاً فاضلاً من أصحاب الجنيد، فربما كان يحضر موضع سماع، فإن استطابه فرش إزاره وجلس، وقال: الصوفي مع قلبه، وإن لم يستطبه. وقال أيضاً: السماع لأرباب القلوب، ومر وأخذ نعله.

وسئل رويم بن أحمد عن وجد الصوفية عند السماع، فقال: يشهدون المعاني التي

تعزب عن غيرهم فتشير إليهم إليّ ، فيتنعمون بذلك من الفرح ، ثم يقع الحجاب ، فيعود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يخرق ثيابه ، ومنهم من يصيح ، ومنهم من يبكي ، كلُّ إنسان على قدره[1] .

يقول علي الحصري : ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع من يسمع منه ، ولذا ينبغي أن يكون سماعك متصلاً غير منقطع . وقال أيضاً : ينبغي أن يكون ظمأ دائم ، وشرب دائم ، فكلما ازداد شربه ازداد ظمؤه[2] ، وجاء عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [3] أنه السماع من الحور العين ، بأصوات شهية : نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، نحن الناعمات فلا نبأس أبداً .

وقيل : السماع نداء ، والوجد قصد .

يقول أبو عثمان سعيد المغربي : قلوب أهل الحق قلوب حاضرة ، وأسماعهم أسماع مفتوحة .

وسمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكي يقول : المستمع بين استتار وتجلّ : فالاستتار يوجب التلهيب ، والتجلي يورث الترويح ، والاستتار تتولد منه حركات المريدين ، وهو محل الضعف والعجز ، والتجلي يتولد منه سكون الواصلين ، وهو محل الاستقامة والتمكين ، وذلك صفة الحضرة ، وليس فيها إلا الذبول تحت موارد الهيبة ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ، قَالُوا : أَنْصِتُوا ﴾ [4] .

وقال أبو عثمان سعيد الحيري : السماع على ثلاثة أوجه : فوجه منها للمريدين والمبتدئين ، يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ، ونخشى عليهم في ذلك الفتنة والمراءاة . والثاني : للصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويستمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم . والثالث : لأهل الاستقامة من العارفين فهؤلاء لا يختارون على الله تعالى فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون .

---

(١) على قدره : أي قدر تعلّقه بربه ، ورفعه مقامه . وعظم بعده وحجبه .

(٢) وذلك بدوام معرفة الله تعالى ومحبته ومناجاته والاشتغال به ، حتى تتنافس القلوب به ، وتنال من فضله وعطاياه ، وما يمنحه الله لها ، فإذا وصل العبد إلى هذا السماع ، لم يصبر ، فكلما ازداد شربه منه توالى عطشه عليه .

(٣) الآية : سورة الروم - ١٥ .

(٤) الآية : سورة الأحقاف - ٢٩ .

يقول أبو سعيد أحمد الخراز: من ادعى أنه مغلوب عند الفهم، يعني في السماع، وأن الحركات مالكة له، فعلامته تحسين المجلس الذي هو فيه بوجده.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: ذكرت هذه الحكاية لأبي عثمان سعيد المغربي فقال: هذا أدناه، وعلامته الصحيحة أنه لا يبقى في المجلس محق إلا أنس به، ولا يبقى فيه مبطل إلا استوحش منه.

وقال بندار بن الحسين: السماع على ثلاثة أوجه: منهم من يسمع بالطبع، ومنهم من يسمع بالحال، ومنهم من يسمع بالحق: فالذي يسمع بالطبع يشترك فيه الخاص والعام، فإن جبلة البشرية استلذاذ الصوت الجميل. والذي يسمع بالحال: فهو يتأمل ما يرد عليه من ذكر عتاب أو خطاب أو وصل أو هجر، أو قرب أو بعد، أو تأسف على فائت أو تعطش إلى آت، أو وفاء بعهد أو تصديق لوعد، أو نقض لعهد أو ذكر قلق، أو اشتياق أو خوف فراق، أو فرح وصال أو حذر انفصال، أو ما يجري مجراه. وأما من يسمع بالحق فيسمع بالله تعالى ولله، ولا يتصف بهذه الأحوال التي هي ممزوجة بالحظوظ البشرية، فإنها باقية مع العلل، فيسمعون من حيث صفاء التوحيد بحق لا بحظ.

وقيل: أهل السماع على ثلاث طبقات: أبناء الحقائق يرجعون في سماعهم إلى مخاطبة الحق سبحانه لهم، وضرب يخاطبون الله تعالى بقلوبهم بمعاني ما يسمعون، فهم مطالبون بالصدق فيما يشيرون به إلى الله تعالى، والثالث: وهو فقير مجرد عن قطع العلاقات من الدنيا والآفات، يسمعون بطيبة قلوبهم، وهؤلاء أقرب إلى السلامة.

سئل أبو علي أحمد الروذباري عن السماع، فقال: مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب.

وقال إبراهيم الخواص وقد سئل: ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ولا يجد ذلك في سماع القرآن؟ فقال: لأن سماع القرآن صدمة، لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته، وسماع القول ترويح فيتحرك فيه.

يقول الجنيد: إذا رأيتَ المريد يحب السماع، فاعلمْ أنّ فيه بقية من البطالة(١).

وقال سهل بن عبد الله: السماع علم استأثر الله تعالى به، ولا يعلمه إلا هو.

وقيل: لما دخل ذو النون المصري بغداد، اجتمع إليه الصوفية، ومعهم قوّال، فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئاً، فأذن له، فأخذ يقول:

صغيـر هـواكَ عـذّبني ... فكيف بـه إذا احتنكـا(٢)

وأنت جمعت من قلبي ... هـوىً قـد كـان مشتركـا

أمـا تـرثـي لـمـكـتـئـب ... إذا ضحـك الخليّ(٣) بكى

فقام ذو النون، وسقط على وجهه. والدّم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض.

وسُئل إبراهيم المارستاني عن الحركة عند السماع، فقال: بلغني أن موسى عليه السلام قصّ في بني إسرائيل، فمزّق واحد منهم قميصه، فأوحى الله تعالى إليه، قل له: مزّق لي قلبك، ولا تمزق ثيابك.

وسأل أبو علي المغازلي دلفاً الشبلي فقال: ربما يطرق سمعي آية من كتاب الله عز وجل، فتحدوني على ترك الأشياء، والإعراض عن الدنيا، ثم أرجع إلى أحوالي وإلى الناس، فقال دلف الشبلي: ما اجتذبك إليه فهو عطف منه عليك ولطف، وما رددت إلى نفسك فهو شفقة منه عليك، لأنه لم يصح لك التبري من الحول والقوة في التوجه إليه.

يقول أحمد بن مقاتل العكي: كنتُ مع دلف الشبلي في مسجد في إحدى ليالي شهر رمضان المبارك، وهو يصلي خلف إمام له وأنا بجانبه، فقرأ الإمام:

---

(١) حيث لم تكمل معرفته بمولاه، ولا جاهد نفسه في مفارقة هواه، بخلاف سماع من كملت معرفته، فإنه إنما يكون بعد تقدم المجاهدات والرياضات والإعراض عن الشهوات، شغلاً بالله، وطمعاً في وجود الراحة، فيكون سماعه من باب العون له على مقاصده الصحيحة وأحواله الرفيعة.

(٢) احتنك: استولى وقهر.

(٣) الخليّ: الخالي من الهموم.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾(١) فزعق زعقة، قلت طارت روحه، وهو يرتعد، ويقول بمثل هذا يخاطب الأحباب يردد ذلك كثيراً.

روى الجنيد قال: دخلت على سري السقطي يوماً فرأيت عنده رجلاً مغشياً عليه، فقلت: ماله؟ فقال: سمع آية من كتاب الله تعالى، فقلت: أعد قراءتها عليه ثانية، فقرأها، فأفاق، فقال لي: من اين علمت هذا؟ فقلت: إن قميص يوسف عليه السلام ذهب بسببه بصر يوسف، ثم به عاد بصره، فاستحسن مني ذلك.

يقول عبد الواحد بن علوان: كان شاب يصحب الجنيد، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق، فقال له الجنيد يوماً: إن فعلت ذلك مرة أخرى لا تصحبني، فكان إذا سمع شيئاً يتغير ويضبط نفسه، حتى كان يقطر كل شعرة من بدنه بقطرة، وذات يوم صاح صيحة تلفت فيها نفسه.

قال أبو نصر السراج: روى لي بعض إخواني عن أبي الحسين الدراج قال: قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد، فلما دخلت الري سألت عن منزله، فكل من أسأل عنه، يقول لي: ماذا تفعل بذلك الزنديق؟ فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف. فبت تلك الليلة في مسجد ثم قلت: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته، فلم أزل أسأل عنه حتى دفعت إلى مسجده، وهو قاعد في المحراب، وبين يديه رجل، وعليه مصحف يقرأ فيه، وإذا هو شيخ بهي حسن الوجه واللحية، فدنوت منه، وسلمت عليه، فرد السلام وقال: من أين جئت؟ فقلت: من بغداد، قصدت زيارة الشيخ، فقال: لو قال لك إنسان في بعض البلدان أقم عندي حتى أشتري لك داراً أوجارية، أكان يمنعك عن زيارتي؟ فقلت: ياسيدي، ما امتحنني الله تعالى بشيء من ذلك، ولو حصل ذلك لا أدري كيف كنت أكون، فقال: تحسن أن تقول شيئاً، فقلت: نعم وقلت:

رأيتك تبني (٢) دائباً في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

(١) الآية: سورة الإسراء - ٨٦.

(٢) أشار بذلك إلى أن العبد يشتغل في أكثر عمره بغير ربه وما خُلق له.

فأطبق المُصحف، ولم يزل يبكي، حتى ابتلّت لحيته وثوبه، حتى رحمتُه من كثرة بكائه.

ثم قال لي: يا بني لا تلم أهل الري على قولهم عني زنديق، ومن وقت الصلاة ها أنا أقرأ القرآن فلم تقطر من عيني قطرة، وقد قامت عليّ القيامة من هذا البيت.

يقول أبو الحسين الدرّاج: كنتُ أنا وابن الفوطي مارّين على الدجلة(١) بين البصرة والأُبُلة(٢)، وإذا نحن بقصر حسن له منظر، وعليه رجل، وبين يديه جارية تغني، وتقول:

في سبيل الله وُدٌّ كان مني لك يُبذَل
كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

وإذا شابٌ تحت المنظرة بيده ركوة وعليه مرقّعة، يسمع، فقال: يا جارية بحياة مولاكِ أعيدي (كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل)، فقال الشاب: قولي، فأعادت، فقال الفقير: هذا والله تلوّني مع الحق، وشهق شهقة خرجت روحه، فقال صاحب القصر للجارية: أنتِ حرة لوجه الله تعالى، وخرج أهل البصرة، وفرغوا من دفنه، والصلاة عليه، فقام صاحب القصر، وقال: ألستم تعرفونني، أشهدكم أن كل شيء لي في سبيل الله تعالى، وكل مماليكي أحرار، ثم اتزر بإزارٍ وارتدى رداء، وتصدّق بالقصر، وذهب فلم يُرَ له بعد ذلك وجه ولا سمع له أثر.

سمع أبو سلمان الدمشقي طوّافاً ينادي: (يا سعتر برّي) فسقط مغشياً عليه، فلما أفاق سُئل، فقال: حسبته يقول: اسعَ تر برّي(٣).

وسمع عتبةُ الغلام رجلاً يقول: سبحان رب السماء، إن المُحبَّ لفي عناء، فقال عتبة: صدقتَ. وسمع رجلاً آخر ذلك القول فقال: كذبتَ، فكل واحد سمع من حيث هو.

---

(١) الدجلة: نهر ينبع من تركيا شرقي جبال طوروس، يجري بديار بكر والموصل وبغداد، من روافده الزاب الأكبر والزاب الأصغر ونهر ديالي. يمرّ من سورية ثم من العراق.

(٢) الأبلة: بلدة على شاطىء نهر دجلة في زاوية الخليج، وهي أقدم من البصرة. قال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الأبلة.

(٣) برّي: أي إكرامي لك.

سُئل رُويم بن أحمد عن المشايخ الذين لقيهم في السماع . فقال : كالقطيع إذا وقع فيه الذئب .

وروي عن أبي سعيد أحمد الخرّاز، قال: رأيت عليّ بن الموفق في السماع، يقول: أقيموني فأقاموه، فقام وتواجد، ثم قال: أنا الشيخ الزفّان(١)

وقيل: قام إبراهيم الرقي ليلة إلى الصباح، يقوم ويسقط على هذا البيت، والناس قيام يبكون، والبيت هو:

باللهِ فارْدد فؤادَ مكتئبٍ ليس لـه من حبيبه خَلَفُ

قال الحسين بن محمد بن أحمد: خدمتُ سهل بن عبد الله سنين كثيرة، فما رأيته تغيّر عند سماع شيء من الذكر والقرآن الكريم وغيره، فلما كان في آخر عمره قرئ بين يديه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾(٢) رأيته تغيّر وارتعد وكاد يسقط، فلما رجع إلى حال صحوه سألته عن ذلك، فقال: يا حبيبي ضعفنا(٣).

سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: دخلتُ على أبي عثمان سعيد المغربي وواحد يستقي الماء من البئر على بكرة، فقال: يا أبا عبد الرحمن، أتدري ماذا تقول البكرة؟ فقلتُ: لا، فقال: تقول: الله الله.

قال رويم : رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سمع صوت ناقوس، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا الناقوس ؟ قالوا : لا ، قال : إنه يقول سبحان الله حقاً حقاً ، إن المولى صمد يبقى

يقول أحمد بن الكرخي كان جماعة من الصوفية قد تجمعوا في بيت الحسن القزاز، ومعهم قوّالون ، يقولون ويتواجدون، فأشرف عليهم ممشاد الدينوري فسكتوا، فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغل ذلك همي ، ولا شفى

---

(١) الزفان: الرقّاص.

(٢) الآية: سورة الحديد ـ ١٥.

(٣) ضعفنا عن كتم أحوالنا لما كبرنا، واستشعرنا قرب الأجل، والوقوف بين يدي الله، وأنه لا يؤخذ ممن عليه فدية.

بعض ما بي . قال: سمعت أبا علي الروذباري يقول: بلغنا في هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف إن ملنا كذا كذا ففي النار.

وقال خير النساج: قص موسى بن عمران صلوات الله عليه على قومه قصة فزعق واحد منهم، فانتهره موسى [1]، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى بطيبي فاحوا، وبحبي باحوا، وبوجدي صاحوا، فلماذا تنكر ذلك على عبادي؟

وقيل: سمع دلف الشبلي قائلاً يقول: الخيار عشرة بدانق، فصاح وقال: إذا كان الخيار عشرة بدانق فكيف الأشرار.

وقيل: كان عون بن عبد الله يأمر جارية له حسنة الصوت فتغني بصوت حزين حتى يبكي القوم.

وسئل أبو سليمان الداراني عن السماع، فقال: كل قلب يريد الصوت الحسن، فهو ضعيف يداوى كما يداوى الصبي إذا أريد أن ينام. ثم قال أبو سليمان: إن الصوت الحسن لا يدخل في القلب شيئاً، وإنما يحرك من القلب ما فيه.

وقال أحمد الجريري: كونوا ربانيين، أي سماعين من الله، قائلين [2] بالله تعالى.

وسئل بعضهم عن السماع، فقال: بروق تلمع ثم تخمد، وأنوار تبدو ثم تخفي ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها طرفة عين، ثم قال:

خطرة في السر منه خطرت ... خطرة البرق ابتدى ثم اضمحل

أي زور لك لو قصداً سرى ... وملم بك لو حقاً فعل

وقيل: السماع فيه نصيب لكل عضو، فما يقع إلى العين تبكي، وما يقع إلى اللسان يصيح، وما يقع على اليد فتمزق الثياب وتلطم، وما يقع إلى الرجل ترقص.

---

(١) وفي هذا دلالة على أن كتمان الأحوال أولى من إظهارها، لكنها إن غلبت السامع عذر.

(٢) لأن من كملت معرفته بالله تعالى، كان سامعاً لله وبالله وناطقاً بالله، والربانيون هم العباد، والأحبار هم العلماء خاصة.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: اجتمع أبو عمرو بن نجيد والنصر آباذي والطبقة في موضع، فقال النصر اباذي: أنا أقول: إذا اجتمع القوم، فواحد يقول شيئاً ويسكت الباقون، خير من أن يغتابوا أحداً، فقال أبو عمرو: لأن تغتاب ثلاثين سنة، أنجى لك من أن تظهر في السماع ما لست به. وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: الناس في السماع ثلاثة: متسمّع ومستمع وسامع، فالمتسمّع يسمع بوقت، والمستمع يسمع بحال، والسامع يسمع بالحق. وسألت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى غير مرة شبه طلب رخصة في السماع، وكان يحيلني على ما يوجب الإمساك عنه، ثم بعد طول المعاودة قال: إن المشايخ قالوا: ما جمع قلبك إلى الله سبحانه وتعالى فلا بأس به.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام: إني جعلتُ فيك عشرة آلاف سمع، حتى سمعتَ كلامي، وعشرة آلاف لسان حتى أجبتني، وأحب ما تكون إليّ وأقربه إذا أكثرت الصلاة على محمد ﷺ.

يقول أبو الحارث الأولاسي(1): رأيتُ إبليس لعنه الله في المنام على بعض سطوح أولاس، وأنا على سطح، وعلى يمينه جماعة، وعلى يساره جماعة، وعليهم ثياب نظيفة، فقال لطائفة منهم: قولوا، فقالوا وغنوا، فاستفزعني طيبه، حتى هممت أن أطرح نفسي من السطح، ثم قال: ارقصوا فرقصوا أطيب ما يكون، ثم قال لي: يا أبا الحارث ما أصبتُ شيئاً أدخل به عليكم إلا هذا.

يقول عبد الله بن علي: اجتمعتُ ليلة مع دلف الشبلي رحمه الله تعالى، فقال القوّال شيئاً، فصاح الشبلي وتواجد قاعداً، فقيل له: يا أبا بكر ما لك من بين هذه الجماعة قاعداً؟ فقام وتواجد، وقال:

لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خُصصتُ به من بينهم وحدي

ويقول أبو علي الروذباري: مررتُ بقصر، فرأيتُ شاباً حسن الوجه، مطروحاً

---

(1) الأولاسي: نسبة إلى أولاس، وهو حصن على ساحل البحر الأبيض المتوسط، من نواحي طرسوس، فيه حصن يسمى: حصن الزهاد.

وحوله ناس، فسألتُ عنه فقالوا لي: لقد مرَّ هذا الشاب بهذا القصر، وكان فيه جارية تغني:

كبرتْ همةُ عبدٍ طمعت في أن تراكا
أوَ ما حسبٌ لعينٍ أن ترى مَن قد رآكا

فشهق شهقة ومات.

الأحوال والكرامات

الفصل الثالث

كرامات الأولياء

إنّ ظهور الكرامات على الأولياء جائز، والدليل على جوازه: أنه أمر موهوم حدوثه في العقل، لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول، فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه فلا شيء يمنع جواز حصوله.

وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله، فمن لم يكن صادقاً فظهور مثلها عليه لا يجوز، والذي يدل عليه أن تعريف القديم سبحانه إيانا، حتى نفرق بين من كان صادقاً في أحواله، وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم، ولا يكون ذلك إلا باختصاص الولي بما لا يوجد مع المفتري في دعواه، وذلك الأمر هو الكرامة التي أشرنا إليها، ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلاً ناقضة للعادة في أيام التكليف، ظاهرة على موصوف بالولاية في معنى تصديقها في حاله، وتكلم الناس في الفرق بين الكرامات والمعجزات من أهل الحق، فكان الإمام أبو إسحاق الإسفراييني رحمه الله تعالى يقول: المعجزات دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي، كما أن العقل المحكم لما كان دليلاً للعالم في كونه عالماً لم يوجد إلا ممن يكون عالماً. وكان يقول: الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء(1)، فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا، وأما الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى، فكان يقول: المعجزات دلالات الصدق(2)، ثم إن

(١) شبه إجابة الدعاء كالإخبار بمجيء زيد من سفره، وبعافيته من مرضه.

(٢) المقصود بالصدق هنا هو صدق الأنبياء.

ادّعى صاحبها النبوة، فالمعجزة تدل على صدقه في مقالته، وإن أشار صاحبها إلى الولاية، دلت المعجزة على صدقه في حاله، فتسمى كرامة، ولا تسمى معجزة، وإن كانت من جنس المعجزات للفرق.

وكان رحمه الله يقول: من الفروق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها، والنبي ﷺ يدّعي ذلك، ويقطع القول به، والولي لا يدّعيها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكراً، وقال أوحد فنه في(١) وقته القاضي أبو بكر الأشعري رضي الله عنه: إن المعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء كما تكون للأنبياء، ولا تكون للأولياء معجزة لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها، وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة، فمتى اختل شرط من تلك الشروط لا تكون معجزة، وأحد تلك الشروط دعوى النبوة، والولي لا يدّعي النبوة، والذي يظهر عليه لا يكون معجزة، وهو القول الذي نعتمده ونقول به، بل ندين به، فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها توجد في الكرامة إلا هذا الشرط الواحد، والكرامة فعل لا محالة محدث، لأن ما كان قديماً لم يكن له اختصاص بأحد، وهو ناقض للعادة، ويحصل في زمان التكليف، ويظهر على عبد تخصيصاً له وتفضيلاً، وقد تحصل باختياره ودعائه، وقد لا تحصل، وقد تكون بغير اختياره في بعض الأوقات، ولم يأمر الولي بدعاء الخلق إلى نفسه، ولو أظهر شيئاً من ذلك على من يكون أهلاً له لجاز.

واختلف أهل الحق في الولي: هل يجوز أن يعلم أنه ولي أم لا؟

فكان الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى يقول: لا يجوز ذلك لأنه يسلبه الخوف ويوجب له الأمن. وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول بجوازه وهو الذي نؤثره(٢) ونقول به، وليس ذلك بواجب في جميع الأولياء، حتى يكون كل ولي يعلم بشكل واجب أنه ولي، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم ذلك، كما يجوز أن لا يعلم بعضهم، فإذا علم بعضهم أنه ولي كانت معرفته تلك كرامة له انفرد بها،

---

(١) فنه في: في مخطوطة غير موجودة

(٢) نؤثره: ننقله ونفضّله.

وليست كل كرامة لوليّ يجب أن تكون بعينها لجميع الأولياء، بل لو لم يكن للوليّ كرامة ظاهرة عليه في الدنيا لم يقدح عدمها(١) في كونه ولياً بخلاف الأنبياء، فإنه يجب أن تكون لهم معجزات، لأن النبي مبعوث إلى الخلق، فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه، ولا يُعرف إلا بالمعجزة، وبعكس ذلك حال الولي، لأنه ليس بواجب على الخلق، ولا على الولي أيضاً العلم بأنه وليّ، والعشرة من الصحابة(٢) صدقوا الرسول ﷺ فيما أخبرهم به أنهم من أهل الجنة. وقول من قال: لا يجوز ذلك، لأنه يخرجهم من الخوف، فلا بأس أن يخافوا تغيير العاقبة، والذي يجدونه في قلوبهم، من الهيبة والتعظيم والإجلال للحق سبحانه يزيد ويربو على كثير من الخوف.

واعلم أنه ليس للولي سكون إلى الكرامة التي تظهر عليه، وليس له ملاحظة، فربما يكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين، وزيادة بصيرة، لتحققهم أن ذلك فعل الله تعالى، فيستدلون بها على صحة ما هم عليه من العقائد، وبالجملة فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب، وعليه جمهور أهل المعرفة، ولكثرة ما تواترت بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علماً قوياً انتفت عنه الشكوك، ومن توسط هذه الطائفة وتواترت عليه حكاياتهم وأخبارهم لم تبق له شبهة في ذلك على الجملة.

ومن دلائل هذه الجملة نص القرآن الكريم في قصة صاحب سليمان عليه السلام(٣) حيث قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(٤) ولم يكن نبياً.

والأثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيح أنه قال(٥):

---

(١) بل قد يكون أفضل ممَّن ظهرت له كرامات، لأن الأفضلية إنما هي بزيادة اليقين، لا بظهور الكرامة.

(٢) فقد علموا بذلك أنهم أولياء الله تعالى، وأجمعت الأمة على فضلهم.

(٣) صاحب سليمان عليه السلام هو: آصف.

(٤) الآية: سورة النمل - ٤٠.

(٥) قال ذلك على منبر المسجد في المدينة المنورة موجهاً الكلام إلى سارية حيث كان يفتح بلاد فارس ٢٣ هـ.

﴿ يا سارية[1] الجبلَ الجبلَ ﴾[2] في حال خطبته يوم الجمعة وتبليغ صوت عمر إلى سارية في ذلك الوقت، حتى تحرّزوا من مكامن العدو من الجبل في تلك الساعة. فإن قيل: كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل؟ وهل يجوز تفضيل الأولياء على الأنبياء عليهم السلام؟ قيل: هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا ﷺ لأن كلّ من ليس بصادق في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة، وكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم تظهر على يد من تابعه الكرامة، فأما رتبة الأولياء فلا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم السلام للإجماع المنعقد على ذلك.

وقد سُئل أبو يزيد البسطامي عن هذه المسألة فقال: مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زِقٍّ فيه عسل، ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، وما في الظرف مثل ما لنبينا ﷺ.

كرامات من القرآن الكريم والسنة الشريفة

اعلم أن من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء: دوام التوفيق للطاعات، والعصمة من المعاصي والمخالفات، وقد روي عن سهل بن عبد الله أنه قال: (من زهد في الدنيا أربعين يوماً صادقاً من قلبه، مخلصاً في ذلك، ظهرت له الكرامات، ومن لم تظهر له فلعدم الصدق في زهده)، فقيل لسهل: كيف تظهر له الكرامة؟ فقال: يأخذ ما يشاء، كما يشاء، من حيث يشاء.

١ ـ كرامات وردت في القرآن الكريم:

ذكر القرآن الكريم نماذج من الكرامات التي ظهرت على الأولياء. نذكر من ذلك:

---

(١) سارية بن زنيم (توفي ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م): كناني دئلي صحابي. من الشعراء القادة الفاتحين.

(٢) أي: الزم الجبل واصعده، ففي ذلك نجاتك من أعدائك الذين أحاطوا بك.

أ - قوله سبحانه وتعالى عن مريم عليها السلام، ولم تكن نبياً ولا رسولاً: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(٢) وكان هذا في غير أوان الرطب.

ب - وكذلك قصة أصحاب الكهف، والأعاجيب التي ظهرت عليهم من كلام الكلب معهم.

ج - ومن ذلك قصة ذي القرنين، وتمكينه سبحانه وتعالى له مما لم يمكن لغيره.

د - ومن ذلك ما ظهر على يدي الخضر عليه السلام، وهي أمور مناقضة للعادة، اختص الخضر عليه السلام بها، ولم يكن نبياً، وإنما كان ولياً.

٢ - كرامات وردت في السنة الشريفة:

١ - جريج الراهب

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصبي في زمن جريج، وصبي آخر.

فأما جريج فكان عابداً في بني إسرائيل، وكانت له أم، فكان يوماً يصلي، إذ اشتقات إليه أمه، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، الصلاة خير أم آتيها؟، ثم صلى، فدعته، فقال مثل ذلك، ثم صلى، فاشتد الأمر على أمه، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات(٣).

وكانت هناك امرأة زانية في بني إسرائيل، فقالت لهم: أنا أفتن جريجاً حتى يزني، فأتته، فلم تستطع إغواءه.

(١) الآية: سورة آل عمران: ٣٧.

(٢) الآية: سورة مريم: ٢٥.

(٣) المومسات: الزانيات.

وكان هناك راعٍ يأوي بالليل إلى أصل صومعته، فلما أعياها جريج، راودت الراعي على نفسها فأتاها، فحملت، وعندما ولدت سألها الناس عن ولدها هذا فقالت: ولدي هذا من جريج، فأتاه بنو إسرائيل، وكسروا صومعته، وشتموه.

ثم إنه صلى ودعا ربه، ثم نخس الغلام، وقال: يا غلام من أبوك؟ فقال الطفل: والدي هو الراعي.

فندم القوم على ما كان منهم، واعتذروا لجريج، وقالوا له: نبني صومعتك، فأبى عليهم وبناها كما كانت.

٢ - حديث الغار:

قال رسول الله ﷺ: **«انطلق ثلاثة رجال ممن كان قبلكم، فآواهم المبيت، إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار».**

فقالوا: والله لا ينجينا من هذه الصخرة إلا أن ندعو الله بصالح أعمالنا.

فقال أحدهم: كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق (1) قبلهما أهلاً ولا مالاً، فعاقني طلب يوماً، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فجئتهما به فوجدتهما نائمين، فتحرجت أن أوقظهما، وكرهت أن أغبق قبلهما، فقمت والقدح بيدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما.

اللهم.. إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الثاني: اللهم لقد كانت لي ابنة عم، كانت أحب الناس إليّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت، حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، وانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ، وتركت المال الذي أعطيتها إياه.

---

(1) الغبوق: ما يُشرب مساءً.

اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرجْ عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

ثم قال الثالث: اللهم إني استأجرتُ أجَرَاء فأعطيتُهم أجورهم، غير رجل واحد منهم، ترك وذهب، فثمَّرتُ أجره، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجرتي، فقلتُ له: إن أجرتك هي كُل ما ترى من الإبل والغنم والبقر والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي، فقلتُ: إني لا أستهزىء بك، ورويتُ له القصة، فأخذ ذلك كله فاستاقه، ولم يترك منه شيئاً.

اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرجْ عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا من الغار يمشون.. وهذا حديث صحيح متفق عليه.

هامة في الولي والولاية

معنى الولي:

إذا قيل: ما معنى الولي؟ قيل: يحتمل أمران:

الأول: أن يكون فعيل مبالغة من الفاعل، كالعليم والقدير وغيره، ويكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية.

والثاني: يجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[1].

عصمة الولي:

فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً؟

قيل: إما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب، إن حصلت آفات أو زلات، فلا يمتنع ذلك في وصفهم.

(١) الآية: سورة الأعراف: ١٩٦.

ولقد سُئل الجنيد: هل يزني العارف يا أبا القاسم؟

فاطرق مليأ، ثم رفع رأسه، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾(١).

خوف الأولياء

فإن قيل: فهل يسقط الخوف عن الأولياء؟

قيل: أما الغالب على الأكابر فكان الخوف، وذلك الذي قلناه فيما تقدم على جهة الندرة غير ممتنع.

وقد قال السري السقطي: لو أن واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة، وعلى كل شجرة طير، يقول له بلسان فصيح: السلام عليك يا ولي الله، فلو لم يخف أنه مكر لكان ممكوراً.

رؤية الله بالأبصار:

فإن قيل: فهل تجوز رؤية الله تعالى بالأبصار في الدنيا على جهة الكرامة؟.

فالجواب عنه: أن الأقوى فيه أنه لا يجوز، لحصول الإجماع عليه. ولقد سمعتُ الإمام أبا بكر بن فورك رضي الله عنه يروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال في ذلك قولان، وذلك في كتاب (الرؤية الكبير).

تغيّر حال الأولياء:

فإن قيل: فهل يجوز أن يكون الإنسان ولياً في الحال، ثم تتغير عاقبته؟.

قيل: من جعل من شرط الولاية حسن الموافاة لا يجوز ذلك، ومن قال: إنه في الحال مؤمن على الحقيقة وإن جاز أن يتغير حاله بعد، لا يبعد أن يكون ولياً في الحال وصديقاً، ثم يتغيّر، وهذا الذي نختاره(٢).

ويجوز أن يكون من جملة كرامات الولي أن يعلم أنه مأمون العاقبة، وأن عاقبته لا تتغيّر، فتلحق هذه المسألة بما ذكرناه من أن الولي يجوز أن يعلم أنه ولي.

---

(١) الآية: سورة الأحزاب: ٣٨.

(٢) وهذا لا يورث احتمال التغير في العاقبة شكا في كونه ولياً ومؤمناً في الحال، وإلا لالتبس الأمر علينا، فلا نشترط في صدق ذلك دوامه إلى الممات.

الولي وخوف المكر:

فإن قيل: فهل يزول عن الولي الخوف من مكر الله تعالى به؟.

قيل: إن كان مصطلماً[1] عن شاهده، مختطفاً عن إحساسه بحاله، فهو مستهلك عنه فيما استولى عليه[2]، والخوف من صفات الحاضرين منهم.

الولي في الصحوة:

فإن قيل: فما الغالب على الولي في حال صحوه؟

قيل صدقه في أداء حقوقه سبحانه، ثم رفقه وشفقته على الخلق في جميع أحواله، ثم انبساط رحمته لكافة الخلق، ثم دوام تحمله عنهم بجميل الخلق وابتدائه، لطلب الإحسان من الله عز وجل إليهم من غير التماس منهم، وتعليق الهمة بنجاة الخلق، وترك الانتقام منهم، والتوقي عن استشعار الحقد عليهم، مع قصر اليد عن أموالهم، وترك الطمع بكل وجه فيهم، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم، والتصاون[3] عن شهود مساوئهم، ولا يكون خصماً لأحد في الدنيا ولا في الآخرة.

عصمة المشايخ:

ولا ينبغي للمريد أن يعتقد العصمة في المشايخ، بل الواجب عليه أن يذرهم وأحوالهم، فيحسن بهم الظن، ويراعي مع الله تعالى حدّه فيما يتوجه إليه من الأمر والعلم، مما يكفي التفرقة بين ما هو محمود، وما هو معلول.

المريد وعروض الدنيا:

كل مريد بقي في قلبه مقدار لشيء من عروض الدنيا فالإرادة له مجاز، وإذا بقي في قلبه اختيار فيما يخرج عنه من معلومه، فيريد أن يخص به نوعاً من أنواع البر، فهو متكلف، وبالخطر أن يعود سريعاً إلى الدنيا، لأن قصد المريد في حذف

---

(١) مصطلم: مستغرق.

(٢) من الأحوال التي تعرّض لها.

(٣) التصاون من العيب: صون النفس وحفظها.

العلاقات هو الخروج منها لا السعي في أعمال البر. وقبيح أن يخرج المريد من معلومه من رأس ماله ثم يكون أسير حرفة، وينبغي أن يستوي عنده وجود ذلك وعدمه، حتى لا ينافر لأجله فقيراً، ولا يضايق به أحداً، ولو كان مجوسياً.

قبول الشيخ للمريد:

إن قبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته. ومن رده قلب شيخ من الشيوخ فلا شك أنه سيتحقق من ذلك بعد حين.

صحبة الأحداث:

ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث لأن ذلك القلب قد شغل بمخلوق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾(١).

يقول فتح الموصلي: صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال(٢)، كلهم أوصوني عند فراقي إياهم، وقالوا: اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم.

وما قالوه من الوساوس وإيراد الحكايات عن بعض الشيوخ كان الأولى إسبال الستر عليها، لأن ذلك نظير الشرك وقرين الكفر، ونعوذ بالله تعالى من قضاء السوء.

الحسد:

ومن آفات المريد ما يداخل النفس من خفي الحسد للاخوان، والتأثر بما يفرد الله عز وجل به أشكاله من هذه الطريقة، وحرمانه إياه ذلك، وليعلم أن الأمور مقسمة من الله تعالى، وإنما يتخلص العبد عن هذا باكتفائه بوجود الحق، وقدمه عن مقتضى جوده ونعمه.

الإيثار:

واعلم: أن من حق المريد إذا اتفق وقوعه في جميع إيثار الكل بالكل، فيقدم الجائع والشبعان على نفسه، ويتتلمذ لكل من أظهر عليه التشيخ، وإن كان هو أعلم منه.

---

(١) الآية: سورة النور: ١٥.

(٢) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، فإذا مات واحد أبدل الله تعالى مكانه آخر.

الحركة :

وأما آداب المريد في السماع : فالمريد لا تسلم له الحركة في السماع بالاختيار أبداً ، فإن ورد عليه وارد حركة ولم يكن فيه فضل قوة ، فبمقدار الغلبة يُعذر ، فإن زالت الغلبة يجب عليه القعود والسكون ، فإن استدام الحركة مستجلباً للوجد ، من غير غلبة وضرورة لم يصح ، فإن تعود ذلك يبقى متخلفاً لا يكاشف بشيء من الحقائق .

السفر والتحول :

وإن ابتلي مريد بجاه أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة ، وليس هناك شيخ يدله على حل لذلك ، فعند ذلك يحل له السفر والتحول عن ذلك الموضع .

وقال المشايخ : إذا حدّث العارف عن المعارف فجهلوه ، فإن الإخبار عن المنازل دون المعارف ، ومن غلب علمه منازلته فهو صاحب علم لا صاحب سلوك .

خدمة الفقراء :

وإذا خدم المريد الفقراء ، فخواطر الفقراء رسلهم إليه ، فلا ينبغي أن يخالف المريد ما حكم بباطنه عليه من الخلاص في الخدمة ، وبذل الوسع والطاقة .

الصبر على جفاء القوم :

ومن شأن المريد إذا كانت طريقته خدمة الفقراء ، أن يصبر على جفاء القوم معه ، وأن يعمل على بذل روحه في خدمتهم ، وإذا كانوا لا يحمدون له أثراً فيقر بالجناية على نفسه تطييباً لقلوبهم ، وإن علم أنه بريء الساحة .

وإذا زادوه في الجفاء فيجب أن يزيدهم في الخدمة والبر ، سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يقول : إذا لم تصبر على المطرقة ، فلماذا كنت سنداناً ؟ .

حفظ آداب الشريعة :

وبناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة وصون اليد عن امتدادها الى الحرام والشبهة ، وحفظ الحواس عن المحظورات[1] ، وعد الأنفاس مع الله تعالى

---

(١) المحرمات .

عن الغفلات ، وأن لا يستحل سمسمة فيها شبهة في أوان الضرورات ، فكيف عند الاختيار وقت الراحة ؟

ومن شأن المريد دوام المجاهدة في ترك الشهوات ، فإنّ من وافق شهوته عدم صفوته ، وأقبح الخصال بالمريد رجوعه الى شهوة تركها لله تعالى .

حفظ العهود مع الله تعالى :

لا بد للمريد من حفظ عهوده مع الله تعالى ، فإنّ نقض العهد في طريق الإرادة ، كالردّة عن الدين لأهل الظاهر ، ولا ينبغي للمريد أن يعاهد الله تعالى على كل شيء باختياره ما أمكنه ، فإنّ في لوازم الشرع ما يستوفي منه كل وسع ، قال تعالى في صفة قوم : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ، إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[1] .

التباعد عن أبناء الدنيا :

ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا ، فإن صحبتهم سم مجرّب ، لأنهم ينتفعون به ، وهو ينتقص بهم ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [2] .

إن الزهاد يخرجون المال من الكيس تقرباً إلى الله تعالى ، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققاً بالله تعالى .

رؤيا القوم

قال الله تعالى : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[3] قيل : هي الرؤيا الحسنة ، يراها المرء ، أو ترى له .

---

(١) الآية : سورة الحديد : ٢٧ .

(٢) الآية : سورة الكهف : ٢٨ .

(٣) الآية سورة يونس ـ ٦٤ .

عن أبي الدرداء(١) قال : سألتُ النبي ﷺ عن هذه الآية : ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، قال : «ما سألني عنها أحدٌ قبلك ، هي الرؤيا الحسنة ، يراها المرء ، أو تُرى له»(٢) .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : الرؤيا من الله والحلم من الشيطان(٣) . وقال رسول الله ﷺ «من رآني في المنام فقد رآني ، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي(٤)»، ومعنى الخبر أن تلك الرؤيا رؤيا صدق، وتأويلها حق، وأن الرؤيا نوع من أنواع الكرامات.

وتحقيق الرؤيا خواطر ترد على القلب، وأحوال تتصور في الخيال، إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، فيتوهم الإنسان عند اليقظة أنه كان رؤية في الحقيقة ، وإنما كان ذلك تصوراً وخيالات تقررت في قلوبهم ، وحين زال عنهم الإحساس الظاهر تجردت تلك الأوهام عن المعلومات بالحس والضرورة ، فقويت تلك الحالة عند صاحبها ، فإذا استيقظ ضعفت تلك الأحوال التي تصورها بالإضافة إلى حال إحساسه بالمشاهدات، وحصول العلوم الضرورية ، ومثاله كالذي يكون في ضوء السراج عند اشتداد الظلمة، فإذا طلعت الشمس عليه غلبت (أشعة الشمس) ضوء السراج فيتقاصر نور السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس ، فمثال حال النوم كمن هو في ضوء السراج ، ومثال المستيقظ

---

(١) أبو الدرداء : عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي (توفي ٣٢ هـ - ٦٥٢ م): صحابي من الحكماء الفرسان القضاة. تاجر ثم انقطع للعبادة تولى قضاء دمشق، وهو أول قاض بها.

(٢) الحديث: رواه الترمذي رقم (٢٢٧٤) في الرؤيا باب قوله [لهم البشر من في الحياة الدنيا] ورقم (٣١٠٥) في التفسير باب ومن سورة يونس ورواه الطبراني في الأرقام التالية (١٧٧٢٢) و(١٧٧٢٣) و(١٧٧٢٤) (١٧٧٣٣) و (١٧٧٣٤) ورواه أحمد، ٤٤٧/٦ وحسنه الترمذي ورواه الطبراني رقم (١٧٧٣٦) عن أبي الدرداء وإسناده قوي.

(٣) الحديث: رواه البخاري ١٧٧/١٠ و١٧٨ في أبواب كثيرة منها في الرؤيا والتعبير ومسلم في الرؤيا رقم (٢٢٦٢)، والموطأ ٩٥٧/٢ في الرؤيا والترمذي رقم (٢٢٨٨) في الرؤيا باب ما جاء إذا رأى في المنام ما يكره، وأبو داود رقم (٥٠٢١) في الأدب باب ما جاء في الرؤيا.

(٤) الحديث: رواه الترمذي رقم (٢٢٧٧) في الرؤيا وقال: حديث حسن صحيح وله شواهد كثيرة في معناه للبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

كمن تعالى عليه النهار، فإن المستيقظ يتذكر ما كان متصوراً له في حال نومه، ثم إن تلك الأحاديث والخواطر التي كانت ترد على قلبه في حال نومه، مرة تكون من قبل الشيطان، ومرة من هواجس النفس، ومرة بخواطر الملك، ومرة تكون تعريفاً من الله عز وجل بخلق تلك الأحوال في قلبه ابتداء، وفي الخبر: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً»(١).

واعلم أن النوم على أقسام: نوم غفلة ونوم عادة وذلك غير محمود، بل هو معلول، لأنه أخو الموت، وفي بعض الأخبار المروية: النوم أخو الموت، وقال الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾(٢) وقال تعالى أيضاً: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾(٣).

وقيل: لو كان في النوم خير، لكان في الجنة نوم. وقيل: لما ألقى الله تعالى على آدم عليه السلام النوم في الجنة أخرج منه حواء، وكل بلائه إنما حصل حين حصلت حواء.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: لما قال إبراهيم لإسماعيل عليهما السلام: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾(٤) قال: يا أبت هذا جزاء من نام عن حبيبه، ولو لم تنم لما أمرت بذبح الولد.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني، والنوم ضد العلم. ولهذا قال دلف الشبلي: نعسة في ألف سنة فضيحة، وقال الشبلي أيضاً: اطلع الحق علي، فقال: من نام غفل، ومن غفل حجب. وكان الشبلي يكتحل بالملح بعده حتى كان لا يأخذه النوم، وقالوا في هذا المعنى:

عجباً للمحب كيف ينام ... كل نوم على المحب حرام

وقيل: المريد أكله فاقة، ونومه غلبة، وكلامه ضرورة.

---

(١) الحديث: لم أجده.

(٢) الآية: سورة الأنعام - ٦٠.

(٣) الآية: سورة الزمر - ٤٢.

(٤) الآية: سورة الصافات - ١٠٢.

وقيل: لما نام آدم عليه السلام بالحضرة قيل له: هذه حوّاء لتسكن إليها، هذا جزاء من نام بالحضرة.

وقيل: إن كنتَ حاضراً فلا تنم، فإن النوم بالحضرة سوء أدب، وإنْ كنتَ غائباً فأنت من أهل الحسرة والمصيبة، والمصاب لا يأخذه النوم.

وأما أهل المجاهدات فنومهم صدقة من الله عليهم. وإن الله عز وجل يباهي بالعبد إذا نام في سجوده، يقول: انظروا إلى عبدي، روحه عندي وجسده بين يدي.

قال الأستاذ القشيري: يعني روحه في محل النجوى، وبدنه على بساط العبادة.

وقيل: كل من نام على الطهارة يؤذن لروحه أن تطوف بالعرش وتسجد لله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾[1].

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: شكا رجل إلى بعض المشايخ من كثرة النوم، فقال: اذهبْ واشكر الله تعالى على العافية، فكم من مريض في شهوة غمضة من النوم الذي تشكو منه.

وقيل: لا شيء أشدّ على إبليس من نوم العاصي، يقول: متى ينتبه ويقوم حتى يعصي الله تعالى؟.

وقيل: أحسن أحوال العاصي أن ينام إن لم يكن الوقت له لم يكن عليه[2].

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: تعوّد شاه الكرماني السهر فغلبه النوم مرّة، فرأى الحق سبحانه في النوم، فكان يتكلف النوم بعد ذلك، فقيل له في ذلك، فقال:

رأيتُ سرور قلبي في منامي فأحببتُ التنعّس والمناما

---

(١) الآية: سورة النبأ ـ ٩.

(٢) (إن لم يكن الوقت له) بأن يعمل فيه خيراً، (لم يكن عليه) بأنه لم يعمل فيه شراً.

وقيل: كان رجل له تلميذان، فاختلفا فيما بينهما، فقال أحدهما: النوم خير، لأن الإنسان لا يعصي في تلك الحالة. وقال الآخر: اليقظة خير، لأنه يعرف الله تعالى في تلك الحالة، فتحاكما إلى ذلك الشيخ، فقال: أما أنت الذي قلت بتفضيل النوم، فالموت خير لك من الحياة، وأما أنت الذي قلت بتفضيل اليقظة فالحياة خير لك من الموت.

وقيل: اشترى رجل مملوكة، فلما دخل الليل قال لها: افرشي الفراش، فقالت المملوكة: يا مولاي إلك مولى؟ قال: نعم، فقالت: أينام مولاك؟ قال: لا، قالت: ألا تستحيي أن تنام ومولاك لم ينم.

وقيل: قالت بنية لسعيد بن جبير: لماذا لا تنام؟ قال: إن جهنم لا تدعني أنام.

وقيل: لما مات الربيع بن خيثم، قالت بنية لأبيها من جيرانه: يا أبت، أين ذهبت الأسطوانة التي كانت في دار جارنا؟ فقال: لقد كان جارنا الصالح يقوم من أول الليل إلى آخره، فتخيلت البنية أنه كان سارية لأنها كانت لا تصعد السطح إلا بالليل فتجده قائماً.

وقال بعضهم: في النوم معان ليست في اليقظة: منها أنه يرى المصطفى ﷺ والصحابة والسلف الماضين في النوم ولا يراهم في اليقظة، وكذلك يرى الحق في النوم وهذه مزية عظيمة.

وقيل: رأى أبو بكر الآجري الحق سبحانه في النوم، فقال الحق له: سل حاجتك، فقال: اللهم اغفر لجميع عصاة أمة محمد ﷺ، فقال: أنا أولى بهذا منك، سل حاجتك.

وقال محمد بن علي الكتاني: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: من تزين للناس بشيء يعلم الله تعالى منه خلافه شانه الله. وقال الكتاني أيضاً: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: ادع الله تعالى أن لا يميت قلبي، فقال: قل كل يوم أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، فإن الله يحيي قلبك.

ورأى الحسن بن علي رضي الله عنهما عيسى بن مريم عليهما السلام في

المنام، فقال: إني أريد أن أتخذ خاتماً فما الذي أكتب عليه؟ فقال: اكتب عليه: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فإنه آخر الإنجيل.

وروي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: رأيت ربي عز وجل في المنام، فقلت: كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال.

وقيل: رأى أحمد بن خضرويه ربه في المنام، فقال: يا أحمد، كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني.

وقال يحيى بن سعيد القطان: رأيت ربي في المنام، فقلت: يا رب كم أدعوك فلا تستجيب لي، فقال تعالى: يا يحيى إني أحب أن أسمع صوتك.

وقال بشر بن الحارث: رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام، فقلت: يا أمير المؤمنين عظني، فقال: ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً لثواب الله تعالى، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالى، فقلت له: يا أمير المؤمنين زدني، فقال:

قد كنت ميتاً فصرت حياً وعن قريب تصير ميتاً

وقيل: رؤي سفيان الثوري في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: رحمني، فقيل: ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه كل يوم مرتين.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: رأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام، وكان الزجاجي يقول بوعيد الأبد، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال الزجاجي: الأمر ههنا أسهل مما كنا نظنه(١).

وروي الحسن بن عاصم الشيباني في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وماذا يكون من الكريم إلا الكرم..!

(١) (الأمر ههنا) أي في الآخرة (أسهل مما كنا نظنه) أي في الدنيا.

ورؤي بعضهم في المنام، فسُئل عن حاله فقال:

حاسبونا فدققوا ثم منّوا فأعتقوا

وقيل: دخل الحسن البصري مسجداً ليصلي فيه المغرب، فوجد إمامهم حُبيباً العجمي، فلم يصلِّ خلفه لأنه خاف أن يلحن لعجمة في لسانه، فرأى في المنام تلك الليلة قائلاً يقول له: لماذا لم تصلِّ خلفه؟ لو صليت خلفه لغفر لك ما تقدم من ذنبك.

ورؤي مالك بن أنس في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة: سبحان الحي الذي لا يموت.

ورؤي الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتّحة، وكأن منادياً ينادي: ألا إن الحسن البصري قدم على الله تعالى وهو عنه راض (١).

سمعت أبا بكر بن أشكيب يقول: رأيت الأستاذ أبا سهل الصعلوكي في المنام على حالة حسنة. فقلت: يا أستاذ بماذا وجدت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

وقيل: رؤي الجاحظ(٢) في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

وقيل: رأى الجنيد إبليس في منامه عُرياناً، فقال له: ألا تستحيي من الناس، فقال: هؤلاء لا ناس(٣)، إنما الناس أقوام في مسجد الشونيزية(٤) أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي، قال الجنيد: فلما انتبهت غدوت إلى المسجد، فرأيت جماعة،

---

(١) في ذلك دلالة على أهميته وفضائله، وهو أمر معلوم من حاله في الدنيا.

(٢) عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ/ ٧٨٠ - ٨٦٩ م): كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. ولد وتوفي في البصرة. فلج في آخر عمره. ألف (البيان والتبيين، البخلاء. الحيوان..).

(٣) أي: هؤلاء ليسوا بناس يستحيا منهم.

(٤) الشونيزية: مقبرة ببغداد في جانبها الغربي.

وضعوا رؤوسهم على ركبهم متفكرين(١)، فلما رأوني قالوا: لا يغرنك حديث الخبيث.

ورؤي النصر آباذي بمكة المكرمة بعد وفاته في النوم، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: عوتبت عتاب الأشراف، ثم نوديت: أبعد الاتصال انفصال، فقلت: لا، يا ذا الجلال، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بالأحد.

ورؤي ذو النون المصري في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: كنت أسأله ثلاث حوائج في الدنيا فأعطاني بعضها، وأرجو أن يعطيني الباقي، كنت أسأله أن يعطيني من العشرة التي على يد رضوان واحداً ويعطيني بنفسه، وأن يعذبني عن الواحد الذي بيد مالك بعشرة ويتولى هو، وأن يرزقني أن أذكره بلسان الأبدية.

وقيل رؤي دلف الشبلي في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: لم يطالبني بالبراهين على الدعاوى، إلا على شيء واحد، قلت يوماً: لا خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار، فقال لي: وأية خسارة أعظم من خسارة لقائي.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: رأى أحمد الجريري الجنيد في المنام، فقال: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وبادت تلك العبارات، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات.

وقال النباجي: تشهيت يوماً شيئاً، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول: أيجمل بالحر المريد أن يتذلل للعبيد، وهو يجد من مولاه ما يريد.

وقال أحمد بن الجلاء: دخلت المدينة وبي فاقة، فتقدمت إلى القبر، وقلت: أنا ضيفك، فغفوت فرأيت النبي ﷺ وقد أعطاني رغيفاً، فأكلت نصفه، فانتبهت وبيدي النصف الآخر.

وقيل: رأى عتبة الغلام حوراء(٢) في المنام على صورة حسنة، فقالت له: يا

---

(١) متفكرين في خلق السموات والأرض.

(٢) الحوراء من الحور، وهو شدة بياض العين في شدة سوادها.

عتبة: أنا لك عاشقة، فانظر أن لا تعمل من الأعمال شيئاً يحول بيني وبينك، فقال عتبة: طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعة لي عليها حتى ألقاك.

سمعت منصور المغربي يقول: رأيت شيخاً في بلاد الشام كبير الشأن، وكان الغالب عليه الانقباض، فقيل لي: إن أردت أن ينبسط هذا الشيخ معك فسلم عليه، وقل: رزقك الله الحور العين، فإنه يرضى منك بهذا الدعاء، فسألت عن سببه، فقيل: إنه رأى شيئاً من الحور في منامه، فبقي في قلبه شيء من ذلك، فمضيت وسلمت عليه، وقلت: رزقك الله تعالى الحور العين، فانبسط الشيخ معي.

وقيل: رأى أيوب السختياني جنازة عاص، فدخل دهليزاً لئلا يحتاج إلى الصلاة عليها، فرأى بعضهم الميت في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وقال لي: قل لأيوب السختياني: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي، إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ ﴾(١).

وقيل: رؤي الليلة التي مات فيها مالك بن دينار كأن أبواب السماء قد فتحت وقائلاً يقول: ألا إن مالك بن دينار أصبح من سكان الجنة.

وقال بعضهم: رأيت الليلة التي مات فيها داود الطائي نوراً وملائكة صعوداً وملائكة نزولاً، فقلت: أية ليلة هذه؟ فقالوا: هذه ليلة مات فيها داود الطائي، وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: رأيت الأستاذ أبا علي الدقاق في المنام، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: ليس للمغفرة هنا كبير خطر، أقل من حضر ههنا خطراً(٢) فلان أعطي كذا وكذا.

ووقع لي في المنام أن ذلك الإنسان الذي عناه قتل نفساً بغير حق.

وقيل: لما مات كرز بن وبرة، رؤي في المنام كأن أهل القبور خرجوا من قبورهم وعليهم ثياب جدد بيض، فقيل: ما هذا؟ قيل: إن أهل القبور كسوا ثياباً جدداً لقدوم كرز بن وبرة عليهم.

---

(١) الآية: سورة الإسراء - ١٠٠.

(٢) خطر: منزلة - درجة.

ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: غفر لي، فقيل له: بماذا غفر لك؟ فقال: لأني ما خلطت جداً بهزل قط.

ورؤي عبد الله الزراد في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: أوقفني، وغفر لي كل ذنب أقررت به في الدنيا إلا واحداً، استحييت أن أقر به فوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي، فقيل له: وما ذاك؟ فقال: نظرت يوماً إلى شخص جميل فاستحييت أن أذكره.

سمعت أبا سعيد الشحام يقول: رأيت الشيخ الإمام أبا الطيب سهل الصعلوكي في المنام، فقلت: أيها الشيخ، فقال: دع الشيخ، فقلت: وتلك الأحوال التي شاهدتها فقال: لم تغن عنا شيئاً، فقلت: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: غفر لي بمسائل كان يسأل عنها الأشخاص العاجزين.

سمعت أبا بكر الرشيدي الفقيه يقول: رأيت محمد الطوسي المعلم في المنام، فقال: قل لأبي سعيد الصفار المؤدب:

وكنا على أن لا نحول عن الهوى … فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا
تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا … وأظهرتم الهجران ما هكذا كنا
لعل الذي يقضي الأمور بعلمه … سيجمعنا بعد الممات كما كنا

قال: فانتبهت، قلت ذلك لأبي سعيد الصفار، فقال: كنت أزور قبره كل يوم جمعة، فلم أزره هذه الجمعة.

وروي عن بعضهم أنه قال: رأيت في المنام رسول الله ﷺ وحوله جماعة من الفقراء، فبينا هو كذلك، إذ نزل من السماء ملكان، وبيد أحدهما طست(1)، وبيد الآخر إبريق، فوضع الطست بين يدي رسول الله ﷺ، فغسل يده، ثم أمر حتى غسلوا أيديهم، ثم وضع الطست بين يدي، فقال أحدهما للآخر: لا تصب الماء على يده فإنه ليس منهم، فقلت: يا رسول الله، أليس قد روي عنك أنك قلت:

---

(1) الطست: جمع طسوت، وهي كلمة فارسية، تعني إناء من نحاس، يستعمل لغسل الأيدي عادة.

المرء مع من أحب، فقال: بلى، فقلتُ: وأنا أحبك وأحب هؤلاء الفقراء، فقال: ضَعْ علي يده فإنه منهم(1).

وروي عن عمر الحمال أنه كان يقول: العافية العافية، فقيل له: ما معنى هذا الدعاء؟ فقال: كنتُ حمالاً في ابتداء أمري، وكنت حملت يوماً صدراً من الدقيق، فوضعته لأستريح، فكنتُ أقول: يا رب لو أعطيتني كل يوم رغيفين من غير تعب لكنتُ أكتفي بهما، فإذا رجلان يختصمان، فتقدمت أصلح بينهما، فضرب أحدهما رأسي بشيء أراد أن يضرب به خصمه، فأدمى وجهي، فجاء صاحب الربع فأخذهما، فلما رآني ملوثاً بالدم أخذني وظن أنني ممن تشاجر فأدخلني السجن، وبقيتُ في السجن مدة يأتونني كل يوم برغيفين، فرأيتُ ليلة في المنام قائلاً يقول لي: إنك سألتَ الرغيفين كل يوم من غير تعب، ولم تسأل العافية فانتبهتُ، وقلتُ: العافية العافية، فرأيتُ باب السجن يقرع ويقال: أين عمر الحمال؟ ثم خلوا سبيلي.

وروي عن محمد الكتاني أنه قال: كان عندنا رجل من أصحابنا هاجت عينه(2)، فقيل له: ألا تعالجها؟ فقال: عزمتُ أن لا أعالجها حتى تبرأ، قال فرأيتُ في المنام كأن قائلاً يقول: لو كان هذا العزم على أهل النار كلهم، لأخرجناهم من النار.

وروي عن الجنيد أنه قال: رأيتُ في المنام كأني أتكلم على الناس، فوقف عليَّ ملكٌ فقال: ما أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى؟ فقلتُ: عمل خفي بميزان وفي، فولى الملك عني وهو يقول: كلام موفق والله.

وقال رجل للعلاء بن زيد: رأيتُ في النوم كأنك من أهل الجنة، فقال: لعل الشيطان أراد أمراً، فعصمت منه، فأشخص إليَّ رجلاً يعينه.

وقيل: رؤي عطاء السلمي في النوم، فقيل له: لقد كنتَ طويل الحزن فما فعل الله تعالى بك؟ فقال: أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة، وفرحاً دائماً،

---

(1) في هذا حكم: على أن صحبة العبد للأخيار تنفعه، وإن لم يكن منهم في المنزلة.

(2) هاجت عينه: أصابها مرض أو تعرّضت لالتهاب.

فقيل له: ففي أي الدرجات أنت؟ فقال: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾(١).

وقيل: رؤي الأوزاعي في المنام، فقال: ما رأيت هٰهنا درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين.

وقال النباجي: قيل لي في المنام: من وثق بالله تعالى في رزقه، زيد في حسن خُلُقه، وسمحت نفسه في نفقته، وقلت وساوسه في صلاته.

وقيل: رؤيتُ زُبَيْدَة(٢) في المنام، فقيل لها: ما فعل الله تعالى بك؟ فقالت: غفر لي فقيل: بكثرة نفقتك في طريق مكة المكرمة، فقالت لا، أما أجرها فقد عاد إلى أربابها، ولكن غفر لي بنيّتي.

ورؤي سفيان الثوري في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: وضعتُ أول قدمي على الصراط. والثاني في الجنة.

وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيتُ في النوم جارية، ما رأيتُ أحسن منها، يتلألأ وجهها نوراً، فقلتُ: ما أنور وجهك..! فقالت: تذكر الليلة التي بكيت فيها، فقلت: نعم، فقالت: حملت إليّ دمعتك فمسحت بها وجهي، فصار وجهي هكذا.

وقيل: رأى يزيد الرقاشي النبي ﷺ في المنام، فقرأ عليه، فقال: هذه القراءة... فأين البكاء؟.

وقال الجنيد: رأيتَ في المنام كأن ملكين نزلا من السماء، فقال أحدهما لي: ما الصدق؟ فقلتُ: الوفاء بالعهد، فقال الآخر: صدق، ثم صعدا.

ورؤي بشر الحافي في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: غفر لي، وقال: أما استحييت يا بشر مني، كنتَ تخافني ذلك الخوف.

(١) الآية: سورة النساء ـ ٦٩.

(٢) زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد (توفيت ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م): من فضليات

وقيل: رؤي أبو سليمان الداراني في المنام، فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: غفر لي، وما كان شيء أضر عليّ من إشارات القوم.

وقال علي بن الموفق: كنت أفكر يوماً في سبب عيالي والفقر الذي بهم، فرأيت في المنام رقعة كتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، يا ابن الموفق، أتخشى الفقر وأنا ربك، فلما كان وقت الغلس(١) أتاني رجل بكيس فيه خمسة آلاف دينار، وقال: خذها إليك يا ضعيف اليقين.

وقال الجنيد: رأيت في المنام كأني واقف بين يدي الله تعالى، فقال لي: يا أبا القاسم، من أين لك هذا الكلام الذي تقوله؟ فقلت: لا أقول إلا حقاً، فقال: صدقت.

وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في المنام شاباً لم أر أحسن منه، فقلت: من أنت؟ فقال: التقوى، قلت: فأين تسكن؟ قال: في كل قلب حزين، ثم التفت فإذا امرأة سوداء كأوحش ما يكون، فقلت: من أنت؟ فقالت: الضحك، فقلت: وأين تسكنين؟ فقالت: في كل قلب فرح مرح(٢)، قال: فانتبهت واعتقدت أن لا أضحك إلا غلبة.

وروي عن أبي عبد الله بن خفيف أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام كأنه قال لي: من عرف طريقاً إلى الله تعالى فسلكه، ثم رجع عنه عذبه الله تعالى عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين.

ورؤي دلف الشبلي في المنام فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: ناقشني حتى أيست(٣) فلما رأى يأسي تغمدني برحمته.

النساء. اسمها أمة العزيز، وغلب عليها لقبها زبيدة، إليها تُنسب عين زبيدة في مكة المكرمة حيث جلبت إليها الماء من أقصى الوادي.

(١) الغَلَس: جمع أغلاس وهو ظلمة آخر الليل.

(٢) الفرح والمرح دلالة على الغفلة وتمكّن القسوة، قال الله تعالى: ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ سورة القصص ـ ٧٦.

(٣) أيست: يئست.

وقال أبو عثمان المغربي رأيتُ في النوم، كأنّ قائلاً يقول لي: يا أبا عثمان اتق الله تعالى في الفقر، ولو في قدر سمسمة.

وقيل: كان لأبي سعيد الخرّاز ابنٌ مات قبله، فرآه في المنام، فقال له: يا بني أوْصِني، فقال: يا أبت لا تعامل الله على الجبن. فقال: يا بني زِدْني، فقال: لا تخالف الله تعالى فيما يطالبك به. فقال: يا بني زِدْني، فقال: لا تجعل بينك وبين الله قميصاً، قال: فما لبس القميص ثلاثين سَنة.

وقيل: كان أحدهم يقول في دعائه: اللهم الشيء الذي لا يضرك وينفعنا لا تمنعه عنا، فرأى في المنام كأنه قيل له: وأنت فالشيء الذي يضرّك ولا ينفعك فدَعه.

وروي عن أبي الفضل الأصفهاني أنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام، فقلتُ: يا رسول الله سل الله تعالى أن لا يسلبني الإيمان، فقال ﷺ: «ذاك شيء قد فرغ الله تعالى منه».

وروي عن أبي سعيد الخرّاز قال: رأيتُ إبليس في المنام، فأخذتُ عصاي لأضربه، فقيل لي: إنه لا يفزع منها، إنما يفزع من نور يكون في القلب.

وقال أحدهم: كنتُ أدعو لرابعة العدوية فرأيتُها في النوم، تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور، مخمّرة بمناديل من نور.

ويروى عن سماك بن حرب أنه قال: كفّ بصري فرأيتُ في المنام كأن قائلاً يقول لي: ائت الفرات[1]، فانغمس فيه، وافتح عينيك، قال: ففعلتُ فأبصرتُ.

وقيـل: رؤي بشر الحـافي في المنام، فقيـل له: مـا فعل الله بـك؟ فقال: رأيتُ ربّي عز وجل، قال لي: مرحباً يا بشر، لقد توفيتك يوم توفيتك، وما على الأرض أحب إليّ منك.

---

(١) الفرات: نهر ينبع من أرمينيا. يجري في جبال طوروس، ويجتاز سورية والعراق. مصبه مع نهر دجلة في شط العرب.

الوصية للمريدين

أول قدم للمريد في هذه الطريقة ، ينبغي أن يكون على الصدق ، ليصح له البناء على أصل صحيح ، فإن الشيوخ قالوا : إنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول .

كذلك سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : تجب البداية بتصحيح الاعتقاد بينه وبين الله تعالى، صاف عن الظنون والشبه، خال من الضلال والبدع ، صادر عن البراهين والحجج ، ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة ، وليس انتساب الصوفي إلى مذهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فإن حجج هؤلاء في مسائلهم أظهر من حجج كل واحد ، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب .

والناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة(١) ، فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال، وهم كما قال القائل :

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
فالناس في سدف(٢) الظلا م ونحن في ضوء النهار

ولم يكن عصر في الحكم الإسلامي إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة، ممن له علوم التوحيد وإمامة القوم، إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية لهم وخصوصية، وإلا كان الأمر بالعكس، هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعي رضي الله عنهما ، فجاء شيبان الراعي ، فقال أحمد : أريد يا أبا عبد الله أن أنبه هذا على نقصان علمه، ليشتغل بتحصيل بعض العلوم، فقال الشافعي : لا تفعل، فلم يقنع، فقال لشيبان : ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة، ولا يدري أية صلاة نسيها، ما الواجب

---

(١) وذلك بعمارة باطنهم بالأخلاق الحميدة، وبعدهم عن الأخلاق الذميمة ، ومراقبتهم لربهم في أعمالهم .

(٢) سُدَف : جمع سُدْفة : وهي الظلمة .

عليه يا شيبان؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غفل عن الله تعالى، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد، فغشي على أحمد، فلما أفاق، قال له الشافعي رحمه الله تعالى: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وشيبان الراعي كان أمياً، فإذا كان الأمي منهم هكذا فما الظن بأئمتهم.

وقد روي أن فقيهاً من أكابر الفقهاء كانت حلقته بجانب حلقة دلف الشبلي في جامع المنصور، وكان يقال لذلك الفقيه أبو عمران، وكانت تتعطل عليهم حلقتهم لكلام الشبلي، فسأل أصحاب أبي عمران يوماً الشبلي عن مسألة في الحيض، وقصدوا إخجاله، فذكر مقالات الناس في تلك المسألة، والخلاف فيها، فقام أبو عمران وقبل رأس الشبلي، وقال: يا أبا بكر، استفدت في هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها، وكان عندي من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل.

وقيل: اجتاز أبو العباس بن سريج الفقيه بمجلس الجنيد رحمهما الله تعالى فسمع كلامه فقيل له: ما تقول في هذا الكلام؟ فقال: لا أدري ما يقول، ولكني أرى لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل.

وقيل لعبد الله بن سعيد بن كلاب: أنت تتكلم على كلام كل واحد، وههنا رجل يقال له الجنيد فانظر هل تعترض عليه أم لا، فحضر حلقته، فسأل الجنيد عن التوحيد فأجابه فتحير عبد الله، وقال: أعد علي ما قلت، فأعاد بعبارة أخرى، فقال عبد الله: هذا شيء آخر لم أحفظه، تعيده علي مرة أخرى فأعاد بعبارة أخرى، فقال عبد الله: لا يمكنني حفظ ما تقول أمله علينا، فقال: إن كنت أجزته فأنا أمليه، فقام عبد الله، وقال بفضله واعترف بعلو شأنه، فإذا كانت أصول هذه الطائفة أصح الأصول، ومشايخهم أكبر الناس وعلماؤهم أعلم الناس، فالمريد الذي له إيمان بهم إن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقاصدهم فهو يساهمهم فيما خصوا به من مكاشفات الغيب، فلا يحتاج إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة، وإن كان غير مريد طريقة الإتباع وليس بمستقل بحاله، ويريد أن يخرج في أوطان التقليد إلى أن يصل إلى التحقيق فليقلد سلفه، وليجر على طريقة هذه الطبقة فإنهم أولى به من غيرهم.

يقول الجنيد: لو علمت أن لله تعالى علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا

العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لَسعيت إليه ولقصدته(١).

وإذا أحكم المريد بينه وبين الله تعالى عقده، فيجب أن يحصل من علم الشريعة إما بالتحقيق وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدي به فرضه، وإن اختلفت عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد دائماً الخروج من الخلاف، فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال، وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. ولهذا قيل: إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى، ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً، هذا أبو يزيد البسطامي يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكنها لا تثمر. كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً، ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله سبحانه من كل زلة فيدع جميع الزلات سرها وجهرها، صغيرها وكبيرها، ويجتهد في إرضاء الخصوم أولاً، ومن لم يرض خصومه لا يفتح له من هذه الطريقة بشيء، وعلى هذا النحو جروا، ثم بعد هذا يعمل في حذف العلائق والشواغل، فإن بناء هذا الطريق على فراغ القلب.

وكان الشبلي يقول لعلي الحصري في ابتداء أمره: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية التي تأتيني فيها غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرني، وإذا أراد الخروج عن العلائق فأولها الخروج عن المال، فإن ذلك الذي يميل به عن الحق، ولم يوجد مريد دخل في هذا الأمر، ومعه علاقة من الدنيا إلا جرته تلك العلاقة عن قريب إلى ما منه خرج، فإذا خرج عن المال فالواجب عليه الخروج عن الجاه، فإن ملاحظة الجاه مقطعة عظيمة، وما لم يستو عند المريد قبول الخلق وردهم لا يجيء منه شيء، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس إياه، بعين الإثبات والتبرك به، لإفلاس الناس عن هذا الحديث، وهو بعد لم يصحح الإرادة

---

(١) لأنال فضيلته وبركته.

فكيف يصح أن يتبرَّك به، فخروجهم من الجاه واجب عليهم، لأن ذلك سم قاتل لهم، فإذا خرج عن ماله وجاهه فيجب أن يصحح عقيدته بينه وبين الله تعالى، وأن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه، لأن الخلاف للمريد في ابتداء أمره عظيم الضرر، لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره، ومن شرطه أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه، فإذا خطر ببال المريد أن له في الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة أو أحداً على وجه الأرض دونه لم يصح له في الإرادة قدم، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه، لا ليحصل لنفسه قدراً.

وهناك فرق بيّن من يريد الله تعالى، وبين من يريد جاه نفسه، إما في عاجله وإما في آجله، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره، إلا عن شيخه، ولو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته، ولو وقع له مخالفة فيما أشار عليه شيخه، فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته، إما بسفر يكلفه أو أمر ميراه، ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئاً من الأذكار، بل يجب أن يقدم التجربة له، فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله في هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء، فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضر والذل والفقر والأسقام والآلام، وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة، ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات، ولا يؤثر الدعة ولا يستشعر الكسل، فإن وقفة المريد شر من فترته، والفرق بين الفترة والوقفة: أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل[(١)]، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء[(٢)]، فإذا جربه شيخه فيجب عليه أن يلقنه ذكراً من الأذكار، على ما يراه شيخه، فيأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه، ثم يأمره أن يسوي قلبه مع لسانه، ثم

---

(١) إن استحلاء حالات الكسل واستلذاذها، يجعل المرء لا ينتقل عنها؛ لمحبته لها، بخلاف الفترة فإن صاحبها يرجى له الرجوع إلى ما كان عليه.

(٢) لأنه يعتقد كمال نفسه، واستحسان حاله، فيبعد منه الانتقال إلى ما هو أعلى.

يقول له: اثبت على استدامة هذا الذكر، كأنك مع ربك دائما بقلبك، ولا يجري على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك. ثم يأمره أن يكون دائماً على الطهارة، وأن لا يكون نومه إلا غلبة، وأن يقلل من غذائه على التدريج شيئاً بعد شيء حتى يقوى على ذلك، ولا يأمره أن يترك عادته دفعة واحدة، فقد جاء في الخبر: (إن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى)(١)، ثم يطلب منه إيثار الخلوة والعزلة، ويجعل اجتهاده في هذه الحالة لا محالة في نفي الخواطر الدينية والهواجس الشاغلة للقلب.

واعلم أن في هذه الحالة قلما يخلو المريد في أوان خلوته في ابتداء إرادته من الوساوس في الاعتقاد، لا سيما إذا كان في المريد كياسة قلب، وكل مريد تستقبله هذه الحالة في ابتداء إرادته، وهذه من الامتحانات التي تستقبل المريدين، فالواجب على شيخه إن رأى فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية، فإنه بالعلم يتخلص لا محالة مما يعتريه من الوساوس، وإن تفرس فيه شيخه القوة والثبات في الطريقة أمره بالصبر واستدامة الذكر، حتى تسطع في قلبه أنوار القبول، وتطلع في سره شموس الوصول، وعن قريب يكون ذلك ولكن لا يكون هذا إلا لأفراد المريدين، فأما الغالب فأن تكون معالجتهم بالرد إلى النظر وتأمل الآيات، بشرط تحصيل علم الأصول على قدر الحاجة الداعية للمريد.

واعلم أنه يكون للمريدين على الخصوص بلايا من هذا الباب، وذلك أنهم إذا خلوا في مواضع ذكرهم أو كانوا في مجالس سماع أو غير ذلك، يهجس في نفوسهم، ويخطر ببالهم أشياء منكرة يتحققون أن الله سبحانه منزه عن ذلك، ولا تعتريهم شبهة في أن ذلك باطل، ولكن لا يدوم ذلك، فيشتد تأذيهم به حتى يبلغ ذلك حداً يكون أصعب شتم، وأقبح قول، وأشنع خاطر، بحيث لا يمكن المريد إجراء ذلك على اللسان وإبداؤه لأحد، وهذا أشد شيء يقع لهم، فالواجب عند هذا ترك مبالاتهم بتلك الخواطر، واستدامة الذكر، والابتهال إلى الله عز وجل باستدفاع ذلك، وتلك الخواطر ليست من وساوس الشيطان، وإنما هي من هواجس النفس، فإذا قابلها العبد بترك الاهتمام بها ينقطع ذلك عنه.

---

(١) الحديث: قال في كشف الخفاء ١/ ٣٠٠: رواه البزار عن جابر بلفظ: (إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع).

ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته، وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجي له إذا سافر في غير وقته، وإذا أراد الله تعالى بمريد خيراً أثبته في أول إرادته، وإذا أراد الله تعالى بمريد شراً رده إلى ما خرج عنه من حرفته أو حالته، وإذا أراد الله تعالى بمريد محنة شرده في مطارح غربته، هذا إذا كان المريد يصلح للوصول، فأما إذا كان شاباً طريقته الخدمة في الظاهر بالنفس للفقراء، وهو دونهم في هذه الطريقة رتبة فهو وأمثاله يكتفون بالترسم في الظاهر، فينقطعون في الأسفار، وغاية نصيبهم من هذه الطريقة حجات يحصلونها، وزيارات لمواضع يرتحل إليها، ولقاء شيوخ بظاهر سلام، فيشاهدون الظواهر ويكتفون بما في هذا الباب من السير، فواجب هؤلاء دوام السفر، حتى لا تؤدي بهم الدعة إلى ارتكاب محظور، فإن الشاب إذا وجد الراحة والدعة، كان في معرض الفتنة(١)، وإذا توسط المريد جمع الفقراء والأصحاب في بدايته فهو مضر له جداً(٢)، وإن امتحن واحد بذلك فليكن سبيله احترام الشيوخ وخدمة الأصحاب وترك الخلاف عليهم(٣)، والقيام بما فيه راحة الفقير؛ والجهد في أن لا يستوحش منه قلب شيخ.

ويجب أن يكون في صحبته مع الفقراء دائماً خصمهم على نفسه، ولا يكون خصم نفسه عليهم، ويرى لكل واحد منهم عليه حقاً واجباً، ولا يرى لنفسه واجباً على أحد، ويجب أن لا يخالف المريد أحداً، وإن علم أن الحق معه يسكت، ويظهر الوفاق لكل واحد، وكل مريد يكون فيه ضحك ولجاج ومماراة فإنه لا يجيء منه شيء، وإذا كان المريد في جمع من الفقراء إما في سفر أو حضر، فينبغي أن لا يخالفهم في الظاهر، لا في أكل ولا صوم ولا سكون ولا حركة، بل يخالفهم بسره وقلبه، فيحفظ قلبه مع الله عز وجل، وإذا أشاروا عليه بالأكل مثلاً يأكل لقمة أو

(١) وفي نسخة مخطوطة أخرى (في معرض الفترة) أي معرضاً لها، تميل نفسه للترويح وانشغال قلبه بالأهل والولد والشهوات الدنيوية، فالسفر لهؤلاء أولى لهم.

(٢) وذلك لمنافاته ما مرّ، من أنه مأمور بملازمة الخلوة إن كانت، واشتغاله بكمال المناجاة، فكما أنه لا يسافر، فإنه لا يخالط الناس.

(٣) مع دوام الحذر منهم، والخوف من فوات المطلوب.

لُقمتين، ولا يعطي النفس شهوتها.

وليس من آداب المريدين كثرة الأوراد بالظاهر، فإن القوم في مكابدة إخلاء خواطرهم ومعالجة أخلاقهم ونفي الغفلة عن قلوبهم، لا في تكثير أعمال البر، والذي لا بد لهم منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة، فأما الزيادات من الصلوات النافلة فاستدامة الذكر بالقلب أتم لهم، ورأس مال المريد الاحتمال عن كل واحد بطيبة النفس، وتلقي ما يستقبله بالرضاء والصبر على الضر والفقر وترك السؤال والمعارضة في القليل والكثير فيما هو حظ له، ومن لم يصبر على ذلك فليدخل السوق.

فإن من اشتهى ما يشتهيه الناس فالواجب أن يحصّل شهوته من حيث يحصّلها الناس، من كد اليمين وعرق الجبين، وإذا التزم المريد استدامة الذكر، وآثر الخلوة، فإن وجد في خلوته ما لا يجده قلبه إما في النوم وإما في اليقظة أو بين اليقظة والنوم، من خطاب يسمع، أو معنى يشاهد، مما يكون نقضاً للعادة، فينبغي أن لا يشتغل بذلك بتاتاً، ولا يسكن إليه، ولا ينبغي أن ينتظر حصول أمثال ذلك فإن ذلك كله شواغل عن الحق سبحانه، ولا بد له في هذه الأحوال من وصف ذلك لشيخه حتى يصير قلبه فارغا عن ذلك. ويجب على شيخه أن يحفظ عليه سره فيكتم عن غيره أمره، ويصغر ذلك في عينه، فإن ذلك كله اختبارات، والمساكنة إليها مكر، فليحذر المريد عن ذلك وعن ملاحظتها، وليجعل همته فوق ذلك.

واعلمْ أنّ أضر الأشياء بالمريد استئناسه بما يلقى إليه في سره من تقريبات الحق سبحانه له، ومنته عليه، بأني خصصتك بهذا، وأفردتك عن أشكالك، فإنه لو قال بترك هذا فعن قريب سيختطف عن ذلك بما يبدو له من مكاشفات الحقيقة، وشرح هذه الجملة مما يتعذر إثباته في الكتب. ومن أحكام المريد إذا لم يجد من يتأدب به في موضعه أن يهاجر إلى من هو منصوب في وقته لإرشاد المريدين، ثم يقيم عليه ولا يبرح عن سدّته إلى وقت الإذن.

واعلمْ أنّ تقديم معرفة ربّ البيت على زيارة البيت واجب، فلولا معرفة رب البيت ما وجبت زيارة البيت، والشبان الذين يخرجون إلى الحج من هؤلاء القوم من غير إشارة الشيوخ فهي بدلالات نشاط النفوس، فهم متوسمون بهذه الطريقة، وليس

سفرهم على أصل، والذي يدل على ذلك أنه لا يزداد سفرهم، إلا وتزداد تفرقة قلوبهم، فلو أنهم ارتحلوا من أنفسهم بخطوة، لكان أحظى لهم من ألف سفرة. ومن شرط المريد إذا زار شيخاً أن يدخل عليه بالحرمة، وينظر إليه بالحشمة، فإن أهله الشيخ لشيء من الخدمة عدَّ ذلك من جزيل النعمة.

أعلام التصوف

الفصل الرابع

اعلموا (رحمكم الله تعالى) أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، لم يتسمّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة رسول الله ﷺ ، إذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم : (الصحابة) .

ولما أدرك أهل العصر الثاني سُمي من صحب الصحابة (التابعين) ، ورأوا ذلك أشرف سمة .

ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ممن لهم عناية شديدة بأمر الدين (الزهّاد والعبّاد) .

ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعي بين الفِرَق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهّاداً ، فانفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم (التصوف[1]) ، واشتهر هذا الإسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة .

ونحن نذكر في هذا الفصل أسماء جماعة من شيوخ هذه الطريقة من الطبقة الأولى إلى وقت المتأخرين منهم ، ونذكر نبذة من سِيَرهم[2] وأقاويلهم ، بما يكون فيه تنبيه على أصولهم وآدابهم إن شاء الله تعالى[3] .

---

(1) التصوف : هو علم تُعرف به أحوال تزكية النفس ، وتصفية الأخلاق ، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية ، فموضوعه : (التزكية والتصفية والتعمير) .

(2) سِيَرهم : طرقهم .

(3) لم يترجم الأستاذ القشيري لكل صوفي سبقه ، بل كان له اختياره ، وكان هذا الاختيار مقصوداً =

١ - عبد الله الأبهري

وهو : أبو بكر - عبد الله بن طاهر الأبهري (توفي حوالي ٣٣٠ هـ/٩٤٢ م) : من أقران دلف الشبلي ، ومن مشايخ الجبل ، عالم ورع ، صحب يوسف بن الحسين وغيره .

من أقواله : من حكم الفقير أن لا تكون له رغبة ، فإن كان ولا بد ، فلا تجاوز رغبته كفايته ، يعني : المحتاج إليه ، وقال : إذا أحببت أخاً في الله تعالى ، فأقلل مخالطته في الدنيا .

٢ - رويم بن أحمد

وهو : أبو محمد - رويم بن أحمد (توفي ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م) : بغدادي من أعظم المشايخ ، كان مقرئاً وفقيهاً على مذهب داود .

قال رويم : من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ، ويضيق على نفسه فيها ، فإن التوسعة عليهم من اتباع العلم ، والتضييق على نفسه من حكم الورع .

يقول أبو عبد الله بن خفيف سألت رويماً فقلت : أوصني ، فقال : ما هذا الأمر إلا ببذل الروح ، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا ، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية .

وقال رويم : قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية ، فإن كل الخلق قعدوا على الرسوم ، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق(١) ، لقد طالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع ، وطالب هؤلاء أنفسهم بحقيقة الورع

وموجهاً ، وهو استخلاص المذهب الوسط في الإسلام ، واختيار صوفيين يمثلون هذا المذهب أقرب تمثيل . فالتصوف الذي نقرأ في الرسالة القشيرية هو التصوف الإسلامي الخالص كما يفهمه الأستاذ القشيري نفسه ويجمع عناصره ويفسره ويوجهه ويدعمه .

(١) قعدت هذه الطائفة على الحقائق : وهي غلبة الأحوال على القلب ، والنظر إلى الله تعالى في كل عمل . كما قال ﷺ : «وأن تعبد الله ، كأنك تراه» مسلم . سبق تخريجه في صفحة (٢٠) .

ومداومة الصدق ، فمن قعد معهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه .

وقال رويم : اجتزت ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك وأنا عطشان ، فاستقيت من دار ، ففتحت صبية بابها ومعها كوز ، فلما رأتني قالت : صوفي يشرب بالنهار ، فما أفطرت بعد ذلك اليوم قط .

وقال رويم : إذا رزقك الله تعالى المقال والفعال ، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال ، فإنها نعمة ، وإذا أخذ منك الفعال وأبقى عليك المقال فإنها مصيبة ، وإذا أخذ منك كليهما فهي نقمة .

٣ - أحمد الأدمي

وهو : أبو العباس - أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي (توفي ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) : من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم ، وكان الخراز يعظم شأنه وهو من أقران الجنيد ، وقد صحب إبراهيم المارستاني .

يقول : من ألزم نفسه آداب الشريعة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه .

وقال : أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربه عز وجل ، وغفلته عن أوامره ونواهيه ، وغفلته عن آداب معاملته .

ويقول : كل ما سئلت عنه فاطلبه في مفازة العلم ، فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

٤ - إبراهيم بن أدهم

وهو : أبو إسحاق - إبراهيم بن أدهم بن منصور (توفي ١٦١ هـ / ٧٧٨ م) من كدرة بلخ (١) ، كان من أبناء الملوك فخرج يوماً يتصيد ، فأثار ثعلباً أو أرنباً ،

---

(١) بلخ : كانت القصبة السياسية لولاية خراسان ، ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة

وهو في طلبه ، فهتف به هاتف : يا إبراهيم ، ألهذا خُلقتَ ؟ أم بهذا أُمرتَ ؟ ثم هتف به: ما لهذا خلقتَ ولا بهذا أُمرتَ .

فنزل عن دابته ، وصادف راعياً لأبيه ، فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها ، وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية ، ثم دخل مكة المكرمة ، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض ، ثم دخل الشام ومات فيها .

وكان يأكل من عمل يده كالحصاد والعمل في البساتين وغير ذلك .

ورأى في البادية رجلاً علّمه اسم الله الأعظم ، فدعا به بعده فرأى الخضر عليه السلام ، وقال: إنما علّمك أخي داود اسم الله الأعظم أخبرنا بذلك أبو عبد الرحمن السلمي ، قال: إبراهيم بن بشار صحبتُ إبراهيم بن أدهم فقلت خبرني عن بدء أمرك فذكر هذا .

وكان أغلب دعائه : اللهم انقلني من ذلّ معصيتك إلى عز طاعتك .

وقال لرجل في الطواف : اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجتاز ستّ عقبات : أولاها : تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، والثانية : تغلق باب العز وتفتح باب الذل . والثالثة : تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد . والرابعة : تغلق باب النوم وتفتح باب السهر . والخامسة : تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر . والسادسة : تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت .

وكان إبراهيم بن أدهم يحرس كرماً ، فمرّ به جنديّ ، فقال : أعطنا من هذا العنب ، فقال : ما أمرني به صاحبه ، فأخذ يضربه بسوطه ، فطأطأ رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله تعالى ، فأعجز الرجل ومضى .

قال سهل بن إبراهيم : صحبتُ إبراهيم بن أدهم فمرضتُ فأنفق عليّ نفقته ، فاشتهيتُ شهوة فباع حماره وأنفق عليّ ثمنه ، فلما تماثلتُ قلتُ : يا إبراهيم أين الحمار ؟ فقال : بعناه ، فقلتُ : فعلى ماذا أركب ؟ فقال يا أخي على عنقي فحملني ثلاث منازل .

طخارستان. فتحها الأحنف بن قيس عام ٦٥٣ م. اجتاحتها قبائل انكيزخان ١٢٢٠ م فدمرتها.

٥ - علي الأصبهاني

وهو : أبو الحسن - علي بن سهل الأصبهاني : من أقران الجنيد ، قصده عمرو بن عثمان المكي في دَين ركبه ، فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم ، لقي أبا تراب النخشبي والطبقة .

يقول : المبادرة إلى الطاعات من علامات التوفيق . والتقاعد عن المخالفات من علامات حسن الرعاية ، ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ ، وإظهار الدعاوى من رعونات البشرية ، ومن لم تصح مبادىء إرادته لا يسلم في منتهى عواقبه .

٦ - حاتم الأصم

وهو : أبو عبد الرحمن - حاتم بن علوان المعروف بالأصم (توفي ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) : من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذ شقيق ، وأستاذ أحمد بن خضرويه . ويقال : إنه لم يكن أصم ، وإنما تصامم مرة فسمي بذلك .

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى : جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها في تلك الحالة صوت ، فخجلت ، فقال حاتم : ارفعي صوتك ، فأرى من نفسه أنه أصم ، فسرت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم (الأصم) .

وقال : ما من صباح إلا والشيطان يقول لي : ماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن ؟ فأقول له : آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر .

وسئل : ألا تشتهي ؟ فقال : أشتهي عافية يوم إلى الليل ، فقيل له : أليست الأيام كلها عافية ؟ فقال : إن عافية يومي أن لا أعصي الله فيه .

وقال : كنت في بعض الغزوات فأخذني تركي فأضجعني للذبح ، فلم يشتغل به قلبي ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فيّ ، فبينما هو يتناول السكين من خفه للذبح ، إذا بسهم أصابه فقتله وطرحه عني فقمت .

وقال : من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت :

موتاً أبيض وهو الجوع ، وموتاً أسود وهو احتمال الأذى من الخَلق ، وموتاً أحمر وهو العمل الخالص في مخالفة الهوى ، وموتاً أخضر وهو طرح الرِّقاع بعضها على بعض .

٧ ـ أبو سعيد بن الأعرابي

وهو : أبو سعيد ـ أحمد بن محمد بن زياد البصري الأعرابي (٢٤٦ ـ ٣٤٠ هـ / ٨٦٠ ـ ٩٥٢ م) : جاور الحَرَم ، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي والنوري وغيرهم .

قال : أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

٨ ـ أبو الخير الأقطع

وهو : أبو الخير الأقطع (توفي ٣٤٠ هـ / ٩٥٢ م) : مغربي الأصل (١) ، سكن تينات (٢) ، وله كرامات وفراسة حادة ، وكان كبير الشأن .

قال : ما بلغ أحد حالة شريفة ، إلا بملازمة الموافقة ، ومعانقة الأدب ، وأداء الفرائض ، وصحبة الصالحين .

٩ ـ أحمد الأنطاكي

وهو : أبو علي ـ أحمد بن عاصم الأنطاكي : من أقران بشر بن الحارث ، وسري السقطي والحارث المحاسبي ، وكان أبو سليمان الداراني يسميه (جاسوس القلوب) لحدة فراسته .

قال : إذا طلبتَ صَلاحَ قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك .

---

(١) مغربي : نسبة إلى منطقة المغرب ، والمغرب دولة عربية إسلامية في افريقيا الشمالية الغربية .

(٢) تينات : مكان كانت تُجهز منه المراكب بالخشب لمصر .

وقال: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ[1] ﴾؛ ونحن نستزيد من الفتنة[2].

١٠ - أبو حمزة البزار

وهو: أبو حمزة البغدادي البزاز (توفي ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م): مات قبل الجنيد، وكان ممن أقرانه، صحب السري والحسن المسوحي، وكان فقيهاً وعالماً بالقراءات، وكان من أولاد عيسى بن أبان. وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل: ما تقول فيها يا صوفي؟. وقيل: كان يتكلم في مجلسه يوم جمعة، فتغير عليه الحال، فسقط عن كرسيه، ومات في الأسبوع التالي.

قال: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلّا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله.

وقال: من رزق ثلاثة أشياء فقد نجا من الآفات: بطن خال مع قلب قانع، وفقر دائم مع زهد حاضر، وصبر كامل مع ذكر دائم.

١١ - أبو عبيد البسري

أبو عبيد البسري من قدماء المشايخ، صحب أبا تراب النخشبي.

يقول أحمد بن الجلاء: لقيت ست مائة شيخ فما رأيت مثل أربعة: (ذي النون المصري، وأبي، وأبي تراب النخشبي، وأبي عبيد البسري).

١٢ - أبو يزيد البسطامي

وهو: أبو يزيد - طيفور بن عيسى البسطامي (١٨٨ - ٢٦١ هـ/ ٨٠٤ - ٨٧٥ م): كان جده مجوسياً وقد أسلم، وكانوا ثلاثة إخوة: آدم وطيفور وعلي، وكانوا زهاداً عباداً، أما أبو يزيد فكان أجلهم حالاً.

---

(١) الآية: سورة التغابن - ١٥.

(٢) نستزيد من الفتنة: نحبها ونطلبها. وقال أحمد بن عاصم: يسير اليقين فيخرج الشك من القلب، ويسير الشك فيخرج كل اليقين من القلب. وقال: «إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا يحتسبون.

وسُئل : بأيِّ شيء بلغت هذه المعرفة ؟ فقال : ببطنٍ جائع وبدنٍ عارٍ .

وقال : عملتُ في المجاهدة ثلاثين سَنة ، فما وجدتُ شيئاً أشد عليّ من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيتُ ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد .

وقيل : لم يخرج أبو يزيد من الدنيا ، حتى استظهر القرآن الكريم كله .

وقال : ذهبنا ننظر إلى رجل شهّر نفسه بالولاية ، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرفتُ ولم أسلّم عليه ، وقلتُ ، إنه غير مؤتمن على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه ؟ .

وقال : لقد هممتُ أنْ أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤونة الأكل ومؤونة النساء ، ثم قلتُ : كيف يجوز لي أن أسأل الله تعالى هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ ، فلم أسأله . ثم إن الله سبحانه وتعالى كفاني مؤونة النساء ، حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط .

وسُئل عمّا ابتدائه وزهده ، فقال : ليس للزهد منزلة ، فقيل له : لماذا ؟ فقال : لأني كنتُ خلال ثلاثة أيام في الزهد ، فلما كان اليوم الرابع خرجتُ منه ، ففي اليوم الأول زهدتُ في الدنيا وما فيها ، وفي اليوم الثاني زهدتُ في الآخرة وما فيها ، وفي اليوم الثالث زهدتُ فيما سوى الله تعالى ، فلما كان اليوم الرابع لم يبق لي سوى الله تعالى فهِمتُ ، فسمعتُ هاتفاً يقول : يا أبا يزيد لا تقو معنا ، فقلتُ : هذا الذي أريد ، فسمعتُ قائلاً يقول : وجدتَ وجدتَ .

قيل لأبي يزيد : ما أشد ما لقيتَ في سبيل الله ؟ فقال : لا يمكن وصفه ، فقيل له : ما أهون ما لقيتَ نفسك منك ؟ قال : أما هذا فنعم ، دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني فمنعتها الماء سَنة .

وقال : منذ ثلاثين سَنة أصلي ، واعتقادي في نفسي عند كل صلاة أصليها كأني مجوسيّ أريدُ أن أقطع زنّاري .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .

وروى عمي البسطامي عن أبيه أنه قال : ذهب أبو يزيد ليلة إلى الرباط ليذكر الله سبحانه على سوار الرباط ، فبقي إلى الصباح لم يذكر ، فقلت له في ذلك ، فقال : تذكرت كلمة جرت على لساني في حال صباي فاحتشمت أن أذكره سبحانه وتعالى .

١٣ - شقيق البلخي

وهو : أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي (توفي ١٩٤ هـ/ ٨١٠ م) : من مشايخ خراسان ، كان أستاذ حاتم الأصم .

قيل : كان سبب زهده أنه كان من أبناء الأغنياء ، خرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث ، فدخل بيتاً للأصنام ، فرأى خادماً للأصنام قد حلق رأسه ولحيته ، ولبس ثياباً أرجوانية ، فقال شقيق للخادم : إن لك صانعاً حياً عالماً قادراً فاعبده ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، فقال : إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك ، فلماذا أتعبت نفسك بالمجيء إلى ههنا للتجارة ، فانتبه شقيق ، وأخذ في طريق الزهد .

وقيل : كان سبب زهده أنه رأى مملوكاً يلعب ويمرح في زمان قحط ، وكان الناس مهتمين به ، فقال شقيق : ما هذا النشاط الذي فيك ؟ أما ترى ما فيه الناس من الجدب والقحط ؟ فقال ذلك المملوك : وما علي من ذلك ولمولاي قرية خالصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه ، فانتبه شقيق وقال : إن كان لمولاه قرية ، ومولاه مخلوق فقير ، ثم إنه لا يهتم لرزقه ، فكيف ينبغي أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غني .

قال حاتم الأصم : كان شقيق البلخي موسراً ، وكان يعاشر الفتيان ، وكان

عليّ بن عيسى بن ماهان أمير بلخ ، وكان يحب كلاب الصيد ، ففقد كلباً من كلابه ، فسعى برجل أنه عنده ، وكان الرجل في جوار شقيق ، فطلب الرجل فهرب ، فدخل دار شقيق مستجيراً ، فمضى شقيق إلى الأمير ، وقال : خلوا سبيله فإن الكلب عندي أردّه إليكم خلال ثلاثة أيام ، فخلوا سبيله وانصرف شقيق . ولما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ وقد رجع منها ، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة ، فأخذه وقال : أهديه إلى شقيق ، فإنه يشتغل بالتفتي فحمله ، فنظر شقيق فإذا هو كلب الأمير ، فسر به وحمله إلى الأمير ، وتخلص من الضمان فرزقه الله الانتباه وتاب مما كان فيه ، وسلك طريق الزهد .

قال حاتم الأصم : كنا مع شقيق في مصاف نحارب الترك ، في يوم لا ترى فيه إلا رؤوس تندر ورماح تتقصف وسيوف تنقطع ، فقال لي شقيق : كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم ؟ هل تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفت إليك امرأتك ؟ فقلت : لا والله ، قال شقيق : لكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثلما كنت تلك الليلة ، ثم نام بين الصفين ، ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه .

وقال شقيق : إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر إلى ما وعده الله ووعده الناس ، فبأيهما يكون قلبه أوثق ؟

وقال : تعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء : في أخذه ومنعه وكلامه .

١٤ ـ محمد بن الفضل البلخي

وهو : أبو عبد الله ـ محمد بن الفضل البلخي (توفي ٣١٩ هـ / ٩٣١ م) : بلخي الأصل ، سكن سمرقند[1] ، ومات فيها . وصحب أحمد بن خضرويه وغيره ، وكان أبو عثمان الحيري يميل إليه جداً .

---

(١) سمرقند : مدينة مسلمة في الجمهورية الأزبكية السوفياتية . خرّبها جنكيز خان ١٢٢٩ م ، ثم استولى عليها تيمورلنك وتوفي فيها .

كتب أبو عثمان الحيري إلى محمد بن الفضل البلخي يسأله : ما علامة الشقاء ؟ فقال : ثلاثة أشياء : يرزق العلم ويحرم العمل ، ويرزق العمل ويحرم الإخلاص ، ويرزق صحبة الصالحين ولا يحترم عندهم .

قال أبو عثمان الحيري : كان محمد بن الفضل البلخي سمسار الرجال .

وقال : ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما لا يعلمون ، ويمنعون الناس من التعلم .

وقال : عجباً لمن يقطع المفاوز ليصل إلى بيته ، فيرى آثار النبوة ، كيف لا يقطع نفسه وهواه ، ليصل إلى قلبه فيرى آثار ربه عز وجل ؟ .

وقال : إذا رأيت المريد يستزيد من الدنيا ، فذلك من علامات إدباره .

وسئل عن الزهد فقال : النظر إلى الدنيا بعين النقص ، والإعراض عنها تعززاً وتظرفاً وتشرفاً .

١٥ ـ أبو الحسين بن بنان

أبو الحسين بن بنان ، ينتمي إلى أبي سعيد الخراز ، وهو من كبار مشايخ مصر .

قال : كل صوفي كان هم الرزق قائماً في قلبه فلزوم العمل أقرب إليه ، وعلامة سكون القلب إلى الله تعالى أن يكون بما في يد الله تعالى أوثق منه بما في يده .

وقال : اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبون الحرام .

١٦ ـ علي البوشنجي

وهو : أبو الحسن ـ علي أحمد بن سهل البوشنجي (توفي ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م) : أحد فتيان خراسان ، لقي أبا عثمان وأحمد بن عطاء وأحمد الجريري وأبا عمرو الدمشقي .

سئل البوشنجي عن المروءة ، فقال : ترك استعمال ما هو محرم عليك مع الكرام الكاتبين .

وقال له إنسان : ادع الله تعالى لي ، فقال : أعاذك الله تعالى من فتنتك .

وقال : أول الإيمان منوط بآخره .

١٧ ـ محمد الترمذي

وهو : أبو عبد الله ـ محمد بن علي الترمذي : من كبار الشيوخ ، وله تصانيف في علوم القوم ، صحب أبا تراب النخشبي وأحمد بن خضرويه وأحمد بن الجلاء وغيرهم .

سئل عن صفة الخلق ، فقال : ضعف ظاهر ودعوى عريضة .

وقال : ما صنفت حرفاً عن تدبير ، ولا لينسب إلي شيء منه ، ولكنه كان إذا اشتد علي وقتي أتسلى به[1] .

لقي ذا النون المصري بمكة سنة خرجة إلى الحج .

١٨ ـ سهل التستري

وهو: أبو محمد ـ سهل بن عبد الله التستري[2] (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ / ٨١٥ ـ ٨٩٦ م) : أحد أئمة القوم ، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات . ولقي ذا النون المصري بمكة سنة خروجه إلى الحج .

قال : كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم بالليل ، أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار ، وكان يقوم بالليل ، فربما كان يقول : اذهب يا سهل فنم ، فقد شغلت قلبي .

وقال : قال لي خالي يوماً : ألا تذكر الله تعالى الذي خلقك ؟ فقلت : كيف أذكره ؟ فقال : قل بقلبك ، عند تقلبك في ثيابك ، ثلاث مرات ، من غير أن تحرك

(١) أي أتسلّى بالتأليف .

(٢) التستري : نسبة إلى تستر ، وهي أعظم مدينة بعربستان ، وهي تعريب (شوشتر) ، سُمّيت بذلك لأن رجلاً من بني عجل يقال له تستر بن نون افتتحها فسميت باسمه . فتحها البراء بن مالك في خلافة عمر ، ثم غزاها تيمورلنك في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي مركز تجاري هام .

به لسانك (الله معي . الله ناظر إليّ . الله شاهدي) ، فقلت ذلك ثلاث ليالٍ ، ثم أعلمته ، فقال لي : قل في كل ليلةٍ سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل في كل ليلةٍ إحدى عشرة مرة ، فقلتُ ذلك ، فوقع في قلبي حلاوة ، فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي : احفظ ما علّمتك ، وداومْ عليه ، إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة في سري(١) .

ثم قال لي خالي يوماً : يا سهل ، من كان الله تعالى معه وهو ناظر إليه وشاهده أيعصيه ؟ إياك والمعصية ، فكنتُ أخلو ، فبعثوني إلى الكتّاب ، فقلتُ : إني لأخشى أن يتفرق عليّ همّي ، ولكن شارطوا المعلّم أني أذهب إليه ساعةً فأتعلّم ثم أرجعُ ، فمضيتُ إلى الكتّاب ، وحفظتُ القرآن الكريم ، وأنا ابن ستّ سنين أو سبع سنين ، وكنتُ أصوم الدهر ، وقوتي خبز الشعير ، إلى أن بلغتُ (من عمري) إثنتي عشرة سنة ، فوقعتْ لي مسألة وأنا ابنُ ثلاث عشرة سنة ، فسألتُ أهلي أن يبعثوني إلى البصرةِ أسأل عنها ، فجئتُ البصرة وسألتُ علماءها ، فلم يشف أحد منهم عني شيئاً ، فخرجتُ إلى عبادان(٢) إلى رجل يُعرَف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابني ، وأقمتُ عنده مدّة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعتُ إلى تستر ، فجعلتُ قوتي اقتصاراً على أن أشتري بدرهم من الشعير الفَرْق فيطحن ويُخبز لي ، فأفطر عند السحَر كل ليلةٍ على أوقيةٍ واحدة بحتاً بغير ملح ولا إدام ، فكان ذلك الدرهم يكفيني سنةً ، ثم عزمتُ على أن أطويَ ثلاثَ ليالٍ ، أفطر ليلةً ، ثم خمساً ، ثم سبعاً ، ثم خمساً وعشرين ليلة(٣) ، وسرتُ على هذا النظام عشرين سنة ، ثم خرجتُ أسيح في الأرض سنين ، ثم رجعتُ إلى تستر ، وكنتُ أقوم الليل كله .

وقال : كل فعل يفعله العبد ، بغيرِ اقتداء ، طاعة كان أو معصية ، فهو عيش النفس ، وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء ، فهو عذاب على النفس . .

---

(١) أي : وجدت في نفسي دافعاً يدفعني لملازمتها .

(٢) عبادان : مدينة على الخليج العربي الإسلامي ، مركز تكرير النفط الإيراني ومرفأ تصديره .

(٣) هذا تدريج للمريد ، تسهيلا لانتقاله من شيء ، إلى ما هو أولى منه

١٩ ـ محمد الثقفي

وهو : أبو علي ـ محمد بن عبد الوهاب الثقفي (توفي ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) : إمام وقته ، صحب أبا حفص وحمدون القصار ، وبه ظهر التصوف بنيسابور .

قال : لو أن رجلاً جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ ، يريه عيوب أعماله ، ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات .

وقال : يأتي على هذه الأمة زمان ، لا تطيب المعيشة فيه لمؤمن ، إلا بعد استناده إلى منافق .

وقال : أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت ، وأف من حسراتها إذا أدبرت ، والعاقل من لا يركن إلى شيء ، إذا أقبل كان شغلاً ، وإذا أدبر كان حسرة .

٢٠ ـ أحمد الجُريري

وهو : أبو محمد ـ أحمد بن محمد بن الحسين الجريري (١) : من كبار أصحاب الجنيد أقعد بعد الجنيد في مكانه ، وقد صحب سهل بن عبد الله ، وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة .

قال أحمد بن عطاء الروذباري مات الجُريري سنة الهبير ، فمررت به بعد سنة فإذا هو مستند جالس وركبته إلى صدره وهو مشير إلى الله بإصبعه .

يقول : من استولت عليه نفسه صار أسيراً في حكم الشهوات ، محصوراً في سجن الهوى (٢) ، وحرم الله تعالى على قلبه الفوائد ، فلا يستلذ بكلام الحق تعالى

(١) الجريري : نسبة إلى جرير بن عباد من بني بكر بن وائل .

(٢) محصوراً في سجن الهوى : أي أنه لا يتفرّغ للطاعات ، ولا يفرّق بين ما ينفعه وما يضره عند ربه .

ولا يستحليه ، وإن كثر ترداده على لسانه لقوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ(١) ﴾ .

وقال : رؤية الأصول باستعمال الفروع ، وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول ، ولا سبيل إلى مقام مشاهدة الأصول ، إلا بتعظيم ما عظم الله تعالى من الوسائط والفروع .

٢١ ـ أحمد بن الجلاء

هو : أبو عبد الله ـ أحمد بن يحيى الجلاء : بغدادي الأصل ، أقام بالرملة (٢) ودمشق (٣) ، وكان من أكابر مشايخ الشام ، صحب أبا تراب وذا النون المصري وأبا عبيد البسري وأباه يحيى الجلاء .

قال : قلت لأبي وأمي : أحب أن تهباني لله عز وجل ، فقالا : قد وهبناك لله عز وجل ، فغبت عنهما مدة ، فلما رجعت كانت الليلة مطيرة ، فقرعت الباب ، فقال لي أبي : من الطارق ؟ قلت : ولدك أحمد ، فقال : كان لنا ولد فوهبناه لله تعالى ، ونحن من العرب لا نسترجع ما وهبناه ، ولم يفتح لي الباب .

وقال : من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحداً .

ولما مات ابن الجلاء نظر إليه الطبيب وكان يبتسم ، فقال : إنه حي ، ثم نظر

---

(١) الآية : سورة الأعراف ـ ١٤٦ .

(٢) الرملة : بلدة في فلسطين ، شمالي شرقي القدس ، أسسها سليمان بن عبد الملك ٧١٦ م ، استعمرها الصليبيون ١٠٩٩ م .

(٣) دمشق : عاصمة سورية ، يرتقي تاريخها إلى خمسة آلاف سنة . . كان سكانها الآراميون ، ثم غزاها الآشوريون والبابليون والفرس واليونان والرومان . فتحها العرب ٦٣٩م وكانت عاصمة الامويين . وحصنها نور الدين بوجه الصليبيين . احرقها تيمورلنك ١٤٠٠ م . وفتحها السلطان سليم الأول ١٥١٦ م . من آثارها الجامع الأموي وقبر صلاح الدين والقلعة والتكية وقصر العظم .

إلى مجسته(١) فقال : إنه ميت ، ثم كشف عن وجهه ، فقال : لا أدري : أهو ميت أم حي ؟ .

٢٢ - بُنان الجمال

وهو : أبو الحسن - بنان بن محمد الجمال (توفي ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م) : واسطي(٢) الأصل ، أقام بمصر ، كان عظيم الشأن وصاحب كرامات .

سُئل عن أجلّ أحوال الصوفية ، فقال : الثقة بالمضمون(٣) ، والقيام بالأوامر ، ومراعاة السر(٤) ، والتخلي من الكونين .

يقول أبو علي الروذباري : ألقي بنان الجمال بين يدي السبع(٥) ، فأخذ السبع يشمّه ولا يضرّه ، فلما أخرج ، قيل له : ما الذي كان في قلبك حيث شمك السبع ؟ ، قال : كنت أفكر في اختلاف العلماء في سؤر السباع .

٢٣ - بشر الحافي

وهو : أبو نصر - بشر بن الحارث الحافي (١٥٠ - ٢٢٧ هـ / ٧٦٧ - ٨٤١ م) : أصله من مرو ، وقد سكن بغداد ومات فيها ، وهو ابن اخت علي بن خشرم ، وكان كبير الشأن .

وكان سبب توبته أنه أصاب في الطريق كاغدة(٦) مكتوباً فيها إسم الله عز وجل قد وطئتها الأقدام ، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية(٧) فطيب بها الكاغدة ،

(١) نظر إلى مجسّته : أمسك بمعصمه برفق ، ليتعرّف منه نبض قلبه .

(٢) واسطي : نسبة إلى واسط . وواسط اسم عدة مواضع في العراق أهملها المدينة التي أنشاها الحجاج بن يوسف الثقفي بين الكوفة والبصرة نحو ٧٠٢ م ، وكانت أيام الأمويين قاعدة العراق العجمي .

(٣) الثقة بالمضمون هو الرزق : ليستريح العبد من المشغلات عن الطاعات .

(٤) مراعاة السر : مراعاة القلب لتكون الأعمال خالصة لله تعالى .

(٥) وذلك بأمر من ابن طولون .

(٦) الكاغدة : لفظة فارسية ، تعني القرطاس .

(٧) الغالية : جمع غوال ، وهي أخلاط من الطيب .

وجعلها في شق حائط ، فرأى فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له : يا بشر طيبت أسمي ، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة .

وسمعت الأستاذ علي الدقاق رحمه الله تعالى ، يقول : مر بشر ببعض الناس ، فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كله ، ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى بشر ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة ، ولا أني صمت يوماً لم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه وكرماً .

وقال بشر : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقال لي : يا بشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتي ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي .. هو الذي بلغك منازل الأبرار .

وسمعت بلالاً الخواص يقول : كنت في تيه بني اسرائيل فإذا رجل يماشيني ، فتعجبت منه ، ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام فقلت له : بحق الحق من أنت ؟ فقال : أخوك الخضر ، فقلت له : أريد أن أسألك ، فقال : سل : فقلت : ماذا تقول في الشافعي رحمه الله تعالى ؟ فقال : هو من الأوتاد(١) ، فقلت : ماذا تقول في أحمد بن حنبل رضي الله عنه ؟ قال : رجل صديق(٢) . قلت : فماذا تقول في بشر بن الحارث الحافي ؟ فقال : لم يخلق مثله بعده ، فقلت : بأية وسيلة رأيتك ؟ فقال : ببرك لأمك .

وقال أبو عبد الله أحمد بن الجلاء : رأيت ذا النون المصري ، وكانت له العبارة ، ورأيت سهلاً وكانت له الإشارة ، ورأيت بشر بن الحارث وكان له الورع ، فقيل له : فإلى من كنت تميل ؟ فقال : لأستاذنا بشر بن الحارث .

---

(١) الأوتاد : هم الذين يُحفَظ بهم الدين ، والشافعي رضي الله عنه منهم .

(٢) رجل صدّيق : نظراً لما قاساه من الضرب والهوان ، عندما طُلب منه القول بخلق القرآن الكريم فأبى ، ولم ينطق بكلمة يتخلص بها مما هو فيه .

وقيل: إنه اشتهى الباقلا سنين فلم يأكله، فرؤي في المنام بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وقال: كل يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب.

وقال بشر: لا يحتمل الحلال السرف. وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

رؤي بشر الحافي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وأباح لي نصف الجنة، وقال لي يا بشر: لو سجدت لي على الجمر، ما أديت شكر ما جعلته لك في قلوب عبادي.

٢٤ ـ عمر الحداد

وهو: أبو حفص ـ عمر بن مسلمة الحداد (توفي حوالي ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م): من قرية يقال لها: كورداباذ[1] في طريق بخاري[2]. وكان أحد الأئمة والسادة.

قال: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت.

وقال: إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

وقال: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن.

وقال: الفتوة أداء الإنصاف، وترك مطالبة الإنصاف.

وقال: من لم يزن أفعاله وأحواله، في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الرجال.

٢٥ ـ علي الحصري

وهو: أبو الحسن ـ علي بن إبراهيم الحصري البصري (توفي ٣٧١ هـ / ٩٨١ م): سكن بغداد، وكان عجيب الحال واللسان، شيخ وقته، ينتمي إلى دلف الشبلي.

---

(١) كورداباذ: قرية على باب نيسابور.

(٢) بخاري: مدينة في اوزبكستان (الاتحاد السوفياتي) على ملتقى الطرق بين روسيا وايران والهند والصين.

قال : الناس يقولون : الحصري لا يقول بالنوافل ، وعليّ أوراد من حال الشباب لو تركت ركعة لعوتبت .

قال : من ادعى في شيء من الحقيقة كذبته شواهد كشف البراهين .

٢٦ ـ سمنون بن حمزة

وهو : أبو الحسن أو أبو القاسم ـ سمنون بن حمزة (توفي ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) : صحب سري السقطي وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصاب . وكان سمنون طريف الخلق ، أكثر كلامه في المحبة ، كما كان كبير الشأن .

قال أبو أحمد المغازلي : كان في بغداد رجل فرّق على الفقراء أربعين ألف درهم ، فقال لي سمنون : يا أبا أحمد ألا ترى ما قد أنفق هذا ، وما قد عمله ؟ ونحن لا نجد شيئاً ، فامض بنا إلى موضع نصلي فيه بكل درهم أنفقه ركعة ، فمضينا إلى المدائن فصلينا أربعين ألف صلاة .

٢٧ ـ سعيد الحيري

وهو : أبو عثمان ـ سعيد بن اسماعيل الحيري (توفي ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م) : كان من الري ويقيم في نيسابور ، صحب شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي ، ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني على أبي حفص الحداد ، وأقام عنده ، وتخرج به ، وزوّجه أبو حفص ابنته ، وعاش بعد أبي حفص نيفاً وثلاثين سنة .

قال : لا يكمل إيمان الرجل حتى تستوي في قلبه أربعة أشياء : المنع والإعطاء والعز والذل .

وقيل : كان يقال في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم : أبو عثمان بنيسابور ، والجنيد ببغداد ، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام .

وقال : منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ، ولا نقلني إلى غيره فسخطته .

وقال : الصحبة مع الله تعالى : بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم . والصحبة مع أولياء الله

نعالى بالاحترام والخدمة. والصحبة مع الأهل (١) بحسن الخُلُق. والصحبة مع الإخوان بدوام البِشر (٢) ما لم يكن إثماً. والصحبة مع الجاهلين بالدعاء لهم والرحمة عليهم.

وقال: مَن أمّر السُّنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومَن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣).

٢٨ ـ عبد الله بن خبيق

هو: أبو محمد ـ عبد الله بن خبيق: مِن زهاد المتصوفة، كوفي الأصل، وسكن أنطاكية، وصحب يوسف بن أسباط.

قال: إنما هي أربع لا غير: عينك ولسانك وقلبك وهواك، فانظر عينك لا تنظر بها إلى ما لا يحل، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله تعالى خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا حقد على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا تهوى به شيئاً من الشر، فإذا لم تكن فيك هذه الخصال الأربع فاجعل الرماد على رأسك فقد شقيت.

وقال: لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً.

وقال: وحشة العباد عن الحق أوحشت منهم القلوب، ولو أنهم أنسوا بربهم لأنس بهم كل إنسان.

وقال: أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكرة في بقية عمرك، وأنفع الرجاء ما سهّل عليك العمل.

وقال: طول الاستماع إلى الباطل يطفىء حلاوة الطاعة من القلب.

---

(١) المقصود بالأهل: الزوجة والولد والخادم والأقارب.

(٢) دوام البشر: حسن اللقاء عند الإجتماع، والسؤال عن أحوالهم، وإدخال السرور على قلوبهم.

(٣) الآية: سورة النور ـ ٥٤.

٢٩ - أحمد الخرّاز

وهو: أبو سعيد - أحمد بن عيسى الخرّاز (توفي ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م): من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري والنباجي وأبا عبيد البسري والسري وبشر بن الحارث وغيرهم.

قال: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل.

وقال: رأيت أبليس في المنام وهو يمر عني مبتعداً، فقلت: تعال ما لك؟ فقال: ماذا أعمل بكم أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس، فقلت: وما هو؟ قال: الدنيا، فلما ولّى عني التفت إليّ وقال: غير أن لي فيكم لطيفة، فقلت وما هي؟ قال: صحبة الأحداث.

وقال: صحبت الصوفية ما صحبت، فما وقع بيني وبينهم خلاف، قالوا: لماذا؟ قال: لأني كنت معهم على نفسي.

٣٠ - عبد الله الخرّاز

وهو: أبو محمد - عبد الله بن محمد الخرّاز (توفي قبل ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م): من أهل الريّ، جاور بمكة المكرمة، وصحب أبا حفص وأبا عمران الكبير، وكان من أصحاب الورع.

قال: الجوع طعام الزاهدين، والذكر طعام العارفين.

٣١ - أبو حمزة الخراساني

أبو حمزة الخراساني (توفي ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م): أصله نيسابوري، من محلة ملقاباذ، من أقران الجنيد والخرّاز وأبي تراب النخشبي، وكان ورعاً ديّناً.

قال: من استشعر ذكر الموت حبب الله إليه كل باق، وبغض إليه كل فان.

وقال: العارف يدافع عيشه يوماً بيوم، ويأخذ عيشه يوماً ليوم.

وقال له رجل: أوصني، فقال: هيّئ زادك للسفر الذي بين يديك.

٣٢ ـ أحمد بن خضرويه

وهو: أبو حامد ـ أحمد بن خضرويه البلخي (توفي ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م): من كبار مشايخ خراسان وكان كبيراً في الفتوة، صحب أبا تراب النخشي، قدم نيسابور وزار أبا حفص، وخرج إلى بسطام في زيارة أبي يزيد البسطامي، وكان أبو يزيد يقول عنه: أستاذنا أحمد.

وقال أبو حفص ما رأيت أحداً أكبر همة ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضرويه.

سمعت محمد بن حامد يقول: كنت جالساً عند أحمد بن خضرويه وهو في النزع، وكان قد أتى عليه خمس وتسعون سنة، فسأله بعض أصحابه عن مسألة، فدمعت عيناه، وقال: يا بني، باب كنت أدقه منذ خمس وتسعين سنة، هوذا يفتح لي الساعة، لا أدري أبالسعادة أم بالشقاء، أنى لي أوان الجواب؟.

وقال: لا نوم أثقل من الغفلة، ولا رق أملك من الشهوة، ولو لا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة.

٣٣ ـ أحمد بن أبي الخواري

وهو: أبو الحسين ـ أحمد بن أبي الخواري (توفي ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م): من أهل دمشق، صحب أبا سليمان الداراني وغيره.

وكان الجنيد يقول: أحمد بن أبي الخواري ريحانة الشام.

وقال: من نظر إلى الدنيا نظرة حب وإرادة لها، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه.

وقال: من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله.

وقال: أفضل البكاء بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة.

وقال: ما ابتلى الله عبداً بشيء أشد من الغفلة والقسوة.

٣٤ - إبراهيم الخواص

وهو: أبو إسحاق - إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص (توفي ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م): من أقران الجنيد والنوري، وله في التوكل والرياضات حظ كبير، كان مبطوناً، وقد مات بالري.

قال: ليس العالم بكثرة الرواية، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم.

وقال: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن الكريم بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

٣٥ - عبد الرحمن الداراني

وهو: أبو سليمان - عبد الرحمن بن عطية الداراني (توفي ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م): من قرية (داران) إحدى قرى دمشق.

قال: من أحسن في نهاره كوفىء في ليله، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره. ومن ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت من أجله.

وقال: إذا سكنت الدنيا في القلب، رحلت منه الآخرة.

يقول الجنيد: قال أبو سليمان الداراني: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.

وقال: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

وقال: لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء.

وقال: لكل شيء صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن.

وقال: كل ما شغلك عن الله تعالى من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم.

قال أحمد بن أبي الخواري: دخلت على أبي سليمان يوماً وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك؟ فقال يا أحمد؟ ولم لا أبكي، وإذا جن الليل ونامت العيون، وخلا كل حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم،

وتقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه وتعالى. فنادى: يا جبريل: بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إلى ذكري، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم، فلم لا تنادي فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تملقوا لي في، حلفت أنهم إذا وردوا علي القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم، حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم.

وقال أبو سليمان: كنت في ليلة باردة في المحراب، فأقلقني البرد فخبأت إحدى يدي من البرد، وبقيت الأخرى ممدودة فغلبتني عيناي، فهتف بي هاتف يا أبا سليمان: قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها، فآليت على نفسي أن لا أدعو إلا ويداي خارجتان حراً كان الزمن أو برداً.

وقال أبو سليمان: نمت عن وردي، فإذا أنا بحوراء تقول لي: تنام وأنا أربى لك في الخدور خمس مائة عام.

٣٦ - محمد الدقي

وهو: أبو بكر - محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي (توفي بعد ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م): أقام بالشام، وعاش أكثر من مائة سنة، صحب أحمد بن الجلاء والزقاق.

قال: المعدة موضع يجمع الأطعمة، فإذا طرحت فيها الحلال، صدرت الأعضاء بالأعمال الصالحة، وإذا طرحت فيها الشبهة إشتبه عليك الطريق الى الله تعالى، وإذا طرحت فيها التبعات كان بينك وبين أمر الله حجاب.

٣٧ - أحمد الدينوري

وهو: أبو العباس - أحمد بن محمد الدينوري (توفي بعد ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م): صحب يوسف بن الحسين وابن عطاء والجريري. وكان عالماً فاضلاً. ورد نيسابور، وأقام بها مدة، وكان يعظ الناس، ويتكلم على لسان المعرفة. ثم ذهب الى سمرقند ومات بها.

قال: أدنى الذكر أن تنسى ما دونه، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر.

وقال: لسان الظاهر لا يغير حكم الباطن.

وقال: لقد نقضوا أركان التصوف، وهدموا سبيله، وغيروا معانيه بأسماء أحدثوها، فقد سموا الطمع زيادة، وسوء الأدب إخلاصاً، والخروج عن الحق شطحاً، والتلذذ بالمذموم طيبة، واتباع الهوى ابتلاء، والرجوع إلى الدنيا وصولاً، وسوء الخلق صولة، والبخل جلادة، والسؤال عملاً، وبذاءة اللسان ملامة.. وما كان هذا طريق القوم.

٣٨ - ممشاد الدينوري

ممشاد الدينوري (توفي ٢٩٩ هـ/ ٩١١ م) من كبار مشايخهم.

قال: أدب المريد في التزام حرمات المشايخ، وخدمة الإخوان، والخروج عن الأسباب، وحفظ آداب الشرع.

وقال ممشاد: ما دخلت قط على أحد من شيوخي إلا وأنا خال من جميع ما هو لي، أنتظر بركات ما يرد علي من رؤيته وكلامه، فإن من دخل على شيخ بحظه انقطع عن بركات رؤيته ومجالسته وكلامه.

٣٩ - عبد الله الرازي

وهو: أبو محمد - عبد الله الرازي (توفي ٣٥٣ هـ/ ٩٦٤ م): مولده ومنشؤه بنيسابور، صحب أبا عثمان الحيري والجنيد ويوسف بن الحسين ورويماً وسمنوناً وغيرهم.

وسئل: ما بال الناس يعرفون عيوبهم ولا يرجعون إلى الصواب؟ فقال: لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ولم يشتغلوا باستعماله، واشتغلوا بالظواهر، ولم يشتغلوا بآداب البواطن، فأعمى الله تعالى قلوبهم، وقيد جوارحهم عن العبادات.

٤٠ - يحيى بن معاذ الرازي

وهو: أبو زكريا - يحيى بن معاذ الرازي الواعظ: (توفي ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م): فريد عصره. له لسان في الرجاء وكلام في المعرفة خرج إلى بلخ، وأقام فيها مدة. ثم رجع إلى نيسابور.

قال: كيف يكون زاهداً من لا ورع له. تورّع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك.

وقال: جوع التوابين تجربة، وجوع الزاهدين سياسة، وجوع الصديقين تكرمة.

وقال: الفوت أشد من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق.

وقال: الزهد ثلاثة أشياء: القلة والخلوة والجوع.

وقال: لا تربح على نفسك بشيء أجل من أن تشغلها في كل وقت بما هو أولى بها.

وقال: من خان الله في السر، هتك الله ستره في العلانية.

وقال: تزكية الأشرار لك هجنة بك، وحبهم لك عيب، وهان عليك من احتاج إليك.

٤١ - يوسف بن الحسين الرازي

وهو: أبو يعقوب - يوسف بن الحسين الرازي (توفي ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م): كان شيخ الري والجبال في وقته، وكان نسيج وحده في إسقاط التصنع، وكان عالماً أديباً. صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي، ورافق أبا سعيد الخرّاز.

قال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحبّ إليّ من أن ألقاه بذرة من التصنع.

وقال: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص، فاعلم أنه لا يجيء منه شيء.

وقال: رأيت آفات الصوفية في صحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد، ومرافقة النساء.

وكتب إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك ، فإن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً .

٤٢ ـ إبراهيم الرقي

وهو: أبو إسحاق ـ إبراهيم بن داود الرقي (توفي ٣٢٦ هـ/ ٩٣٨ م): من كبار مشايخ الشام ، من أقران الجنيد وابن الجلاء .

قال المعرفة : إثبات الحق على ما هو ، خارجاً عن كل موهوم .

وقال : القدرة ظاهرة ، والأعين مفتوحة ، ولكن أنوار البصائر قد ضعفت .

وقال : أضعف الخلق من ضعف عن ردّ شهواته ، وأقوى الخلق من قوي على ردّها .

وقال : علامة محبة الله تعالى إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ .

٤٣ ـ أحمد بن عطاء الروذباري

وهو: أبو عبد الله ـ أحمد بن عطاء الروذباري (توفي ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م): شيخ الشام في وقته ، مات في صور(١) وهو ابن أخت الشيخ أبو علي محمد الروذباري .

يقول علي بن سعيد المصيصي : سمعت أحمد بن عطاء الروذباري يقول : كنت راكباً جملاً ، فغاصت رجلا الجمل في الرمل ، فقلت : جل الله ، فقال الجمل : جل الله .

وقيل : كان أبو عبد الله الروذباري يمشي على أثر الفقراء . يوماً ، وكذا كانت عادته أن يمشي على أثرهم ، وكانوا يمضون الى دعوة ، فقال إنسان : هؤلاء المستحلون وتكلم عليهم ، وقال أثناء كلامه : إن واحداً منهم قد استقرض مني مائة درهم ولم يردّها ولست أدري أين أطلبه ، فلما دخلوا دار الدعوة

(١) صور : قضاء في لبنان محافظة الجنوب . وهو مدينة ساحلية ومرفأ على البحر المتوسط ، من عواصم الفينيقيين . يرقى تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد . استولى عليها الصليبيون ١١٢٤ م ، واستردها العرب ١٢٩١ م .

قال أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري لصاحب الدار، وكان من محبي هذه الطائفة: إئتني بمائة درهم إن أردت سكون قلبي، فأتاه بها في الوقت، فقال لبعض أصحابه: إحمل هذه المائة الى البقال الفلاني، وقل له: هذه المائة التي استقرضها منك بعض أصحابنا، وقد وقع له في التأخير بها عذر، وقد بعثها الآن فاقبل عذره، فمضى الرجل وفعل، فلما رجعوا من الدعوة مرّوا بحانوت البقال، فأخذ البقال في مدحهم يقول: هؤلاء هم الثقاة الأمناء الصلحاء.

وقال: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح.

٤٤ ـ أحمد بن محمد الروذباري

وهو: أبو علي ـ أحمد بن محمد الروذباري (توفي ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م): بغدادي أقام بمصر ومات فيها. صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء والطبقة، وكان أعلم المشايخ في الطريقة.

وسئل أبو علي عن من يستمع للملاهي ويقول: هي لي حلال لأني وصلت إلى درجة لا تؤثر فيّ اختلافات الأحوال، فقال: نعم، قد وصل ولكن إلى سقر.

وسئل عن التصوف فقال: هذا مذهب كله جد، فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

وقال: من علامة الإغترار، أن تسيء فيحسن الله إليك، فتترك التوبة والإنابة توهماً أنك تسامح في الهفوات، وترى أن ذلك من بسط الحق لك.

وقال: كان أستاذي في التصوف الجنيد، وفي الفقه أبو العباس بن شريح، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث إبراهيم الحربي.

٤٥ ـ محمد الزجاجي

وهو: أبو عمرو ـ محمد بن إبراهيم الزجاجي النيسابوري (توفي ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩ م): جاور بمكة المكرمة سنين كثيرة، ومات فيها. صحب الجنيد [illegible] والنوري والخواص ورويماً.

وسُئل أبو عمرو: ما بالك تتغير عند التكبيرة الأولى في الفرائض؟ فقال: لأني أخشى أن أفتتح فريضتي بخلاف الصدق، فمن يقول: الله أكبر، وفي قلبه شيء أكبر منه، أو كبر شيئاً سواه على مرور الأوقات، فقد كذب نفسه على لسانه.

وقال: من تكلم عن حال لم يصل إليه، كان كلامه فتنة لمن يسمعه، ودعوى تتولد في قلبه، وحرمه الله تعالى من الوصول إلى تلك الحال. وقد جاور بمكة سنين كثيرة ولم يتطهر في الحرم، بل كان يخرج إلى الحِل ويتطهر فيه احتراماً للحرم.

٤٦ - أبو بكر الزقاق

وهو أبو بكر - أحمد بن نصر الزقاق الكبير: كان من أقران الجنيد ومن أكابر مصر.

يقول الكتاني: لما مات أبو بكر الزقاق، انقطعت حجة الفقراء في دخولهم مصر.

قال: من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام المحض.

قال: تهت في تيه بني إسرائيل خمسة عشر يوماً، فلما وقعت على الطريق، استقبلني جندي فسقاني شربة من ماء، فعادت قسوتها على قلبي ثلاثين سنة.

٤٧ - سري السقطي

وهو: أبو الحسن - سري بن المغلس[1] السقطي (توفي ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م): خال الجنيد وأستاذه، وتلميذ معروف الكرخي. وكان وحيد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد.

قال العباس بن مسروق: بلغني أن السري كان يتجر في السوق، وهو من أصحاب معروف الكرخي، فجاءه معروف يوماً ومعه صبي يتيم، فقال له: اكس هذا اليتيم، قال السري: فكسوته، ففرح به معروف وقال: بغض الله إليك الدنيا

---

(١) لُقب بذلك لأنه كان ملازماً بيته، لا يخرج منه إلا للجمعة والجماعة، ولا يُرى في غيرهما.

وأراحك مما أنت فيه، فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إليّ من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

يقول الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة، ما رؤي مضطجعاً(١) إلا في علة الموت.

ويروى عن السري أنه قال: المتصوف اسم لثلاث معان: هو الذي لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى.

قال الجنيد: سألني السري يوماً عن المحبة فقلت: قال قوم: هي الموافقة، وقال قوم: الإيثار، وقال قوم: كذا وكذا، فأخذ السري جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد ثم قال: وعزته تعالى لو قلت: إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت، ثم غشي عليه فدار وجهه كأنه قمر مشرق.

وقال: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله مرة، وقيل: وكيف ذلك؟ قال: وقع حريق ببغداد، فاستقبلني رجل، فقال لي: نجا حانوتك فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين.

ويروى عن السري أنه قال: إنني أنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرة، مخافة أن يكون قد أسود، وخوفاً من الله أن يسود صورتي لما أفعله، وقال الجنيد: سمعت السري يقول: أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة، فقلت: وما هو؟ فقال: لا تسأل من أحد شيئاً، ولا تأخذ من أحد شيئاً، ولا يكن معك شيء تعطي منه أحداً.

وقال الجنيد: دخلت على السري السقطي وهو يبكي، فقلت له: وما يبكيك؟ فقال: جاءتني البارحة الصبية فقالت: يا أبتي هذه ليلة حارة وهذا الكوز أعلقه ههنا، ثم إنه غلبتني عيناي فنمت، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من

(١) في ذلك إشارة إلى كمال مجاهدته، وملازمته الإقبال على الله تعالى، بالقلب والجوارح.

السماء ، فقلت : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان ، فتناولت الكوز فضربت به الأرض فكسرته ، قال الجنيد : فرأيت الخزف لم يرفعه حتى عفا عليه التراب .

وقال: أشتهي أن أموت ببلدٍ غير بغداد فقيل له: ولِمَ ذلك؟ فقال: أخاف أن لا يقبلني قبري فأفتضح .

٤٨ - أبو العباس السيّاري

وهو: أبو العباس - القاسم بن القاسم السياري[1] (توفي ٣٤٢ هـ/٩٥٣ م): من مرو، صحب الواسطي ، وانتمى إليه في علوم هذه الطائفة وكان عالماً .

وسئل: بماذا يروض المريد نفسه؟ فقال: بالصبر على فعل الأوامر، واجتناب النواهي ، وصحبة الصالحين، وخدمة الفقراء.

وقال : ما التذ عاقل بمشاهدة الحق قط ، لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة [2] .

٤٩ - دلف الشبلي

وهو: أبو بكر - دلف بن جحدر الشبلي (٢٤٧ - ٣٣٤ هـ/ ٨٦١ - ٩٤٦ م): بغدادي المولد والمنشأ، وأصله من أسروشنه[3] . صحب الجنيد ومن في عصره من العلماء. وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً . مالكيّ المذهب ، وقبره ببغداد . وكان يقول في آخر أيامه :

---

(١) السياري : نسبة إلى جده (سيّار) .

(٢) قالوا عن الفناء :

فناء في الأفعال : فلا فاعل إلا الله تعالى .

وفناء في الصفات: فلا حي ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير إلا الله تعالى .

وفناء في الذات : فلا موجود على الإطلاق إلا الله تعالى . وأنشدوا :

فنيفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء

(٣) أسروشنه: مدينة تقع ما وراء النهر.

وكم من موضع لو مت فيه لكنت به نكالاً في العشيره

ولما تاب الشبلي في مجلس خير النساج أتى دماوند وقال: كنت والي بلدكم فاجعلوني في حل. وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحد، سمعت أبا علي الدقاق يقول: بلغني أنه اكتحل بكذا وكذا من الملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم.

وكان إذا حل شهر رمضان المبارك جدّ في الطاعات فوق جدّ من عاصره وقال: هذا شهر عظّمه ربي، فأنا أول من يعظّمه من الناس.

٥٠ - بندار الشيرازي

وهو: أبو الحسين - بندار بن الحسين الشيرازي (توفي ٣٥٣ هـ/ ٩٦٤ م): كان عالماً في الأصول، كبير الحال، صحب دلف الشبلي مات بأرجان[1].

قال: لا تخاصم لنفسك[2] فإنها ليست لك، دعها لمالكها يفعل بها ما يريد.

وقال: صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق.

وقال: اترك ما تهوى، لما تأمل.

٥١ - محمد بن خفيف الشيرازي

وهو: أبو عبد الله - محمد بن خفيف الشيرازي (٢٧٦ - ٣٧١ هـ/ ٨٩٠ - ٩٨٢ م): صحب رويماً والجريري وأحمد بن عطاء وغيرهم. كان شيخ الشيوخ وواحد زمانه.

قال: الإرادة استدامة الكد، وترك الراحة.

وقال: ليس شيء أضر على المريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات.

---

(١) أرجان: مدينة كبيرة في فارس، برية بحرية، سهلية جبلية، يسميها عامة العجم (أرغان). كانت في القرون الوسطى غنية بصناعة الحرير. تقع على الطريق بين شيراز والعراق.

(٢) لا تخاصم لنفسك: إشارة لترك الأخلاق الذميمة، لأن نفوسنا وما نملكه ملك لله تعالى.

وسُئل عن القُرب فقال: قربك منه تعالى بملازمة الموافقات، وقربه منك بدوام التوفيق.

دخل فقير على الشيخ أبي عبد الله بن خفيف فقال للشيخ: بي وسوسة فقال الشيخ عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم.

وقال أبو العباس الكرخي: سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول: ضعفت عن القيام في النوافل، فجعلت بدل كل ركعة من أورادي ركعتين قاعداً، للخبر صلاة القاعدة على النصف من صلاة القائم.

وقال: ربما كنت أقرأ في ابتداء أمري في ركعة واحدة عشرة آلاف مرة «قل هو الله أحدٌ»، وربما كنت أقرأ في ركعة واحدة القرآن كله، وربما كنت أصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة.

٥٢ ـ أبو الحسن بن الصائغ

وهو: أبو الحسن ـ علي بن محمد بن سهل الدينوري ابن الصائغ (توفي ٣٣٠ هـ/٩٤٢ م): أقام بمصر، ومات فيها. وهو من كبار المشايخ

قال أبو عثمان المغربي: ما رأيت من المشايخ أكثر نوراً من أبي يعقوب النهرجوري، ولا أكثر هيبة من أبي الحسن بن الصائغ.

وسُئل عن الاستدلال بالشاهد على الغائب، فقال: كيف يُستدل بصفات من له مثل ونظير على من لامثل له ولا نظير.

وسئل عن صفة المريد، فقال: ما قال الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾(١).

وقال: الأحوال كالبروق، فإذا ثبتت فهي حديث النفس وملازمة الطبع.

(١) الآية: سورة التوبة ـ ١١٨.

٥٣ ـ داود الطائي

هو: أبو سليمان ـ داود بن نصير الطائي (توفي ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م): كان كبير الشأن وقد ورث عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: كان سبب زهد داود الطائي أنه: كان يمر ببغداد، فمرّ يوماً فنحّاه الناس عن الطريق بين يدي حميد الطوسي، فالتفت داود فرأى حميد فقال داود: أفٍ لدنيا سبقك بها حميد، ولزم البيت وأخذ في الجهد والعبادة.

وسمعت ببغداد بعض الفقراء يقول: إنّ سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول:

بأيّ خدّيك تبدى البلى وأيّ عينيك إذن سالا

وقيل كان سبب زهده، أنه كان يجالس أبا حنيفة رضي الله عنه، فقال له أبو حنيفة يوماً: يا أبا سليمان، أما الأداة فقد أحكمناها، فقال له داود: فأي شيءٍ بقي؟ فقال: العمل به، قال داود: فنازعتني نفسي إلى العزلة فقلت لنفسي: حتى تجالسهم ولا تتكلم في مسألة، قال: فجالستهم سنة لا أتكلم في مسألة، وكانت المسألة تمرّ بي وأنا إلى الكلام فيها أشدّ نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد، ثم صار أمره إلى ما صار.

وقيل: حجم جنيد الحجام داود الطائي فأعطاه ديناراً، فقيل له: هذا إسراف، فقال: لا عبادة لمن لا مروءة له.

وكان يقول في الليل: إلهي، همّك عطّل عليّ الهموم الدنيوية، وحال بيني وبين الرقاد. وقالت داية داود الطائي له أما تشتهي الخبز: فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ولما توفي داود رآه بعض الصالحين في المنام وهو يركض، فقال له: ما لك؟ فقال: الساعة تخلصت من السجن، فاستيقظ الرجل من نومه، فارتفع الصياح بقول الناس: مات داود الطائي.

وقال له رجل: أوصني، فقال: عسكر الموت ينتظرونك.

ودخل بعضهم عليه فرأى جرة ماء انبسطت عليها الشمس، فقال له: ألا

تحولها إلى الظل؟ فقال داود: حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحيي أن يراني الله أمشي لما فيه حظ نفسي.

وقال أبو الربيع الواسطي: قلت لداود الطائي: أوصني، فقال: صم عن الدنيا(١) واجعل فطرك الموت، وفر من الناس كفرارك من الأسد.

٥٤ - أبو بكر الطمستاني

أبو بكر الطمستاني (توفي بعد ٣٤٠ هـ/٩٥١ م): صحب إبراهيم الدباغ وغيره. وكان أوحد زمانه علماً وحالاً. مات بنيسابور.

قال: النعمة العظمى هي الخروج من النفس، والنفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.

وقال: الطريق واضح، والكتاب والسنة قائمان بين أظهرنا، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة، فمن صحب منا الكتاب والسنة، وتغرب عن نفسه والخلق، وهاجر بقلبه إلى الله تعالى، فهو الصادق المصيب.

٥٥ - منصور بن عمّار

وهو: أبو السري منصور بن عمار: من أهل مرو، من قرية يقال لها: دندانقان(٢)، وقيل أنه من بوشنج وأقام بالبصرة، وكان من الواعظين الأكابر.

قال: من جزع من مصائب الدنيا(٣) تحولت مصيبته في دينه.

وقال: أحسن لباس العبد التواضع والانكسار، وأحسن لباس العارفين(٤) التقوى، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٥).

---

(١) صم عن الدنيا بزهدك فيها، وإمساكك عن نعيمها.

(٢) دندانقان: بلدة في نواحي مرو الشاهجان، بين سرخس ومرو.

(٣) مصائب الدنيا: هي الآلام والأسقام وهلاك المال والولد وغيرها.

(٤) العارفون: أي الذين [illegible] عليهم أحوالهم بدوام نظرهم لمولاهم.

(٥) الآية ٢٦ سورة الأعراف.

وقيل : سبب توبته أنه وجد في الطريق رقعة مكتوباً عليها بسم الله الرحمن الرحيم فرفعها، فلم يجد لها موضعاً فأكلها، فرأى في المنام كأن قائلاً قال له : فتح الله عليك باب الحكمة باحترامك تلك الرقعة.

قال أبو الحسن الشعراني: رأيت منصور بن عمار في المنام، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: قال لي: أأنت منصور بن عمار؟ فقلت: بلى يا رب، قال: أنت الذي كنت تزهد الناس في الدنيا وترغب فيها؟ قلت: قد كان ذلك يا رب ولكني ما اتخذت مجلساً إلا بدأت بالثناء عليك، وثنيت بالصلاة على نبيك ﷺ، وثلثت بالنصيحة لعبادك، فقال: صدق، ضعوا له كرسياً يمجدني في سمائي بين ملائكتي، كما كان يمجدني في أرضي بين عبادي.

٥٦ ـ الفضيل بن عياض

وهو: أبو علي ـ الفضيل بن عياض (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ/٧٢٣ ـ ٨٠٣ م): من ناحية مرو. وقيل: إنه ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد(١)، ومات بمكة المكرمة في شهر المحرم.

قال الفضيل بن موسى: كان الفضيل شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها، سمع قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾(٢)، فقال: يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيهم رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمنهم، وجاور الحرم حتى مات.

وقال: إذا أحب الله تعالى عبداً أكثر غمه، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه.

قال ابن المبارك: إذا مات الفضيل ارتفع الحزن.

---

(١) أبيورد: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا. فتحت عام ٣١ هـ على يد الأحنف بن قيس التميمي.

(٢) الآية: سورة الحديد ـ ١٦.

وقال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت عليّ ولا أحاسب بها، لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه.

وقال: لو حلفتُ أني مُراءٍ، أحبّ إليّ من أن أحلف أني لستُ بمراءٍ.

وقال: ترك العمل لأجل الناس هو الرياء، والعمل لأجل الناس هو الشرك.

وقال أبو علي الرازي: صحبتُ الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك، فقال: إن الله أحبّ أمراً فأحببت ذلك.

٥٧ - إبراهيم القرمسيني

وهو: أبو إسحاق - إبراهيم بن شيبان القرمسيني: شيخ وقته، صحب أبا عبد الله المغربي والخواص وغيرهما.

وقال: من أراد أن يتعطل، أو يتبطل فليلزم الرُّخَص وقال: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة وقال: السفلة(١) من يعصون الله عز وجل (ولم يتوبوا).

٥٨ - مظفر القرمسيني

مظفر القرمسيني: من شيوخ الجبل، صحب عبد الله الخرّاز وغيره.

وقال: الصوم على ثلاثة أوجه: صوم الروح بقصر الأمل، وصوم العقل بمخالفة الهوى، وصوم النفس بالإمساك عن الطعام والمحارم.

وقال: الجوع إذا ساعدته القناعة فهو مزرعة الفكر، وينبوع الحكمة، وحياة الفطنة، ومصباح القلب.

وقال: أفضل أعمال العباد، حفظ أوقاتهم الحاضرة، وهو أن لا يقصروا في أمر، ولا يتجاوزوا عن حد.

(١) السفلة: أراذل الناس

٥٩ ـ حمدون القصار

وهو: أبو صالح ـ حمدون بن أحمد بن عمارة القصار (توفي ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م): نيسابوري، انتشر عنه مذهب الملامتية[1] بنيسابور، صحب سلمان الباروسي وأبا تراب النخشبي.

وسئل: متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس؟ فقال: إذا تعيّن عليه أداء فرض مّن فرائض الله تعالى في علمه، أو خاف هلاك إنسان في بدعة، وهو يرجو أن ينجيه الله تعالى منها.

وقال: من ظن أنّ نفسه خير من نفس فرعون، فقد أظهر الكبر.

وقال عبد الله بن منازل: قلت لأبي صالح: أوصِني، فقال: إن استطعت أن لا تغضب لشيءٍ من الدنيا فافعَلْ.

ومات صديق له وهو عند رأسه، فلما مات أطفأ حمدون السراج، فقالوا له: في مثل هذا الوقت يزاد في السراج الدهن، فقال لهم: إلى هذا الوقت كان الدهن له، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة.

وقال حمدون: من نظر في سير السَلَف، عرف تقصيره وتخلّفه عن إدراك درجات الرجال.

وقال: لا تُفش على أحد ما تحبّ أن يكون مستوراً منك.

٦٠ ـ أبو علي بن الكاتب

وهو: أبو علي ـ الحسن بن أحمد بن الكاتب (توفي بعد ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م): صحب أبا علي الروذباري وأبا بكر المصري وغيرهما كان كبيراً في حاله.

قال: إذا سكن الخوف في القلب، لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه.

وقال: لقد نزّه المعتزلة الله تعالى من حيث العقل فأخطأوا، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا.

(١) الملامتيّة: من مذاهب الصوفية. سئل عنه حمدون فقال: هو خوف القدرية ورجاء المرجئة

٦١ ـ محمد الكتاني

وهو: أبو بكر ـ محمد بن علي الكتاني (توفي ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م): بغدادي الأصل، صحب الجنيد والخراز والنوري. وجاور بمكة المكرمة إلى أن مات.

ونظر الكتاني إلى شيخ أبيض الرأس واللحية، يسأل الناس، فقال: هذا رجل أضاع حق الله تعالى في صغره، فضيعه الله تعالى في كبره.

وقال: الشهوة زمام الشيطان، من أخذ بزمامه كان عبده.

٦٢ ـ معروف الكرخي

وهو: أبو محفوظ ـ معروف بن فيروز الكرخي(١) (توفي ٢٠٠ هـ/٨١٥ م): من كبار المشايخ، مجاب الدعوة، يستشفى بقبره، يقول البغداديون: قبر معروف ترياق مجرّب، وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنه، وكان أستاذ سري السقطي.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: كان معروف الكرخي من أبوين نصرانيين، فسلموا معروفاً إلى مؤدب وهو صبيّ، فكان المؤدب يقول له: قل ثالث ثلاثة: فيقول: بل هو واحد، فضربه المعلم يوماً ضرباً مبرحاً، فهرب معروف، فكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أيّ دين يشاء فنوافقه عليه. ثم إنه أسلم على يدي علي بن موسى الرضا، ورجع إلى منزله، ودق الباب فقيل له: من بالباب؟ فقال: معروف. فقالوا: على أيّ دين جئت؟ فقال: على الدين الحنيفي، فأسلم أبواه.

ورأى سري السقطي معروفاً الكرخي في النوم كأنه تحت العرش، فيقول الله عز وجل لملائكته: من هذا؟ فيقولون: أنت أعلم به يا رب. فيقول: هذا معروف الكرخي، سكر من حبي فلا يفيق إلّا بلقائي.

وقال معروف: قال لي بعض أصحاب داود الطائي: إياك أن تترك العمل، فإن

(١) الكرخي: نسبة إلى الكرخ: والكرخ حي من أحياء بغداد في غربي المدينة، اشتهر بالوقائع الدامية، أيام بني بويه.

ذلك هو الذي يقرّبك إلى رضا مولاك. فقلت: وما ذلك العمل؟ فقال: دوام طاعة ربك، وخدمة المسلمين، والنصيحة لهم قال محمد بن الحسين: سمعت أبي يقول: رأيت معروفاً الكرخي في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقلت: بزهدك وورعك؟ فقال: لا ولكن بقبولي موعظة ابن السماك ولزوم الفقر ومحبتي للفقراء، وموعظة ابن السماك هي كما قال السري السقطي، سمعت معروفاً يقول: كنت ماراً بالكوفة، فوقفت على رجل يقال له ابن السمّاك وهو يعظ الناس، فقال من خلال كلامه: من أعرض عن الله بكليته، أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله بقلبه، أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة، فالله يرحمه وقتاً ما، فوقع كلامه في قلبي، فأقبلت على الله تعالى وتركت جميع ما كنت عليه، إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا، وذكرت هذا الكلام لمولاي فقال: يكفيك بهذا موعظة إن اتعظت. وقيل لمعروف في مرض موته: أوص. فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي، فإني أريد أن أخرج من الدنيا كما دخلتها عرياناً.

ومر معروف بسقاء يقول: رحم الله من يشرب، وكان معروف صائماً فتقدم وشرب، فقيل له: ألم تكن صائماً؟ فقال: بلى ولكني رجوت دعاءه.

٦٣ ـ شاه الكرماني

وهو: أبو الفوارس ـ شاه بن شجاع الكرماني (توفي قبل ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م): كان من أولاد الملوك، صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسري. وتلك الطبقة.

قال: علامة التقوى الورع، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات.

وكان يقول لأصحابه: اجتنبوا الكذب والخيانة والغيبة، ثم اصنعوا ما بدا لكم.

وقال: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعوّد نفسه أكل الحلال، لم تخطىء له فراسة.

٦٤ ـ الحارث المحاسبي

وهو: أبو عبد الله ـ الحارث بن أسد المحاسبي (توفي ٢٤٣هـ/٨٥٧م): لا نظير له في زمانه علماً وورعاً ومعاملةً وحالاً. بصريّ الأصل. مات ببغداد.

قيل: إنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً، وقيل: لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أنْ لا يأخذ من ميراثه شيئاً. وقال: صحت الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتوارث أهل[1] ملّتين شيء».

قال محمد بن مسروق: مات الحارث المحاسبي وهو محتاج إلى درهم، وخلف أبوه ضياعاً وعقاراً فلم يأخذ منه شيئاً.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: كان الحارث المحاسبي إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق فكان يمتنع منه.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: اقتدوا بخمسة من شيوخنا: الحارث المحاسبي، والجنيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق[1].

وقال: من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زيّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة.

ويروى عن الجنيد أنه قال: مرَّ بي يوماً الحارث المحاسبي، فرأيت فيه أثر الجوع، فقلت يا عم: تدخل الدار تتناول شيئاً؟ فقال: نعم فدخلت الدار وطلبت شيئاً أقدمه إليه، فكان في البيت شيء من طعام حمل إليه من عرس قوم، فقدمته إليه فأخذ لقمة وأدارها في فيه مرات، ثم إنه قام وألقاها في الدهليز وذهب، فلما رأيته بعد ذلك بأيام قلت له في ذلك فقال: إني كنت جائعاً وأردت أن أسرك بأكلي، ولكن بيني وبين الله سبحانه وتعالى علامة أنْ لا يسوغني طعاماً فيه شبهة، فلم يمكنّي

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم (٢٩١١) في الفرائض باب هل يرث المسلم الكافر، وإسناده حسن.

(٢) الجمع بين العلم والحقائق يعني الجمع بين الشريعة والحقيقة.

ابتلاعه، فمن أين لك ذلك الطعام؟ فقلت: إنه حمل إليّ من دار قريب لي من العرس، ثم قلت: تدخل اليوم؟ فقال: نعم فقدمت له كسرا يابسة كانت لنا، فأكل وقال: إذا قدمت إلى فقير شيئا فقدم إليه مثل هذا.

٦٥ - الجنيد بن محمد

وهو: أبو القاسم: الجنيد بن محمد (توفي ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م): سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند، ولد ونشأ في العراق(١)، كان أبوه يبيع الزجاج، ولذلك يقال له: القواريري، وكان فقيها على مذهب أبي ثور وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة. صحب خاله السري والحارث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب.

سئل الجنيد: من العارف؟ فقال: من نطق عن سرك وأنت ساكت.

وقال: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

يقول أبو علي الروذباري: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا(٢)، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) العراق: دولة عربية إسلامية في آسيا. يحدها شرقا إيران، وشمالا تركيا، وغربا سورية والأردن وجنوبا السعودية والكويت والخليج العربي.

(٢) لأن الزاني والسارق يعرفان معصيتهما فيرجوان التوبة بخلاف هذا لأنه يعتقد انه في ارفع المقامات وأحسن الأحوال فلا يرجع عنه.

وقال: لو أقبل صادق على الله تعالى ألف ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، كان ما فاته أكثر مما ناله.

وقال: من لم يحفظ القرآن الكريم، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وقيل للجنيد: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة، تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجة في داره.

ورؤي في يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: كان الجنيد يدخل حانوته كل يوم يسبل الستر ويصلي أربع مائة ركعة ثم يعود إلى بيته. وقال أبو بكر العطوي: كنت عند الجنيد حين مات، ختم القرآن الكريم ثم ابتدأ من البقرة وقرأ سبعين آية ثم مات رحمه الله.

٦٦ ـ عبد الله المرتعش

وهو: أبو محمد ـ عبد الله بن محمد المرتعش (توفي ٣٢٩ هـ/٩٤٠ م): نيسابوري من محلة الحيرة، وقيل: من ملقاباذ[١]. صحب أبا حفص وأبا عثمان ولقي الجنيد، وكان كبير الشأن، وكان يقيم في مسجد الشونيزية. وقد مات ببغداد.

قال: الإرادة حبس النفس عن مرادها، والإقبال على أوامر الله تعالى، والرضا بموارد القضاء عليه.

وقيل: إن فلاناً يمشي على الماء، فقال: من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي في الهواء[٢].

(١) ملقاباذ: مكان بنيسابور.

(٢) أي من خوارق العادات وهي لا تعد كرامة إلا إذا اقترنت بالاستقامة.

٦٧ ـ علي المزيّن

وهو: أبو الحسن ـ علي بن محمد المزيّن (توفي ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م): من بغداد، من أصحاب سهل بن عبد الله والجنيد والطبقة، مات بمكة المكرمة مجاوراً، وكان ورعاً كبيراً.

قال: الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب الأول، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة الأولى.

وسُئل عن التوحيد فقال: أن تعلم أنّ أوصافه تعالى بائنة لأوصاف خلقه. باينهم بصفاته قدماً، كما باينوه بصفاتهم حدثاً.

وقال: من لم يستغنِ بالله تعالى أحوجه الله تعالى إلى الخلقِ، ومن استغنى بالله تعالى أحوج الله تعالى إليه الخلق.

٦٨ ـ أحمد بن مسروق

وهو: أبو العباس ـ أحمد بن محمد بن مسروق (توفي ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م): من أهلِ طوس، سكن بغداد، وصحب الحارث المُحاسبي وسري السقطي. توفيّ في بغداد.

قال: من راقب الله تعالى في خطراتِ قلبه عصمه الله تعالى في حركات جوارحه.

وقال: تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى، وبه يصل العبد إلى محل حقيقة التقوى.

وقال: شجرةُ المعرفة تُسقى بماء الفِكرِ، وشجرة الغفلة تُسقى بماء الجهلِ، وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة، وشجرة المحبة تُسقى بماء الاتفاق والموافقة.

وقال: متى طمعت في المعرفة، ولم تحكم قبلها مدارج الإرادة فأنت في جهلٍ، ومتى طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة، فأنت في غفلة عما تطلب.

٦٩ ـ ذو النون المصري

وهو: أبو الفيض ـ ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري (توفي ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩م): كان أبوه نوبياً[1]، فائق الشأن وأوحد زمانه علماً وورعاً وحالاً وأدباً، سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل، ورده إلى مصر مكرماً. وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكي ويقول: «إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذي النون. وكان ذو النون رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة، وليس بأبيض اللحية.

وقال: مدار الكلام على أربع: حب الجليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل[2].

وقال: من علامات المحبّ لله عزّ وجلّ متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه.

وسئل عن السفلة، فقال: من لا يعرفون الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفونه.

وجاء المغربي إلى ذي النون فقال له: يا أبا الفيض ما كان سبب توبتك؟ قال: عجب لا تطيقه، قال: بمعبودك إلا أخبرتني، فقال ذو النون: أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى، فنمت في الطريق في بعض الصحاري ففتحت عيني فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض وخرجت منها سكرجتان إحداهما ذهب والأخرى فضة، وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا، فقلت: حسبي قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلني الله عزّ وجلّ.

وقال: لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاماً.

---

(١) النوبي: نسبة إلى النوبة. والنوبة بلاد في شرقي شمالي إفريقيا. حدودها القطر المصري والبحر الأحمر وصحراء ليبيا وبلاد الخرطوم. يتكلم سكانها بالعربية والنوبية.

(٢) أي لا يخلو كلامهم منها، لأنهم: إما أن يتكلموا في معرفة الله تعالى وكماله وجلاله. أو في تصغير الدنيا والإعراض عنها. أو فيما جاءت به الشرائع. أو فيما يخاف منه التغيير والتحويل بعد الاستقامة.

وسُئل عن التوبة، فقال: توبة العوام تكون من الذنوب، وتوبةُ الخواص تكون من الغفلة.

٧٠ - سعيد المغربي

وهو: أبو عثمان - سعيد بن سلام المغربي (توفي ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م): واحد زمانه لم يوصف قبله مثله، صَحِبَ ابنَ الكاتب وحبيب المغربي وأبا عمرو الزجاجي، ولقي النهرجوري وابن الصائغ وغيرهم. مات بنيسابور. وأوصى بأن يصلّي عليه أبو بكر بن فورك.

قال: التقوى هي الوقوف على الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها.

وقال: من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله تعالى بموت القلب.

٧١ - محمد المغربي

وهو: أبو عبد الله - محمد بن إسماعيل المغربي (توفي ٢٩٩ هـ/ ٩١١ م): أستاذ إبراهيم بن شيبان وتلميذ علي بن رزين. عاش مائة وعشرين سنة تقريباً، كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه يد بني آدم سنين كثيرة، وكان يأكل من أصول الحشائش أشياء تعود أكلها.

قال: أفضل الأعمال عمارة الأوقاف بالموافقات.

وقال: أعظم الناس ذلاً فقير داهن غنياً، أو تواضع له، وأعظم الخلق عزاً غني تذلل للفقراء وحفظ حرمتهم وكرامتهم.

٧٢ - عمرو المكي

وهو: أبو عبد الله - عمرو بن عثمان المكي (توفي ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م): لقي أبا عبد الله النباجي وصحب أبا سعيد الخرّاز وغيره، كان شيخ القوم وإمام الطائفة في الأصول والطريقة. مات ببغداد.

قال: كل ما تخيله قلبك أو سنح في مجاري فكرتك، أو خطر في معارضات

قلبك، من حسنٍ أو بهاءٍ أو أنسٍ أو جمالٍ أو ضياءٍ أو شبحٍ أو نورٍ أو شخصٍ أو خيالٍ؛ فالله تعالى بعيد من ذلك[1]، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[3].

وقال: العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حرون بين ذلك، جموح خداعة روّاغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، واسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد[4].

٧٣ - عبد الله بن منازل

وهو أبو محمد - عبد الله بن منازل (توفي ٣٢٩ هـ/ ٩٤١ م): شيخ الملامتيّة وأوحد وقته. صحب حمدون القصار، وكان عالماً وقد كتب الحديث الكثير. مات بنيسابور.

قال: لم يضيّع أحد فريضة من الفرائض إلاّ ابتلاه الله تعالى بتضييع السنن، ولم يضيّع أحد السنن إلاّ أوشك أن يُبتلى بالبَدع.

وقال: أفضل أوقاتك وقت تسلم فيه من هواجس نفسك، ووقت يسلم الناس فيه من سوء ظنك.

٧٤ - إسماعيل بن نجيد

وهو أبو عمرو - إسماعيل بن نجيد (توفي ٣٦٦ هـ/ ٩٧٧ م): صحب أبا عثمان ولقي الجنيد، وكان كبير الشأن، وهو آخر مَنْ مات من أصحاب أبي عثمان، توفي بمكة المكرمة.

قال: كل حال لا يكون عن نتيجة علم، فإنّ ضرره على صاحبه أكثر من نفعه.

(١) والله سبحانه وتعالى منزّه عن الشبيه والنظير.

(٢) الآية: سورة الشورى - ١١.

(٣) الآية: سورة الإخلاص - ٣ و ٤.

(٤) من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وقال: من ضيع في وقت من أوقاته فريضة افترضها الله عليه حرم لذة تلك الفريضة ولو بعد حين. وسئل عن التصوف فقال: الصبر تحت الأمر والنهي.

وقال: آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه.

٧٥ ـ عسكر النخشبي

وهو: أبو تراب ـ عسكر بن حصين النخشبي (توفي ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م): صحب حاتماً الأصم، وأبا حاتم العطار المصري. وقيل: مات بالبادية.

قال أحمد بن الجلاء: صحبت ست مائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم أبو تراب النخشبي.

وقال أبو تراب: الفقير قوته ما وجده، ولباسه ما ستره، ومسكنه حيث نزل.

وقال: إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، فإذا أخلص وجد حلاوته ولذته وقت مباشرة العمل.

وكان إذا رأى من أصحابه ما يكره زاد في اجتهاده، وجدد توبته، لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

وكان أبو تراب يقول: بيني وبين الله عهد أن لا أمد يدي إلى حرام إلا قصرت يدي عنه. ويقول: ما تمنت نفسي علي قط إلا مرة واحدة، تمنت خبزاً وبيضاً وأنا في سفري، فعدلت عن الطريق الى قرية، فوثب علي رجل وتعلق بي وقال: كان هذا مع اللصوص فألقوني أرضاً وضربوني سبعين عصاً، فوقف علينا رجل صوفي فصرخ وقال: ويحكم هذا أبو تراب النخشبي، فخلوني واعتذروا إلي، وأدخلني الرجل منزله وقدم إلي خبزاً وبيضاً، فقلت: كلها بعد سبعين جلدة. وروى ابن الجلاء قال: دخل أبو تراب النخشبي مكة (حرسها الله) طيب النفس فقلت: أين أكلت أيها الأستاذ فقال: أكلة بالبصرة، وأكلة بالنباج، وأكلة ههنا.

(١) الآية: سورة الرعد ـ ١١.

٧٦ - خير النسّاج

وهو: محمد بن إسماعيل من سامراء، وإنما سُمي خير النسّاج، لأنه خرج إلى الحج، فأخذه رجل على باب الكوفة، وقال له: أنت عبدي واسمك خير، وكان أسود فلم يخالفه، واستعمله الرجل في نسج الخز، ثم تركه الرجل وقال له: غلطت لست بعبدي ولا أنت خير، فقال لا أغير اسماً سمّاني به مسلم. وبقي الاسم معلقاً به.

صحب أبا حمزة البغدادي، ولقي السري، وكان من أقران النوري. وعاش كما قيل: مائة وعشرين سنة وتاب في مجلسه الشبلي والخواص، وكان أستاذ الجماعة.

قال خير النساج: الخوف سوط الله تعالى يقوّم به أنفساً قد تعوّدت سوء الأدب. قال أبو الحسين المالكي: سألت من حضر موت خير النساج عن أمره، فقال: لما حضرت موته عند صلاة المغرب، غشي عليه ثم فتح عينيه وأومأ في ناحية البيت وقال: قفْ فإنما أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وما أُمرت به لا يفوتك وما أُمرت به يفوتني، ودعا بماء فتوضأ للصلاة وصلى ثم تمدد وأغمض عينيه وتشهد ومات، فرؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال لسائله: لا تسألني عن هذا، ولكني استرحت من دنياكم الوضرة.

٧٧ - جعفر بن نصر

وهو: أبو محمد جعفر بن محمد بن نصر (٢٥٣ - ٣٤٨ هـ/ ٨٦٧ - ٩٥٩ م): وُلد ونشأ في بغداد. صحب الجنيد وانتمى إليه، وصحب النوري ورويماً وسُمنون والطبقة. ومات ببغداد.

قال: لا يجد العبد لذة المعاملة مع الله تعالى مع لذة النفس لأن أهل الحقائق قطعوا العلائق التي تقطعهم عن الحق قبل أن تقطعهم العلائق.

وقال: إنما بين العبد والوجود أن تسكن التقوى قلبه، فإذا سكنت التقوى قلبه نزلت عليه بركات العلم، وزالت عنه رغبة الدنيا.

٧٨ - إبراهيم النصر آباذي

وهو: أبو القاسم - إبراهيم بن محمد النصر آباذي (توفي ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م):

شيخ خراسان في وقته. صحب دلف الشبلي وأبا علي الروذباري والمرتعش، وجاور بمكة المكرمة حرسها الله تعالى، وكان عالماً بالحديث كثير الرواية.

وقال: إذا بدا لك شيء من بوادي الحق، فلا تلتفت معها إلى جنة أو نار، فإذا رجعت عن تلك الحال فعظم ما عظمه الله تعالى.

وقيل له: إنَّ بعض الناس يجالسون النساء، ويقولون: نحن معصومون في رؤيتهن، فقال: ما دامت الأشباح باقية، فإن الأمر والنهي باقٍ، والتحليل والتحريم مخاطبون به، ولنْ يجترىء على الشبهات إلاّ من تعرَّض للمحرمات.

قال: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع وتعظيم جرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق[1]، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

٧٩ - إسحاق النهرجوري

وهو: أبو يعقوب - إسحق بن محمد النهرجوري[2] (توفي ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م): صحب أبا عمرو المكي، وأبا يعقوب السوسي والجنيد وغيرهم. مات بمكة المكرمة مجاوراً.

قال: الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب هو التقوى، والناس سَفْر[3].

وقال النهرجوري: رأيت رجلاً في الطواف بعين واحدة يقول: أعوذ بك منك فقلت: ما هذا الدعاء؟ فقال: نظرت يوماً إلى شخص فاستحسنته، وإذا لطمة وقعت على بصري فسالت عيني، فسمعت هاتفاً يقول: لطمة بنظرة ولو زدت لزدناك.

وقال: أفضل الأحوال ما قارن العلم.

٨٠ - أحمد النوري

وهو: أبو الحسين - أحمد بن محمد النوري (توفي ٢٩٥ هـ/ ٩٠٨ م): ولد

(١) رؤية أعذار الخلق: أي قبولها منهم، لدلالتها على كمال المعرفة، بانفراد الحق بالأفعال.

(٢) النهرجوري نسبة إلى نهرجور، وهي قرية بالقرب من الأهواز.

(٣) سفر: أي مسافرون في المركب، وهذا من باب الاعتبار لأن الناس في الدنيا ليسوا مقيمين، فدنياهم ليست دار قرار.

ونشأ في بغداد، بغوي الأصل، صحب سري السقطي وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد رحمه الله، وكان كبير الشأن حسن المعاملة واللسان.

قال: التصوّف ترك كل حظ للنفس.

وقال: أعز الأشياء في زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة.

وقال: من رأيته يدَّعي مع الله تعالى حالة تخرجه عن حد العلم الشرعيّ فلا تقربنّ منه.

وقال الجنيد: منذ مات النوري لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد.

وقال أحمد المغازلي: ما رأيت أعبد من النوري، قيل: ولا الجنيد؛ قال: ولا الجنيد.

وقال النوري: كانت المراقع غطاء على الدر، فصارت اليوم مزابل على جيف. وقيل كان يخرج كل يوم من داره ويحمل الخبز معه، ثم يتصدق به في الطريق، ويدخل مسجداً يصلي فيه إلى قريب الظهر، ثم يخرج ويفتح باب حانوته ويصوم، فكان أهله يتوهمون أنه يأكل في السوق، وأهل السوق يتوهمون أنه يأكل في البيت، بقي على هذا في ابتدائه عشرين سنة.

٨١ - محمد الواسطي

وهو: أبو بكر - محمد بن موسى الواسطي (توفي ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م): خراساني الأصل من فرغانة، صحب الجنيد والنوري. كان عالماً كبيراً. وقد أقام بمرو.

قال: الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب.

وقال: إذا أراد الله تعالى هوان عبد، ألقاه إلى الإنتان والجيف، يعني: إلى صحبة الأحداث.

وقال: جعلوا سوء أدبهم إخلاصاً، وشره نفوسهم انبساطاً، ودناءة الهمم جلادة، فعموا عن الطريق، وسلكوا فيه المضيق، فلا حياة تنمو في شواهدهم، ولا عبادة تزكو في محاضرتهم، إن نطقوا فبالغضب، وإن خاطبوا فبالكبر، نجد توثب

﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾(١). ومر أبو بكر الواسطي يوم جمعة بباب حانوتي قاصداً إلى الجامع، فانقطع شسع نعله، فقال له الحانوتي أتأذن لي أن أصلح شسع نعلك؟ فقال أصلح فأصلحت شسعه ثم قال لي: اتدري لم انقطع شسع نعلي؟ فقلت: لا فقال: لأني ما اغتسلت للجمعة فقلت، له يا سيدي ههنا حمام تدخله؟ فقال: نعم فأدخلته الحمام فاغتسل.

٨٢ ـ محمد الورَّاق

وهو: أبو بكر ـ محمد بن عمر الوراق الترمذي: أقام ببلخ. وصحب أحمد بن خضرويه وغيره. له تصانيف في الرياضة.

قال: من أرضى الجوارح بالشهوات، غرس في قلبه شجر الندامات(٢).

وقال: لو قيل للطمع: من أبوك؟، قال: الشك في المقدور، ولو قيل: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل: ما غايتك؟ قال: الحرمان.

٨٣ ـ الحسين بن يزدانيار

وهو: أبو بكر ـ الحسين بن علي بن يزدانيار: من أرمينيا(٣)، له طريقة يختص بها في التصوف، وكان عالماً ورعاً.

قال: إياك أن تطمع في الأنس بالله تعالى وأنت تحب الأنس بالناس. وإياك أن تطمع في حب الله تعالى وأنت تحب الفضول. وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله تعالى وأنت تحب المنزلة عند الناس.

وبعد.

فهذه وصيتنا إلى المريدين، نسأل الله الكريم لهم التوفيق، وأن لا يجعلها

(١) الآية: سورة التوبة ـ ٣٠ وسورة المنافقون ـ ٤.

(١) لمخالفة ما يقرّبه لمولاه، فيشعر في الآخرة بأنه قصّر في دنياه.

(٢) أرمينيا: هي أنجاد وجبال في آسيا الصغرى، جنوبي القفقاز، بين أنجاد إيران شرقاً، والأناضول غرباً، وبين بحر قزوين ومسيل الفرات الأعلى.

وبالاً علينا، وقد أنجزنا إملاءَ هذه الرسالة في أوائل سنة ثمان وثلاثين وأربع مائة للهجرة (الموافق لعام ١٠٤٦ م).

نسأل الله الكريم أن لا يجعلها حجة علينا وبالاً، إن الفضل منه مألوف، وهو بالعفو موصوف، والحمد لله حق حمده، وصلواته وبركاته ورحمته على رسوله محمد النبي الأمي، وآله الطاهرين، وصحبه الكرام المنتخبين، وسلّم تسليماً دائماً كثيراً.

المسارد

مسرد الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

ذ

ر

ش

ص

ض

ط

هـ

و

ي

مسرد الأماكن والبلدان

ن

هـ

و

ي

مسرد الاتجاهات والطوائف

مسرد المراجع

١ ـ أحكام الدلالة على تحرير الرسالة . زكريا بن محمد الأنصاري .

٢ ـ أدب الأملاء والاستملاء . عبد الكريم التميمي السمعاني . تحقيق ماكس مايسفالر ، بيروت ١٩٨١ م .

٣ ـ الأعلام . خير الدين الزركلي . الطبعة السادسة . بيروت ١٩٨٤ م .

٤ ـ الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني . طبعة الساسي بمصر .

٥ ـ الأمالي . ابن صصري .

٦ ـ الإمام القشيري : سيرته ، آثاره ، مذهبه . الدكتور ابراهيم بسيوني . مصر ١٩٧٢ م .

٧ ـ إنباه الرواة على أنباء النحاة . علي بن يوسف القفطي . مصر ١٣٦٩ ـ ١٣٧٤ هـ .

٨ ـ الأنساب . عبد الكريم السمعاني . تحقيق عبد الفتاح الحلو . بيروت ١٩٨١ م .

٩ ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . اسماعيل بن محمد البابانى البغدادي . استانبول ١٩٤٧ م .

١٠ ـ البداية والنهاية في التاريخ . ابن كثير . الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

١١ ـ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار . نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف اللخمي الشطنوفي . القاهرة ١٩١٢ م .

١٠ ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول . منصور علي ناصف ١٣٥١ هـ .

١٣ ـ تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي . القاهرة وبغداد ١٩٣١ م .
١٤ ـ تاريخ الطبري . أبو جعفر الطبري . مصر ١٣٢٦ هـ .
١٥ ـ تبيين كذب المفتري . ابن عساكر . الطبعة الثانية . دمشق ١٣٩٩ هـ .
١٦ ـ تذكرة النوادر من المخطوطات العربية . رتبت وطبعت بأمر دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد ١٣٥٠ هـ.
١٧ ـ تراث الإنسانية . بأقلام نخبة من العلماء .
١٨ ـ الجامع الصحيح . محمد بن اسماعيل البخاري . القاهرة ١٣٨٧ هـ .
١٩ ـ الجامع الصغير من حديث البشير النذير . جلال الدين السيوطي . مصر ١٩٣٨ م .
٢٠ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . أبو نعيم الأصفهاني . القاهرة ١٩٣٨ م .
٢١ ـ دائرة المعارف الإسلامية . ترجمها عبد الحميد يونس وآخرون . مصر .
٢٢ ـ الدلالة على فوائد الرسالة . عبد المعطي اللخمي الاسكندري . مخطوط بمكتبة مراد ملا رقم ١٢٤١ تاريخ ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م .
٢٣ ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر . علي بن الحسن الباخرزي . حلب ١٣٤٩ هـ .
٢٤ ـ الرسائل القشيرية . عبد الكريم القشيري . حققها الدكتور (فير) محمد حسن . صيدا ـ لبنان .
٢٥ ـ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات . محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني . طُبع على الحجر ١٣٤٧ هـ.
٢٦ ـ سنن أبي داود . أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. مصر .
٢٧ ـ السنن الكبرى . أبو بكر أحمد البيهقي . حيدر آباد ١٣٤٤ هـ .
٢٨ ـ شرح القاموس المسمى تاج العروس . الزبيدي . القاهرة ١٣٠٧ هـ .
٢٩ ـ طبقات الشافعية . أبو بكر بن هداية الله الحسيني . بغداد .
٣٠ ـ طبقات الشافعية الكبرى . تاج الدين السبكي . مصر ١٣٢٤ هـ .
٣١ ـ طبقات المفسرين . السيوطي . ليدن ١٨٣٩ م .
٣٢ ـ فيض القدير ، وهو شرح على كتاب الجامع الصغير من أحاديث البشير

النذير . للحافظ جلال الدين السيوطي، محمد عبد الرؤوف المناوي . مصر ١٩٣٨ م .
٣٣ ـ القاموس المحيط . الفيروز أبادي . بيروت ١٩٨٦ م .
٣٤ ـ الكامل في التاريخ . ابن الأثير . بيروت ١٩٦٦ م .
٣٥ ـ الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة . عبد الله بن عدي الجرجاني .
٣٦ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر على ألسنة الناس . اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي . القاهرة ١٣٥١ هـ .
٣٧ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة وبكاتب جلبي . استانبول ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م .
٣٨ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال . علاء الدين علي الهندي . حيدر آباد ١٣١٣ هـ .
٣٩ ـ لسان العرب . ابن منظور . مصر ١٣٠٠ هـ .
٤٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . نور الدين بن أبي بكر الهيثمي . بيروت ١٩٦٧ م .
٤١ ـ مخطوطات دار الكتب الظاهرية . الجزء الأول ـ التصوف . محمد رياض المالح . دمشق ١٩٧٨ م .
٤٢ ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث . الحاكم النيسابوري . حيدر آباد ١٣٤٢ هـ .
٤٣ ـ المسند . الإمام أحمد بن حنبل . مصر ١٩٥٢ م .
٤٤ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة . طاش كبري زاده . حيدر آباد ١٣٢٩ هـ .
٤٥ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة . شمس الدين السخاوي . مصر ١٩٥٦ م .
٤٦ ـ معجم البلدان . ياقوت الحموي . بيروت ١٩٥٧ م .
٤٧ ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة . عمر رضا كحالة . دمشق ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .

٤٨ ـ المعجم الكبير . سليمان بن أحمد الطبراني . تحقيق حمدي السلفي . بغداد ١٩٧٩ م .
٤٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة ١٣٧٨ هـ .
٥٠ ـ معجم المؤلفين . عمر رضا كحالة . دمشق ١٩٦٠ م .
٥١ ـ الموسوعة العربية الميسّرة . مجموعة من المؤلفين . بيروت ١٩٨١ م .
٥٢ ـ الموطأ . مالك بن أنس الأصبحي . مصر ١٣٢٠ هـ .
٥٣ ـ نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية . مصطفى العروسي . بولاق مصر ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٢ م .
٥٤ ـ نهاية الأدب في فنون الأدب . النويري . مصر ١٩٥٥ م .
٥٥ ـ نوادر الأصول الملقب بسلوة العارفين وبستان الموحدين في معرفة أخبار الرسول . محمد بن علي الترمذي . القسطنطينية ١٢٩٤ هـ .
٥٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ابن خلكان . حققه الدكتور إحسان عباس . بيروت ١٩٦٨ م .

مسرد المواضيع